@ketab_n
Follow Me
24.7.2015

طارق بكاري

نوميديا

رواية

دار الآداب

طارق بكاري

نوميـــــــديا

رواية

دار الآداب - بيروت

Twitter: @ketab_n

نوميديا

Twitter: @ketab_n

نوميديا

طارق بكاري / روائي مغربيّ
الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-481-2
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Twitter: @ketab_n

«لكن ماذا عن نوميديا؟

كان هذا السؤال يحفرُ خنادق في القلب.. حين ناولني الطبيب النفسي ذلك المحلول، قال لي إنّ ما في تلك الزجاجة كفيلٌ بتحريض ذكرياته عليه إلى درجة تجعله يبوح بكلِّ شيء، وأضاف كذلك أنّ الأمر سيكون تحت تأثير هلوسات كثيرة! ترى هل كانت نوميديا إحدى هلوساته أم أنّها كانت حقيقيّة من لحم ودم؟ لستُ أدري. كلُّ ما أعرفه، أنَّ مراد كانَ مفتتنًا بها إلى درجة أنّه كان يهذي باسمها كلَّما نام، بل وأثناء يقظته، كان لا ينفكُّ يصرخ باسمها. كان عاشقًا حقيقيًّا، لذلك لم يكن أمرًا ذا قيمة إن كانت محضَ وهم أو كانت حقيقيّة، لكنّني أعتقد في المقابل أنّ هذا الحبّ الطارئ، الذي ربّما افتعله لاوعيه، كان إيجابيًّا بالنسبة له بالقدر الذي كان فيه سلبيًّا بالنسبة لي.. نوميديا كانت أملاً كاذبًا منحه تعلُّقًا موقّتًا بالحياة، لكنّه أمل حاسمٌ في تلك المرحلة، إذ لولاه لانكسر مراد ونزف حياته كلّها أمامي.. وقتها، لم يكن الكمُّ الهائل من الأوراق التي جمعتها والتي

Twitter: @ketab_n

تتعلّق طبعًا به، قلتُ، لم تكن أمرًا ذا شأن مضاهاة بكلمة أو كلمتين يعلّق بهما مراد عن حياته. . لو فعل، كنتُ على الأقلّ سأخرج بثلث انتصار وثلثي خيبة، لكنَّ نوميديا هذه كانت ملاك الرحمة. وإذا كان غموض مراد هو الذي يمنحه قوّة تُخضع جميع النساء، فإنَّ ما يفسّر ضعفه وانخذاله أمام نوميديا هو أمر واحد، أنّه اعترف لها بكلٍّ شيء.

نوميديا، هذا الطيف الساحر هو الرابح الأكبر! فما كانت محاولاتي لاستدراجه إلى البوح، ولا تلك الحقن التي زرعت الجنون في دمه، سوى إعداد لانتصار سأقدّمه لنوميديا على طبق من ذهب. نعم صار لزامًا أن أعترف أنَّ هذه الحسناء، التي أنجبها خياله أو التقاها فعلاً، هزمتني، لا لأنّها أجمل أو أذكى بل لأنّها جاءت في الوقت المناسب، في الوقت الذي هيّأتُ مراد للضعف الشامل، ومن دون أن تترك لي أيّة فرصة للإجهاز عليه، فعلتْ ذلك دون تردّد.

كانت نوميديا غيمة كاذبة، لكنّها مهما كانت مزيّفة، فقد أنقذته منّي وأفقدتني في المقابل كلَّ شيء. نوميديا سراب مراد، وقد لحق بها وطاردها منتعلاً قلبه، وفي كلِّ خطوة يتقدّمها صوبها، كانت تبتعد عنه وكان يبتعد عنّي. وفي اللحظة التي اعتقدتُ أنّني سأتوّجُ كلَّ تلك العذابات بضربة حاسمة، انبلجتْ نوميديا من أشجار هذه القرية الغريبة أو من جبالها أو من خياله لتخرّب كلَّ شيء. لكن، وبعد ما مرَّ، ما مرَّ من السنين وتغيّرتْ أشياء كثيرة، لو تصادف وصادفتُ نوميديا ـ وهذا ضرب من المستحيل طبعًا ـ فلا شكّ أنّني سأشكرها، لأنّها تقاسمتْ معي مسؤوليّة قتل مراد. .»

عن مسوّدات رواية «مراد الوعل» لجوليا (ك)

Twitter: @ketab_n

الفصل الأوّل

مرايا الذاكرة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«المغزى من هذا كلّه أنّه لا أحد اليوم من الرجال الأذكياء يريد أن يكتب عن نفسه جملة واحدة صادقة، اللهم إلّا إذا كان من صنف الجسورين المجانين»

نيتشه

«وسألتُ الربّ دون خوف. . عمّا إذا كان يعتقد أنّ البشر مصنوعون من حديد ليتحمّلوا كلَّ هذه الآلام والعذابات»

غ. غ. ماركيز

«أشُمُّكِ في عناقِ الأخرياتِ. . .
كأنَّكِ ما رحلْتِ
تركتِ العطرَ، عطركِ في حياتي.

Twitter: @ketab_n

أشمُّكِ في خياناتِي لكِ

فتزْكمُني الرَّوائحْ

أشمُّ ـ إذا عانقتُ غيركِ ـ عطركِ

فأوقنُ أنَّني انخذلتُ

وأنَّ غرامكِ رابحْ»

مراد الوعل

Twitter: @ketab_n

(١)

كنت أعلم أنّني أقترف بعودتي المجنونة إلى هذه القرية خطأً فادحًا، وأنّ هذه العودة لا بدّ أن تحرّك بسخط كلّ ذكرياتي الراسبة. أعود إلى إغرم مضرّجًا بأوجاع جديدة، أعود لأوقظ تعبًا قد خلته إلى وقت قريب قد انطفأ نهائيًّا... في إغرم ـ هذه القرية الغريبة والجميلة ـ سيشتعل فتيل الذاكرة، وسيحترق ذلك الحبل النحيل شيئًا فشيئًا، وستنتهي ناره إلى الحزام الناسف الذي يطوّق القلب المتعب.

ها أنذا أعود إليك يا إغرم، وأدفع أمامي كرسيًّا متحرّكًا يقلُّ قلبي المعطوب. لم أكبر كثيرًا، لا يزالُ أوداد الطفل داخلي. فلا تأبهي بجسدي، لأنّه مثل الزهر ومثل الشجر موقّتٌ وقابل للانجراف. أعود إليك سيِّدتِي، لا لأبحثَ في حفريّات طفولتي عن شيء ذي معنى، ولا لأستنطقَ خياناتِ المكان، كلّ ما في الأمر أنّي عدتُ إليك بعد نصيحة الطبيب النفسي، عدتُ لأرتاح من قائمة أوجاعي الثقيلة، وبالطبع عدت لأنّني تهوّرتِ ذات مساء وبحثتُ في شبكة الإنترنيت عن قريةٍ معلّقة بين الجبال اسمها إغرم، فلم تطالعني سوى صورة فندق جميل

Twitter: @ketab_n

بُني حديثًا فيك، وكان معروضًا للبيع في مزاد علنيّ...

هرول عقلي يومها بعيدًا عنّي ولفَّ نفسه في ملاءة ونام، وجرَّني قلبي من أذنيَّ إلى هنا، حاولت في أوّل قدوم لي بعد ردح من الزمن أن أغضّ الطرف عن مفاتن هذه القرية وأنا أنزِّلقُ بحذر نحوَها؛ زرتُ الفندق وتفحَّصْتُه بشغفٍ، وهربت إلى مدينة ميدلت المجاورة حيثُ سيُقام المزاد ممتلئًا بعواطف غامضة انتشرتْ داخلي خلسة وأنا أحاول لجم عينيّ اللتين كانتا تحاولان ابتلاع إغرم دفعة واحدة. في المزاد، أُحبطتُ كثيرًا من المؤامرات التي كانت تُحبك في الخفاء، ورفعتُ السعر إلى سقف لم يملك أمامه خصومي سوى الاستسلام. بالطبع لم أكن أرى في الفندق مشروعًا استثماريًّا بقدر ما اعتبرتُه حبلاً سرِّيًا يُعيدُني إلى أغرم، وحربًا خاسرة أمام الذاكرة وخطوة أخرى متهوّرة قد تقتادني إلى نهاية أفضل.

إغرم، يا جرحيَ الأوّل...

لم أعد إليكِ لأسأل عن سيّدة تقيّأتني ذات حزنٍ هنا فوق سفوحِكِ وانصرفتْ لشأنها، فقد سألتك مرارًا وتمسّكت كطفل بثوب حقولك واستجديتكِ الحقيقةَ، لكنّك كنت تهربين أو تتهرّبين كلّما ألحّ عليّ السؤال. ها هو أوداد يعود إلى حزنه الأوّل وشقائه الأوّل، لم أبرأ منكِ أيّتها الغانية التي تستيقظ في هذه اللحظات، وها أنا أواجه عنف جمالكِ الصباحي من شرفة غرفتي في فندق أصبح فندقي. تستيقظين أيّتها البهيّة كما كنت تفعلين منذ رمتك أوجاع الكادحين البسطاء بين هذه الجبال. لم تتغيَّر صباحاتُك كثيرًا، ولولا خيوط الكهرباء المترامية كالتجاعيدِ فوق حسنِك لقلتُ إنّ مجرى الزمان يتحرّكُ بعيدًا عنك، الأمكنة الجميلة التي تسكننا لا تشيخُ ولا تخرّبها يد الزمان اليابسة، على الأقلّ في أعينِ من ابتلوا بعشقها، تظلّ شابّةً..

Twitter: @ketab_n

وحين يموتون تموت معهم.

أخذت آخر نَفَس من سيجارة الصباح بنَهَم، وقذفت بعقبِها فهوى بعيدًا، راقبتُ الرياح وهي تمتصُّه بشراهةٍ إلى أنَ انطفأ. سجائرُ الصباح شهيّةٌ وقويّة، وغنيّةٌ أيضًا بلعنةِ السيجارة الأولى، تقتحمُ الشرايين وكأنّها تفعل ذلك لأوّل مرّة، وتنفضُ ما يخلّفه النوم في الجسد من خمول.

مرَّ أكثر من ربع قرن على فراقنا أنا وأنتِ أيّتها القرية المعجزة. أتذكرينَ ذلك الصباح الصيفيّ الذي يشبه إلى حدّ بعيد هذا الصباح، حين جرّتني بعيدًا عنكِ يدٌ غريبةٌ وصرّة ملابسي المترهّلة ترقص بين يديَّ؟ غادرتُك يومَها دامعَ العينين إلى قدري المجهول.. فلم تكتفِ المدينة بتغيير اسمي الجميل الذي أطلقه عليّ أهلوكِ (أوداد)، أي الوعل باللغة الأمازيغيّة، بل خرَّبَتْ بمشرطها أوصالي، فصرتُ مراد، وألصقتْ بي كنيةَ الرجل الذي تبنّانِي. لم أفهم لماذا ألحَّ عليَّ د. بنهاشم طبيبي النفسي أن أعود إليك قائلاً:

ـ عُدْ إليها ولن تعود إليَّ...

خرجتُ يومها من عيادته، وأنا أعبثُ بورقة الدواء التي ناولنِي إيّاها إلى أن تركتُها تفرُّ من بين يديَّ وتختفي. أحبِّذُ الموت على العيش متأبّطًا علبةَ أدوية. ولم أفهم لماذا ألحَّ بأن أعودَ إلى إغرم، وهو أدرى بأحزان طفولتي وأيّ حزن ستستثيره هذه المغامرة... وكنت مطالبًا بانتظار مقدم الصيف وانقضاءِ الموسم الجامعي لأعانق كفَّ جوليا، وأفرّ بها إلى هنا. عندما اشتبكنا في عناق طويل داخل المطار، همست في أذني قائلة: إلى أين تأخذني يا حبيبي... لم أجب، كنت مأخوذًا بحرارة جسدها، ورائحة العطر الباريسي المجنون تخترقني

Twitter: @ketab_n

بسهولة، لا لشيء، فقط لأنّها رائحة العطر المفضّل لخولة. تمسّكت بعناقها يومئذ كما تتمسّك امرأة بقدميْ زوجها، بعد أن تلبّست بخيانة كنت أشمّ فيها خولة، وحزنت بعدها لفترة طويلة على هذه الصدف البغيضة... كنت أعلم أنّ اللعنة تبتدئ بصدف بسيطة كهذه وتتناسل خلسة، وتأكل من حياتنا إلى أن تتركنا على شفير الهاوية.

تسلّلتُ إلى الغرفة على رؤوس أصابع قدميّ كي لا أزعج نوم جوليا، تطلّعت إليها، كانت غارقة في فوضى السرير، وقد أخمدت وجهها الجميل في الوسادة، اقتربتُ من السرير ورددت الملاءة على ظهرها العاري المشعّ، وغازلت برؤوس أصابعي سنابل شعرها الذهبيّة.. التقيت بها أوّل مرّة في الجامعة صدفة. قالت يومها إنّها تعكف على إنجاز بحث سوسيولوجي حول مفهوم الجنس في الشرق، رافقتها إلى المكتبة، وحاولت أن أترجم لها بعض الكتابات العربيّة التي تناولت الموضوع.. وفي إحدى الليالي الماطرة، سهرنا معًا في غرفتها بالفندق نترجم بعض المقاطع الأدبيّة، غرقنا معًا في أحاديث لا شواطئ لها، وكنت أراقبها وهي تُغرق قلبها في كأس النبيذ.. ورغم أنّ قلبي كان مكتظًّا بعشق خولة، إلّا أنّني انزلقت أمام إغراءات جوليا المتكرّرة إلى سريرها.

كانت تلك الليلة خطأ فادحًا، لم أكن أملك حياله سوى التمادي فيه إلى منتهاه. رحلت بعد أن تواعدنا على اللقاء كلّ صيف، وكنت أدرك جيّدًا أنّ في الأمر خيانة بشعة لخولة، لكنّ لعنة ما كانت تلحّ عليّ أن أقتفي هذا الجنون إلى آخره. وفي سفري الأخير إليها إلى باريس، لم أكن أعلم أنّني سأعود لأجد أحضان الجنون مشرّعة، لم أكن أدري أنّ مكوثي في عيادة د. بنهاشم سيطول بعد أن مزّقني خبر انتحار خولة. تغيّبت طويلاً وتركتها في مهبّ الموت. أبشع ما في

Twitter: @ketab_n

الأمر أنّني لم أكن أحسّ أنّني أخونها مع جوليا؛ وحتى في لحظات الذروة العاطفيّة والجنسيّة كذلك، لم أكن أرى أمامي سوى خولة. كنت أعلم جيّدًا أنّ لوثة خبيثة وشيطانًا ذا قرون وَغْلِيّة يعشّشان داخلي.

تحرّكت جيئة وذهابًا في الغرفة فاستيقظت جوليا... راقبت جمالها العنيف وهو يصحو، وأطلت التأمّل في عريها وهي تفرّ من السرير إلى الملابس التي تطايرت أمس في كلّ صوب ولم تقاوم نهم الجسد، قالت:

ـ صباح الخير حبيبي، لا شكّ أنّك استيقظت باكرًا؟

اقتربت نحوها خطوات، قائلاً:

ـ صباح الورد يا شقرائي... نعم استيقظت باكرًا.

وبحلقت طويلاً في أزرق عينيها.. رأيت بحورًا منسيّة، رأيتُ خولة حبلى تطفو حينًا ويطفِئها العباب.

ولم أكن سعيدًا رغم كلّ شيء، ففي قمّة الفرح والوجع الجميل، كانت خولة تلتصق بخروم الذاكرة وتطفو، فلا أرى سوى تعبي وجمالها الميت. آه ما جدوى حياتك يا مراد، وأنت منذ البدايات تركض في حلقة مفرغة وتسبح ضدّ التيّار!

انزلقنا بعد ذلك أنا وجوليا إلى مقهى الفندق، كان مكتظًّا بالعديد من الأجانب والقليل من المغاربة.. لكنّهم كلّهم لا يرون في إغرم أبعد من أنوفهم، هذه القرية لن يفهم سحرها وجمالها إلّا من اخترقت قلبه حِقن أفيونها. جلسنا إلى طاولة، ناديت حميد، فهرول إليّ:

ـ صباح الخير سي مراد، أتأمر بشيء؟

ـ صباح الخير. من فضلك، أريد فطورًا أمازيغيًّا أصيلاً.

Twitter: @ketab_n

ـ حاضر.

وانسحب بسرعة. حميد هذا ابن إغرم، وهو من اخترت كمسيّر لأعمال الفندق والمقهى والمطعم. داهمني سؤال جوليا:

ـ لماذا هذه القرية دون غيرها؟

(تسألني لماذا. أواه! فلتسألي تلك التي رمتني رضيعًا هنا كما يرمي الإنسان قشرة موز، أو أيّ شيء غير ذي قيمة، أو إن شئت فلتسألي هذه القرية، فهي نفسها قد تخبرك القليل عن الليالي التي نزفتها في صمت، وأنا أجابه أعزل أشواك الأسئلة...)، قلت:

ـ لأنّ هذه القرية جميلة من جهة وسترين.. ولأنّ هذا الفندق أصبح فندقي.

وفغرت فاها غير مصدّقة، وصاحت:

ـ أفعلاً يا حبيبي؟ ومنذُ متى أصبحتَ مستثمرًا؟

وضحكنا معًا بجنون، وتواعدنا معًا في قمّة الفرح العابر على الحبّ الأبدي، وكنت أضحك في سرّي على هذا النفاق العاطفي الذي لم أتخلّص منه رغم أنّه كلّفني غاليًا. كثيرًا ما نعد بأشياء أكبر منّا، ونحن على ثقة أنّنا لن نكون في مستوى وعودنا، لكنّنا نورّط أنفسنا في مستنقعها فقط ليكون للحظةِ الوعد طعمٌ آخر. وعود العشّاق تمامًا كورودهم سرعان ما تذبل.

لمّا عاد حميد يحمل الفطور، كنت أشعل سيجارة من أخرى، وأفرّ من الذكريات التي تنبلج من روائح الرغيف الأمازيغي، والإبريق وهو يطاول السماء ويهوي شايه في نقطة ثابتة من الكأس، فتكبر عمامته البيضاء كلّما ابتعد الإبريق وحلّق عاليًا.. كانت أشياء بسيطة

Twitter: @ketab_n

كهذه كفيلة بأن تؤكّد لي أنّ العودة إلى إغرم مغامرة لم أروّض قلبي بعد على التلاؤم وشروطها.

ـ حبيبتي.. هلّا أسرعت في أكلك قليلاً! أريد أن أريكِ إغرم؟

ـ نعم.

وكنت أراقب أساريرها وهي تنطلق بين الفينة والأخرى كأنّها تضحك داخلها، وأسفت لأنّي أزعجت فرحها هذا. حين أنهت فطورها، أخذتها من يدها وانسحبنا مسرعين. في اللحظة التي داهمني فيها صباح إغرم، أحسست كأنّني أسير فوق الهاوية على خيط أرقّ من شعرة وأمضى من سيف قاطع.

القرية هناك ممدّدة كعنقود من العنب يستريح فوق الهضبة. في الوثائق الرسميّة يسمّونها (قصر آند)، لكن كلّ المغرمين بها لا يعرفون لها اسمًا غير إغرم. ما أجمل تلك المنازل الصفراء الواقفة والمتعانقة التي تسيل من أعلى الهضبة إلى أسفلها في فوضى لا يفهم نظامها إلّا أهلها!

مررنا بين حقول الذرة الواقفةِ بكبرياءٍ كأوجاعي، وتطلّعنا إلى الفلّاحين وهم يكدحون ويرفعون معاولهم حتى تعانق السماء، ثم يهوون بها فتبقر بطن الأرض بطريقة فيها انتقام من شيء ما لا أعرفه ولا أظنّ أنّهم يعرفونه. وحزّ في قلبي أنّهم حين يتّكئون على معاولهم ويتطلّعون إلينا بفضول، لم يعرفوني أبدًا ولم يجدوا في ملامحي شيئًا منهم. أضاعوني في زحمة أيّامهم، هكذا مرّ الغريب من هنا يومًا، وهكذا يعود الغريب. حين تمسّكت جوليا بذراعي، انتبهت إلى وجودها بهذه الطريقة. أنقذتني ـ ولو بشكل موقّت ـ من وجع استيقظ بسرعة.

Twitter: @ketab_n

ـ مراد.. أرجوك أخبرني بسرعة ما سرّ هذا المكان، لا شكّ أنّك لم تختره اعتباطًا؟

أحسست أنّها تحاول جرّي إلى دوّامة لن أخرج منها إلّا دامع القلب. جوليا لا تعرف أنّها تتمسّك بخربة من الأحزان، برجل من حبر ووجع. وفي قمّة ذهولي وانبهاري بالمكان الذي ينفض عنه غبار ما يقارب الثلاثة عقود، تذكّرت نصيحة الطبيب النفسي:

حاول أن تقترب من الآخرين ولو قليلاً، ليسوا جحيمًا كما تعتقد. احكِ لهم ما استطعت عن محنتك، إن لم تستطع فابتدع شخصًا آخر. سمِّه ما شئت واحكِ عنه. إنّه أنت. إنّها صورتك التي يجب أن تتخلّص منها.

وضغطت جوليا على ذراعي لتذكّرني أنّها تنتظر ردًّا.. لم أرتّب أفكاري كما يجب، فتهوّرت، نعم تهوّرت، وقلت لها:

ـ لأنّه المكان الذي وُلدت وترعرعت فيه.

فاستوقفتني، وقد ارتسمت على ملامحها كلّ علامات الاستغراب، كانت متألّقة في أوج زينتها، وكان أزرق عينيها يسافر بي:

ـ إذن، أنت من هنا.. هذا جميل، رائع!

وعرجنا إلى القرية. في الطريق سألتني كثيرًا، ولأنّ أكثر الحماقات تأتي عن هفوة أو زلّة عابرة، فقد ترتّب عن قولي ذلك أنّني صرت أبني حياة أخرى، غير التي عشت ربّما كان من المحتمل أن أعيشها. امتلأت كذبًا، واخترت لي مثلاً والديْن ومنزلاً وكلب رعي وأشياء أخرى. وعند مدخل القرية، لست أدري أيّ لعنة ألحّت عليّ أن أقول لجوليا:

Twitter: @ketab_n

ـ سأحكي لك فيما بعد عن غريب مرَّ من هنا طفلاً، وجدوه متلفّعًا في بياض بعد أن تخلّت عنه إحداهنّ، وأسموه أوداد وهي كلمة أمازيغيّة تعني الوعل. كبرنا معًا، وجلسنا معًا إلى طاولة واحدة في المدرسة. . . إنّه أوداد.

Twitter: @ketab_n

(٢)

وكما تتوغّل المدية في لحم الضحيّة، كانت إغرم تتوغّل فيَّ كلّما توغّلنا بين أزقّتها الخالية. أهل إغرم يرحلون في الصباح إلى الحقول. تأمّلت طويلاً الجدران العالية التي بُنيت بالطين والتبن، لا تزال تقاوم مدّ الزمان وجزره المتواصلين. منازل إغرم تمامًا كأهلها لا تتذكّرني، ولا تحاول حتى أن تفعل. مرّ الغريب من هنا، وفي لحظة ضعف سحب ظلّه خلفه وغاب...

أضاعوني، أضاعوا اسمي... أهل إغرم هم كما تركتهم ينزفون عرقًا وحزنا كلّ يوم، ولا يحرّضهم ذلك على الرحيل، فالرحيل مهنة الغرباء أمثالي.

كنت أشمّ روائح المكان، فتبعث فيَّ ذكرياتٍ خلتها استحالت إلى رماد، وكنت أقصُّ على جوليا فصولاً متفرّقة من محنة أوداد الوعل أو «أنا»، الذي يجب أن أتخلّص منه تمامًا كما طلب الطبيب النفسي. ما أبشع أن تُعيد تركيب حياتك وكأنّها شيء لا يخصّك!

Twitter: @ketab_n

وكانت إغرم تلتفت إليَّ ذاهلة كأنّها تكتشفني لأوّل مرّة، في حين كنّا ضائعين بين دروبها إلى أن استوقفني قلق باطني، لا تؤدّي طرق إغرم إلّا إلى ذلك المنزل الضخم المتاخم لتلٍّ يُعرف بتلِّ العرعار. لن تقتادني هذه القرية المخبولة إلّا إلى ذلك المكان الملغوم بالذاكرة، حيث تصبح الذكريات جميلها وقبيحها قابلة للاشتعال. وكوعلٍ حين يستشعر دنوّ خطر، تراجعتُ خطوات إلى الوراء وأخذتُ يد جوليا وسلكت طريق العودة.

عندما انتهينا إلى النهر الصغير الذي يسيل من الجبل ويمرّ بمحاذاة القرية، وضعت قدميَّ في مائه البارد وغسلت وجهي وبللت شعري، فدبّ في أوصالي فرح زائف. قلت لجوليا وأنا أشعل سيجارة:

ـ أتفضّلين أن نتبع النهر الصغير إلى أوّله أم نعود أدراجنا؟

ـ فليكن الخيار الأوّل.

واشتبكنا في عناق عنيف وسريع، وأخذت خصرها ومضينا. كنت أحسّ تجاهها بعواطف ملتبسة، قد أبالغ في النفاق العاطفي إن قلت إنّها حبّ. فبعد خولة، صار الحبّ أمرًا أقرب إلى المستحيل، فقط لأنّ قلبي لم يعد يتّسع لأوجاع إضافيّة. آه خولة! يا من قفزتِ إلى موتك بخطى واثقة، وتركتني أنشر أيّامي وأجمعها كأنّها لا تعنيني في شيء. وكلّما توغّلنا في المضيق الجبلي، قلّت العيون المتربّصة بنا، إلى أن صرنا وحيدين ومحاصرين بواجهتين من الأجراف العالية جدًّا.

تطلّعت إلى الأعلى، تمامًا إلى تلك البناية المعلّقة على الواجهة اليمنى للفجّ، وأنا أشعل سيجارة من أخرى، ولفتُّ انتباه جوليا إلى ذلك القصر المعلّق عاليًا بين الأرض والسماء. إنّه لأحد أجدادها،

Twitter: @ketab_n

وتطلّعت هي الأخرى إلى الأعلى:

ـ ما هذه البناية حبيبي؟

ـ يسمّيها أهل القرية «قلعة الرومي»، ولهذه البناية حكاية يعرفها الجميع هنا، إنّها قصّة أوّل إمبريالي حطّ قدمه فوق هذه الأرض.

وتوقّفتُ عن الكلام، لأنّي شعرت أنّ فتيل الذكريات هناك في طرف قصيّ من ذاكرتي قد اشتعل، وأنّ ناره تدنو كي تحرق أشياء صميمةً داخلي. وغبت عن جوليا حين ابتلعني الماضي كما تفعل الحيّة بطريدتها. تذكّرتهم جميعًا واحدًا واحدًا، وهم متحلّقون حول كؤوس الشاي في ذلك المنزل، الذي آوى طفولتي وأنا مهمل في هامش الغرفة، والفرن يهدر بتعابير ناقمة مبهمة، كان امحند يلفُّ أبناءه في سلهامه الصوفيّ المترامي الأطراف ويحكي. قلت لجوليا، وأنا أستحضر مرويّاته حول قصّة الرومي:

ـ قديمًا جاء من بلادكم، يا جميلتي الشقراء، هذا الإمبريالي الأوّل الذي بنى ـ ولا يدري أحد كيف ـ هذا القصر الضخم المعلّق على واجهة الجبل، وهي كما ترين حصن منيع لا يمكن أن يصعد إليه المرء إلّا بعد أن يضع حياته على شفير الهاوية.

وكنّا نتوغّل أكثر في الفجّ ونتبع النهر إلى أوّله، استرسلتُ:

ـ قَدِم هذا المستعمر الأوّل حاملاً معه حقدًا وبندقيّة، وجعل يصطاد من برجه العالي كلّ يوم فردًا من القرية، كانوا يسقطون قتلى دون أن يجرأ أحد على بلوغه، لأنّهم يدركون أنّ الموت إن فاتهم وهم يصعدون الجبل فلا بدّ أن تدركهم بندقيّة هذا السفّاح.

وتوقّفت عن الكلام. أخذتُ نَفَسًا من السيجارة، تمامًا كما يفعل امحند، لكنّه كان طيلة الفترة التي يحكي فيها يعدُّ تبغه ويلفّه في ذلك

Twitter: @ketab_n

الورق الأزرق الذي كان يُغلَّف به السكّر قديمًا. تساءلت:

ـ وكيف انتهت المأساة؟

ـ بالتضحية..

ـ كيف؟

ـ وقتها، كان هناك رجل يدعونه «سيدي موسى»، وإضافة إلى كونه شيخ القبيلة، كان عارفها بالله ومرجعها في كلّ شيء. لكنَّ هذا الرجل التقيّ، وهو يرى قريته تسقط رجلاً بعد رجل، لم يجد بدًّا من التفاوض مع السفّاح. ولأنّ هذا الأخير كان يكتفي بصيد واحد كلّ يوم، أو لأنّه كان يتحاشى الشيخ، أو لأنّ قوى سماويّة كانت تضرب عليه هالة من الملائكة تحميه، فقد استطاع التحدّث مع السفّاح ومفاوضته، واتّفقا في الأخير على أن يتوقّف نزيف القرية مقابل أن يضحّي الشيخ بابنه «سيدي عيسى»!!

والتفتت إليّ جوليا ذاهلة، بعد أن حقنتها بجرعات مخفّفة من حكايات هذه الأرض الغريبة، فأردفتُ ونحن نقترب من الكهف المقام الذي ذُبح فيه سيدي موسى:

ـ في يوم حزين، تحلّق أهل القرية حول الشيخ، وهو يضمّ إلى صدره ابنه آخر ضمّة... وبكت القرية باستثنائهما، وجرّ بعد ذلك الأب ابنه نحو موته، واثقًا من أنّ موت فرد أهون بكثير من أن يسقط كلّ يوم واحد أو واحدة، هكذا مدّ سيدي موسى سكّينًا من وجع واستأصل فلذة كبده، لا لشيء.. فقط لتستمرّ إغرم على قيد الحياة.

وقذفتُ عقب السيجارة ودهسته بقدمي، واسترسلت وأنا آخذ يدها وندخل هذا المقام ـ الكهف المنغرس في الجبل:

Twitter: @ketab_n

ـ تقول الحكاية إنّ عمليّة الذبح تمّت هنا..

وأومأتُ لها بسبّابتي إلى كومة الصخور المتراكمة بعضها فوق بعض وسط هذا الكهف، وأنا أستعيد وجه امحند الجافّ وهو يحكي، وأصطدم بذكريات يتدفّق بعضها وتنزل بين شقوق المكان، وتتبخّر أخرى من المناديل والخرق المرميّة حول صخور المقام، والتي تخلّفها النساء هنا إلى جانب خيباتهنّ وهمومهنّ. داهمني سؤال جوليا:

ـ وماذا بعد؟

ـ نعم. ذَبح السفّاح «سيدي عيسى» المدفون تحت هذه الصخور. ويُحكى أنّه لمّا مرّ الساطور على عنق الولي الصغير وصلت الدماء إلى هنا..

وأشرت بإصبعي إلى شجرة التين الناتئة من أحد شقوق الكهف، وأضفت:

ـ قفزت دماء الوليّ الصغير إلى هذا الشقّ ونبتت ـ كما تقول الحكاية ـ من دمائه شجرة التين هذه.

وأخذتُ حبّة تين لم تستوِ بعد من شجرة الوليّ، وتابعت:

ـ حبّات التين هذه دامية دواخلها، وحليبها ـ خلافًا لسائر حبّات التين ـ أحمر قاتم كتلك الدماء الغاضبة التي قفزت أوّل الأمر إلى هناك، ويعتبر أهل القرية أنّ آكلها ملعون أبد الآبدين.

والتفتُّ إلى أزرق عينيها، كان مكتظًّا بأشواك أسئلة كثيرة، قالت:

ـ كيف انتهى السفّاح؟

أجبت بسرعة، ربّما لأنّي أردت أن أتخلّص من نزيف الذكريات ووجه امحند الجاثم على ذاكرتي:

Twitter: @ketab_n

ـ تقول الحكاية إنّ «سيدي موسى» نزل مطمئنًا إلى الوادي قصد الوضوء، في الوقت نفسه كانت بندقيّة السفّاح مصوّبة نحوه، والسماء يا حبيبتي كانت سوداء تلهج بتعابير غامضة، ولأنّ تاريخ الظلم قصير أو لأنّ العدالة الإلٰهيّة تحلّ دائمًا في الوقت المناسب، أو ربّما ـ وهذا هو الأرجح ـ لأنّ الحكاية الكبرى لا تتمّ إلّا بتدخّل يد غامضة ربّما هي نفسها التي ابتدعت الحكاية! المهمّ أنّه في تلك الثواني القليلة التي تسبق الضغط على الزناد، انخسف بالسفّاح جانب من قصره المعلّق بين الوادي والسماء، فهشّمته جنادل الوادي قبل أن تعود الأمطار وتوعز لفيضها مهام جرّه ميتًا نحو بلاد قصيّة.

وأطبق بعدها صمت فادح على المكان، لم تكن تكسره سوى أجنحة أسراب الحمام البرّي التي تصفّق بحرارة في السماء. تأمّلت بهوس الخطوط السوداء التي رسمتها الشموع على جدران هذا الكهف ـ المقام. كم أضاءت تلك الشموع ليل الوليّ الطفل، وليل نساء القرية ورجالها الذين كانوا يجثون فوق هذه الصخور، يدثّرهم حزن عميق وأشواق مسنّنة، يبكون ويغسلون بذلك دواخلهم التي أدمتها الحياة، ويتركون القليل من ملابسهم وأحزانهم، ويمضون أقلّ حزنًا!

كم جثوت أنا كذلك فوق هذه الصخور التي ينام تحتها الوليّ، وكم غسلت بأدمعي هذه الأحجار وأنا أقاوم أشواك أسئلة فادحة!

ـ من أنا؟ لماذا لا أعامَل في القرية معاملة أترابي؟ لماذا لم يستقبلني حضن أب أو أمّ؟ أين هما؟ من يكونان؟...

حين فاض بي المكان ونكأت الذكريات جراحًا خلتها اندملت، التجأت إلى عناق جوليا الواقفة بقربي كشجرة أرز. وجدت في عناقها القليل من خولة، ليس فقط لأنّها تضع العطر نفسه، عطر خولة، بل

Twitter: @ketab_n

لأنّها مثل خولة تشدّ بأصابعها على شعري، وكأنّها تريد أنّ تطفئني فيها دفعة واحدة. لن أتخلّص من ذكرياتك، خولة! يا من وضعتِ حدًّا لحياتك احتجاجًا على زيف الحياة وبهتانها، ووضعت معها حدًّا لجزء كبير من حياتي!

وكانت طريق العودة أسرع، لأنّي كنت أهرب من الذكريات التي تشتعل بسرعة. من حسنات الفندق أنّه يقع في الطرف المقابل لإغرم، يفصله النهر عنها، الأمر الذي يتيح للسائح التفرّج عليها دون أن يكون جزءًا منها. حين دخلنا مقهى الفندق، وجدت إغرم هناك وقد استحالت من سيّدة هادئة إلى أصوات وأهازيج. لم أكن مستعدًّا لهذا الوجع الذي تحاشيته طويلاً، الموسيقى الأمازيغيّة.. نعم، كانت تجتاحني بعنف وتجرف أمامها الأخضر واليابس، تعود بي إلى أماسي إغرم الصاخبة ـ لا سيّما إذا كان الموسم الفلّاحي جيّدًا ـ وتصهر كلّ شيء داخلي، تستفزّ مدامعي، وتشعل فيّ رغبة مبهمة في الصراخ بأعلى صوت ممكن. هذه الموسيقى تجرم في حقّي، إذ تتواطأ مع ماضيَّ وتغمر بالوجع ما خلّفته فيَّ الخيبات من شقوق وشعاب.

بالكاد كان يصلني صوت جوليا، وكنت أجد مشقّة في فكّ طلاسمه، وأنا مأخوذ بهذا السيف الذي يمشي بثقة في لحمي. أخاف أن تتدفّق الدماء من فمي وأخرّ صريع أغنية.. تغنّي المغنّية بصوت أمازيغي فيه الكثير من الجراح:

ـ سأمضي.. سأمضي إلى أن تناديني من مكان ما قدما حبيبي...

وحين تأكّدت أنّ هذه الموسيقى تضع حياتي في كفّ عفريت، ناديت حميد، فهرول إليَّ. طلبت منه أن يستقدم لنا الغداءَ إلى الغرفة،

Twitter: @ketab_n

وناولته أوراقًا ماليّة ليحضر لي الجرائد والمجلّات حين يسافر إلى المدينة، وأخذت يد جوليا بعدها وانسحبنا إلى الغرفة.

في الوقت الذي كنت أصعد سلالم الفندق، كانت الأغنية لا تزال تُشعل داخلي نيرانها. كنت أحسّها فأسًا يحفر في ظهري، ويخلّف ندوبًا أعمق من تلك التي خطّتها منذ زمن بعيد قضبان صفيّة الملتهبة، والتي لا تزال جاثمة عِلى ظهري وتقاوم مدَّ الزمن وجزره باستماتة.

آه يا ماضيَّ! أما تنام؟

ـ سأمضي.. سأمضي إلى أن تناديني قدما حبيبي...

Twitter: @ketab_n

(٣)

إغرم تنام متلفّعة بوشاح ليلها الأسود، أو على الأقلّ هكذا تبدو للغرباء أوّل الأمر.

وإذا كانت القرية هادئة نهارًا ولامبالية أيضًا، فإنّها ليلاً تفتعل نومًا يسبق العاصفة، إذ ما يكاد أهلوها ينامون بعد يوم قاس، أو على الأقلّ يلزمون منازلهم لأخذ قسط من الراحة أو الحكي، حتى تنتفض وتشتعل أصوات وأصوات، وتستحيل القرية إلى ناهد عارية تجوب الأزقّة والدروب! هكذا تنأى إغرم عن بناياتها الطينيّة، وحتى عن اسمها. ولتحتفظ الأشياء الجميلة بمعناها لا بدّ أن نتجاهلها أحيانًا ونغضّ الطرف عن فتنتها، وألّا نغوص كثيرًا في سرّيّتها لئلّا نفقدها بشكل فجائي ونهائي.

ـ حبيبي.. ما سرّ تلك البقع الضوئيّة هناك فوق الجبل؟

ـ إنّها لـ «آيت مرغاد». إنّهم رُحَّل يعيشون في حالة سفر دائم، وكلّ صيف يستقرّون هناك في قمّة الجبل نظرًا لاعتدال الجوّ ووفرة

Twitter: @ketab_n

الكلأ. أيّام الصبا، كنّا نعترض طريقهم ونتفحّص ملامحهم الغريبة. كان الكلّ يحاول ـ خاصّة الأطفال ـ اقتباس معطيات عن أشكالهم وأشيائهم قصد التندُّر بها أمام الآخرين، كانوا يعبرون القرية مرّتين كلّ سنة، حين يُقبل الصيف وحين يأفل. وبين إقبال الصيف وأفوله، لا نرى منهم سوى هذه البقع الناريّة التي تؤكّد أنّ الحياة مستمرّة رغم كلّ شيء.

ـ ما أجملك حبيبي حين تسترسل في الحديث عن هذه القرية!

ـ حقًّا؟.. دائمًا الأشياء التي تشدّنا بقوّة إليها هي التي نُجيد الحديث عنها، ونتمنّى لو أنّ في وسع الكلمات أن تتّسع لتتحمّل ثقل ما نحسّ به.

سمعنا طرْقًا خفيفًا على الباب، فتحت. فطالعني وجه حميد المتعب. ناولني بعد التحيّة رزمة الجرائد والمجلّات، ومضى. تأمّلتني جوليا باستغراب قائلة:

ـ ماذا؟ جرائد؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ جميل، على أيّ حال، سأستحمّ وأعود.

وتسلّلت إلى مطبخ غرفتنا المتواضع، والذي لا يفصله عن الغرفة سوى حائط رخامي صغير؛ فتحت باب الثلّاجة وسحبت زجاجة نبيذ وكأسين شفّافين.. ومضيتُ إلى الأريكة الحمراء ووضعت الزجاجة والكأسين فوق الطاولة الزجاجيّة المقابلة للأريكة والمزركشة برسومات وخطوط أمازيغيّة، في الوقت الذي كنت أصيخ السمع للماء وهو ينكسر حسيرًا على جسد جوليا الشهيّ المنفلت. أصبّ كأس الليلة الأوّل، وأطيل تأمّلي في الزجاجة التي لا تذكّرني سوى بمحنة الزجاجة

Twitter: @ketab_n

الأولى. على أيّ حال، كان هذا منذ زمن بعيد، بعد أن لفظتني إغرم وتبنّتني لتعذّبني المدينة. أذكر أنّني كنت بعد يافعًا وغير مستعدّ لمعاقرة الخمور، لكنّها الغواية. كنت أيّامها أستيقظ باكرًا لأتبع ليل السكارى، وألملم ما خلّفوه من زجاجات فارغة وأبيعها، ولم أكن أعلم أيَّ لعنة ألحّت عليَّ ودفعتني لتجربة هذا السائل المجنون المليء بالتناقضات، في تلك المدينة الآسنة التي تنهى عنه نهارًا وتغرق فيه حتى أذنيها ليلاً! المهمّ، كان أن اشتريت بثمن الزجاجات الفارغة واحدة مليئة، أغرقت فيها قلبي وكلّ أوردتي إلى أن كسرتها احتجاجًا على حياتي، كسرتها رغم أنّني كنت مطالبًا بالاحتفاظ بها.. يومها تأكّدت أنّ جنوني لا حدّ له، وأنّه سيجرّ دفّة حياتي لا محالة نحو عواصف عاتية.

وأنا أهرق الكأس في فمي دفعة واحدة التفتُّ إلى حقيبتي في ركن ركين، فتذكّرت جثّة خولة الورقيّة الممدّدة فيها، فاقشعرّ لذلك بدني. صببت كأسًا أخرى.. نخب الغائبة يا قلبي المتعب.. فالموتى لا يستأذنون. يرحلون ببرودة قاسية بعد أن يقتلوا فينا أشياء غالية تخصّ حبّنا للحياة أو اقتناعنا بها. خولة مضت نحو موتها بثقة وخيلاء، بعد أن أغمدت فيّ مذكّرتها الحمراء الدامية، التي ما فارقت الحقيبة مذ خرجت من عيادة د. بنهاشم أقلّ مرضًا لأكثر ما خانتني الجرأة. أشعلت سيجارة بانفعال ـ وأنا أراقب ذاكرتي وهي تشتعل ـ راقبت طويلاً سحبها المسافرة صوب باب الشرفة المشرّع. تذكّرت صديقتها وصال وهي ترتجف أمامي وتخونها العبرات قائلة:

ـ ماتا معًا.

سقط يومها ضمير المثنى داخلي بقوّة مجلجلة، واستبدّ بي إحساس بشع بالقيء ورغبة ملحّة في الخلاص، أذكر لحظتها أنّني استفهمت وأنا أرتجف متمنّيًا ألّا تكون الأمور كما خمّنت:

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا؟

ـ ماتت ومات الطفل في أحشائها.

أمّا ما وقع بعد ذلك، فلا أذكر منه سوى أنّها مدّت لي مذكّرة خولة الحمراء، وأنّني بكيت بشكل جنائزي واستيقظت في المشفى. حين خرجت، التقيت وصال التي ما إن رأتني حتى استيقظت أوجاعها وانفجرت باكية، أخذتها من يدها إلى أحد المقاهي المجاورة للكلّيّة، وأنا لا أرى فيها سوى أطياف خولة ومذكّراتها التي تركتها نائمة في أحد رفوف مكتبتي. قالت:

ـ التجأت إلى منزلي درءًا للفضيحة بحكم أنّني أعيش بمفردي، لأنّني هنا من أجل الدراسة. صارحتني يوم قدمت إليّ أنّها حامل وأنّها هجرت عائلتها، وحدّثتني طويلاً عن غيابك، ولم ألاحظ يومًا ميولها لحسم الأمر بالانتحار.. كانت تجلس إلى مذكّرتها طويلاً أحيانًا، تطيل الابتسام. وكثيرًا ما كنت أفاجئ وحدتها فتكفكف دمعاتها محاولة إيهامي بأنّها لم تكن تبكي..

اغرورقتْ عينا وصال دمعًا، واسترسلت:

ـ قبل انتحارها، خبّأت مذكّراتها أسفل حقيبتي، وبعد أيّام من وفاتها انتبهت لوجودها مرفقة برسالة اعتذار، من جملة ما قالت فيها: أَعطي المذكِّرة لمراد، قولي له أن يحتفظ بها، لأنّها كلّ ما تبقّى منّي، وإن كان من الممكن ألّا يقرأها، فسيكون أمرًا جميلاً..

وانتشلت حقيبتها من فوق الطاولة، ودون أن تستأذن انسحبت، واختفت من حياتي ومن المدينة. حين سألت عنها فيما بعد، قيل لي إنّ خبر انتحار خولة انتهى إلى عائلتها، فحرموها متابعة الدراسة، وإنّ زواجًا سريعًا بابن عمّها طواها فجأة.

Twitter: @ketab_n

خرجت جوليا من الحمّام ضاحكة في الوقت الذي كنت أدنو من قعر خيبتي الأخيرة. قالت:

ـ تشرب وحدك إذن؟ أنت أنانيٌّ.

وأخذت الزجاجة، وصببت لها كأسًا أخرى فاقتربت. كانت تلفّ جسدها بفوطة تتدلّى من قمّة صدرها إلى حدود ركبتيها، تناولت الكأس بيد وارتمت على الأريكة فالتصقت بي وأشعلت حريقًا في دمي. عركت أذنيها مداعبًا، وأقحمت أصابعي بين سنابل شعرها الذهبي المبلّل، فالتفتت إليّ وتأمّلتني طويلاً قبل أن تقول:

ـ أتعرف أنّني أحبّك أيُّها المخبول وأعشق عينيك اللوزيّتين كثيرًا.

ـ نعم، أعرف.

وكنت مأخوذًا بسحر خاصّ ينبعث من مكان ما في جسدها، ربّما هو عطرها الذي تتقاسمه وخولة، وربّما هي هذه الخرزة الساحرة التي تملكها، أو ربّما هو هذا الطيش الذي تلهج به شفتاها المتوحّشتان. قالت وكأنّها تودّ أن تجرّني للحديث عن إغرم:

ـ ما سرّ عشقك لهذه القرية؟

ولم أكن أملك إلّا أن أُجيبها بسؤال لا يقلّ إشكالاً:

ـ وما سرّ عشقك لرجل يكبرك بأكثر من عشر سنوات؟ حبيبتي، عندما نحبّ شيئًا أو شخصًا أو مكانًا نلغي على الفور الأسباب التي ورّطتنا في هذا الحبّ، ونسقط (لماذا) و(كيف) وباقي الأسئلة الشائكة من قواميسنا، اتّفقنا؟

ـ اتّفقنا إذن! دائمًا أجد عندك إجابات جاهزة..

وضحكنا معًا بصخب وجنون. حين أهرقت في فمي الكأس التي

Twitter: @ketab_n

لم أعد أذكر رقمها، ضجّ النبيذ في رأسي وأشعل في صدري كلّ الحرائق، راقبت ساقيْ جوليا العاريين باهتمام، وتتبّعت تفاصيل هذا البناء الجسدي المتقن الذي ينطلق من أسفل القدمين متماسكًا خصبًا. والتحمتُ بها وأنا لا أشمّ في عطرها سوى خولة. أجمل ما في علاقتنا أنا وجوليا أنّنا سرعان ما نلتحم بلحظات الفرح العابر، ونتمسّك بها كطفلين ونتقن فنّ استنزافها. لست أدري لماذا كلّما تعرّيت أمام امرأة، عاودني الحرج من تلك الندوب الراسية على ظهري، والتي تعود بي إلى ذلك الهمّ القديم! الآن، وأنا أفعل ذلك أمام جوليا للمرّة التي لا أذكر رقمها، كان أقسى ما أخشاه أن تسألني عن سرّها.

وكنت لسبب ما أستعيد في خيالي الجسد الأوّل.. ذلك الجسد المطرّز بالحزن، ذلك الجسد الذي علّمني أنّ جمالاً قاسيًا يمكن أن يوجد حين نمزج رغبة شبقيّة بحزن جافّ.

قال لي جسد حياة وأنا مراهق يجذّف في نهر شهوتها، ويصغي بعدها إلى أوجاعها:

ـ هذا أكثر شيء تتقنه، ستتذكّر قولي طويلاً.

في تلك الغرفة المظلمة التي تعجز شمعة واحدة عن إضاءتها في وجه زبائن ليلها القاسي، كانت حياة تتمزّق بين يديّ حزنًا وحنينًا إلى أشياء كثيرة.

وضعت أصابعها على ظهري، فاشتعل حزني وتداخلت فيّ الرغبات الجامحة بالحزن الثقيل، وصورة صفيّة تطفو بين ناظريّ حينًا وحينًا تضمرها حرارة الجسد. لست أنسى ذلك الطفل الذي كنته بعد أن لفظتني إغرم ورمتني كخرقة بالية بين يديها. جوليا تشدّ على ظهري

Twitter: @ketab_n

بأصابعها الرقيقة، بالضبط حيث كانت صفيّة تضع قضبانها الملتهبة.

آه.. لو تعلمين يا جوليا أنّ تلك الندوب هي ملامح روحي! وفككت طباق جفنيّ، كنت أحاول عبثًا التملّص من ذاكرتي وسدّ الثقوب التي يشرّعها في القلب ماضيّ التعيس.

Twitter: @ketab_n

(٤)

ـ أنت لست ابننا، وهذا كلّ ما في الأمر.

قالها امحند وابتلعني بسلهامه الذي كان يعبق بروائح تبغ، كان يسهر ليالي بحالها من أجل تحضيره، وكنت أنزف دمعًا. نعم أتذكّر صورتي الباكية جيّدًا، ربّما هي أوّل ذكرى أستطيع تشكيل ملامحها، افتضّت بعد ذلك زغرودة عناقنا البارد. لم أفهم سرّ تلك الزغرودة ولا سرّ تلك الزغاريد التي تلتها، لكنّني استنتجت فيما بعد أنّها كانت إيذانًا بميلادي الجديد. استرسل امحند ـ وعائلته متحلّقة حولنا ـ كأنّما ليستلّ السيف الذي أغمده فيّ:

ـ في صباح حزين يا (أوداد)، جرّتني الأقدار إلى تلك الطريق الهامشيّة التي لم تكن يومًا طريقي، هناك وجدتك في شهورك الأولى مسربلاً في بياض، لم أجدك باكيًا، كنت تبحلق في السماء، التفتُّ إلى الجهات الأربع لعلّي أرى اليد التي أسلمتْكَ لهذا القدر، لكن دون جدوى. جئت بك إلى منزلي. أنت منّا ـ تذكّر هذا جيّدًا ـ لكنّك

Twitter: @ketab_n

لست من دمنا.

كانت هذه الحقيقة أكبر من أن يطيقها قلب طفل يودّع الخامسة من عمره، لكنّها على أيّ حال، وضّحت الرؤى أمامي وفسّرت لي جملة من الأمور التي كانت عصيّة على الفهم وقتها، مثلاً: لم أكن أفهم لماذا اسمي كان مثقلاً بكلّ تلك الغرابة، أوداد أو الوعل الأمازيغي.. لم أكن أفهم كركرات الأطفال وهم يتطلّعون إليّ ويتهامسون بتعابير لا أسمعها. لم أكن أستوعب النظرات الحاقدة للبعض والنظرات المبالغة في الشفقة للبعض الآخر، لكنّني فهمت أنّ قلبي تشقّق كإناء ورد، وأنّ ترميمه لن يفضي إلّا إلى قلب مشوّه. كنت، منذ تلك اللحظة التي واجهتني فيها تقاسيم امحند اليابسة بالحقيقة، وحيدًا جدًّا وأعزل في حرب لم أخترها، وأحسست بعدها أنّ السماء التي دفعتني إلى هذه الحرب لا تقابل بكائيّاتي الليليّة الطويلة إلّا بقهقهات ساخرة.

وكان أوداد (أناي الطفل) يكبر كحبّة قمح تشقّ ثوب الأرض، وكانت أسئلته هي الأخرى تكبر معه، خاصّة حين يراقب أبناء امحند وهم يفرّون إلى حضن أمّهم بعد المدرسة أو يندفنون في سلهام أبيهم الشاسع أيّام البرد، وهو لا يملك سوى حقول إغرم ومراقبة وعولها، وهي تتسلّق الجبل بمهارة عالية وتقاوم بمهارة عالية إغراءات الهاوية.

اللقيط خشبيّ عادة، لا على طريقة «بينوكيو» الذي ابتدعه نجّار من قطعة خشب ليؤنس وحدته فورّطه في سؤال دام: كيف يصير ابنًا حقيقيًّا؟ اللقيط أكثر آدميّة، له لغة من هواجس وأصداء لتؤنس وحدته كالآخرين، يحبّ ويبكي كالآخرين، وكالآخرين يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لكن ينقصه حليب أفردته الطبيعة له وتعوزه أشياء وأشياء يكبر نقصها معه عقدًا، استلّ في لحظة خطأ وجوده من العدم، فكان

Twitter: @ketab_n

مطالبًا بأن يدفع حياته البائسة ثمنًا لهذا الخطأ.

وكانت الأيّام التي تلت الحقيقة جحيمًا لا يُطاق، لا سيّما فيما يخصّ علاقتي مع الجدّة أمّ امحند، التي شرع المرض ينهشها، فاستحالت إلى كلبة مسعورة. هذه المرأة، شبح ظلّ يقفز على حواجز النسيان ويقاوم ممحاته. لا زلت أذكر وجهها الأقرب إلى السمرة بتقاسيمه المتداخلة وأخاديده الفجّة وشعرها الذي حوّلته الحنّاء إلى ما يشبه زغب الذرة. كانت تكرهني وتزدريني كثيرًا، وتحاول كلّما سنحت لها الفرصة أن تذكّرني بأنّني ابن زنا وأنّ الذي لا أهل له لا أصل له. وكنت أعجب، كيف لجسد منكمش يفصله عن القبر أقلّ من شبر أن يحمل ويتحمّل كلّ ذلك القدر من الحقد والكراهية!

في يوم حزين جدًّا، وأنا أكاشف الطبيب النفسي د. بنهاشم بهذه الحلقة السوداء من حياتي وأقاوم دمعة غاضبة في عيني، سألني بخبث الأطبّاء النفسيين:

ـ ألا يمكن أن تكون أنت من قتلها؟

أذكر أنّني ضحكت لحظتها بصخب مزيّف، لعلّ تلك الدمعة تتراجع وقلت:

ـ صراحة، تمنّيت لو كنت الفاعل.. لكنّ الأقدار سبقتني إلى ذلك..

لست أنسى ذلك اليوم الذي اضطرّتني فيه العجوز إلى التفكير في حسم تلك الفوضى التي أعيشها بالانتحار، هكذا يقرّر وعل آدمي صغير في الثانية عشرة من عمره أن يتخلّى عن حياة تخلّت عنه منذ البداية. في صباح كئيب وفي حضرة كنّتها وجميع أحفادها، أرعدت العجوز في وجهي شتائم لا لشيء، فقط لتنفّس عن ساديّتها قليلاً.

Twitter: @ketab_n

ولأنّني كنت أجيبها بالصمت، فقد أخذت شعري الأسيب الذي كان ينسدل كوشاح على عينيّ بيدها، وشرعت تنزل على وجهي بيدها المعروقة صفعًا.. وأنا أقف كوتد مغروس في خاصرة المنزل دون أدنى مقاومة، فالقلب قد امتلأ لأوّل مرّة عن آخره حزنًا، وأيّ همّ إضافي يهرق فيه لا يسكنه بل يتدفّق حوله.

الأمر الذي حزّ في قلبي أكثر يومها، ليس كونها فعلت بي ما فعلت بل صمت العائلة وتواطؤها السرّي مع الجدّة. لم يحرّك أحدهم ساكنًا ولا تدخّل لفضّ المأساة، لم يشعروا بأنّ شيئًا ما يسير وفق منطق مقلوب، كانوا حياديّين حدّ الفجيعة.. ربّما استثار حقدهم تميُّزي الدراسي! لن أنسى ما دمت حيًّا ذلك اليوم الذي جرجرتني فيه من شعري وغمر بصاقها وجهي.. ما إن تملّصت من قبضتها حتى انزلقت إلى الباب بسرعة، وأنا أكفكف أدمعي وأمسح ما يعلو وجهي وملابسي من بصاق. وكان المطر، عادة حيث يكون المطر يكون الحزن مضاعفًا. وكانت السماء تلتفت إليّ أخيرًا وتنزف. بكيت في الطريق إلى قمّة الجبل طويلاً، وأهملت قلبي الذي كان يقرع طبول الخطر.

في قمّة الجبل، يقف طفل في الثانية عشرة من عمره، ويفكّر في أن يضع حدًّا لحياته بالقفز من أعلى الجبل نحو الهاوية السحيقة. لم أعرف لي من اسم غير أوداد، أي الوعل الأمازيغي. كنت لأوّل مرَّة أجد أنّ تلك التسمية تلبسني، فأنا أمام الهاوية وعل جريح، وبعد خطوة أو خطوتين سيُزفّ جسدي للسماء، وسأريح إغرم من نشاز يهدّد نسلها وسأستريح.

ملابسي بلّلها المطر، والرعود تضجّ بقوّة وإلحاح، والمطرُ صار أثقل من أيّ وقت مضى. هناك أمام أبواب القيامة المشرَّعة، وقفت طفلاً ذات يوم ماطر. كان يكفي أن أميل إلى الأمام قليلاً ليفرّ منّي

Twitter: @ketab_n

اتّزاني وأسقط رأسًا ويُحسم أمري بسرعة، كما كانت تكفي وثبة منّي لأسقط على قدميّ أو على ظهري. في الحالتين، كان أمري سيُحسم ربّما قبل أن يتشظّى جسدي كطبشور فوق جنادل الوادي. لست أدري على التحديد كم من الوقت مرَّ وأنا ذاهل أمام شرفات الموت، لكنّ التردّد يومها أكل من إرادتي، حتى إنّني تمنّيت يومها لو يخسف بي الجبل كما خسفت بالرومي زاوية من قلعته، فيعفيني الأمر من تجشّم لعنة الانتحار. وبكيت بعدها، لأنّ إرادة الموت لديّ تقهقرت، بكيت كما لم أبك يومًا، وتأكّدت وقتها أنّني خسرت كلّ شيء.

ونضب معين الدمع وجفّ، وخفّ وجعي قليلاً، وشيئًا فشيئًا، فهمت أنّ منطق ظروفي يفرض عليّ تفكيرًا مختلفًا. في تلك اللحظة بالضبط أحسست أنّني كبرت فجأة.

قلت لجوليا ونحن واقفان وسط إحدى شعاب الجبل.. تلك التي ابتلعت أوداد ـ أنا بعد عودته (ي) منهزمًا من رأس الجبل:

ـ حاول أوداد صديق طفولتي أن يضع حدًّا لحياته بالانتحار قفزًا من أعلى الجبل، لكنّ الإرادة خذلته، فعدل عن فكرته وعاد، لكنّ الحياة التي لم تكن عادلة معه، فكّرت أن تدخله من ثقب إبرة. عائدًا كان من القمّة والسماء كانت تهرق وابلها على جسده الصغير، وشعاب إغرم كانت تلهج بالحزن والوعيد. ولكي يرجع من حيث أتى، كان لزامًا أن يعبرها شعبة شعبة وعندما وصل إلى هذه..

وضربت بقدمي جفاف هذه الشعبة، لا دلالة على أنّها المعنيّة بالأمر بل احتجاجًا على أسى قذفته فيّ ذات حزن، وضربت بسبّابتي على السيجارة لأكسر رمادها، واسترسلت وأنا أتطلّع إلى جوليا وهي تنتظر كلماتي باهتمام واضح:

Twitter: @ketab_n

ـ حين تزغرد سماء هذه القرية بالويل، فإنّ لعنات السماء والأرض كلّها تتوحّد في هذه الشعاب التي يحيض ماؤها شيئًا فشيئًا، تنطلق صغيرة يصبّ بعضها في بعض إلى أن تنتهي إلى الوادي الكبير الذي ابتلع أيّما مرّة حقول إغرم والمنازل المتاخمة له.. قلتُ عَبَر أوداد هذه الشعاب، لكنّه حين انتهى إلى هذه، وشرع يعبرها، كان تدفّق الماء وتيّاره السريع أقوى من ثبات قدميه، وما هي إلّا لحظات، حتى تلاعب به مثلما تتلاعب أمواج البحر بقارب صغير، وجرَّه كما يجرّ قطعة خشب. وكلّما تقدّم إلى الأسفل كان تيّار الماء يزيد قوّة وعنفًا...

وتوقّفت عن الحكي. أشعلت سيجارة من أخرى! لا أبشع من أن تحكي عن حياتك وكأنّها لا تمتُّ لك بصلة! وأن تتقمّص حيادًا روائيًّا زائفًا وتمارس تلك المخاتلة والمراوغة اللفظيّة المتعبة، انتبهت صدفة وأنا أدهس عقب السيجارة إلى زرّ التسجيل مضغوطًا في مسجّلة جوليا، والتي سبق وصرّحت لي أنّها مدوّنة يوميّاتها الصوتيّة.. انتبهت بسرعة إلى عينيَّ المغروستين في المسجّلة، وبادرتني:

ـ عفوًا حبيبي، نسيت زرّ التسجيل مضغوطًا عندما كنت أسجِّل يوميّاتي قبل قليل.

وكبست بخفّة على زرّ التسجيل الأحمر، وأردفت:

ـ وماذا وقع بالضبط بعدما ابتلعه السيل. لا تقل إنّه جُرف إلى النهر؟

ـ بالضبط، هذا ما حصل. كلّ سيول الجبل تصبّ في النهر، ولكِ أن تتخيّلي كيف يكون نهر تصبُّ فيه كلّ سيول جبل عيّاش الضخم. أمّا أن ينجو طفل صغير من مخالبه، فقد كان الأمر بالنسبة لهم أقرب إلى المعجزة. كان أوداد يتمنّى لو لم ينزل الحظّ كفراشة

Twitter: @ketab_n

على كتفيه، لكنّ الحياة اختارته ربّما ـ كما قال لي فيما بعد ـ لتعذّبه أكثر. أيّ صدفة دفعت ذلك الفلّاح ليمدّ له يد النجاة! كان مغمى عليه والنهر يهدر بصخب ويجرف جثّته كخرقة بالية، لكن قوّة خفيّة ـ يقول أهل إغرم ـ هي نفسها التي عجّلت بوفاة سيدي عيسى، وأجّلت هلاك أوداد.

وأتعبني أن أتعامل مع نفسي بضمير الغائب، فكّرت لماذا لا أكاشف جوليا وأرتاح؟ لا، لست أقوى على نظرات شفقة من أحد. منذ تقيّأتني إغرم وأنا أضمّ سرّي إلى أضلعي خوفًا من تلك النظرات المتعاطفة والمبطّنة بالشفقة. قلت:

ـ لِمَ لا ننسى هذا الحديث الشجيّ أو نؤجّله إلى فرصة أخرى؟

ـ كما تريد.

وتوغّلت أصابعي بين خصلات شعرها الشقراء، وذبت في أزرق عينيها طويلاً، وهاجمني عطرها بسرعة، وبسرعة مضاعفة اعتلت خولة معراج الذاكرة... أوّاه لماذا أشمّكِ في عناق غيركِ؟ لماذا خلّفْتِ حتى في حاسّة شمّي ارتباطًا موجعًا بك؟

وفوق جفاف الشعبة التي مرَّ بي يومًا خصبها على مقربة من نوافذ الموت، كابدت التباس ماضي خولة بحاضر جوليا.. وذبنا في لهيب من القبل؛ وبين عتمة الحياة وتلك الفرحة البيضاء التي تنفجر من الخاصرة، كنت أراني أطفو فوق النهر البنّيّ الغاضب، تمامًا كأولئك الذين يُربطون إلى ثيران عنيفة بحبال قويّة، فتثور وتنتفض وتتحيّن فرصة مناسبة لسحقهم! هكذا كنت أقاوم انتفاضات النهر وطيشه القاتل بقلب بريء، لم يقترف جرمًا سوى أنّه عندما خيّره ملاكان شيطانان بين الحياةِ والعدم. اختارَ الحَياة.

Twitter: @ketab_n

(٥)

لست أدري على التحديد السبب الذي جعل د. بنهاشم يقترف خطأً طبيًّا وينصحني بالعودة إلى إغرم. على أيّ حال، نصيحته هذه لم تكن سوى قطرة جنون أفاضت الكأس، فمُذ جرَّتْني يد الحسين إلى تلك المدينة الشؤمِ، وأنا أطفئ فكرة العودة التي تشتعل من حين لآخر خلسة بين جوانحي، وعلى الرّغم من أنّني رأيت فيها أيّامًا سوداء إلّا أنّها كانت نعيمًا بالقياس إلى ما عشته في المدينة.

جوليا تسرق من ساعات بعد الظهيرة قيلولتها، وأنا في انتظار استيقاظها أدخّن بشراهة وأقلّب صفحات المجلّات والجرائد، علّني أجد فيها عناوين مثيرة أو تعنيني في شيء، فعيبُ إغرم أو فضلها ـ لست أدري ـ أنّ شبكات الاتّصال لا تغطّيها، وبالتالي فهي تقبع في عزلة جميلة، ومن سخريات القدر أو من رسائله المشفّرة أنّ التغطية الهاتفيّة تطال مقبرة إغرم وهضبة متاخمة لها، كأنّما الأموات أحوج إلى الاتّصال من الأحياء، لذلك لا غروّ في أن تجد عاشقيْن يجلس كلّ واحد منهما في جانب من المقبرة، تمامًا فوق جثث الأموات، وأعين

Twitter: @ketab_n

في الخفاء ترصد درجات اقتراب بعضهما بموازين الخطيئة، وكأنّ قدر الحبّ في بلدي أن يظلّ بين مطرقة الحياة وسندان الموت!

الحبّ عندما يكون أكبر من أصحابه لا يتنازل عنهم بل يبتلعهم، وهذا بالضبط ما حصل مع خولة.

لم أفهم لماذا جئت إلى هنا؟ ولماذا ألحّت عليّ فكرة شراء الفندق.. ولماذا بحثت أصلاً عن إغرم في شبكة الإنترنيت؟ لا شكّ أنّ الأمور تسير وفق هندسة خاصّة، وأنّ هناك تخطيطًا محكمًا يحرّك دواليبها.. التفتُّ إلى جوليا وهي تتقلّب فوق السرير وشعرها ينسدل كوشاح أصفر على وجهها، فلا يظهر منه سوى أنفها الدقيق الحادّ. جوليا لا تعلم أنّ عشيقها المغربي، وصديقه الافتراضي أوداد الذي غمرتُها بالقليل من أوجاعه، وجهان لجرح واحد، لو علمت أنّني أوداد ربّما كانت ستبكي جرحي الغائر. ولجوليا أحزانها أيضًا.. ذات ليل بارد في أحد فنادق (مارسيليا) الصغيرة، امتلأ قلبها خمرًا وحزنًا بعد سؤالي عن والدها، ابتلعنا صمت محرج بعدها وندمت على السؤال، لكنّها تداركت صمتها وأهرقت كأسًا أخرى في جوفها، امتلأت عيناها دمعًا وهي تصرخ بي:

ـ فعلاً تريد أن تعرف عن أبي؟

واقتربت، جلست على حافّة السرير وهي تقاوم الدمعة الأولى..

ـ لا أتذكّر أبي جيّدًا، تبدو صورته وتضمحلّ في سديم الذاكرة. تعود بي إلى سنوات الطفولة القصيّة، لكنّه لم يكن رجلاً حقيقيًا أبدًا. في لحظة مجنونة، قرّر أن يهجر زوجته وطفليه والعودة إلى ألمانيا ـ بحكم أنّه ألماني أصلاً ـ بحثًا عن حبّ قديم، قبل رحيله، كتب الجبان رسالة اعتذار وتركها في درج أمّي، أمّي التي ظلّت متماسكة

Twitter: @ketab_n

وقويّة، جمعتنا إلى صدرها أنا وأخي، وكانت تجيب عندما نلحّ في السؤال عنه أنّه سيعود وأنّ ظروف العمل أبعدته، وأنّ وأنّ. . . وعندما كبرنا أقرأتنا الرسالة وبكت طويلاً.

ارتمت جوليا لحظتها بين ذراعيّ وبكتْ. كانت أوّل مرّة أشهد فيها انخذالها، عانقتني طويلاً، لست أدري لماذا أحسست تلك اللحظة بإحساس أبوّة متعِب، وخفتُ أن يكون سرُّ تعلُّقها بي أنّني أسدُّ مَسَدَّ الأبوَّة الغائبة. . تمنّيت لو أنّني أصرخ في وجهها قائلاً: «على أيٍّ حال، أنتِ وجدتِ أمًّا تدفعُ عنكِ سخط الحياة ومرارة الحقيقة، وتجمعك أنت وأخاك إلى صدرها كما تفعل الكلبة بجرائها، أمّا أنا فقد وُلدت أعزل، ونهشتني خيبات الحياة». من عيوب البشر أنّ كلّ فرد لا ينفكّ ينظر إلى نفسه على أنّه صرّة الكون، وأنْ لا أحزان تفوق أحزانه! ولو أنّه حاول فهم أحزان الآخرين لكان فهم بالضبط كم هي عبثيّة هذه الحياة.

وأنا أقلّب صفحات المجلّات الأدبيّة، هاجمتني ذكريات ظننتها انطفأت، وكانت قصيدة «رسائل دون ردّ» والمهداة إلى (م. س) ـ أي إليّ، كفيلة بأن تضرم فتيل ذكريات صاحبتها، نضال. مرَّت سنين على قصّتنا الجميلة، كنت أتابع باستمرار منجزها الأدبي، لكنّني لم أكن أتوقّع يومًا أن أكون مستهدفًا شعريًا، تقول:

حبيبي. . .
يقولون إنّي جُنِنْتُ
يقولون عنّي
بأنّي ضحكتُ بلا سببٍ
وأنّي بلا سببٍ بكيتُ

Twitter: @ketab_n

يقولون إنِّي

إذا أمطر الكون في تعبِ

رقصتُ

وإنِّي بسطتُ على المرج شعري

وإنِّي بوحدةِ عيشي انتَشيْتُ

يقولونَ إنّي جننتُ

لأنّي إذا مرضتُ

ترقّيتُ باسمكَ حتى أرى العافيةْ

لأنّي أسابقُ طيفك فوق المروجِ

وفي الساقيةْ

لأنّي بحبّك دومًا جهرتُ

وخبرتُ من ولهي الحقل والبادية

يقولون إنّي جننتُ لأنّي رفضتُ

حياة القطيعِ

وقرّرتُ ألّا أكون سوى الراعيةْ

يقولون إنِّي جننتُ

لأنّي أحاربُ فيهم

أحارب لا الناهيةْ...

فاجأتني القصيدة فعلاً. أربكت ذاكرتي قليلاً، وعادت بي إلى سنوات الدراسة الجامعيّة إلى تسعينيّات (ظهر المهراز) التي لا تنسى. أتذكّرُ ليلة رأس سنة ١٩٩٥ حين قرّرت أن أنهي تلك القصّة العاطفيّة

Twitter: @ketab_n

التي جمعتني بنضال. أذكر جيّدًا أنّنا كنّا نمشي الهوينى جنبًا إلى جنب، والمطريّة السوداء كانت حزينة جدًّا لا تفلح في ردّ ضربات المطر الثقيلة؛ أمّا الساحة الجامعيّة فقد كانت شبه خالية، فجلُّ الغرباء الذين قادتهم أقدارهم إلى الحيّ الجامعيِّ، إمّا اغتنموا العطلة لزيارة ذويهم أو اختاروا المكوث في غرفهم هربًا من المطر وشراسة الإحساس الفادح بالغربة. لا زلت أذكر وجهها الطفوليَّ الجميل وشعرها الأسود الذي ينزل وشاحًا على ظهرها. كان في عينيها الواسعتين من الحزن ما يكفي ليغرقنا معًا، أمّا كلمات الفراق القاسية فقد كانت تنزل عليها قاسية باردة. أمّا ونحن ننزلقُ صوب منتصف الليل، فقد رمت نضال مطريّتها والتجأنا إلى إحدى الزوايا النائية وبقينا مكشوفين يجلدنا المطر.. وما وقع بالضبط بعدها فقط، كان أشبه بمشهد سينمائي دراميّ أو فصل روائيّ حزين. كان أوّل ما فعلناه أن اشتبكنا في عناق طويل لم نستيقظ منه إلّا ودمعات ساخنة تشقّ خدّيها. شعرت لحظتها بفداحة الأمر، فتمسّكت بي بقوّة وبكت بقوّة مضاعفة وافترقنا. تشابكت الأمور بعدها في عينيَّ إلى حدود أنّني أصبت بعمى القلب بعدها ولسنوات. كلّ ما في الأمر أنّ علاقتنا انبنت على ما يدمّرها، هذا كلّ ما في الأمر.

كانت نضال اسمًا على مسمّى، لم أرَ في حياتي من كان اسمه يصوِّبه مثلها، ولا غرو في ذلك، فقد ولدت في عائلة مناضلة. ربّها ابتلعته الأقبية والسجون ولم يُعرف إن كان لا يزال على قيد الحياة أم طواه الردى تحت آلات التعذيب التي لا ترحم، هكذا كبرت نضال وهي تحمل داخلها ذلك الفراغ المهول الذي خلّفه غياب الأب، الذي حمّلها من خلال اسمها ودون مشورتها عبئًا ثقيلاً هو نفسه رسالته في الحياة: النضال.

Twitter: @ketab_n

التقيتها في سنتي الجامعيّة الأولى. كانت تجمعنا أوّل الأمر أحاديث فضفاضةٌ ومتشعّبة لا تنتهي، وفي السنة الثانية، بدأت أتغلغل داخلها وأميط اللثام عن أوجاعها، وسحبتني مأساتها إلى اليسار الجامعي. صحيح أنّني كنت على أتمّ الجاهزيّة للالتحاق بهذا الفصيل، وذلك بحكم ما اطّلعت عليه في مكتبة مصطفى ـ هذا الملاك الذي آواني من وحشة الأزقّة، كان أحد المناضلين السبعينيين الأشدّ تمسّكًا باليسار؛ ورغم أنّه كان يتحاشى استمالتي لمذهبه السياسي، إلّا أنّني وجدت في كتبه سلوة. وكانت نضال قطرة أفاضت الكأس ودفعتني إلى أن أحسم بشكل نهائي اختياراتي الإيديولوجيّة بالطبع في تلك المرحلة. هكذا تأسّس حبّنا على السياسة وانهار كذلك حين زعزعت بعض الأحداث قناعاتي السياسيّة. أجمل ما ميّز الرفيقة نضال أنّها كانت تدافع عن قضيّة شخصيّة وإنسانيّة في آن، فمن خلال دفاعها عن أحقّيّة المستضعفين في حياة كريمة، كانت تنتقم لوالدها أيضًا. في قلب المواجهات مع قوى الأمن، كانت عيناها تضجّان غضبًا، كنت أقرأ من خلالهما أنّها خُلقت فعلاً للنضال. أمّا الآن، فلست أدري كيف حالت بها الحال من بعدي، سمعت مرارًا أنّ السجن ابتلعها ولفظها؛ لكن بعد مرور أقلّ من عامين على تراجيديا فراقنا، سحبتها دوّامة النسيان إلى القعر، ولم تلفظها إلّا مؤخّرًا على صفحات المجلّات وبعض المواقع الأدبيّة.

ولكن لماذا الشعر؟ ولماذا أنا والآن؟ زاغ بصري عن القصيدة التي أفاضت من الذكريات بعيدها، إلى جوليا وهي تنفض عنها قيلولتها وتصفّف شعرها. جوليا مأخوذة بأدوات زينتها، هي تحبُّ ـ كما تقول ـ أن تعيش كلّ دقيقة على أنّها الأخيرة. فالجمال ـ تضيف ـ حياته قصيرة ينبغي أن نستهلك أكبر قدر منها، جوليا تؤمن بأنّ القليل من

Twitter: @ketab_n

الجنون قد يُصلح كثيرًا من الأعطابِ التي تخلّفها الحياة في القلب.. جوليا تطوّق خصرها العاري بيديها كعارضات الأزياء، وتقترب شيئًا فشيئًا وعطشي إليها يقفز، ودمي يشتعل ويميط ذلك الشيطان الصغير الذي يعشّش داخلي اللثامَ عن وجهه الأحمر، وترتفع قرونه المتشابكة كقرون الأيائل، فتخدش الجدران الداخليّة لجسدي.

Twitter: @ketab_n

(٦)

إغرم لم تتغيّر كما خمّنت، وصباحاتها الصيفيّة متشابهة إلى درجة ينتفي معها مفهوم الزمن!. الجبل لا يزال شامخًا كعهدي به وقطعان البقر لا زالت تسعى بين الحقول، أمّا المعاول، معاول الفلّاحين الكادحين، فإنّها تعلو لتطاول الجبل وتهوي بالخصب والحياة، حتى الوجوه الصلبة التي تتعانق فيها السمرة بالحمرة لم تتغيّر، لا زالت تتصبّب عرقًا وتتطلّع بين فينة وأخرى إلى الأعالي، كأنّها تنتظر حبيبًا قد يعود. أهل إغرم متشابهون إلى حدّ مزعج، ها إنّ بعضهم يتّكئون على معاولهم ويتطلّعون إلى الغريبيْن البعيديْن بفضول مفضوح: أنا وجوليا.

كنّا نمرُّ أنا والغريبةُ قرب حقولهم حين اعترضَ طريقنا ثلاثة أطفال، وناولونا حبّات تينٍ تقاسمناها مناصفة. كنت مأخوذًا بملامح هؤلاء الصبية وكركراتهم، وبأحاديثهم الأمازيغيّة الجميلة، وكانت طفولتي تنتفضُ فيَّ وتنبعثِ على غفلة منّي من رمادها.. راقبتهم وهم يتهامسون بكلمات غير مفهومة، ثم وهم يتسابقون نحو ذويهم ببراءة

Twitter: @ketab_n

تتدفّق من خطواتهم. لم أكن أرى فيهم سوى طفولتي التي استنزفتها الحياة بسرعة.

لم يعرفوني، ولم يكلّفوا أنفسَهم مشقّة البحث في شرائط الماضي الهامشيّة عن طفل كُنْتُه، عن وجه يشبهني. . لم يحاولوا تذكّر ذلك الطفل الضالّ والمنسي، الذي مرّت طفولته من هنا بخطوات قلقة، وانغرس كشتلة في تربة إغرم إلى أن اقتلعه أهلها بحجّة أنّه لا يستحقّها.

في لحظة مخبولة، قال شيخ إغرم ـ بعد أن توالت أيّام عجاف على القرية ـ إنّ أوداد لعنة يجب الفكاك منها. . أَسَرَّ بهذه الخاطرة إلى بعض رجال القرية، إلّا أنّها انتشرت في القرية انتشار النار في الهشيم ووجدت في بعض الأحداث ما يدعمها. . كان أهمّها نجاة أوداد من مخالب الوادي الشرسة التي لا تلفظ ضحيَّتها إلّا جثّة. ولأنّ كلّ فكرة تنطلق بسيطة ثم تتطوّر شيئًا فشيئًا، وتستحيل إلى ملحمة محلِّيّة بعد أن تلوكها ألسنة الناس، فإنّ فكرة اللعنة هذه جعلت البعض يبالغُ، ويقول إنّه سليل الوعول عندما لاحظوا ارتباطه الوثيق بفضاءاتهم، أمّا فقيه القرية فقال إنّه (أي أوداد) قد يكون نتيجة لتزاوج إنسيٍّ بجنِّيّة. . . قالوا كلامًا كثيرًا، كان بعضه يتناهى إلى مسمعه، والبعض الآخر يستشعره في نظرات الناس المبطّنة بخوفٍ كبير. . هكذا كان أهل إغرم ـ وربّما لا يزالون ـ لا يهدأ لهم بال حتى يغلّفوا أيّ شيء يَشُذُّ عن نمط حياتهم بذلك الحسّ الأسطوري. . لكن خلف كلّ ما قيل حقيقة مرّة لم تُقل، ربّما كانت هي أوّل ما فكّر فيه شيخ القبيلة، إنّها نسل القرية الذي لا ينبغي أن تجانسه دماء طفل مجهول الهويّة. . لا ينبغي أن يظلّ أوداد في القرية، لكي لا يدنّس الدماء النقيّة والموحّدة التي تسري في شرايين كلّ فرد من أفرادها. . .

Twitter: @ketab_n

لمّا عُجنا على ذلك الزقاق الصغير الذي لا يقود إلّا إلى منزل امحند، ومنه إلى تَلِّ العرعار والمقبرة، كان قلبي يزدحم بملايين الأحاسيس المتناقضة التي كانت تُذْكيها الروائح التي يعبق بها المكان. أعرف هذه الطريق وأحفظها عن ظهر قلب، فكيف لم تخرِّب يد الزمان هندستها، وكيف لم تذهب بروائحها المتداخلة والمتناقضة؟ هنا مرّت طفولتي.. كم تعثّرت أيّام صباي بهذه الصخور الحادّة الناتئة! كم مررت من هنا باكيًا، وكم عدت إلى هنا مخرّب القلب! هذا الزقاق الصغير المغطّى نصفه بطبقة من التبن والطين تحملها أعمدة كبيرة والكثير من القصب، لا يزال محفورًا في الذاكرة، لكأنّ سنينًا من الرياح والسيول والشمس الحادّة ما مرّت به! هكذا ظلَّ ـ كما ظلّت القرية كلّها ـ شامخًا ومتماسكًا، لا قسوة الأيّام ولا أنَّاتُ الطبيعة تغيِّر فيه شيئًا. وكان حريًّا بي أن أخاطب إغرم بلسان جميل بثينة قائلاً: فكيف كبرتُ ولم تكبري؟

حرّكت جوليا ذراعي حينما لاحظت غيابي، فالتفتُّ إليها. كنت أعلم جيّدًا أنّ ملامحي ستخذلني إذا ما انتهى هذا الزقاق إلى وجه أحد سكّان المنزل، الذي كان ذات يوم ملجأي، قلت:

ـ هي الذاكرة يا حبيبتي، تصحو بعنف حين تستفزّها الحواسّ. الجدران الصلبة وهذه الروائح وكلّ شيء في هذا الفضاء يعود بي سنوات إلى الوراء.

أمّا ونحن ندنو من نهاية الزقاق، فقد كنت خائفًا من أمرين اثنين: أن تسأل جوليا عن طفولتي، أو أن ينكشف أمامي وجه امحند أو زوجته أو أحد أبنائه. لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، ظلّت جوليا صامتة كأنّما أحسَّت أنّني أنزف ذكرياتٍ، فاحترمت نزيفي والتزمت الصمت. مررنا قرب منزل امحند في طريقنا إلى تلّ العرعار والمقبرة ـ

Twitter: @ketab_n

المكان الوحيد الذي تحكمه التغطية الهاتفيّة. كان الباب الخشبيّ الكبير مغلقًا، وحده الباب تغيّر قليلاً وأثّرت عليه قسوة الأيّام. أمّا ما دون الباب، فإنّي أمرّ به كأنّي ما رحلت ولا مرّ أزيد من عقدين على غيابي.

عندما انتهينا إلى تلّة العرعار الصغيرة، التي تطِلُّ كشرفة على المقبرة، افترقنا، انصرفت جوليا إلى هاتفها وانصرفت إلى هاتفي، كان الفضاء خاليًا إلّا من أشباح أشخاص بعيدين، كانت نباتات العرعار والدوم وأزير تملأ المكان خضرة، وتضفي عليه روائح ساحرة لا يفهم سرّها إلّا من ترعرع بينها.

ـ الرسالة الخطيّة الأولى: علي السليماني «لا تجعل العمل جُلّ ما يجمعنا... اشتقنا إلى صحبتك».

ـ الرسالة الخطّيّة الثانية: رقم مجهول «اشتقت إلى الغريب الذي ألجأته القصيدة إلى أحضاني.. وغاب».

ـ الرسالة الخطّيّة الصوتيّة الأولى: المهدي بن هاشم، الطبيب النفسي «ظهرت نتائج الفحص العصبيّ على العموم لا بأس بها، زرنا بعد خمسة عشر يومًا. حافظ على هدوئك ولا تنسَ تناول الدواء في مواعيده. عطلة سعيدة».

ـ الرسالة الصوتيّة الثانية: اندفع صوتها الذي لم تغيّره أصابعُ الزمان، قالت نضال:

«حبيبي هم اتَّهموني

وقالوا جننتُ

وهم أبعدوني لأنّي عشقتُ

Twitter: @ketab_n

سأهواك حتى تفيض الجبال دموعًا
وتُغرق من ظلموني
إلى أن تختار أنت الرجوعا
سأهواك حتى التفتُّتْ،
حتى التفكّك في الحبّ حدّ التشتّت،
وحتى أصير شموعا
وحتى يوحّد الحزن فيّ الغرام
سأهواك حتى يدمّر منّي الضلوعا

هكذا داهمني صوتها رقيقًا كأنّها لم تبتعد أكثر من عقدين: ماذا تريد نضال من هذه الغارات الشعريّة؟ ومن أين حصلت على الرّقم الهاتفي؟

في تلّة العرعار قرب المقبرة، تبدو منازل إغرم كمتجرّدةٍ تستلقي على السفح في أوجّ زينتها، أو هكذا تخيّلتها على الأقلّ! أجريت بعض المكالمات القصيرة، وتأمّلت جوليا وهي تناجي مسجّلتها الرماديّة وتراوغ القبور بمهارة واحترام. جوليا تخبر مسجّلتها عن أيّامها، وأنا أعيد الاستماع إلى شعر نضال، وأستعيد صورتها القديمة وشفتيها المكتنزتين وغمّازتيها إذ تتطلّع إليّ مبتسمة، علاوة على الشال الفلسطيني الذي يفضح انتماءها الإيديولوجي. أذكر قولها يوم وافقتْ على ارتباطنا العاطفي:

ـ أنا أيضًا، لن أقاوم هذا الإحساس الذي تناسل خلسة بين أضلعي. أريدك لا نصفي الآخر، لأنّي لست نصفًا كما صرّح غيفارا. ولكن أريدك لي وحدي أنا، وأنت وكلّ مضطهد سنثأر لشهدائنا... لأبي.

Twitter: @ketab_n

وأجبت، أذكر ذلك جيّدًا:

ـ أنا وأنت إلى الأبد.

وأيضًا، أذكر أنّني سخرتُ في سرّي من كلمة «الأبد»! من هذا النفاق العاطفي الذي طالما ورّطت نفسي فيه، ما أتعبني وأقسى الذكريات! أخذت رقم نضال من علبتي الصوتيّة، وركّبته دون أن أكون واعيًا بما أفعل. وفي تلك اللحظة المخبولة التي سبقت رنين الهاتف، أحسست أنّني أقدم على حماقة أخرى. فكّرت للحظات بالتراجع، لكنَّ صوتًا ما داخلي همس: «ليست حياتك سوى سلسلة حماقات، فتمادى».

ـ آلو من؟

انطلق صوتها أدفأ من التسجيل الذي سمعته، وأقوى. أجبت:

ـ أنا مراد السيّئ الحظّ.

ـ كيف حالك مراد... كنت أنتظر هذه المخابرة طويلاً.

قاطعتها بانفعال واضح:

ـ نضال؟

ـ ماذا؟

ـ لماذا الشعر؟

ضحكتْ، ربّما استغرابًا من السؤال الذي لم يأت به سياق الكلام، وقالت:

ـ ولماذا الحبّ؟ ولماذا الفنّ؟ هناك أشياء تقتحمنا يا مراد، وتوطّد علاقاتنا بها وتحتَلُّنا بخفّة، وأنا ـ إن شئت ـ اعتبرني مستعمرة جديدة لك وللشعر.

Twitter: @ketab_n

ـ ولماذا أنا؟

ـ لأنّك أنتَ. . . أقصد لأنّك الشخص الوحيد الذي لم أُشف منه.

ـ ولكنّني نسيتكِ.

ـ ولكنّني قاومت نسيانَكَ.

ـ لِنلتقِ. . .

هكذا، تورّطت سهوًا. . وأحسست في تلك اللحظة أنّني أجرّ نفسي نحو حرب خاسرة أخرى. أجابت بسرعة لكي تحبط أيّ محاولة منّي للتراجع.

ـ أينك الآن؟

ـ أنا بين الجنّة والنار.

ـ ومتى ستحسم. . أقصد متى ستختار؟

ـ لست أدري. .

ـ صدقًا مراد، أتوجد منطقة بين الجنّة والنار لم ترصدها حواسّ نزار قباني الشعريّة؟

ـ نعم. هي إغرم.

ـ وما محلّ إغرم هذه من الجغرافيا؟

ـ في سفوح جبل عيّاش.

ـ هل أنت وحدك؟

ـ أنا معهما.

ـ من؟

Twitter: @ketab_n

ـ إغرم وجوليا.

ـ على أيّ حال، أتمنّى ألّا تبخل علينا أقدارنا المجنونة بلقاء.

ـ اسألي الأقدار إذن.. قد تجيبك.

ـ اشتقت إلى أيّامك... فلنبق على اتّصال.

ـ أنا متعب. أخاف أن يستهلك الماضي كلّ حياتي.. أقصد أنا خارج التغطية.

ودون أدنى وعي منّي، قلت:

ـ وداعًا.

وأقفلت الخطّ، وأنا أغالب الذكريات التي حرّكت نضال جمرها... حتى هذه القرية التي لم أبرأ منها، أضحت تقسم أنّها ستخرّب حياتي التي كلّما رمّمت جزءًا منها انهدم جزء آخر.

جوليا قادمة كأمل بعيد، والرياح الخفيفة تهزُّ سنابل شعرها، فيبدو وجهها أكثر إشراقًا ونضارة. قبّلت وجنتها بحبّ وطوّقتْ ذراعيَّ، وانسحبنا مترنّحيْن نراوغ الصخور ونباتات أزير.. تلك التي أخذتُ منها غصنًا صغيرًا ووضعته فوق أذن جوليا، ولم أكن أدرك أنّ الطريق التي كانت سالكة في الذهاب لن تكون كذلك في الإياب، بل وستكون محفوفة بالمخاطر. لم أكن أعرف أنّ الأقدار ستضع أمامي ألغام الماضي، التي ما إن تمتدّ إلى نطاقها عيناي حتى تميد بي الأرض، وتنفجر قنابل الذكريات العنقوديّة التي تطوّق صدري.

كانت جوليا لا تزال تطوّق ذراعيَّ.. حين انتصبت أحزاني أمامي فجأة.. أبصرت عجوزًا تجلس على عتبة الباب الذي كان ذات يوم باب ملجأي الأوّل.. لم أعرف أيّ إحساس ألحّ عليّ في تلك اللحظة

Twitter: @ketab_n

أن أدنو منها، ففي دواخلي كنت أجزم أنّ كلّ ما يقع لي من تدبير منتقم في مكان ما.

حين وقفت أمامها، لم تكلّف نفسها مشقّة التطلّع إليّ، تتبّعتُ تفاصيل وجهها كأنّني أستنطقه. كانت مقوّسة الظهر، تضع معطفًا صوفيًّا أخضر باليًا وغطاء أمازيغيًّا أزرق على رأسها، يكشف عن خصلات شعر حمراء أدمتها الحنّاء فأصبحت كزغب الذرة. وكان الوشمان، الأوّل الذي يستقرّ أسفل ذقنها؛ والثاني الذي يتوسّط جبينها، كفيلين بأن يقولا إنّها هي لا غيرها.. نعم هي، زوجة امحند.

أمّا في تلك اللحظة التي تطلّعت فيها إلى يدها المبتورة من معصمها، فقد غلّفني إحساس بشع بالغثيان.. ولاحت في مقلتيَّ أصداء ذكريات عن آخر عهدي بهذا المنزل وهذه السيّدة العجوز.. أمّا وجوليا تأخذ ذراعي قائلة:

ـ ما الأمر؟ لنرحل يا حبيبي.

فقد تطلّعتْ إلينا العجوز بعينين غائرتين وفارغتين من أيّ معنى، كان كلّ شيء فيهما يقول إنّها لا ترانا، إنّها ضريرة.. سحبتني ـ ولا أدري كيف ـ يد جوليا إلى الزقاق الذي أسلمنا أوّل الأمر إلى هذا الفضاء، وكلمات العجوز الأمازيغيّة المستفهمة لا تزال تلاحقني، ووجهها الجافّ الأقرب إلى مستنقع يابس فعلتْ به التجاعيد ما شاءت ظلَّ جاثمًا على مخيّلتي لا يبرحُها. ومضينا صامتين.. فرحتُ قليلاً لأنّ جوليا لم تسأل عن سرّ هذا الوقوف الاضطراري أمام تلك العجوز، لكنّني في تلك اللحظات القليلة التي وقفت فيها أمام ماضيَّ، التفتُّ إلى هشاشتي الداخليّة، وأيقنت أنّ حياتي من الممكن أن تنجرف نحو تخوم مأساويّة جدًّا.

Twitter: @ketab_n

ونحن نقترب من الفندق، وبعد محاولات جوليا المتكرّرة إخراجي من تلك الغيبوبة النفسيّة التي أصابتني بعد رؤية تلك العجوز، قالت:

ـ سأرحل يا مراد.

نزلت عليَّ كلماتها المقتضبة كنزفٍ، لكنّني قاومته على مضض. وأجبت ببرود مصطنع:

ـ إلى أين؟

ـ مراكش.. أخي قدم إلى المغرب وألحّ على لقائي.

ـ إذن، ستخلفينني هنا مهملاً ووحيدًا؟

ـ هي أيّام قليلة، وأعود.

ـ فليكن.. لك ما شئتِ.

فلترحل إذا شاءت، فأنا لم أربح في حياتي شخصًا لأخسره، هكذا كان العالم من حولي يُشيَّدُ وينهار باستمرار، وأنا أقف في فوضاه كمسمار مدقوق بإحكام. كلّ الذين أحبّهم وحتى الذين أكرههم رحلوا دون أن يلتفتوا إلى أنّني أنزف.

حين دخلنا إلى مقهى الفندق، وجدناه مكتظًّا بالأجانب، تساءلت في سرّي: أَيَرُونَ إغرم حقًّا؟ كان بعضهم غارقًا في دردشات تخصّ سحر الطبيعة، والبعض يأخذ صورًا مع حميد وأطفاله.. التفتُّ إلى رجل غريب يجلسُ في الطرف القصيّ من المقهى، كانت عباءته القصيرة وجواربه الطويلة التي لا شكّ تصل إلى حدود ركبتيه كفيلةً بأنّ تقول أشياء عنه، على الرّغم أنّه يولي للحاضرين ظهره. لمّا استدار قليلاً كانت لحيته المسبلة تهتزُّ في دلالة على أنّه يلهجُ بكلمات رجّحتُ

Twitter: @ketab_n

أن تكون دينيّة، وأيقظ فيّ مخاوف كانت نائمة، فسحبت جوليا التي كانت قد انغمست في إحدى الدردشات من ذراعها، ومضينا إلى الغرفة. كان منظر ذلك الرجل الغريب يثير داخلي أسئلة وظلال مخاوف، خلتها انطفأتْ مع الزمن، وتذكّرت وجه مصطفى الذي احترق في حفلة الشواء الآدمي التي نظّمها رعاة الظلام. لست أنسى تلك اللحظة التي سحبه فيها ضابط الشرطة من ثلّاجة الموتى، وأماط الغطاء ببطء قاتل على وجه احترق نصفه.

كلّ الذين أحبّهم يرحلون...

Twitter: @ketab_n

(٧)

رحلت جوليا هذا الصباح، أَمَطْنا معًا الغطاء على سيّارة الجيب الرياضيّة خاصّتها. عانقتها طويلاً، وراقبت سيّارتها وهي تصعد الطريق الطويلة الملتوية وتجرّ ذيلاً من الغبار والحزن، لم أكن أتصوّر مطلقًا أنّ غيابها سيذكّرني بفداحةِ وحدتي. ها أنتَ وحدك يا مراد في هذا الفضاء المشحون بالذكريات، هنا ستواجه ماضيك وأناكَ المنسيّ: أوداد.

هنا، في هذا الملعب الذي لم يعد ملعبك، ستواجه الحياة، حياتك في أشواطها الإضافيّة الأخيرة، فكرة الانتصار التي منَّاكَ بها طبيبك النفسي بدأت تضمحلّ وتتلاشى، ولم يبقَ أمامك سوى أمرين اثنين أحلاهما مرّ: إمّا الهزيمة وإمّا الخروج بتعادل سلبيّ وقلب معطوب. رحلت جوليا بعد أن خبّأت في فيروز عينيها شذرات من طفولة الوعل الأمازيغي: أوداد. إنّها تفهم جيّدًا بؤسي ربّما منذ اللحظة التي رأت ـ دون أن تستفهم ـ تلك الندوب العريضة التي تشقّ كأخاديد ظهريَ، لكنّها بعد ما سمعت عن أوداد ما سمعت، تكاد تجزم أنّ

Twitter: @ketab_n

«أتعسَ منه لم تلد النساءُ..».!

لا تدري بأنّ حزني وحزنه واحد...

الآن، وأنا أخترق هذه الشعبة التي مرّ بي ذات حزن خصبها، وجرّني إلى موت كنت أشتهيه لولا يد (من خلال الموج) مدّت لاستعادتي أشعلُ سيجارة بانفعال، لن أنسى ذلك اليوم الماطر الذي راودني فيه الموت هامسًا: هيتَ لك. أخذتُ نَفَسًا من السيجارة، وأنا أتطلّع إلى الطرف الآخر من الجبل، تمامًا إلى قطيع خراف ينتشر بهندسة غير مفهومة.. لو جرّني الموت في ذلك اليوم الحزين، أو على الأقلّ لو لم تخنِّي الشجاعة أمام الهاوية السحيقة، لكنت أعفيتُ الكثيرين من نهاياتهم البائسة، وعلى رأسهم خولة. لطالما شعرت أنّ كلّ من يحبّونني بشغف أو يكرهونني بقوّة يلقون المصير نفسه، إذ يدفعون حياتهم ثمنًا لحياتي التي كان من المفروض أن تنتهي بقفزة من رأس الجبل.. وكانت الجدّة أمّ امحند، التي دفعتني إلى التفكير في الانتحار، أوّل ضحيّة لِلَعْنَتِي، فبعد أسابيع قليلة من نجاتي من بين فكّي النهر الهائج، وفي إحدى صباحات إغرم المشرقة بعد أسابيع من المطر، ظلَّت العجوز في المنزل في الوقت الذي تنسحب إغرم إلى الحقول، في مطبخ العائلة هناك، في ذلك المكان الذي يعلوه الكثير من السواد ويتوسّطه الفرن الطينيّ، الذي ما إن يبتلع القليل من الخشب حتى يهدر ويصدر أصواتًا أشبه باصطخاب الأمواج. المهمّ هناك، وفي ذلك الصباح الذي يقول أهل القرية إنّهم لم يشهدوا مثله، ستتحرّر ألسنة اللهب ـ ولا أدري ولا أحد يدري كيف ـ من الجدران الطينيّة للفرن، وستزحف كحيّة وتبتلع في طريقها إلى جسد العجوز الأخضرَ واليابس. كنتُ يومها ـ ولا أدري أيّ الصدف العمياء جرّتني إلى هناك ـ قرب المنزل، حيث انتهت إلى مسمعي استغاثاتها المبحوحة،

Twitter: @ketab_n

واندفعت أعمدة الدخان من النوافذ كسربِ غربان. . كان صوتها يعلو شيئًا فشيئًا إلى أن صار أقرب إلى مواء قطط متشاجرة. أذكر جيّدًا أنّ سرب الحمام، الذي كان يرابط في سطح المنزل، قد رفرفَ دفعة واحدة. حين اقتربت خطوات ذلك الرجل المسرعة، وما إن سمع أصوات العجوز ورأى أعمدة الدخان حتى انطلق كسهم إلى الحقول؛ أمّا أنا، فلم أبرح مكاني كأنّما صرت وتدًا دُقّ قرب المنزل بإحكام، راقبت أصوات العجوز وهي تفقد قوّتها وقسوتها وتخفت، إلى أن أصبحت أشبه بنشيجي في ذلك اليوم المشؤوم الذي اضطرّتني فيه إلى التفكير بالانتحار. .

أمّا ما تلا تلك اللحظات الغامضة التي انكسر فيها صوتها، فقد كانت أشبه ما يكون بكابوس مزعج، بسرعة اندفعت القرية كلّها وتحلّقتْ حول الباب الذي دفعه أحدهم، فإذا الدخان يندفعُ أكثر سوادًا. في لحظات قليلة، صار أهل القرية يدًا واحدة تدنو وتبتعد من الحريق؛ أمّا الماء الذي كانت تستقدمه النساء من النهر، وغالبًا ما يتأخّر، كان لا يزيد النار إلّا جبروتًا وتحدِّيًا، لكن، ولأنّ لكلّ أمر نهاية، أو لأنّ النار قد قضت مأربها، أو لأنّها ـ وهذا الأرجح ـ كلّت أمام هذه اليد القويّة التي تجتمع على الأفراح والمسرّات، فقد أصبحت أقلّ مقاومة ثم ما فتئت أن انطفأت فجأة.

تحلّق أهل القرية كلّهم حول الباب بعد إخماد الحريق، كان الأمر بعد إبعاد مقصود لامحند. تقدّمت زوجته بجسارة غير محسوبة ودخلت المنزل، ولحق بها شابّان اثنان، هؤلاء لم يكونوا مدركين أنّهم يسيرون نحو الجحيم بتسرُّع أقرب إلى البلادة، بينما ظلّ الكلّ تلوكه مدية الانتظار. قيل إنّهم لم يجدوا سوى القليل القليل منها، وقيل أيضًا إنّ ملامح وجهها اختفت، وإنّ جلدتها انسلخت وأصبحت أشبه ما يكون

Twitter: @ketab_n

بحبّة بطاطس مسلوقة، لكنّ الأمر المؤكّد هو أنّ حجم ذلك الشيء الذي كان ينام تحت الغطاء الأبيض الذي تعلوه بقع قاتمة السواد ليس حجم جسدها. وأنا أقف أمام بقايا العجوز، فقد كنت أقف بين الغبطة والشفقة حسيرًا.

وما هي إلّا أيّام معدودة حتى انفجرت في القرية مصيبة أخرى، فاللعنة لعنتي ـ كما يؤكّد شيخ القبيلة ـ امتدّت لتشمل زوجة امحند والشابّين الآخرين اللذين تطوّعا لإخراج العجوز بعد إخماد الجحيم، إذ اكتشفت الزوجة ومعها الشابّان أنّ جلدة الجدّة المسلوقة بعد إخراجها من المنزل قد التصقت بأياديهم التصاقًا مَرَضيًّا، في البدء عالجوا الأمر بالغسل المتكرِّر، وفيما بعد شرعوا في وضع بعض الأعشاب والدهون التي نصح بها فقيه القرية، لكنّ ذلك لم يؤتِ أُكُله، واستمرّت المعاناة، ومع تقدُّم الوقت، بدأت تعلو أياديهم بعض الندوب والتورُّمات التي تنفجر بالقيح والروائح النتنة!

بعد ما وقع من أحداث، لم تعد القرية كما كانت، صاروا أكثر انفعالاً من ذي قبل. حتى إنّ أبسط الأشياء صارت تستفزُّهم. أُجِّلتْ كلُّ الأعراس التي كانت مقرّرةً إلى أجل غير مسمًّى، حتى الأفراح الطارئة كميلاد طفل أو عودة غائب، كانت تُستقبل بفرح بائس يائس وملتبس بالخوف، الخوف من أنّ اللعنة تتربّص بكلّ فرح في القرية.

وكانت حياتي بعد ذلك مُرَّة جدًّا...

صار لسان شيخ القبيلة وزبانيّته أحدَّ من السيف، قال بأنّ الموت ابتلع روح العجوز لمّا فشل في أخذ أوداد، وأنّ لعنته لن تكتفي بروح العجوز، بل ستسعى كحيّة حتى تبتلع القرية كلّها.. لم أسمع هذا الكلام صراحة، لكنّني استشعرته في نظراتهم التي صارت أكثر توجُّسًا،

Twitter: @ketab_n

حتى امحند الذي كان أكثرهم رأفة بي، أصبحت نظراته تجاهي بعد هلاك أمّه غامضةً، وكلماته وأوامره المقتضبة الجافّة أقرب إلى القسوة، أمّا زوجته، وبعد إصابة يديها بتلك القروح التي أبَتْ أن تمَّحي، فقاطعتني نهائيًّا. وكنت، حين ينشر الليل وشاحه القاسي على القرية، أصيخ السمع إلى حواراتهما الليليّة. كانت لا تنفكّ تلحُّ عليه بضرورة إبعادي، بحجّة أنّ بقائي استمرار لمحنتها وأنّ رحيلي قد ينهي مرضها.

امحند، الذي كان أوّل الأمر متحفّظًا في النقاش، صار في الليالي المقبلة أكثر استعدادًا للسماع وبسط الموضوع، لا سيّما وأنّها تلوك الموضوع ليلاً، وأهل القرية ـ وعلى رأسهم شيخها ـ يلوكونها على مسمعه نهارًا. بمرور أشهر قليلة على الحريق الذي ابتلع أمّ امحند، وبعد أن فهمتُ أنّ وجودي في ذلك المنزل أمر غير مرغوب فيه مطلقًا، صرت أقلّ تردّدًا عليه. أحيانًا كنت أعود إليه للمبيت فقط، أمّا أغلب الأوقات، فقد كنت أفرُّ من المدرسة البعيدة إلى الجبل، وأحاول عبثًا اصطياد الأرانب التي تظهر وتختفي بلمح البصر، وحين أعجز عن اللحاق بها، أرشق الحجل بالحجارة. لكن أسعد اللحظات هي تلك التي أقضيها في مراقبة الوعول وهيَ تتسلّق الجبل بمهارة؛ ثم بعد هذه المتعة التي لا تضاهيها متعة، أَمُرُّ على الحقول آكل ما شئت، ثم أفرُّ من نظرات أصحابها إلى الجبل، أمرُّ لمامًا على مقام سيدي عيسى أحدِّثه فلا يجيب، فأنشر دفاتري قربه وأراجع دروسي، وأتطلَّع بين الفينة والأخرى إلى شجرة التين التي طالما كان يحكي عنها امحند.

كانت وقتها بعيدة عن متناول يدي. . .

حين اقترب صيفي الأخير بإغرم، وقتها كنت في نهايات المرحلة الدراسيّة الابتدائيّة والتي كانت منتهى تدريس أهل القرية. فإذا كان

Twitter: @ketab_n

تجشّم بضعة كيلومترات من أجل الدراسة أمرًا ممكنا، فإنّ السفر خارج إغرم ـ قصد متابعة الدراسة، أمر غير مقبول. فالمكان الحقيقي لأبناء القرية مسطّرٌ سلفًا، إنّه الحقل.. وما هي إلّا أربع سنوات أو خمس حتى يتزوّج أقراني ويصيروا آباء كذلك، هكذا يصبحون امتدادًا لآبائهم وربّما يفرضون على أبنائهم أن يصيروا مثلهم، أو بالأحرى امتدادًا لهم. أمّا أنا، فقد كان مصيري معلّقًا، أنا الطفل الغريب الأطوار.. في تلك الأيّام العصيبة التي سكنتني فيها فضاءات إغرم الأشدّ عزلة. كان ناسها ينفرون منّي دون أدنى سبب كأنّي مُصاب بعدوى، حتى امحند كان يخاطبني ببرود، ودون أن يتجشّم مشقّة النظر إليّ! وقتها فهمت أنّ وجودي في القرية أضحى أمرًا مستحيلاً، وأنّ الفراق مسألة وقت وحسب.

وكانت الأقدار أو الصدف الملعونة وراء كلّ ما حصل بعد ذلك. في صيفي الأخير وقتئذ، زار إغرم رجل غريب، قريب للرجل الذي انتشلني من بين فكّيْ الوادي، علمت فيما بعد أنّه كان حاضرًا يوم تحرّش بي الموت، وأنّه في ذلك اليوم الحزين، فكَّر أن يتبنّاني، وأن يصحبني معه فور إنهائي للمرحلة الابتدائيّة. ولأنّ القرية كلّها كانت تبحث عن منقذ، فقد وجدت في هذا الرجل ـ الذي سيصبح فيما بعد أبي بالتبنّي ـ منفذًا للخلاص وفرصة لا تُعوَّض، لذلك فقد حرص كبار القرية على التكتُّم لئلّا يبلغه شيء عن لعنتي التي تسكنني، ولا عن تلك الملاحم التي أُلِّفتْ في خيال القرية الجمعي، والتي كان أوداد بطلها الأوحد. الكلّ تحالف لإبعادي، أبشع إحساس يمكن أن يتكبَّده المرء هو أن يحسّ أنّ الجميع يتكالب ضدّه، أن يحسّ أنّه منبوذ كأنّما يشكو من مرض معدٍ من دون أن يملك أحدهم الجرأة على التصريح بالأمر أمامه! وكان مَرَضي خارج حدود جسدي. هناك في أذهانهم

Twitter: @ketab_n

يحملون مرضي. الأيّام التي قضيتها في الجبل بمفردي جعلتني أعي جيّدًا، أنّه ليس لي أحد في هذه الحياة، وأنّني أدفع ثمن أشياء لم أقترفها، كان هذا الإحساس يهتصرني، يسحق دواخلي المتعبة منذ الطفولة.

لا زلت أذكر ذلك اليوم الحزين كأنّه الأمس، حين اقترب امحند والرجل الغريب منّي كأمل زائف، وأذكر كذلك أنّني كنت جالسًا في مقام سيدي موسى، قلب إغرم، أقلّب صفحات القصص التي أهدتنيها المدرسة عقب تفوُّقي... توقّف امحند بعيدًا، تطلّعت إلى عينيه المتعبتين، كانتا تقولان أشياء كثيرة ومبهمة، أمّا الغريب، فقد اقترب منّي بخطى واثقة، كانت ملابسه الضيّقة وتلك القبَّعة المائلة فوق رأسه تجعله أشدّ غرابة، حين وقف أمامي، انحنى ثم جلس، أخذ بعض القصص، قلب صفحاتها أكثر من مرّة وهو يضمر ابتسامة خفيّة، سألني:

ـ أتحبّ القراءة؟

ـ نعم.

وابتلعه الصمت مجدّدًا، وإن كانت ملامحه أكثر انطلاقًا.. أمّا امحند فقد كانت ملامحه غائمة، أحسست أنّه يبكي، وأنّ دموعه تنسكب داخله، استرسل الغريب:

ـ أتحبّ أن تتابع دراستك بالمدينة؟

ـ ولكنّني أحبّ إغرم...

ـ وإغرم لن تهرب من مكانها. ما هي إلّا سنوات قليلة وتعود إليها أكثر نضجًا ووعيًا.

Twitter: @ketab_n

وتوقّف عن الكلام ـ أذكر هذا جيّدًا ـ كأنّما أحسّ أنّ هناك خللاً في تركيب الجملة، أو أنّها لا تناسب سنّي، وأردف:

ـ ما اسمك يا بني؟

ـ أوداد. .

ـ هل هذا اسم؟

ـ بالطبع.

ـ إذن، ماذا لو غيّرنا حروفه قليلاً ليصبح أوداد: «مراد»؟

هكذا وُلد اسمي أو كلبي السلوقي الوفيّ كما أسماه درويش، المهمّ أنّني تمترست بالصمت حين لم أجد الكلمات المناسبة للردّ، فانصرفتُ إلى قراءة الكتاب الذي كان بين يديّ مصطنعًا نوعًا من اللامبالاة، أردُّ بها كلّ ذلك الارتباك العنيف الذي خلّفه داخلي هذا الغريب الذي لا تزيده كلماته إلّا غرابة. حين بدأ الصمت يتّسع بيننا اقترب منّي أكثر، ربتَ على شعري قائلاً:

ـ مراد. . أعرف أنّك تظنّ أنّ حياتك لا معنى لها، كما أعرف أنّك ذقت الأمرّين هنا، لكن يبدو أنّك ولد جيّد وتستحقّ أفضل ممّا أنت فيه الآن، سآخذك معي إلى المدينة، ستصبح ابني وستعيش في بيتي. هناك ستلتحق بالإعداديّة، وسأكون سندًا لك إلى أن تكبر وتصبح رجلاً.

تطلّعت لأوّل مرّة بشكل جدّي إلى ملامحه وتتبّعت تفاصيل وجهه، ووقفت طويلاً عند ابتسامته العريضة. لست أدري أيّة قوّة جعلتني أصدّقه بل وأستبسلم لكلماته، ربّما هو إحساسي بأنّ بقائي في إغرم أضحى عبأً يثقل كاهل أهلها. لم أكن أعرف وقتها أنّ رحيلي إلى

Twitter: @ketab_n

المدينة وأيّامي فيها لن تكون سوى امتداد أشدّ مأساويّة لكابوس استُهلّ يوم نفث امحند الحقيقة، حقيقتي في مسمعي، ولا زال مستمرًّا إلى حدود اللحظة.

أشعلتُ سيجارة من أخرى، تطلّعت إلى القطيع الذي لم يعد يظهر منه سوى بقعة صفراء هناك في الأفق البعيد، دهست عقب السيجارة الميتة بقدمي، وقفلتُ راجعًا إلى الفندق...

المكان ينعش الذكريات ويثقّف رؤوس أشواكها، ثم يحفّ القلب بها ويجعلها تضيق عليه إلى أن يسيل بمرارة قاسية. أذكر قول الطبيب النفسي، فتنفرج شفتاي ببسمة مخذولة وساخرة:

ـ حاول أن تتعامل مع ماضيك مثلما يفعل كاتب حين يسرد معطيات عن شخصيّة روائيّة، ومثلما يعلم هو أنّ تلك الحقائق رغم أنّه متورّط فيها إلّا أنّها لا تعنيه. عليك أيضًا أن تقيم حدودًا بين أوداد الذي كان ومراد الجالس أمامي. لا تدع ماضيك يبتلعك.

وبالطبع، فالطبيب النفسي لم يصل بعد إلى قناعة مفادها أنّ أوداد ندوبٌ لا تُمحى من روح مراد، أمّا الآن وقد أغرق سحر المكان قلبي في نبيذ الذكريات، فقد انقلبتُ إلى حالة من الثمالة العاطفيّة يلتبس فيها ماضيَّ بحاضري، فأشعر أنّ قرون الوعل الأمازيغي الذي كنته فيما مضى تنتفض داخلي فتدمي كلّ شيء.

الآن، وقد بدأت أتخلّص من الصدمة النفسيّة التي مررت بها البارحة، أتذكّر العجوز زوجة امحند ويدها المبتورة، فأتأكّد أنّ اللعنة أتتْ عليها.. الآن فقط أكتشف أنّني لم أبتعد عن إغرم كثيرًا. الآن أمام جلال الجبل وتواضع النهر وغبطة الحقول ووحدة القرية، تضطرم جذوة الحنين إلى ما لست أستطيع تمييزه من تفاصيل هذا المكان،

Twitter: @ketab_n

الذي كلّما حاولت استكناه الأسباب التي ورّطتني فيه أدماني.

العجوز التي أبصرتها البارحة، زوجة امحند، أشعلت داخلي لهيب أسئلة محرقة عن مصير ذلك المنزل الذي آوى طفولتي وإن كرْهًا. آه، كيف انتهت بها الأمور إلى بتر يد واحدة دون الأخرى، على الرّغم من أنّ جلدة الجدّة التي احترقت قد التصقت بكلتا يديها، زوجة امحند هذه كانت محايدة إلى درجة أنّها متورّطة بشكل أو بآخر في محنتي، كبرت في منزلها مهملاً، كأنّني شبح لا يرى، كلماتها كانت قصيرة ومتنافرة وغير مفهومة. لم تكن تظلمني في شيء، لكنّها لم تكن تقف في وجه من يظلمني، ولست أنسى يوم نزلت عليّ الجدّة أم امحند بالضرب والشتائم، كيف أنّها لم تتدخّل، ظلّت ترمقني بين الفينة والأخرى بنظرات باردة وهي تواصل أعمالها المنزليّة، كأنّ الذي يحدث أمامها ليس جرمًا في حقّ طفل لم يقترف خطأً سوى أنّ الأقدار العمياء جرَّتهُ إلى بيتها.

في طريق العودة، فاجأتُ سرب حجل رفرف غير بعيد عن الأرض وعاد متثاقلاً إليها، أخذت غصن أزير شمّمته بوله، أغمت عيناي قليلاً وداهمتني خيالات بعيدة عن طفولة تركتها تائهة القدم هنا، ها هي رائحة أزير توقظ فيّ أشياء صميميّة كلّما تأمّلتها خرّبتني. عندما فتحت عينيَّ، استبدّت بي الدهشة حين وجدت الدماء تعلو غصن أزير الذي كنت أضعه تحت أنفي، مررت بيسراي على الأنف، فإذا هو رعاف وإذا الدماء تملأ يدي، قذفت السيجارة بعيدًا وأغمدت يدي في الجيب، سحبت المنديلَ بسرعة، ووضعته على أنفي إلى أن توقّف النزف. عجبت لهذا الرعاف المفاجئ، لكنّني واصلت طريقي وإن بخطى أكثر تثاقلاً، أشعلت بانفعال سيجارة أخرى، أحسست أنّ أفكاري تتشظّى وأنّ ألمًا حادًّا يحفر بين جدران جمجمتي.

Twitter: @ketab_n

عندما انتهيت إلى النهر، رشقت وجهي بالماء طويلاً، خلعت حذائِي والجوارب، قمت بطيِّ سروالي إلى حدود ركبتيّ، وأغرقتُ قدميَّ في الماء البارد، بلَّلْتُ شعري.. كلّ هذا لم يجعل نزيف الذكريات إلّا أكثر احتدادًا وعنفًا. تطلّعت إلى قلعة الرومي التي استحالت إلى أطلال بالية، لكن ما أعقب تلك النظرة كان أشبه بإغفاءة تلد حلمًا، أقرب إلى لحن هادئ جدًّا! هناك، بعيدًا عنّي تمامًا أمام مزار سيدي عيسى، رأيت ـ أو تهيّأ لي أنّني رأيتُ ـ حصانًا أسود رائعًا تمتطيه فتاة لا يميّزُها سوى شعرها الطويل المتطاير بفعل السرعة التي يعدو بها الحصان، هكذا برق طيف الحصان الأسود وسيّدته، وبسرعة ابتلعهما المضيق، واستبدّت بي الحيرة.. هل كان ما رأيت حقيقة أم مجرّد وهم ناتج عن التعبِ النفسي الذي أنهكَ قواي العصبيّة هذا الصباح؟ لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ تلك الصورة البديعة لفتاة ترتدي فستانًا أسود وتمتطي صهوة جواد أكثر سوادًا لم تمّحِ بسهولة من مخيِّلتي، ربّما هو مجرّد وهم تراءى لي، ليس بحكم قصر المدّة التي رأيته فيها وحسب، بل لأنّه من الصعب والأقرب إلى المستحيل أن تخرج فتاة إغرم من بيتها مسبلةَ الشعر تمتطي صهوة حصان!

التقيتُ بحميد قرب الفندق، استفسرتُ عن الفتاة، فأجاب بالنفي وأردف ذلك بكلام كثير عن أعراف القرية ومحظوراتها، التي كنت فيما مضى أحفظها عن ظهر قلب.. طلبت منه أن يحضر لي قهوة سوداء وجلست في الركن الركين من المقهى، شربت قهوتي ببطء ودخَّنتُ سيجارة ـ الواحدة تلو الأخرى، تأمّلت إغرم من النافذة، تتبّعت ألوانها المتداخلة بنزق فنّان تشكيلي من دون أن أصل إلى سبب واحد جعلني أتورّط في عشقها.

في غمرة الرؤى والذكريات التي تومض وتختفي، تذكّرْتُ خولة،

Twitter: @ketab_n

تذكّرتُ حبّها العنيف الذي جرَّها نحو الانتحار، وجرّني بعدها إلى مستشفى الأمراض النفسيّة، تذكّرت أيضًا مذكّرتها الحمراء التي تنام في حقيبتي في انتظار أن أقرأها، أخاف أن أفتضَّ سرَّها، فلا يزيدني ذلك إلّا تعبًا وحزنًا...

وإن يكن، لا بدّ أن أقرأها، وإن كان في ذلك موتي...

لا بدّ من ذلك.

Twitter: @ketab_n

(٨)

«لا أعرف ذلك المكان، فالعتمة كانت تخيّم عليه! كنت متّكأ إلى حائط أو شيء من هذا القبيل، أنتحب وأنا أتأمّل ذلك الرجل ضخم الجثّة الذي لا يظهر منه سوى النصف السفلي بفعل العتمة والإضاءة الخفيّة التي أجهل مصدرها. همس الحلم في مسمعي أنّ هذا الرجل الضخم هو والدي، كان يقبض بيده على سكّين حادّ يلمع، وأردف الحلم أنّه مكلّف مهمّة قتلي تحت طلب إلٰهي. كانت دواخلي ترتعد خوفًا، وهي من المرّات النادرة التي يعتريني فيها الخوف. بحلقت طويلاً في العتمة علّي أستبين ملامحه أو أفوزُ منه بنظرة، هي نظرة واحدة لأعرف قاتلي، لكنَّ وجهه بدا أبعد ما يكون، حتى إنّني ظننت أن لا وجه له. لكن ما أذكره جيّدًا أنّ الدمع كان ينهمر من عينيَّ دون انقطاع. في لحظة عاصفة، صرخت في وجهه الغابر: افعلها وخلّصني، لكنّه ظلّ واقفًا لا يحرّك ساكنًا، كأنّه مدقوق بمسمار إلى ذلك الفراغ الذي كنّا نسبح فيه.

وكان أمر الله قد جرحني...

Twitter: @ketab_n

بكيت في الحلم كما لم أبكِ يومًا، لأنّني لم أتصوّر أنّ ذبحي سيكون على يد رجل ذبحني قبل الحلم مرّات ومرّات، من دون الحاجة إلى أمر إلٰهي. فجأة بدأت يده التي تقبض على السكّين ترتجف بعد أن صرخت فيه أن يخلّصني من حياة معطوبة.. ثم انتبهت حين بدأت يده تتخلّص من ارتجافها إلى نشيج يأتي من مكان ما، التفتُّ يساري فارتجفت حين رأيت خولة، ورأيت عينيها الواسعتين وقد امتلأتا دمعًا، كانت تلبس فستانًا أبيض رائعًا وتنزف دمعًا. عيناها الجميلتان تقولان أشياء كثيرة وغير واضحة، أحسست أنّها تبكي من أجلي وبكيت بشدّة من أجلها، ومن أجلي أنا الواقف على صراط أرقّ من شعرة بين الحياة والموت بين الجحيم والخلاص.. واستيقظت.

في البدء، لم تسعفني الذاكرة على تذكُّر أيّ شيء، تطلّعت وأنا أكفكف أدمعي إلى خيالات النافذة وإلى باب الشرفة المشرع، تذكّرت أنّني في إغرم، ورميت يدي إلى جانبي، وتذكّرت كذلك أنّ جوليا رحلت، فزحفت إلى المصباح الصغير المتاخم للسرير أشعلته ففزعت حين بحلقت في الحمرة التي تعلو الوسادة، مرّرت بأصابعي على أنفي فإذا هو رعاف آخر، قفزت بخفّة لا أعرف مصدرها، أشعلت نور الغرفة، ووقفت طويلاً أمام المرآة أتأمّلُ تلك الخيوط الدمويّة التي علت وجهي، أمّا عندما رشقت وجهي بالماء فقد بدا أكثر صفرة، استشعرت مرارة فظيعة في جوفي وعاودني الحلم كشريط يمرّ ببطء قاتل.

خولة.. كيف يبزغ طيفك في حلم كئيب كهذا؟ كيف تعودين إليّ دامعة لتشهدي موتي واستحالتي إلى ذبيح لله في حلم؟ كيف تفعلين وأنت هناك في عوالم الغيب؟ ترى،.. أحبّك المجنون أعادك لتصحبيني أم أنّك اخترت أن تكوني أضحية فدائي؟ أجئتِ لتأخذيني بعد أن أتملّص من الطينيّ فيّ أم عدتِ لتستبقيني في حياة الزبل هذه؟!

Twitter: @ketab_n

متمايلاً كمخمور اكتظّ به الحزن، دنوت من الحقيبة التي تحوي مذكّرة الشهيدة. مددت أصابعي لأفتحها، لكنّني في اللحظات الأخيرة تراجعت. استشعرتُ تعبًا قاسيًا يرسو على جسدي ويجعل تلفّتي إلى ما مضى يأخذ شكلاً أكثر مأساويّة. أحاول مرّة أخرى أن أفتح الحقيبة وأستخرج جثّتها وأفتح للحزن بابًا آخر في أضلعي.

الحبّ يحرق والحبّ يزهق أرواحًا والحبّ يغرق والحبّ يرهق القلب والذاكرة، وهذا أضعف حبّ وأتعبه. الحبّ أزهق روحها وأحرقها كفراشة في بيدر، والحبّ أرهقني وصيّرني بعدها قبلة للأحزان.

قبل أن أطفئ نور الغرفة، أزحت الوسادة التي غمرتها دمائي، أمّا حين تمدّدت فوق السرير، فقد عاودتني ذكرى الحلم: ذلك الرجل الغريب الذي همس الحلم في خاطري أنّه والدي، لا يستحقّ أن يكون إنسانًا فبالأحرى إبراهيم! ومن أنا لأكون ذبيحًا ثانيًا لله في حلم، بقدر ما أيقظ وجعي الأوّل بقدر ما أكّد لي أنّ حياتي تسير وفق مشيئة خفيّة يحكمها منطق المؤامرة. أيتآمر عليّ الله أم الأقدار أم الصدف العمياء أم أشياء أخرى؟ لست أدري.

لو أنّه فعلها فقط وخلّصني، لأكمل في الحلم ما بدأه يوم جاء بي إلى حياة كهذه! أحيانًا، أحسّ كما لو أنّه هو وتلك التي تقيّأتني قد ذبحاني نصف ذبحة وتركاني أنزف ـ لا الموت يقبل بي ولا الحياة تصلح ما أفسداه.. نزفت كثيرًا، فلو أنّه أكمل في الحلم ما بدأه في الواقع لارتحت، لكنّها الحياة آثرت أن تتركني أواصل نزيفي في صمت موجع.

* * *

Twitter: @ketab_n

استيقظت متأخّرًا، شعرت بحيويّة غريبة تسري في كياني. استحممت بسرعة وحلقت ذقني وقرأت بعد ذلك فصلاً لنيتشه، وانطلقت بخفّة طفل إلى المقهى الذي كان يعجّ بفوج جديد من السيّاح. شربت على مهل قهوة الصباح وأشعلت السيجارة الأولى، وطاردت في تداخلات دخانها تلك الفتاة الشامخة التي تمتطي صهوة حصان أسود، تلك التي رأيتها ـ أو تهيّأ لي أنّني رأيتها ـ البارحة.

حين انطلقتُ إلى إغرم، داهمني إحساس حادّ بالوحدة. أمّا عندما انتهيتُ إلى تلك الحيطان الصفراء والدروب المشعّبة الضيّقة التي تعبق بروائح، بقدر ما تنعش الذاكرة، تجرحني. وحين انتهى بي المطاف إلى قلب القرية، أقصد مزار سيدي موسى، فقد ازدحمت بي الذكريات وتناسلت أخرى داخلي وكبُرَتْ بسرعة. باب المزار ـ كما هو دائمًا ـ مشرّع على آخره. دخلته، وتقدّمتُ في الزقاق الصغير الذي يفضي إلى بهو كبير تتوسّطه شجرة تين وارفة الظلال. كم شاخت هذه الشجرة على الرّغم من أنّها تبدو متماسكة، قلبها هنا في المزار ورأسها في السماء! أيّام طفولتي، كان هذا المزار أحد أمكنتي المفضّلة، كم بسطت قرب هذه الشجرة دفاتري وكم حاولت رسمها مرارًا! لطالما اعتقدت أنّ لهذه الشجرة روحًا خفيّة، لا سيّما وقد كان فقيه القرية يُربط إليها المجانين والمرضى بالحنين.. أمّا أنا، فقد كنت أتابع انتحاباتهم الطويلة، وهم يحاولون التملُّص من الحبال الوثيقة التي تشدّهم إلى جذع الشجرة. وكثيرة هي المرّات التي أنخرط فيها مع هؤلاء المجانين في أحاديث متشعّبة، تبدأ عادة بأسئلة بريئة وتنتهي بي وأنا أصيخ السمع إلى أوجاعهم وهي تسيل من أفواههم. كانوا طيّبين إلى درجة جعلتني أتساءل إن كانوا فعلاً مجانين، كما يروّج لذلك فقيه القرية، أم أنّ الناس الآخرين وعلى رأسهم هذا الأخير هم المجانين الحقيقيّون!

Twitter: @ketab_n

قرب هذه الشجرة التي أتتبّع الآن تجاعيد لحافها، سمعت الكثير الكثير من القصص التي أدمت أبطالها الذين انتهى بهم المطاف إلى الخبل. وقد حدث مرارًا أن شاركتهم بكائيّاتهم الطويلة، ليس لأنّ قصصهم مؤثرة وحسب، بل أيضًا لأنّهم كانوا يوقظون حقيقتي ووجعي. على أيّ حال، كانت هذه الشجرة تحرّرهم بروحها الخفيّة المقدّسة، أو على الأقلّ، هذا ما كنت أعتقد أيّام صباي، أمّا الآن، بعد أزيد من عقدين، ها أنا أتقدّم نحو تلك الغرفة التي بنيت حول قبر سيدي موسى، لا زالت كما خلّفتها، حتى الزربيّة الصفراء الرثّة المنسوجة بنباتات الدوم لا زالت نائمة على جنبات الضريح، خطوط الشموع السوداء أيضًا لا تزال ترسو كأوشام على الجدران.. وكما هو الشأن بالنسبة لضريح الابن، فقد انتشرت فوق ضريح الأب الكثير من الخرق والمناديل والقليل من القطع النقديّة الصفراء التي طالما كنتُ أتهافت عليها أنا وأترابي من أبناء القرية، ولأنّني كنت مسكونًا بهذا المكان، فقد كنت الأوفر حظًّا للحصول على أكبر قدر منها.

الرجل الذي يرقد في هذا الضريح كان رجلاً حقيقيًّا، كما قال امحند في إحدى الليالي الماطرة وهو يجمع أبناءه تحت سلهامه الثقيل، الرجل الذي أهدى ابنه للموت فقط كي تحيى القبيلة، لست أدري لماذا أحسّ أنّ هناك أواصر ثقيلة بينه وبين نبيّ الله إبراهيم. لكن عماد الاختلاف بين القصّتين، أنّ إسماعيل نجا، في حين انفجرت دماء سيدي عيسى هناك، في ذلك الكهف الذي استحال بعده إلى مقام يلجأ إليه المرضى بالحياة. هناك قفزت دماؤه للجدار ـ كما يحكي امحند دائمًا ـ وانقلبت إلى شجرة تين حبّاتها دامية، لذلك تجد أهل القرية يحذّرون من أكلها، لأنّ آكلها ـ كما يؤكّد الجميع ـ ملعون إلى أبد الآبدين.

Twitter: @ketab_n

قال امحند، وهو يتطلّع إلى أبنائه المتكوِّمين إلى جانبه والنوم يرتق أجفانهم:

ـ السفّاح الرومي الذي كان يسكن في القلعة الكبيرة عند مدخل المضيق، والتي لم يبق منها اليوم سوى أطلال بالية، كان يعكف كلّ يوم على اصطياد فرد من أفراد القرية. كانت القرية تنزف وسيدي موسى كان ينزف أيضًا، لأنّه شيخ القبيلة، ولأنّ كلّ ما يحصل لها يقع على كاهله. المهمّ أنّه كان في حاجة إلى حلّ، لذلك اضطرّ إلى مفاوضة هذا المستعمر الأوّل، وانتهت المفاوضات بحلّ دامٍ، مضمونه أن يسلّم سيدي موسى ابنه ليُذبح على يد هذا السفّاح، مقابل أن يحجم هذا الأخير عن صيده اليومي.

يسحب امحند يديه اللتين كانتا تطوّقان أطفاله، ويزيح عن كتفيه السلهام قليلاً لكي يحرّر حركة يديه أكثر، يمدّ أصابعه إلى جيب قميصه البالي ويخرج تبغه وقصاصة من الورق الأزرق الذي كان يُغلّف به السكّر قديمًا، يضع التبغ في قصاصة الورق ويلفّها بإتقان وبراعة، ثم يمرّ برأس لسانه على طرفها، ثم يجمعها ويضغط بأطراف أصابعه على جنباتها، بعد أن التصقت وصارت سيجارة كاملة، يضعها بين شفتيه ويشعلها بعود ثقاب ثم يرميه في الفرن ويسترسل:

ـ بالطبع لم يكن الرومي في مستوى الاتّفاق المبرم، فبعد أن أجهز على الابن في موقعة الكهف الحزينة وواراه هناك، عقد العزم على أنّ أوّل ضحيّة بعد الابن هو الأب. وفي يوم صحو مشمس، قصد سيدي موسى النهر لكي يتوضّأ، هناك كان السفّاح في انتظاره بأعين تلهج بالويل وسبّابة على الزناد.. متحصّنًا بقلعته المعلّقة في القمّة والتي يجهل الجميع متى بنيت ولا كيف... متناسيًا أنّه مثلما يرى الناس صغارًا من على قمّته، فإنّهم كذلك يرونه صغيرًا! في تلك

Twitter: @ketab_n

اللحظة الحبلى باحتمال واحد هو مقتل الوليّ، بحكم أنّ رصاصة السفّاح لا تصوّب تجاه شخص إلّا وأردته قتيلاً. كانت إرادة الله تسطّر تفاصيل إجهاض المأساة، انقلب الجوّ فجأة من الصحو إلى حالة من الغضب المبهم. أمّا في تلك اللحظة التي تحرّك فيها الرومي ليعدّل من وضعه ووضعيّة بندقيّته كذلك لكي لا يترك مجالاً للخطأ في اصطياد الوليّ. في تلك اللحظة بالضبط، التي كانت أسرع من لمح البصر، وقعت المعجزة، إذ خسف به جزء من بنايته المعلّقة في الأعالي فتهاوى، لتسحقه صخور الوادي على مرأى من الوليّ الصالح، أمّا بعد ذلك بلحظات قليلة، فقد سُمع للنهر هدير مجلجل، وبسرعة، جرف جثّة السفّاح وبندقيّته. أمّا ما تلا ذلك، فقد كان فصلاً لم تعرف القرية مثله، إذ إنّ الأمطار التي تهاطلت ذلك الصباح لم تتوقّف، بل عكس ذلك، ازدادت حدّة واستمرّت لأيّام طويلة، حتى إنّ أهل القرية يئسوا منها وظنّوا أنّها لن تنقطع البتّة. وفي تلك الأيّام جلّها كان الوليّ الصالح لا يبرح طرف الوادي في انتظار أن يهدأ النهر ويتمكّن من زيارة الكهف الذي يضم جثمان ابنه. كان أهل القرية يمرّون به فيجدونه عاكفًا على صلاة مثل المطر لا تنقطع. أمّا القصص التي رويت عنه، فكانت كثيرة، إلى درجة أنّ أهل القرية، على الرّغم من غوايتهم بالحكي والحكايات، نسوها. يروي البعض مثلاً أنّهم رأوا الوعول وأسراب الحجل تنام قربه غير خائفة، لكن ما أكّده الجميع، أنّه في أيّامه الأخيرة، كان يشعّ بنور ساطع يأخذ الأبصار. ولأنّ لكلّ أمر نهاية ما، فقد فاجأت السماءُ القريةَ بيومِ صحوٍ. في صبيحة ذلك اليوم تحلّق أهل القرية حول الوليّ الذي استغرق في سجود طويل، حين انتبهوا إلى أنّه أطال سجوده، نبّهوه أوّل الأمر، وعندما لم ينتبه، حرّكوه فإذا هو جثّة هامدة. وبالطبع لم يلتفت أحد إلى أنّ المطر جاء

Twitter: @ketab_n

بموت الرومي وانتهى بموت الوليّ الصالح. دفن في منزله تمامًا في الغرفة المقابلة لشجرة التين التي طالما أحبّها وأحسن رعايتها، وأضحى منزله بعد ذلك مقامًا ينشر فيه زوّاره أحزانهم وأمانيهم، وكذا مناديلهم وأشياء منهم.

عندما يصل امحند إلى حديث النهايات، عادة ما تشعّ عيناه ببريق خاصّ، يتطلّع إلى السقف كأنّه يقاوم وخز دمعة، أمّا أبناؤه المندفنون بجانبيه، فإنّهم غالبًا ما يستسلمون للنوم قبل أن يصل إلى نهاية القصّة.. وهذا ما يجعلهم يستلذّون سماعها مرّات ومرّات. أمّا أنا، فلم تكن تزيدني أحداث القصّة إلّا إصرارًا على معرفة المزيد، وعادة ما كانت حكايات امحند تحرمني النوم، إذ أسهر ليلي وأنا أقلّب في تفاصيلها، كانت تشبع شيئًا ما داخلي لم ألتفت إلّا مؤخّرًا أنّه: الحاجة إلى الأدب. هذه الحاجة التي ستغدو فيما بعد أفيونًا لا بدّ منه، لأقاوم الأسئلة التي تخزني من كلّ جانب، وكذلك، لأتقبّل نفسي على ما أنا عليه.. أمّا الآن، فلا يهمّني الرجل الذي ينام في هذا القبر، أكثر ممّا يهمّني الرجل الذي تحدّث امحند عنه بشغف في ليالي الشتاء.

غادرت مقام سيدي موسى بعدما نثرت فوق قبره ما في الجيب من دراهم. بعد قليل، سيتسابق الأطفال إليها، ولا بدّ أن يفرحوا بها وهم يهرولون إلى البقّال. أمّا أنا، فبقدر ما أبهجني انبلاج ذكريات السمر والحكي، بقدر ما نكأت الذكريات نفسها، جرح إبعادي عن إغرم، وعلى الرّغم من ذلك، رمّمَتْ هذه الزيارة شيئًا ممّا تصدّع منّي بسبب حلم البارحة.

Twitter: @ketab_n

(٩)

على الرّغم من أنّ التعب قد سلخ وجوههم وأيديهم.. هؤلاء المرابطون في حقولهم منذ بزوغ الشمس إلى غروبها، إلّا أنّ لهم عوالم لا يفتضّها إلّا من كبر بينهم. لهم مزاجٌ وطبعٌ خاصّان تصنعهما وتوحّدهما الحكاية، إذ لا يوجد بينهم من لم يتدفّأ بها في ليالي الشتاء، ولم يتفيّأ بظلّها في نهارات صيفها! صحيح، أنّهم يبدون في النهار أكثر غلظة وقسوة، لكن ما إن تغيب الشمس حتى تلين طباعهم ويصبحون أكثر إقبالاً على الحديث، وأكثر استعدادًا للضحك والسمر. النهار يشحذ أجسادهم، لكنّهم يصيرون في الليل أقرب إلى الهشاشة الوجدانيّة ويضمحلّ ذلك الجفاء والقسوة اللذان لازما يومهم. أمّا الحكايات في إغرم، فلها وضع متميّز إن لم نقل إنّها تغلّف القرية بما فيها ومن فيها.. لقد نبتتْ في القرية كداليةٍ، ومع الزمن، تمدّدت فروعها وتشابكت خيوطها التي استحالت إلى ملاحمَ قابلة للوراثة، وعادة ما يضرب بها المثل في أبسط النزاعات، فبالأحرى أعقدها! ولا غرو أن تجدهم يحتكمون إلى العارف بها، لأنّه الأكثر معرّفة للحياة،

Twitter: @ketab_n

لذلك كنت، ولا زلت على يقين راسخ أنّهم أكثر دراية بالأدب، ربّما لأنّهم يؤمنون به أكثر من أيّ شيء آخر، ويعيشونه في تفاصيل يومهم وفي حزنهم وسخطهم وفي سويعاتِ فرحهم أيضًا.. لذلك، فالأدب يظلّ قشرة سميكة تغلّف قلوبهم ويعشّش في دواخلهم. وللحكايات في هذه القرية معنى يطاول «الإلياذة والأوديسة» و«ألف ليلة وليلة» وغيرهما. فبالإضافة إلى أنّها تمتح من قضايا إنسانيّة صميميّة لا يمكن للتاريخ أن يتجاوزها، فهي في الوقت نفسه تقوّي الوشائج بين الإنسان والمكان، وترسم طبيعة العلاقات داخل القبيلة. ولا عجب مثلاً أن ينال الشيوخ أوفر حظّ من الاحترام والوقار، لا لكبر سنّهم وحسب، بل لأنّهم في نظر الجميع خزّانٌ لا ينضبُ من الحكايات، خاصّة وأنّ منهم من يزعم أنّه شهد وقائعها عن قرب، وقد يبالغ بعضهم ويقول: منهم من كان أحد أبطالها.

الحكاية في أصلها الواقعي قد تكون أبسط بكثير ممّا يعتقد أهل القرية، لكنّ السرّ، كلّ السرّ، في ألسنة الرواة المتعاقبين، هي التي تشحذها وتثقّفها وتسبغ عليها كذبًا جميلاً وضروريًا، يفجّر منها عُقَدًا كثيرة. إنّه كذبٌ غير مقصودٍ عادة وعفويّ كذلك، لكنّه مهمّ. ليس فقط لأنّه يطوّر الأحداث الواقعيّة، ولكن أيضًا لأنّه يبعث فيها روح الرواة المتعاقبين، فتغدو الحكاية ملحمة بعد أن كانت مجرّد وقائع بسيطة وغير ذات أهمّيّة، ونصبح بصدد حكاية لا كما كانت، ولكن كما اشتهاها أهل القرية أن تكون. فتؤرِّخ للقرية، لأنّها تضرب في ماضيها العريق وتوقَّع بقلم مؤرّخ ومؤلّف كبير وغير معروف، قد يكون سلسلة الرواة الذين تعاقبوا على الحكي، أو ربّما اللغة! ولِمَ لا القرية نفسها؟!

•

في هضبة العرعار التي تطلّ كشرفة على المقبرة والشمس تنزل

Twitter: @ketab_n

موجعة، سحبتُ من الجيبِ هاتفي لأستلَّ منه أصواتًا وأحزانًا قذف بها البعيد: وردتْ في منفاي الاختياري رسائل كثيرة تعوذ بي إلى عوالم، كابدت الأمرّين من أجل نسيانها ولم أقوَ على ذلك. تلقي نضال في رسالة صوتيّة مقطعًا من قصيدتها، التي أشكّ أنّ لها نهاية:

حبيبي متى سوف تأتِي

لتكسرَ صمتِي

ويدركَ غيري بأنّك صوتِي

وتملأ بيتِي

صغارا..

حبيبي ومحبوب قلبي وحبِّي

تمنّيتُ لو أنّك قربِي

ليَعرفَ دربي

نهارا..

وإنّي لأبكي

إذا ما ذكرتك سرًّا

وإنّي لأستبكي إذا ما تذكّرتُ أمسي

جهارا...

مددت يدي إلى الجيب، أخذتُ علبة السجائر، أخرجت واحدة، أشعلتها بانفعال وأعدت العلبة والقدّاحة إلى الجيب. لست أدري ماذا تريد الرفيقة نضال منّي؟ لا أشقّ على النفس من العودة إلى حرب وضعت أوزارها منذ زمن طويل!

Twitter: @ketab_n

رسالة أخرى من د. بنهاشم: «السلام عليكم سي مراد كيف حالك؟ حبّذا لو تزورنا في أقرب الآجال، لأنّنا في حاجة إلى مراجعة حالتك. أتمنّى أن تأخذَ دواءك في أوقاته كيفما اتّفق وأن تتحاشى الذكريات الحزينة ما استطعت...».

أقفلت الخطّ دون أن أمهله فرصة إتمام وصاياه، وتطلّعت إلى القبور الموزّعة بانتظام لا معنى له. أمام بوّابة الآخرة هذه، لا أجدني إلّا مع درويش «لاعبِ النرد»، إذْ يهمس «كان يمكن ألّا أكون».. أيضًا أنا كان يمكن ألّا أكون أو أن أكون ممدّدًا هناك في هذه المقبرة داخل قفصٍ ترابيٍّ صغير، لو أنّ امحند لم يمرّ في ذلك اليوم الصيفي الشجيّ على ذلك الطريق الهامشيّ الذي لم يكن يومًا طريقَه، كان يمكن ألّا أكون لو أنّ تلك التي تقيّأتني تجرأتْ ووضعت وسادة على وجه الطفل الذي كُنْتُهُ، وضغطتْ برفقٍ وحنان مصطنعين، وما هي إلّا لحظات قليلة وتخلّصني من حياة الزبل التي كابدتها ولا أزال.

لو أنّ النهر أحسن صيدي في ذلك اليوم الماطر وجرّني أبعد من إغرم، لكنت ممدّدًا الآن في قبر صغير، لما نهشتني الأحزان التي وُلِدت وشبّت معي.. لو أنّ ذلك الأب المزعوم الذي لم أضفر منه بنظرة في المنام مرَّ بسكّينه اللامع على عنقي أو أخمده بقسوة في صدري، لاقتادتني عينا خولة إلى حيث لا أدري بعد أن أُسلِم الطينيّ فيّ للتراب.

احتمال موتي كان واردًا بإلحاحٍ، وكان الموت يملك من الأسباب ما يكفي للإيقاع بي، لكنّه كان يخاتلُ دائمًا ويؤجِّلُ باستمرار، كأنّه يستلذّ عذاباتي، أو كأنّه يقتادني إلى موت أشدَّ بشاعةً! لذلك لا زلت أملك لحدود اللحظة إحساسًا باطنيًا دافئًا يهمس:

Twitter: @ketab_n

ـ لا زلت تملك من العمر ما يكفي لتصير آخر قلاع الحزن والوحشة...

متداعي القلب والذاكرة، بجانب المقبرة أقف بين الدنيا والآخرة محمَّلاً بهواجسي، عيناي نافذتان متعبتان تطلَّان على الأفق البعيد وترصدان شمسًا تتقطّر ـ كما يقول مطران ـ كالدمعة الحمراء.. هكذا يتثاءب المساء في إغرم، ويزحف نحوها جريحًا! أمّا أنا فسأوقد أضلعي علَّها تنير ما تبقّى من هذا الدرب الطويل.

عركت في الأرض عقب آخر سيجارة كانت في العلبة، حين انتصبت واقفًا، وكانت الحلكة قد بدأت تجثم على المكان، رأيت أطياف رجال بالكاد أستبين هيأتهم، لكن ما كنت متأكّدًا منه أنّ اللحى كانت مسبلة على ذقونهم وأنّهم يجرّون بهائم محمّلة بما يشبه الصناديق.

وغادرت المكان بسرعة، وانزعاج كذلك.. وأنا ألتفت بين الفينة والأخرى وأراقبهم وهم يبتعدون أكثر فأكثر. رحل النهار ـ كما أكّد السيّاب ـ «ها قد انطفأت ذبالته».

إغرم ليلاً...

برد قليلٌ، وأصواتُ حيواناتِ إغرم تجرّ خلفها تعابير غامضة، وأنا وحيد فاضت بي وحشة الغرفة فسعيت إلى الشرفة. سماء هذه القرية صيفًا عوالم ملغّزة، فبقدر وضوحها يحسّ القلب إذ يتأمّلها كما لو أنَّ نجومَها قد تتساقط في أيّة لحظة! يعلو نباح الكلاب بشكل مفاجئ ويخبو بسرعة فيكسر تأمّلي في السماء. أنقل بصري صوب الجبل، فلا تأخذني سوى تلك البقع الناريّة التي لا زالت تدلّ على أصحابها، أولئك الذين يرون أنّ الأرض كلّ الأرض مُلك مشاع،

Twitter: @ketab_n

لذلك فقمّة الجبل بيتُهم الصيفيُّ! وما إن يدِبّ الشتاء بخطواته الثقيلة حتى ينزلقوا إلى أماكن أخرى. أحيانًا أتساءل بسخرية ممزوجة بالكثير من المرارة: ترى، ألم ينسوا ذات صيف طفلاً صغيرًا مسربلاً في البياض؟ آه.. ما أفدح خطبك الأوّل يا مراد، حين تكون البدايات فاشلة، فلا يهمّ بعدها كيف ستجري الأمور. لأنّها وإن بلغت شأوًا كبيرًا تظلّ مؤسّسة على قشّة سرعان ما تنشطرُ عند أوّل ضغط.

تراجعت إلى الغرفة دون أن أغلق باب الشرفة، مررت مباشرة إلى المطبخ الذي لا يفصله عن الغرفة سوى حائط رخامي صغير، وسحبت من الثلّاجة زجاجة نبيذ وأخذت كأسًا لامعًا ووضعتهما فوق الطاولة الصغيرة ذات التراسيم الأمازيغيّة، وارتميتُ فوق الأريكة الحمراء المقابلة لها. نزل عليَّ حزن حادٌّ وأنا أصبّ الكأس الأولى، قفزت بعدها إلى حقيبتي وأخذت بعض الأقراص المدمجة، وانتقيت واحدًا جمعتُ فيه بعض الأغاني الأمازيغيّة وضعتُه في المسجّلة، وما كدت أصل الأريكة حتى ارتعشت جوارحي لموسيقاه واهتصرني صوت الكمنجات الشجيّ المبحوح، وانثالت عليّ الهموم دفعة واحدة، وانعقد الريق في جوفي فأهرقت الكأس التي صببتُ دفعة واحدة في جوفي.. فما كان منها سوى أن أذكت النار التي بدأت تضطرّم في خافقي.

وانطلق صوت المغنيّة الأمازيغيّة بدويًا جامحًا وحاسمًا كضربة قاضية، تقول المغنّية في ما يعرف بـ «تاماوايت»، وهو موّال نسائي شجيّ عادة ما تُستهلّ به الأغاني الأمازيغيّة:

ـ يا صديقتي فلتبكِ

ويا أنتَ يا حبيبي سآتيكَ يومًا

Twitter: @ketab_n

ولو أنّكَ عنّي بعيدٌ

ستُناديك يومًا قدمي

فعلت ما بوسعي ولم أقنعكِ بالبكاء

فلْتَبْكِ. . . فلتبكِ

فقد حان ما توقّعته

كأنّي اطّلعتُ على الغيب

وأظهر حبيبي الغدرَ

من بعد ما عشقتُه

هذا ما كانت تقوله كلمات الموّال، لكنّها رفقة ذلك الصوت القويّ الصلب ورفقة جرّاحات الكمنجات تصير حبلى بألف معنى ومعنى، بل وقد تتشظّى هذه الكلمات وتفصح أكثر ممّا يفصح ظاهرها، وتسقط من يسمعها في شَرَك الهواجس. أمّا إذا كان قلبه رخوًا بفعل كدمات الحياة، فيمكن أن يبكي أو يخرّ مغشيًّا عليه. . «تاماوايت» وهج يشعُّ ويعرِّش في أعماق الأمازيغ، وتاج لمن يغنّيه، ووجع لذيذ لمن يسمعه، ونافذة مشرَّعة على الذكريات التي لا تنفكّ تتصاعد كأنّها أعمدة دخان حالكة فوق مداخن حمّام عتيق.

في غمرة الموسيقى التي جرحت فيَّ أكثر من وريد، صببت كأسًا أخرى، والتفتُّ بشجاعة إلى حقيبتي التي تحوي الجثمان الورقي لخولة. إلى متى سأظلّ خائفًا من قراءة مذكّرات خولة؟ شربت كأسًا أخرى وانتصبت واقفًا، فاجأتْني قشعريرةٌ باردة وسمعت للكلاب نباحًا حادًّا يتناهى إلى مسمعي أشبه ما يكون باستغاثات غامضة، ومضيت إلى باب الشرفة مترنّحًا، أغلقته بعنف فصفَّق، آه لو أنّ للماضي بابًا

Twitter: @ketab_n

فأسدّه وأرتاح، لكن.. هيهات! وقفتُ طويلاً أمام الحقيبة غير قادر على فتحها، قلبي يخفقُ بقوّة وإلحاح ويدايَ تخذلانني ولا تقويان على فتح الحقيبة. تغيّبتِ عنّي أيّتها القدّيسة الجليلة، وخلّفتني رهين مذكّرات ما قبل موتك، وزدت الطين بلّة حين أوصيت بألّا أقرأها إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً. أيَّ قنبلة موقوتة خلّفتِ بعدك يا خولة!

خولة... لو تعلمين أيّ نوع من الحزن ينهش دواخلي، إذا أنا ذكرتُك، لو تدركين أيّ إحساس بالذنب يهتصرني لنفضتِ عنك الكفن وغبار قبركِ وسارعتِ إلى أحضاني طفلةً، فأنا ما عرفتُ قبلك أو بعدك أحنّ ولا أدفأ صدرًا عليّ منكِ...

خولة، بدءًا من الغد سأقرأكِ، وإن كنت أعلم أنّ ذلك سيكلّفني لا محالة الشيء الكثير! وإن يكن.. فما عدت أملك بعدك شيئًا لأخسره. وأنا اليوم أكثر من أيّ وقت مضى مستعدٌّ لأن أقامر بكلّ شيء من أجل الخلاص. تراجعت خطوات إلى الوراء، أخذت زجاجة الخمر وكرعت ما تبقّى منها، فاستحكم بي دوار خفيف، ما لبث أن ازداد قوّة لا سيّما والأغنية الأمازيغيّة تنحو صوب الأفول.. أحسست أنّني أشبه ما يكون برماد السجائر قد أنكسر لأتفه الأسباب، أمّا ما حدث بعد ذلك، فلا أذكر منه سوى أنّني قذفت زجاجة النبيذ الفارغة بعنف إلى الجدار فارتدّ صوتها حادًّا مزمجرًا، لا يذكّر سوى بالزجاجة الأولى التي شربتها بالزجاجة نفسها التي كسرتها.

Twitter: @ketab_n

(١٠)

في الصباح. . . وجدتني طريح أرضيّة الغرفة، ما إن فتحتُ عينيَّ حتى واجهتْني شظايا زجاجةِ الخمر. شعرت بألم في كلّ أعضائي، لم أتخلّص منه إلّا بدوش ساخن. أمّا حين فرشت ذقني برغوة الحلاقة وجعلت أحلقه، فقد اهتزّ كياني لتلك الصفرة الغريبة التي بدأت تعلو ملامحي. لملمتُ بعد ذلك شظايا الزجاجِ ومددتُ يدي بشجاعة للحقيبة وسحبت مذكّرة خولة الحمراء، عانقتها وقبّلتها طويلاً، وإن يكن لا بدّ من موت أو جنون فليكونا عاجلين! فما عدت أقدرُ على تأجيل ما لا بدّ منه.

أسفل. . أقصد في مقهى الفندق كانت موسيقى فيروز تنبعث قويّة دافئة، حتى إنّ زمرة من أبناء القرية لا ينفكُّون عن التفاعل مع الأغنية، رغم أنّهم لا يفهمون كلماتها:

أسامينا شو تعبو أهالينا تلاأوها

شو افتكرو فينا

Twitter: @ketab_n

الأسامي كلام.. شو نفعو الكلام

عِنينا هنّي أسامينا...

في بادئِ الأمر، لم أنتبه إلى الرجلين الملتحييْن في الطرف القصيّ من المقهى، ربّما إلى حدود تلك اللحظة التي لوّح فيها أحدهما بيده إلى حميد، فقدم إليه وطلب منه الرجل أن يخفض من صوت الموسيقى. استفزّني قوله، واستفزّني أكثر إقحامه الحلال والحرام في الموضوع، فما كان منّي إلّا أن استوقفتُ حميد وأمرته بلهجة فيها من الحزم والصرامة الشيء الكثير أن يترك الموسيقى وشأنها.

مذكّرة خولة تنام مكدودة إلى جانبي، ودخان السيجارة الأولى يعلو ويتشابكُ مع أشعّة الشمس الوافدة من النافذة، التفتُّ إلى الرجلين الملتحيين فوجدتهما يبحلقان فيّ بحنق واضح، فصرفتُ عنهما بصري بلامبالاة إلى سحائب سيجارتي، التي بدأت تشكّل وجه مصطفى الذي ابتلعه الظلام في ذلك المساء الحزين.

أحيانًا، أشعر أنّني متورّط بطريقة أو بأخرى في قتله، فأنا من دبَّرت ذلك الموعد، وأنا من اختار المكان كأنّني نسّقت موعده مع الموت وتغيّبت عنه لأتركه أعزل أمام قدره. كان هذا في البيضاء، ١٦ مايو اتّصل بي صباحًا واتّفقنا أنّ الليل موعدنا، وأنّ ذلك المكان الشؤم لقاؤنا، لكنّني في آخر لحظة، ألغيت موعدي معه باتّصال هاتفي، حين أصرّت خولة أن أبقى معها، لأنّها بمشقّة النَفس دبَّرت ذلك اللقاء الليلي، لم أكن أعلم أنّ خولة بفعلها هذا، قد ألغت موعدًا لي مع موت محقّق، إذ لم تمرّ أكثر من ساعتين حتى رنَّ هاتفي بصخب، كان رقم مصطفى. لكنّ الصوت عكس صوته كان باردًا

Twitter: @ketab_n

ومحايدًا. في البدء سألني عن صاحب هذا الرقم، واستدرجني ـ بعد أن كشفت أنّه ضابط شرطة ـ إلى الحديث عنه؛ وما أتى على إنهاء تلك المخابرة الهاتفيّة، حتى بدأتْ تسيلُ من فمه كلمات المواساة والعزاء. مادت بيَ الأرض لحظتها، وشعرت برغبة مبهمة في الصراخ والتقيّؤ. أمّا عندما استفسرتُ الضابط عن سبب الوفاة أو ظروفها، فقد امتنع وطلب منّي بلهجة أقرب إلى الأمر أن ألتحق بالإدارة العامّة للأمن الوطني في أقرب وقت. بالطبع، لم أكن مضطرًّا لأن أنتظر إلى حين وصولي إلى إدارة الأمن الوطني لأعرف سبب انطفاء مصطفى، بل زحف إليّ الخبر، سمعته في وشوشات العابرين، كنت أقرأه في الوجوه الخائفة، وسمعته بإطناب من لسان سائق التاكسي الذي أفاض في شرح تفاصيله دون أن أطلب منه ذلك، هكذا ابتلع الإرهاب مصطفى حين تسلّل إليه ذلك الظلاميُّ مطوّقًا بحزام ناسف. انتهى مصطفى غدرًا بنصل أولئك الذين يزرعون الظلام، أعداؤه الحقيقيّون الذين ما فتئ يبشّر باقتراب موعدِهم، وعشت أنا لأنّ الصدفة أو الأقدار المجنونة وضعت خولة في طريقي ليلتها، أو لأنّني بقدر ما كنت أشتهي الموت صار دائم التأجيل والمراوغة، يكتفي بجعلي أراقب سقوط كلّ من أحببتهم دون أن يبادرني بضربة قاسية تحسم كلّ عذاباتي.

انسحبتُ من الفندق وأعين الرجلين الغريبين تراقب خطواتي، كأنّما تعدُّها. أمّا حين انتهيت إلى النهر، فقد باغتتْني عواطف مبهمة. هذا النهر الوديع الذي طالما ذكّرني به «بويب» السبّاب، تمشّيت بجانبه إلى أن وصلت إلى هذا الكهف المزار. أمّا وأنا أَلِجَه، فقد انتفضت داخلي طفولتي المعلّقة ها هنا، فرأيتُني طفلاً. نعم، رأيتني أفرُّ من أشواك أسئلتي إلى هذا الوليّ، رأيتني وأنا أتلصّص على النساء وهنّ

Twitter: @ketab_n

ينشرن أحزانهنّ ودموعهنّ، كما ينشرن مناديلهنّ فوق كومة الصخور التي تتوسّط المقام.

وضعت مذكّرة خولة فوق الصخور، تمامًا فوق أحد المناديل، وانصرفتُ إلى شجرة التين الصغيرة التي انبلجت من الجبل، حين رفرفت إليه ـ كما تقول الحكاية ـ دماء الشهيد، فاستحالت إلى ما هي عليه الآن.. حبّاتها استوت، لكنّ الحكاية تحرّم أكلها وتعتبر آكلها ملعونًا، لا أنفي أنّ غواية الأكل من خصبها الدمويّ قد خامرتني عندما كنت وعلاً صغيرًا، لكن قِصر قامتي وقتها أو عدم إدراكي لبُعد المسألة الأنطولوجي كان يحول دون ذلك! أمّا الآن، فالغواية ذاتها تستيقظ داخلي وحبّات التين في متناول يدي، لكنَّ شيئًا ما يستوقفني، ليس الخوف طبعًا، فلست أعرف أحدًا حفَّت به لعنات السماء والأرض أكثر منّي، كلّ ما في الأمر، أنّني ربّما مصاب بالتباس العواطف وعمى الإرادة، الأمر الذي وضع غشاوة ضبابيّة بيني وبين ما أنوي فعله.

أخذت المذكّرة الحمراء بين يديّ، وقعدت تحت شجرة التين المقدّسة. أشعلت سيجارة وفتحت المذكّرة بشكل عشوائي على إحدى صفحاتها الأولى. كان خطّها يلوح جميلاً متماسكًا وعذبًا، لكنّ المربّعات الصغيرة المتوارية خلف الكلمات تبرز، أو أخالها كذلك، حتى إنّها شوّشت عليّ القراءة، قلبتُ الصفحة وقلبت بعدها صفحات أخرى. كانت خولة تترك حيّزًا فارغًا يمين كلّ صفحة، ربّما لأنّها كانت تسطّر منذ لحظةِ الكتابة مشاريع العودة إلى تلك الهوامش. كتبت:

«من عادة الأشياء الجميلةِ أنّها تأتي بسرعة مفاجئة، تدهسنا بعنف وقوّة وتغمرنا بسعادة موجعة، أقول موجعة لأنّها تأتي بعد أن كان اليأس ورتابة الحياة تأكلان منّا أشياء كثيرة، لكنّ

Twitter: @ketab_n

الخوف، كلّ الخوف، أن تكون سعادتي مجرّد طيف عابر، لأنّ الحياة لا تكون كريمة بهذا الشكل وباستمرار..

اليوم، ليس كغيره من الأيّام التي كنت أحرص فيها على الجلوس في مقدّمة المدرّج وأكتفي بمراقبته، وهو يلقي محاضراته ببراعة، اليوم التمستُ منه أن يشرف على بحثي الجامعي، لذلك خصّني بلقاء كنّا فيه لوحدنا، صحيح أنّ الحديث عن البحث ابتلعَ معظم وقتنا، لكن كانت فرصة لا تُعوّض لأرصد أدقّ تفاصيل وجهه، لأغرق في عطره وأضيع في خطوط يده، وكما يفرّ الماء من بين أصابع ترتجف، انزلق الوقت من بين أصابعي بسرعة، لكن وأنا أودّعه، ظللت للحظات مشدوهة أمام عينيه الجميلتين، وداهمني إحساس غامض ومفاجئ بأنّ في هذا الرجل شيء منّي، وبأنّ فيّ أشياء منه. أحسست أنّ شيئًا مزلزلاً سيجمعنا. أحببته. هكذا تدفّق داخلي هذا الوجع الخفيف أو انفجر من الخاصرة.. لست أدري، المهمّ أنّه أسرَني وجعلني على يقين تامّ أنّ جسدي يضيق عمّا أحسّ».

وانفجر حبّكِ من الخاصرة وطوّقنا معًا، وها هي ذكراك تبزغُ، فمن قال إنّ النسيان سيدركك يومًا؟ ها أنتِ تنفضين عنك غبار القبر وتنتفضين على الكفن، وتمْثلين بين يديّ ذاكرة متّقدة. تُرى، لماذا اخترت الأحمر لونًا لذكرياتك؟ ألأنّ هذا اللون فاض عن معاني الحبّ فاختزله الماضي، أم كنتِ على يقين من أنّ كلّ ما ستخطّه أصابعك الرقيقة سيكون داميًا؟

وأنا أقرأك، أيّتها القدّيسةُ الجميلة، تجثُو على وجهي مسحة الأسى، وتطبق على جوفي غصّةٌ مريرة، تعود بي كلماتك، خطُّك

Twitter: @ketab_n

وأسلوبك، إلى ماضينا العنيف. وكان بحثك الجامعي «أوّل ما قاد المودّة بيننا».

لم أكن أظنّ أنّ حبّ طالبة لديَّ سيخرّب بشكل نهائي قلبي، الذي كنت أحرص على ترميمه كلّما دعت الضرورة. أذكر جيّدًا أنّك كنتِ تجلسين في مقدّمة المدرج في كامل تألّقك، وكانت تعلو ملامحك آيات الإعجاب التي أخفقتِ في إضمارها، أو ربّما كنت تتعمّدين إظهارها. لم أكن أدري أنّك نيزك يقترب بشغف من أجوائي، لم أستشعر أبدًا بوادر الطوفان. هكذا.. تأتي الأشياء العظيمة ببطء وشراسة، ولا تغادرنا إلّا بعد أن تخلّف فينا ما لا نقوى على ترميمه.

مرَّ قرب المزار نسوة وأطفالٌ.. أمّا النسوة، فقد ألقين التحيّة وواصلن طريقهنَّ، في حين هرول الأطفال نحو ركام الصخور وجعلوا يفتّشون عن القطع النقديّة الصفراء التي يخلّفها زوّار المقام خلفهم. أخمدت يدي في الجيب وسحبت ما فيه من قطع نقديّة ومددتها لهم، توجَّسوا أوّل الأمر، لكن بعد أن حدّثتهم بالأمازيغيّة سرعان ما تهافتوا على النقود وفرُّوا.

بأيّ حزن سأقرأك أيّتها البهيّة.. وأنت لم تتغيّبي قطّ عنّي، لا زلت حاضرة، يملأ حضورك حياتي. شعرك الأسود الحريريّ الذي طالما عشقته لا يزال يطلّ من ثقوب الذاكرة ويطوّقني، لن أنسى جمالك الباذخ، عينيك الواسعتين كعيني مهاة، ولا أنفك الدقيق الحادّ والمرتفع قليلاً في تحدٍّ وتعالٍ، كان جميلاً إلى درجة لا يمكن معها استكناه سرّ جماله، لكنّه عمومًا كان يضفي على شفتيك سحرًا خاصًّا، ويجعل رسمهما أشدّ إثارة، شفتاك كانتا تبزغان في مدى وجهك القمري كوردة أكملت تفتّحها، أمّا الجسد... يا للعنة الجسد! كيف تداهمني فتنته حتى من بعد ما أسلمتُك للتراب، كان عاصفة مخرِّبةً،

Twitter: @ketab_n

كلّ ما فيه يعكس كبرياءً من نوع خاصّ.

الجسد لفرط ما بلغ من الكمال كان مستعدًّا لأيٍّ رحيل طارئ..

الأشياء الجميلة والكاملة ترحل بسرعة، سواء اختارت ذلك أم لم تفعل، ربّما لئلّا تختلّ بسببها نواميس الحياة. ورحلتِ يا خولة بعدما خذلتُك وتخلّيتُ عنك. رحلتِ لأنّني لم أكن في مستوى عشقك. وأنا أشدّ على مذكّرتك الحمراء تهتصرني غربة مريرة، وأشعر كما لو أنّني أشدّ على معصمك الذي انفجرت دماؤه، وأحسّ أصابعي تنزُّ دماء.. هي حتمًا دماؤك. فلماذا ضمّخت بياضكِ الحليبيّ بحمرة الخطيئة؟

فتحت المذكّرة من آخرها، وجعلت أقلِّب صفحاتها دون معنى، إلى أن واجهتني تهمتي، وقد اقتبستها خولة عن امرئ القيس وتصرّفت في حركاتها، وقد كتبت بخطّ مضغوط ومشدّد، كما لو أنّها كانت قد كتبتها وجعلت تُعيد رسم كلماتها مرّة تلو الأخرى:

«أغرَّكَ منِّي أنّ حبّكَ قاتلي»

وكان حرف الكاف المفتوح في (غرَّكَ وحبّكَ) والذي تعمّدت شكلَه، يضمُّ ألف أصبع اتّهام واتّهام تبرزُ في المذكّرة وتتلاشى وتتّخذ أشكالاً غير معقولة. أفعلاً قتلك حبّي كما كتبتِ؟ طبعًا لا، فأنا من قتلتك بمديّة غيابي.

أشعلتُ سيجارة من أخرى، وانسحبت من مقام سيدي عيسى متأبّطًا مذكّرة خولة، بعد أن اشتعلت الذكريات، أو لنقل أنّها تورّمت داخلي وجعلت تتضخّم وتغلّف جميع حواسّي، فلا أنا أشمّ إلّا بذاكرتي، ولا أحسّ ولا أبصر ولا أفعل أيّ شيء إلّا بها، هي التي امتلأت إلى آخرها، فأين أنت أيّها النسيان؟ لماذا لا تمرّ كموجة وتغمرها وتمحو ما استطعت، فقد أتعبتني. خذ في طريقك كلّ شيء

Twitter: @ketab_n

حتى تلك الذكريات الجميلة والقليلة، فما عدت أقوى على حياة أستهلُّ يومي فيها بنبش رفوف الماضي، وأنهيه وأنا مكدود ومنكفئ على وجهي فوق أوراقه.

سلكت في طريقي إلى تلّة العرعار طريقًا ملتفًّا وطويلاً، لكنّني آثرت ذلك فقط، لأنّه لا يمرّ على ذلك المنزل الذي لا ينفكّ يقلّب جمر الذكريات... تتبّعت مجرى النهر الصغير من المقام مرورًا بالحقول المتاخمة للنهر، والتفتّ حول بعض المنازل وانتهيت إلى تلّة العرعار.

تلقّيت العديد من الرسائل، أهمّها تلك التي أرسلتها جوليا قائلة فيها إنّها ستتأخّر يومين أو ثلاثة أيّام أخرى، وعدتُ من حيث أتيت. في طريق العودة، لم يكن يخطر ببالي أن أراهم بمثل هذا الوضوح والقرب. ففي المرّات السابقة كانوا قد تداخلوا وحلكةَ الغروب لدرجة أنّني كنت أشكّ إن كانوا فعلاً هم أم لا، أمّا الآن فها بعضهم يمرُّ على بعد أمتار منّي، وها أنا أتأمّل جلابيبهم الفضفاضة ولحاهم المسبلة كالمكانس التقليديّة، حثثت الخطو دون أن أطيل التأمّل في وجوههم، تساءلت في سرّي إن كانوا إخوان قتلة مصطفى أم كانوا أكثر اعتدالاً؟ ولِمَ لا يكونون أشدّ تطرُّفًا أيضًا ما داموا يؤثرون العزلة والطرق الهامشيّة. لكن مهما تكن درجات تطرّفهم، فإنّ أشكالهم لا توحي إلّا بفكرة واحدة، أذكر أنّني رأيتها جملة مكتوبة في أحد مراحيض الحيّ الجامعي «ليس في القنافذ أملس».

بعدها بلحظات، حدث الأمر بشكل مباغت، إذ شقّ خيط بلّل شفتيّ ونزل على قميصي خط دم أحمر مررت بيدي اليسرى ـ والتي كانت تشدّ ذراعُها على مذكّرة خولة إلى يسار صدري ـ على أنفي، واندفعتْ الحمرة التي كانت تملأها إلى عينيّ آلافًا من الصور والتعابير

Twitter: @ketab_n

المبهمة، وضعت المنديل على أنفي ومضيت بخطوات متسارعة تصوّبها الطفولة نحو النهر.

أغرقت قدميّ في «بويبي»، وأنا لا أزال أنزفُ أنفًا وقلبًا وذاكرةً. انحنيت وأخمدتُ المنديل في النهر، فاندفعتْ حمرته بقوّة، لكنّها سرعان ما تبدّدت أمام اندفاع الماء الصافي، ولم يبق على صفحة الماء سوى قطرات دمي التي كانت تسيل من أنفي وتتشظّى فوق الماء وتختفي. رشقت وجهي بالماء طويلاً إلى أن توقّف النزف، غمرت شعري ورقبتي بالماء، وحاولت غسل الدم الذي تدفّق على القميص، والذي أبى أن يمّحي إلّا بعد أن خلعت القميص وأغرقت نصفه العلويّ في الماء.

حين رفعت رأسي واستقام وقوفي بعد طول انحناء، صكَّ أذنيّ صوت حادّ أشبه ما يكون بصفير مرعب، تردّدت داخلي أصداء دقّات قلبي البطيئة المتعبة. وطفا على عينيَّ سواد كثيف تتخلّله دوائر تكبر وتصغر، لكن سرعان ما عادت الأمور إلى نصابها بعدما خلتُ الموت يراودني.

أخذت المذكّرة وقفلتُ راجعًا إلى الفندق متثاقلَ الخطوات. حين اقتربت، لمحتُ حميد، وهو يتّجه نحوي بخطى متسارعة. توقّف أمامي وتنهّد بإعياء، وقال:

ـ السلام عليكم سي مراد.

رددتُ التحيّة، وتطلّعت إليه وهو يتفرّس في وجهي وقميصي المبلّل:

ـ هناك سيّدة في الفندق تسأل عنك.

ـ سيّدة؟ أتقصد جوليا؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لا.. ظاهر حالها يقول إنّها مغربيّة.

ـ مغربيّة؟

وأشاح بوجهه جهة الفندق، وأشار بسبّابته إلى المرآب المواجه للفندق قائلاً:

ـ لقد جاءت في سيّارة مرسيدس جميلة.

ـ طيّب.. شكرًا سأذهب للقائها.

وانصرف حميد، أمّا أنا، فقد أخذت مذكّرة خولة بيدي اليسرى وشددت عليها بقوّة، ووقفت أمام السيّارة التي أشار إليها حميد دون أن أظفر منها بمعلومة ذات أهمّيّة. جلّ ما تفصح عنه مختزل في لوحتها: إنّها مغربيّة. انقبض قلبي، لأنّ د. بنهاشم هو الوحيد في عوالم القيء هناك يعرف مكاني، كما أنّ جلّ أهل إغرم يجهلونني، وبالتالي كنت أفترض أنّني ابتعدت إلى حيث لا يجدني أحد.

في المقهى، نفر من الأجانب. وفي الطاولة القصيّة المواجهةِ للنافذة، هناك سيّدة تجلس وحيدة يواجهني ظهرها، كان المعطف البنفسجي الباذخ والأنيق ينام على جسدها الممتلئ بطمأنينة، أمّا شعرها الحالك، فقد كان ممدّدًا بانسياب على ظهرها. اقتربت أكثر منها غير آبه بنظرات السيّاح الذين كانوا يراقبون خطواتي باهتمام بالغ.

استدارت بشكل مفاجئ وحاسم، ففاضت الذكريات وغمرت أشياء كثيرة داخلي وأغرقتْ أخرى، أحسست أنّ العالم يتفكّك فجأة ويُعيد تركيب نفسه بشكل مختلف، أحسست أنّني غريب عن نفسي حتى كدت أسأل هل أنا فعلاً أنا؟ في تلك اللحظة بالذات، لا أدري إن كان الزمن يتقدّم للأمام أم يتراجع للوراء كي يقوى على التقدّم.

Twitter: @ketab_n

(١١)

على الرّغم من أنّ رياح الزمن غيَّرتها كثيرًا، وأبدلتْ ذلك النحول الأنيق الذي كان يميِّزها أيّام الجامعة بامتلاء لا يصل إلى حدود البدانةِ، فإنّي لم أجد صعوبة في تذكُّرها، ظلّت نضال جالسة تراقبني بنصف التفاتة ولا تنبس ببنت شفةٍ، وبقيتُ واقفًا لا أجد مهربًا لنفسي ممّا أنا فيه. في تلك اللحظة المشحونة بالماضي، كنت أستشعرُ قطرة ماء تنزلق ببراعة من شعري، وتتسلّل تحت القميص وتتجاوز نصفه المبلّل. كانت تدغدغني وتنقضُّ عليّ في لحظة لا تتّسع لانبثاق الذكريات ولجم تلك القطرة في آن.

ندَّت شفتاها عن ابتسامة خجولة وهي تتأهّب للنهوض، ثم قالت وهي تقلِّص المسافة بيننا بخطواتها المتثاقلة والواثقة:

ـ أهذا مراد أم خدعتْني عينايَ؟

ثم عاودت الابتسام، وإن بمكر لا يخفى وهي واقفة أمامي، وأردفتْ:

Twitter: @ketab_n

ـ ومن غيره! «وهل يخفى القمر»؟

ومدّت يدها مصافحةً، كنت مأخوذًا لحظتها بعبثيّة الأقدار التي لم أكن أظنّ ستفعل ما فعلت في مثل هذا الزمان وهذا المكان الاستثنائيين. حين التحمتْ يدانا، شعرت بإحساس غامض كأنّني أكتشفها للمرّة الأولى، قلت:

ـ اشتقت إليكِ أيّتها الشاعرة المناضلة..

ـ وأنا أيضًا، مراد، اشتقت إليك.

ـ بأيّ معنى يا نضال؟

ـ بأيٍّ معنى؟

وقلبت شفتها السفلى دلالة الاستغراب، وندَّت عنها ابتسامة ساخرة، واسترسلت:

ـ يا سيّدي، بمعنى بحثيَ الشاقّ عنك وأنت تستريح بين أوتاد الأرض هذه.

ـ مرّت سنون كثيرة... شاقّة ومتعِبة.

ـ نعم، هذه هي الحياة دائمًا بين مدٍّ وجزر.

ـ وأين أنت يا رفيقة من مدِّها وجزرها؟

ـ هو حديث ذو شجون، أفضّل عدم الخوض فيه، على الأقلّ الآن. وأنتَ؟

ـ تمامًا كما خلّفتِني، أسير وفق ما تمليه قيود الحياة.

وافترقت يدانا بتواطؤ خفيّ منّا.. هي لحظة أيقظتني من غمرة هذا الحلم ـ الحقيقة. إنّها نضال، الرفيقة نضال. وهي في إغرم قريتي الفاضلة. إنّها هنا والآن. قالت:

Twitter: @ketab_n

ـ ألن تدعوني إلى فنجان قهوة؟

ـ طبعًا.

وجلسنا إلى طاولة غير تلك التي كانت تجلس عليها، لست أدري أيّ رغبة مجنونة ألحّت عليّ أن نجلس إلى تلك الطاولة، التي كان يجلس فيها الملتحيان صباحًا. كانت ملامح نضال تحتفظ بالكثير من إشراق الماضي ونضارته. شفتان هائجتان وعينان واسعتان وقوام أنيق وممتلئ أكثر. أمّا ثيابها الفاخرة، وذلك الخاتم الجميل الذي كان ينام بهدوء ملوكي على يدها اليسرى، وتلك الأقراط الذهبيّة التي تتدلّى من شحمتيْ أذنيها.. هذه الأشياء، إضافة إلى السيّارة الجميلة، لم تكن لتؤكّد سوى حقيقة واحدة: أنّها اغتنتْ.

قالت، وقد انتبهتُ إلى أنّها أطالت التأمُّل في وجهي:

ـ لم تتغيّر كثيرًا كما توقّعت!

ـ ولا أنتِ.

ـ لا تزال تحتفظ بجاذبيّة الماضي وأناقته، إن لم نقل إنّك زدت..

وضحكتُ لقولها ولعجزها عن بلوغ هذا العجوز الذي يقبع داخلي، أحيانًا أرى أنّه لو كان لأحزاني صدى ولو بسيط على شكلي الخارجي، لشابت نواصيَّ وتقوّس ظهري ودبّ في أعضائي الوهن. قلت بعد أن لمحت حميد يدنو:

ـ ماذا تشربين؟

ـ إن كان من الأمر بدٌّ فليكن عصير برتقال.

حين وقف حميد أمامنا بانضباط، قال:

Twitter: @ketab_n

ـ سي مراد، أتأمر بشيء؟

ـ عصير برتقال وفنجان قهوة.

وانصرفَ بسرعة. تطلّعت إلى نضال التي كانت ساهمة قائلاً:

ـ إذًا كيف عثرت عليّ؟

ـ الصدفة يا مراد.

ـ لم أفهم.

ـ تصادف هذه الأيّام أن كنت في مدينة ميدلت المجاورة، سألت مصادفة عن قرية باسم «إغرم» التي حدّثتني عنها في المخابرة الهاتفيّة، فقيل لي إنّها قرية منسيّة ومهملة تقع في خصر جبال عيّاش، وقد افتضّ وحدتها مؤخّرًا فندق.

والتزمتْ الصمت لبرهة وهي تتطلّع لمذكّرة خولة التي كانت تستلقي على مقعد بقربي، قلت لأُعيدها إلى الحديث الذي كانت بصدده، أو ربّما لأُبعدها عن أيّ حديث محتمل حول المذكّرة:

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ قلت: ما دام في الأمر فندق، وكذلك احتمال العثور على حبيب سابق، فلِمَ لا أغادر؟

ـ جيد.

ـ وعندما انتهيت إلى هنا، أنت تعرف البقيّة، من يسأل لا يتوه.

وابتسمت بمكر واضح، وأردفت ربّما رغبة في جرّ الحديث نحو أفق آخر:

ـ مراد.. أَنسيتني؟ أقصد هل نسيت ما كان بيننا؟

Twitter: @ketab_n

ـ للأسف، أنا مُصاب بإحدى العاهات المستديمة الأقلّ انتشارًا في زمننا.

ضحكت للفكرة وغرابتها، ثم سألت:

ـ وما هي؟

ـ إنّه داء فقدان التحكّم في الذاكرة!! للأسف أنا لا أنسى وهنا تكمن المأساة، لم أَنْسَك مثلما لم أقو على نسيان أشياء كثيرة.

أشعلت سيجارة وأخذت نَفَسًا بشراهة، واسترسلتْ:

ـ إذا قلت لم أَنْسَك، فالأمر لا يعني أنّني لا زلت أفكّر فيك بمنطق الحبّ. لم أَنْسَك فقط، لأنّ ذاكرتي مريضة لا يخترقها النسيان.

أقبل حميد يحمل صينيّته، وضع كأس العصير أمامها وفنجان القهوة أمامي، ثم مضى بخفّة. استعرت من ابن الرومي شطر بيت أناوش به ماضيها فخير وسيلة لأتلافى بها أسئلتها أن أبادرها بسؤال:

ـ كيف حالت بكِ الحال من بعدي؟

ودوَّت ضحكتها، ثم ما فتئت تلك الضحكة أن انقلبت إلى بسمة ممزوجة بالكثير من الحزن. قالت:

ـ سؤال ماكر! على أيّ حال، خسرتُ حربي يا مراد، وإن لم تكن حربًا بالمعنى الصحيح، اكتشفتُ بعد فوات الأوان أنّني لم أفعل شيئًا سوى مقارعة الطواحين الهوائيّة. اكتشفت أنَّ دونكشوتًا صغيرًا كان يضرب خيمته داخلي.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ مصير الرفاق لم يخرج عن أحد أمرين: منهم من خانوا ومنهم من تعرّضوا للخيانة.

Twitter: @ketab_n

ـ وأنتِ يا رفيقة؟

ـ أنا! لست أدري. كنت أريد أن أنتقم لأبي الذي ابتلعته الدهاليز والأقبية المظلمة، أبي الذي اكتشفتُ متأخِّرة المكان الافتراضي الذي دُفن فيه، هو وبعض رفاقه.

وصمتتْ للحظات وتنهّدتْ بعمق، كأنّها تستسلم لتدفّق الذكريات واسترسلت:

ـ الهزيمة تبدأ حين نجعل من الفكر ذريعة لتحقيق غايات شخصيّة.

وعادت إلى الصمت. كان سكوتها يلهج بكلمات غائمة وعصيّة على الفهم، تتدفّق من ثقوب الصمت حممًا غاضبة. أمّا عيناها فكانتا تضجّان ببريق غامض ومثير. راقبتها وهي تشربُ من كوب العصير، كانت يدها التي امتدَّت إلى الكأس بلباقة تقول أشياء كثيرة وتذكّر بأشياء أخرى، كم اقتلعتْ هذه اليد من حجارة لتروي غضب الرفاق، وكم جرَّت من فروع الأشجار لإقامة المتاريس أيّام المواجهات! لكنّ الخاتم الثمين يشتِّتُ هذه الصورة القديمة المتداعية.. قلت لأتجاوز الصمت الذي بدأ يتّسع بيننا:

ـ وكيف غادرت الجامعة؟

ـ حكاية طويلة. المهمّ غادرتها، لكنّها لم تغادرني. لا زالت تعشِّش مثلك في تخوم القلب القصيّة.

ـ مثلي؟

هكذا صحتُ مستغربًا، فأجابت بسرعة حاسمة:

ـ أنت تعرفني، أو على الأقلّ لا زلت تذكر أنّني صريحة للغاية.

Twitter: @ketab_n

أنا نفسي لا أعرف لماذا ولا كيف تناسل حبّك بين أضلعي خلسة! هكذا أكتشف وأنا أفتح نافذة القصيدة على مصراعيها أنّ حبّك رغم غيابك ظلّ ساري المفعول، الشعر جعلني أكتشف أنّ حلقة حبّك كانت هي الأقوى والحقيقيّة أيضًا في سلسلة الأكاذيب التي عشتها ولا زلت. . .

ـ نضال! قولي لي. .

وأومأتُ لها بعيني صوب الخاتم الذي ينام على يدها:

ـ هل تزوّجتِ؟

ـ مرّتين.

ـ الأوّل؟

ـ كان رفيقًا من مدينة وجدة، اكتشفتُ بعد زواجنا ببضعة أشهر أنّه لم يكن رفيقًا بل كان أحد بيادق النظام، كانت هذه سنة عشتها في جحيم الخيانة، كما كانت المرّة الأولى التي أصادر فيها القضيّة وأخونها، ولو أنّ الأمر كان دون وعي منّي.

ـ وهل هناك حالة خنت فيها القضيّة عن وعي؟

ـ نعم. في الزواج الثاني، بعد أن فطنتُ إلى زيف حياتي بين حلم لا يكتمل ـ كما يُقال ـ وواقع لا يحتمل. هكذا انفضحتْ الهوّة التي كانت تفصل بين الواقع والحلم السبعيني الذي لم نكن سوى امتداد بائس له.

ـ وما علاقة هذا بالزواج؟

وضحكت بصخب، ثم تطلّعتْ إلى عينيَّ قائلة:

ـ تزوّجت بالنظام.

Twitter: @ketab_n

وضحكنا معًا، وتحدّثنا بعد تناول وجبة الغداء عن الرفاق وعن جامعة ظهر المهراز، وعاج بنا الحديثُ إلى الحبّ.. أمّا عندما انكسرت الشمس عند خاصرة المغيب، فقد قالت بنبرة أقرب إلى الحزن:

ـ أدركني الرحيل.

ـ أبهذه السرعة يبرق طيفك ويغيب؟

ـ ربّما.

ـ فلتجلسي.. ففي الفندق متّسع للغرباء والمرضى بالحنين.

ـ أنسيت أنّني متزوّجة؟

ـ لم أنسَ، ولست في حاجة إلى أن تذكّريني بذلك.

ـ إذن سأبقى.

وعدلَتْ عن فكرة الرحيل، وفي داخلي كنت أودّ لو أنّها ترحل. حتى الكلمات التي قلتها لأستبقيها لم تكن إلّا من باب اللباقة، لكنّ الظاهر أنها كانت تنتظرها لتبقى.

واقفيْن كنّا أمام قصب انتصب غير بعيد من الفندق، وحال دوننا ودون رؤية الشمس وهي تنزلق بتثاؤب خلف الجبال. مشينا قليلاً إلى أن بدأت حلكة الليل تزحف بوحشيّة وضراوة على القرية، أمّا ونحن نقترب من الفندق فقد تطلّعت إلى أعلى الجبل مصادفة، وغبت في متابعة أشباه أطياف تبدو تارة وتضمرها الحلكة تارة أخرى، رجال وبغال ولحى.. إلى أن انتبهتْ نضال إلى غيابي وحرّكت ذراعي قائلة:

ـ أين غبت؟ أبهذه السرعة؟

ـ أنا معك.. أندخل؟

Twitter: @ketab_n

ـ ليكن ما تريد. .

* * *

حبيبي تصوَّر بأنّي. .
إذا ما ترفّقت الذكريات حزنتُ
وكدت أموتُ
إذا الجوّ أمطرْ. .
حبيبي، أَعدلٌ
إذا ألصقوا بي الجنونْ. .
وقالوا بأنّكَ وليد الظنونْ!
وأنِّي على الزيفِ عشتُ
ولو يدركونْ
بأنّي لأجلك يا مبتدايَ
لأجلكَ يا منتهايَ
ولـدتُ
ولولاك ما كنت. .
لو يعلمونْ
لما ظلموني
وقالوا جننتُ!
فدعهم يقولون ما يشتهون
فهم مخطئون

Twitter: @ketab_n

وهم يحقدون

عليَّ، لأنّي عشقتُ..

ألقت نضال قصيدتها، وعلقت في نهايتها أنّها الرسالة الأخيرة، كانت تجلس على الكنبة الحمراء، وكنت ممدّدًا فوق السرير.. والليل خارج الفندق شرسٌ كشفاه ظمأى، ومندفع وأهوج كأحزاني، سألتها ببرود مفتعل:

ـ لماذا الشعر يا نضال؟

ـ لأنّه الأمر الوحيد الذي يمكن أن أجيده.

ـ ولكنّك تغتالينني بقصائدك.

والتفتتْ إليَّ وقلبتْ شفتاها دلالة الاستغراب. أغمضت عينيَّ ثم تطلّعتُ إلى سقف الغرفة قائلاً:

ـ ربّما لا تدركين المعنى العميق، لأن يكون المرء مستهدفًا شعريًّا..

ـ كيف ذلك؟

لم أجب، فأطبقَ صمت موجع على الغرفة لا يفضحه سوى نباح كلب يعلو وينكسر، كانت الذكريات تتفجّر في جوفي مرّةً إلى أن داهمني صوتها بعد مدّة من الصمت:

ـ أكبر تغيُّر لاحظته فيك هو أنّك صرت قليل الكلام كثير الشرود.

ـ ربّما لأنّي متعب.

وابتلعني الصمت مرّة أخرى، وكنت أتمنّى لو أقول لها أشياء كثيرة، أن أقول مثلاً إنّني حزين لدرجة أنّني لا أصلح لقصائدها، وأنّني

Twitter: @ketab_n

وخشب الطاولة أمامها مقطوعان من شجرة واحدة! وددتُ لو أنّني أخلع قميصي وأدير لها ظهري، لترى الندوب التي تنخره وتقوم دليلاً واضحًا على طفولة منتهكة، تمنّيتُ أن أقول لها إنّني أحملُ فوق كتفيَّ حنينًا ثقيلاً إلى كلمة: بنيَّ. وأرتمي بعد ذلك في حضنها وأنشج بصخب، وأظلّ مسجّى على خصرها إلى أن أُشفى أو أموت..

اتّجهت صوب الثلّاجة الصغيرة، وأنا أشعل سيجارة بنرفزة حاولت جاهدًا إخفاءها. أخذتُ زجاجة نبيذ وكأسين أنيقين وسحبت معي كرسيًّا، بحكم أنَّ الأريكة التي كانت تجلس عليها نضال لا تتّسع لشخصين إلّا إذا كانا متعانقين. وضعت الزجاجة والكأسين فوق الطاولة وجلست إلى الكرسي، قالت:

ـ أما زلت تفعلها؟

وضحكنا معًا، وإن تحرَّينا الصدق فقد ضحكتْ لوحدها، أمّا أنا فقد جاريتها وتظاهرت بالضحك:

ـ نعم، لا زلت.. لكنّني لم أستحل بعد إلى سكّير رسمي.. هل يزعجك دخانُ سجائري؟

ـ لا، لا بأس.. سنشرب إذًا. ليكن الأمر في حدود الكأسين، لأنّني لا أريد أن تسحبني دوّامة الثمالة.

وصبَّت النبيذ في كأسينا معًا، وهاجمتها مستفزًّا:

ـ حدّثيني عن زوجك؟

ارتبكت ملامحها وخامرها الأسى، حين قالت:

ـ حبَّذا لو نؤجّل هذا الحديث إلى أجل غير مسمّى!

وأهرقت الكأس دفعة واحدة في فيها واسترسلت بقلق مفضوح:

Twitter: @ketab_n

ـ لا شكّ أنّ سؤالك يضمر سؤالاً أعمق هو: ماذا تفعل سيّدة متزوّجة في غرفة رجل أعزب ليلاً؟

ـ لم أقصد ذلك.

ـ لا فرق، فالسؤال منطقي للغاية.

وصبّت كأسها الثانية، ثم أضافت:

ـ تمهّل إذا كان لا بدّ من أن أفتح باب الأوجاع، أوّلاً لست سعيدة في حياتي الزوجيّة ـ هذا إذا كانت حياة زوجيّة بالمعنى الصحيح! أحيانًا أجدها أقرب إلى نوع من الدعارة الشرعيّة.

ورشفتْ من كأسها جرعات متقطّعة.. كانت بادية الاضطراب، استرسلت:

ـ إلى جانب أنّه يكبرني بما يزيد عن ربع قرن، أجده خيانتي الكبرى للمبادئ التي طالما آمنت بها. حين تزوّجته أحسست أنّني خذلت أبي في قبره. إنّه رجل أعمال كبير، وفوق ذلك، رجل سياسة رفيع المستوى، يحلو له في لحظات صفائه أن يكون ساديًّا معي، إذ يؤكّد أنّه أحد زعماء الرأسماليّة في المغرب. لا شكّ أنّك تعرفه، لكن لا داعي لتعرف اسمه.. بالمناسبة، نسيت إخبارك بأمر على قدر كبير من الأهمّيّة..

وشربتْ ما تبقّى في كأسها الثانية من نبيذ، ودون أدنى اهتمام بأنّها سبقَ وصرَّحتْ أنّها ستكتفي بكأسين اثنين، صبّت كأسًا ثالثة وأردفت:

ـ أنا زوجته الثانية، أو لنبسّط الأمر أكثر ونقول، أنا عشيقته حين يعوج على مدينة فاس. أمّا الزوجة الرسميّة أو «أمّ البنين»، كما يحبّذ

Twitter: @ketab_n

أن يسمِّيها، فتقطن بالبيضاء، تصوّر يا مراد أيُّ حزن يمكن أن تستشعره إنسانة ثوريّة تُزفّ بين عشيّة وضحاها إلى رمز للانتهازيّة والوصوليّة؟! أنا متعبة.

وكانت تبدو متعبة فعلاً. عجبت كيف انتهت بها الحياة إلى هذا المصير! قلت:

ـ لا يهمُّ، فالحاضر على أيّ حال، أجمل من سنوات الجمر التي قضيتها في الجامعة..

ـ لا أظنّ ذلك. لم أنس قطّ قول لامارتين الذي طالما ردَّدته «أيّ جرم اقترفناه لكي نستحقّ أن نولد».

ـ لماذا لا نترك هذه الأحاديث جانبًا.

ـ كنت أجيبكَ عن سؤالك الأوّل.

ـ الأوّل؟

ـ سألتني لماذا الشعر؟

أشعلت سيجارة أخرى وانتصبت واقفًا. بحثتُ في أحد الرفوف عن بعض الأقراص المدمجة، وأنا أقول لها:

ـ أنرقص؟ عندي أغان قد تروقك.

ـ أقسم أنّك لم تزد إلّا جنونًا.

ـ وإن يكن، أليس شرفًا أن تراقصي مجنونًا.

ـ بلى.. لنفعل ذلك.

والتحم جسدانا على أنغام موسيقى هادئة لمغنيّة فرنسيّة شهيرة، ذكّرتني بجوليا وغالبت ذكريات كانت تطفو بسرعة وتخبو، وفي غمرة

Twitter: @ketab_n

انتشائنا وهي تنام برأسها على صدري ويدي تطوّق ظهرها، همست:

ـ أأحببتني يومًا يا مراد؟

انحنيت إلى أذنيها قليلاً، وهمست:

ـ لست أدري، لأنّني كنت ولا زلت أعيش التباس عاطفة الحبّ بعواطف أخرى.

وتطلّعت إليَّ بحزن، كانت ملامحها تعود بي سنوات إلى الوراء، إلى المواجهات الدامية مع رجال الأمن تارة ومع «الإسلاماويين» الذين ابتليت بهم الساحة الجامعيّة تارة أخرى. الموسيقى تندفع في خلايانا المخمورة بقوّة وتهوُّر، أمّا شفتاها وهي تتطلّع إليَّ فقد كانتا أشبه بأمل مزيّف، انحنيتُ مدفوعًا بطيش أخرق وانجذبتْ إليَّ بعفويّة، فالتحمَ نهداها أكثر بصدري ودنوتُ. الغريب أنّني في تلك اللحظة كنت على يقين تامّ أنّني أخطّ حماقة أخرى..

والتحمتْ شفاهنا في قبلة الخطيئة، انصهرنا في جحيمها الشهوي وافترقنا في لحظة واحدة، كأنّنا كنّا متواطئيْن بشكل خفيّ على فعل ذلك. حين تطلّعت إلى ملامحها واجهني حزن عميق، لست أدري لماذا ألحّتْ عليَّ صورة خولة وقتها. قلت معتذرًا:

ـ أنا آسف، قد خرجت الأمور عن منطقها السوي.

ـ لا عليك.

وعدْنا إلى الرقص مجدّدًا على الإيقاعات السريعة لـ «ليالي الأنس في فيينا»، ندمت على تلك القبلة التي ما كان عليَّ أن أتورّط فيها. غنّينا معًا وضحكنا بصخب ووجع، وقلت لها في قمّة فرحنا الطارئ والموقّت بأنّني لا أفكّر في علاقة جسديّة معها.. ببساطة لأنّها متزوّجة.

Twitter: @ketab_n

فتحتُ لها باب غرفة أخرى في الطابق الثاني، قائلاً:

ـ لا شكّ أنّ الغرفة ستروقك، فهي مشابهة لغرفتي.

ـ نعم، إنّها جميلة.

ـ إذًا، تصبحين على وطن.

هكذا قلت ممازحًا واستدركتُ:

ـ تصبحين على خير.

ـ أمسية سعيدة.

Twitter: @ketab_n

(١٢)

لم يمرَّ وقت طويل حتى سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، قفزتُ من السرير بخفّة وعل، كنت عاري الصدر. فتحت الباب، فإذا هي نضال. ظلّت لثوان تبحلق في صدري قبل أن تقول:

ـ في الحقيقة، غادرني النوم وجئت لإزعاجكَ قليلاً.

ـ تفضّلي.

كانت ترتدي فستانًا أزرق قصيرًا، لكنّه شفّاف لدرجة أنّ تفاصيل جسدها تبدو واضحةً. نضال كانت طريّة ومثيرة لدرجة لا تقاوم، عدت إلى السرير واستلقيت دون أن أضع لباسًا على جسدي، بينما جلستْ هي على الأريكة وصبّت كأس نبيذ آخر، أخذت الكأس بيسراها وانتصبتْ باسقةً كشجرة تينٍ، ثم أهرقتْ الكأس في فمها ببراعة سكّير متمرِّس، وتطلّعتْ إلى جسدي بمكر يظهر من التماع عينيْها، وجعلتْ تقترب من السرير بخطى متحفِّظة، وفي كلّ خطوة تخطوها كانت الذكرياتُ تنبعث من رمادها وتحلِّق في سماواتي عنقاء قويّة. نضال

Twitter: @ketab_n

شهيّة وطازجة كتفّاح إغرم، وجسدي يبدو أشدّ تماسكًا ما دام يقوى على لجم الدماء الجنسيّة التي تغلي داخلي وتفور، وتتحيّن الفرصة المثلى للانقضاض.

وقفتْ قرب السرير، ودون أن تنبس ببنت شفة، شرعتْ في خلع ملابسها ببطء معذِّب إلى أن استحالتْ إلى ضيعةٍ ذات قطوف دانية، كان جسدها شمسًا محرقة تدنو وتنفجر داخلي آلافًا من الصور المغرية، ورغم قصر اللحظات التي كنت أتأمّل فيها هذا الجسد المشتهى، إلّا أنّها مرّت داخلي دهرًا كاملاً. حين وضعت ركبتها على حافّة السرير كانت دمائي تقول إنّني لن أبرحها إلّا جثّة هامدة.. اقتربتْ أكثر وزحفتْ بكامل عريها على جسدي، وتسارعتْ أنفاسُها حين شددتُ على حلمتيْ نهديها الحمراوين اللتين كانتا تشعّان خصبًا ووهجًا. كانت صورتها القديمة تنطمسُ وتتبدَّدُ وكأنّني إزاء جسد غيرها، أمّا وأنا أتابع ارتعاشاتِ أسوارها اللحميّة، وشهيقُها يعلو وينكسرُ ليستحيلَ إلى زفراتٍ متقطّعة، ثم وأنا أتابع تأوّهاتها بلذّة، مددت يدي إلى مواطن ضعفها. كنت أستفزّ جسدها ليكون بالحرارة المطلوبة وأحرِّض عليها تخوم رعشتها السحيقة. حين التحم جسدانا كانت يداها تشتبك بالندوب الراسية على ظهري وتئنُّ، تتأوّه، وتصرخ بكلّ ما فيها من جنسٍ وشهوةٍ، وتستزيدني بلهفة كأنّ عطشَ سنين يسكنُ هذه المرأة الفتنة!

حين بدأتْ تظهرُ على زجاج باب الشرفة خيوط الفجر، وكان صياح الديكة يتناهى إلى مسمعينا على الرّغم من أنّنا بعيدان عن القرية. كنّا قد استسلمنا للتعب المتدفّق في جسدينا، وقتها انقلبتْ شهوتي إلى ندم يهتصرني، وتذكّرت خولة وأنا أطفأ نور الكهرباء.

تذكّرت خولة والسنين الخواليا.

Twitter: @ketab_n

أيّام لا نخشى عن الجنس ناهيا...

لم أنم أكثر من أربع ساعات، استيقظتُ وأخذت دوشًا، وجلست على كرسيٍّ في الشرفة. قرأتُ فصلاً لنيتشه عن الشعور بالندم، هذا الشعور الذي لا يزال يستبدّ بي ويخزّني في كلّ مكان من جسدي. أمّا إغرم صباحًا، فكانت تنفضُ ليلها كما جرت العادة والشمس تزحف رويدًا رويدًا وتبسط حبالها الذهبيّة على حمرة الجبال وعلى صفرة المنازل واخضرار الحقول، فتغدو هذه القرية المجنونة سيّدة في أوجَ بهائها.. هكذا تفتعلُ إغرم هدوء مليكة في عرشها الأخضر. كنت عبثًا أحاول الاندماج مع أثير خافت تأتي به نسائم الصباح هو مزيج من كلّ الأصوات التي تستيقظ في إغرم، وغشيني حزن لم أقوَ على كظمه حين تذكّرت ما حلّ بي بعد إغرم، وانسحبت من الشرفة...

كانت نضال لا تزال ممدّدة على السرير، لكنّها مستيقظة. قلت:

ـ صباحك سكَّر..

ـ صباح الخير، تراك استيقظت باكرًا؟

ـ نعم، منذ ما ينوف عن ساعة.

ـ وماذا فعلتَ؟

ـ أخذت دوشًا وقرأت فصلاً لنيتشه.

وناولتها لباسها الذي انزلقَ البارحة إلى الأرض، منظر المرأة، وهي تتجرّد أو تفرّ بعد ليلة جنس إلى ملابسها، أشهى بكثير من رؤيتها متجرّدة تمامًا، هكذا عبرت الخاطرة وأنا أتأمّلها وهي تعود إلى لباسها، أمّا بعد خروجها من الحمّام فقد طوّقتُ يدها وسحبتُها إلى الشرفة فواجهتنا الطبيعة بألقها وبهائها. إغرم تتجرّد من ليلها.. فما

Twitter: @ketab_n

أشهاها! هكذا قلت في السرِّ، وأنا أشدُّ على خصر نضال وأتّكئ بصدري على بلاطة ظهرها، قالتْ:

ـ إنّها القصيدة، هذه القرية في استيقاظها الهادئ تقول ما يفكّرُ فيه المرء من دون أن يجد الكلمات المناسبة ليقوله، هكذا تقول شعرًا بصمتها البدائي الثقيل، بطهرها الموجع.

ـ وها أنت تقولين فيها شعرًا.

ضحكنا معًا، وتحدّثنا في الشرفة عن الجمال والأدب والحبّ وانتظرتُها لتستحمّ.. وقبل أن نذوب في الفضاءات اللامتناهية لإغرم عرجنا إلى المقهى وتناولنا وجبة الفطور. قالتْ ونحن ننسحب من الفندق:

ـ لماذا هذه القرية؟

ـ لأنّني وجدتُ ذات يوم على الإنترنيت صورة فندق معروض في مزاد علني، فقدمت أوّل الأمر إلى هنا، أعجبتني القرية فاشتريتُ الفندق. هذا كلّ ما في الأمر..

وحاولت ما استطعت أن أبعدها عن هذا الموضوع، لأنّي أعتقد أنَّ ردّ فعلي إذا هي تمادت في السؤال لن يخرج عن أحد أمرين: إمّا أنّني سألتزم الصمت ولن أجيبها، وإمّا أنّني سأستوقفها بكلمات فيها الشيء الكثير من الصفاقة.

بعد أن طُفنا القرية ومررنا من حقولها، وعبرنا من أزقّتها إلى مختلف مزاراتها، انتهى بنا الأمر إلى المضيق الجبلي. اخترقناه برميْن بهذه العزلة المشبوهة التي يوفّرها لنا المكان. هكذا.. يدًا في يد، كانت نضال تبدو أصغر من سنّها بكثير، لكنّها على أيّ حال ليست الرفيقة نضال التي عرفتُها. الجبل خاشع لا يقلق هدوءَهُ سوى وقع

Twitter: @ketab_n

أقدامنا وثرثرتنا، فكلّ حديث في السياسة ثرثرة قالت وأردفتْ:

ـ نحن في حاجة لسياسةٍ جنسيّة كذلك، يجب أن يخرج الجنس من قائمة تابوهاتنا الطويلة.

ـ ربّما.. لكن يجب الاعتراف أوّلاً بوجود أزمة جنس. فعمق المشكلة يكمنُ في أنّ الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج لا يزال يفكّر بخصيتيه، لكنّه يكابر ولا يعترف بذلك، بل الأدهى أنّه يستسلم لازدواجيّة بشعة بين شعارات يكرّسها لصالح القبيلة التي تعيشه في العلن، وبين حقيقته في السرّ.

ـ نعم، هذا ما يقف حجر عثرة بيننا وبين الحداثة..

وضغطتْ على يدي التي لا تزال تشدّ على يدها، وأومأت لي بيدها الأخرى إلى الجهة الظليلة من الفجر تمامًا، إلى مكان محجوب عن الأنظار، قائلة:

ـ لنجلس هناك، تعبتُ.

ـ لِمَ لا.

وما كدنا نصلُ إلى ذلك المكان حتى طوّقت يداها عنقي، وقالت وعينيها تلتمعان بمكر واضح:

ـ أشتهيك.

واقتربت حتى التحم جسدانا، وتطلّعت إليَّ بشراسة ذئبةٍ جائعة تستجدي لحظات جنس ومتعة، انزلقتْ يديَّ بشكل لاإرادي من خصرها إلى ردفيها وضغطت عليهما بشدّة، كان ثوب التنّورة رقيقًا رغم كونها فضفاضة ومحتشمة، ولم تكن تلبس تحتها سوى تبّان كنت أمرّ على تفاصيله بأصابعي وأنا أشدّ على ردفيها، ممّا يرجّح أنّها خطّطت

Twitter: @ketab_n

للأمر. قبّلتُها بعنف لم تكن تملك أمامه سوى التراجع، إلى أن استندت ببلاطة ظهرها على الواجهة الجبليّة للمضيق. طوّقت عنقي بكلتا ذراعيها وأنا أضغط على جسدها فيردّه الجبل، أمّا عندما مرّرت بأصابعها بين لحمها المتماسك الشهيّ والتنّورة، فقد علا شهيقها باضطراب وتلعثم:

ـ أحبّك.. بكلّ ما فيَّ من عطش إليك، أسألك أن تزيدني منك.

تطلّعتُ إلى مختلف الجهات مخافةَ أن نكون على مرأى من أحدهم، في تلك اللحظة واللحظات التي تلتها، شعرت برغبة مبهمة ومجنونة في الركض.. هكذا نصف عار، وأجتاح إغرم بجنوني وطيشي فاتحًا، في مثل هذه الحالة ـ النادرة عمومًا ـ أحسّ أنّ شيطانًا أحمر الوجه ذا قرونٍ وَغُلِيّة يقبع داخلي ويبقر أحشائي كلّما انفجر ضاحكًا.

في طريق العودة، قالتْ:

ـ أتدري أنّني، في ذروة لحظاتنا الجسديّة، أتمنّى لو أنّك زوجي، بدل ثقيل الصدر ذاك. في غمرة جحيمك العذب والرعشة تستبدّ بي من أعلى رأسي إلى أخمص قدميَّ، لا أشتهي شيئًا سوى ألّا تنتهي معاناتي اللذيذة معك وأنت تنغرس فيَّ، تمنّيت لو تلتحم أعضاؤنا، صدّقني لم أمارس الجنس بهذه الشراسة من قبل، لم يمرّ بسفوحي سيل كسيلك الجارف الذي يجرّني إلى أقصى تخوم اللذّة، أنا أعشقك.

وطوّقت ذراعيَّ بيديها وشدّت عليها بقوّة مضاعفة، واسترسلت:

ـ واشتهيتك مرّة أخرى، ولا شكّ أنّني سأنفق ما تبقّى من حياتي في حالة عطش إليك.

Twitter: @ketab_n

كان لصوتها صدى داخليّ في ذلك الرأس الشيطاني الأحمر، الذي لا ينفكّ يكركر بصخب فتتحرّك قرونه وتجرح الجدران الداخليّة لجسدي. أخاف أن يفيض فمي دمًا وأخرّ صعيق نزيف داخلي. أجبتها بتصنُّع لا يُخفى وبنوع من المجاملة أيضًا:

ـ وأنت أيضًا طازجة وشهيّة لدرجة لا تُقاوَم، ولا أخفيك أنّني حين أضمُّكِ إلى ذراعيَّ أحسّ أنّكِ بركان في حالة نشاط تامّ.

ـ البركان لمن يجيد تنشيطه يا مراد، وهذا أمر تتقنه جيّدًا.

وضحكنا للأمر، وعيناها لا تزالان تضجّان بلهيب الشهوة الحارق، عندما اقتربنا من الفندق لمحت سيّارة الجيب خاصّة جوليا، إذن عادت الشقراء، أحسستُ أنّ موقفي بينها وبين نضال سيكون حرِجًا، تخيّلتُ لو أضاجعهما في سرير واحد فابتسم الشيطان الأحمر داخلي بخبث، بادرت نضال قائلاً:

ـ نسيت أن أخبركِ بأمر مهمّ، ربّما أخبرتك به هاتفيًّا.

ـ خير إن شاء الله؟

ـ جاءت معي إلى إغرم فتاة فرنسيّة، كانت في زيارة لأخيها بمراكش، والواضح أنّها عادت.

اكفهرّت ملامحها فجأة، وبدا الأسى عليها واضحًا، فارتمتْ بين ذراعيَّ مقبلة وقالتْ:

ـ على أيّ حال، بإمكانك أن تخبرها أنّي مجرّد صديقةٍ قديمة قدمَت إلى هنا مصادفة. أمّا أنا فسأرحلُ. لا شكّ أنّ زوجي يتساءل عن مكاني.

ـ كما تشائين، على ألّا تفهمي من كلامي أنّني أطلب منك

Twitter: @ketab_n

الرحيل.

أمّا بعد ذلك، وما كدنا نتجاوز عتبة الفندق حتى انطلق صوت جوليا المشاغب:

ـ مراد..

وهرولت إلى حضني الذي كان إلى وقت قريب ملك نضال، عانقتني بحرارة، وبعد أن فضّ اشتباكنا، أخذت وجهي بين يديها تطلّعتْ إليه كأنّها تبحث فيه عن شيء أو تقرأ فيه ما فعلتُ في غيابها، قبّلتني بنزق ودون أدنى اهتمام بالجالسين في المقهى، ولا بنضال التي شعرتُ في تلك اللحظات أنّها تحترقُ في صمت، قدَّمتُهما لبعضهما بعضًا. كان الأسى يجثُم على وجه نضال، رغم أنّها تتجشّم مشقّة افتعال الهدوء والاتّزان.

جلسنا ثلاثتُنا إلى طاولة واحدة، تحدّثنا طويلاً، وفي كثير من الأحيان عن أشياء تافهة، إلى أن استأذنتنا نضال وانسحبتْ إلى غرفتها لتُنزلَ حقيبتها الصغيرة. عندما سمعتُ وقع أقدامها وهي تنزل سلالم الفندق، استأذنت جوليا وأوصلت نضال إلى سيّارتها. بعد أن وضعت الحقيبة في السيّارة قالت باضطراب يفضحُه ارتباك أصابعها:

ـ أحسدها.. وأشكرك، دوَّنتُ لنفسي برفقتك ذكريات لا أظنُّ أنّني سأشفى منها..

ـ وأنا كذلك، أتمنّى أن تسعفكِ الظروف وتعودي مرّة أخرى.

ـ سأفعل، وإن لم أستطع، فكن على ثقة أنّني سأبحثُ عنك في البيضاء..

وتطلّعتْ إليَّ بذلك الشره الجنسي الذي يتحرّك داخل عينيها،

Twitter: @ketab_n

ويبدو من خلال الطريقة التي تحرّك بها شفتيها، قبّلتها بعنف واشتهاء وعيني على باب الفندق مخافة أن ترمُقنا جوليا، وأسلمتُها بعد القبلة العاجلة إلى سيّارتها مودّعًا. لمّا انطلقت السيّارة وخلّفتني مثقلاً بالأسى والحزن، تطلّعتُ إلى البعيد، إلى الواجهة الجبليّة المواجهة للفندق، فرأيت رجلاً مسربلاً في بياض لا ينسجم مع تلك اللحية الضخمة السوداء التي تنام على وجهه، تأكّدتُ أنّ شيئًا ما يسير في إغرم على غير ما يرام. لا شكّ أنّه كان يرمقني وأنا أقبِّل مودّعتي. أشحتُ عينيَّ عنه إلى سيّارة نضال التي كانت تجرّ ذيلاً من الغبار، ثم أحسست بأنفي ينزُّ. تطلّعت إلى الأرض. فإذا هي قطرات الدم الثقيلة تحاول دون جدوى شقّ بطن الأرض كانت تنزل باندفاع وتهوّر وتتشظّى إلى خطوط تتمدّد إلى مختلف الجهات. بقيت لثوان شاخصًا ومشدوهًا أتأمّلها إلى أن أدركني صوت جوليا ومنديلها.

كان هذا الدم المتدفِّقُ ينكأ جراحات وذكريات دمويّة كثيرة.. لطالما كنت متأكّدًا أنّ الدماء صنعت شقًّا كبيرًا من ذاكرتي:

أحمر،

أحمر،

الحبّ أحمر والشعر كذلك، الجبال حمراء ووجعي كذلك.. والشيطان ذو القرون الوعليّة داخلي أحمر.. لا شكّ أنّ غبطته مزّقت أكثر من شريان داخلي..

في تلك اللحظة التي فتحت فيها صنبور الماء وتطلَّعتُ للمرآة، شعرتُ أنّ المرض في طريقه إليّ، وأنّ جسدي مهما بدا قويًّا ومتماسكًا لا بدّ وأن يكسر المرض شوكتَه، تذكّرت الرجل الذي كان يقف فوق الجبل مغتبطًا في بياضه... آه! وإغرم قد تمرض بأمثاله من

Twitter: @ketab_n

المتطرّفين أيضًا إذا دخلوها.. وتوقّف النزيف، وأنا أستعيد ما قرأته في مذكّرة خولة صباحًا:

«لم يكن هذا اليوم كسائر الأيّام، إذ لم نكتفِ ـ كما جرت العادة ـ بالقبل أو العناقات الطويلة التي لا تنتهي، بل تركنا لملابسنا فرصة أن تحلّق في سماء الغرفة. كانت سعادتنا بذلك لا توصف... وارتمينا في السرير، وعلى الرّغم من أنّني شعرت ونحن عاريان مأخوذان بدوّامة القبل، أنّه يخطّط لكلّ مرحلة ببراعة روائيّ وقلب عاشق، إلّا أنّني لم أكن خائفة بل كنت أجد الأمر دليلاً على ثقته بنفسه وبما يفعله.

حين اتّكأ على جسدي بخشونة جميلة وامتزجت داخلي أحاسيس قديمة بأخرى جديدة ضاربة في الغموض، قال لي همسًا:

ـ لم أعد أستطيع المقاومة.

ـ وأنا لا أملك إلّا التمادي في هذا الجنون العذب.

وشقّ بعد ذلك التحام فخذيَّ، كنت أحسّ به يلتحم بي.. وقتها فقط داهمتني رعشة قويّة ولذيذة، شعرت بوخز مؤلم وبنزف يشقّ الخاصرة. تطلّعت إلى الدماء، فإذا هي ورديّة ضاربة إلى الحمرة. كنت أعلم أنّها المرّة الأولى والأخيرة التي تقع فيها عيني على هذه الدماء، لكن ـ قلت في سرّي ـ إن كان لا بدّ أن يفضّها رجل فإنّي لا أجد أحقّ وأجدر بذلك من مراد... بالطبع، لم أضع الأمور في كفّة الخطأ والصواب لئلّا أحزن، قلت:

ـ أنا أحبّه وهذا كلّ ما في الأمر. أحبّه».

Twitter: @ketab_n

مع مسوّدات رواية «مراد الوعل» لجوليا (ك)

هذه القرية الماكرة لم تكن بمنأى عن كلٍّ ما وقع لمراد، كانت متورِّطة مثلي أو أكثر في قتله، لكنّها كانت أخبث منِّي حين قرَّرتْ أن تواصلَ حياتها بعده بكثير من التأنُّق، كأنّ أمره لا يعنيها. هذه الحسناءُ ماتتْ على الأقلّ بالنسبة لي مع مراد (وأقصد بموته اختفاءه، أليس الاختفاء أشدّ أوجه الموت فظاعة؟!).

ها أنا ذا قد عدتُ مرَّة أخرى، المطار نفسه لم يتغيَّر، لكنَّ قلبي يرقص كأنَّ مراد في انتظاري، وضعتُ عطر حبيبَتِه المفضّل كما فعلتُ سابقًا لأستفزَّه، وجئتُ له بمذكّرتها الحمراء التي ترجمها لي كاتب عربي مغمور، والتي استندتُ عليها لأكتب أحد أشهر رواياتي، كان قلبي يزغرد كنساء عربيّات يؤبِّنَّ على أنغام الزغاريد شهيدًا... أحبّك لو تدري كم أحبّك، وها أنا أعود لأعانقك في ذكرياتنا المشتركة وأستجدي صفحك، وأتوسّل إليك بحكم الغواية التي تسكنني أن تلهمني حياتك لأكتبَك بأقلّ قدر ممكن من الخيانة..

Twitter: @ketab_n

ومضيتُ إلى إغرم، كانت تبكي، لحظتها فهمتُ أنّها تبكيك شتاء لترقص لغيابكَ صيفًا، لكنَّها ذابلة وعارية أمام المطر، ووسط هذا العويل الجنائزي للرياح كانت تختفي أو تكاد. . فأين أنت يا ذبيحها الثاني. أين أنت يا صريع عشقها، يا عابدها ومعبودَها؟ أيُّ أرض أنانيّة امتصّتك؟!

كنتُ أعلم، وأنا أتكوَّر صوب هذه القرية المهبولة، ثم وأنا أدير المفتاح في كوَّة باب كان ذات يوم باب فرحتنا وجنوننا المشترك، كنتُ أعلم أنّني لن أجدك مختبئًا خلف الباب تنتظرني، أن أدخل ثم تطبق بيديك على عينيَّ، ولا أن أجدك تدخِّن بشراهة في الشرفة، أو تقرأ بمازوشيَّة مفرطة مذكّرة حبيبتك التي وهبتك حياتها، لكنّني والحال هذه، متأكّدة أنّك مبدّد في كلّ شيء، وأنّ أنفاسك وروائحك تملأ الغرفة. .

أمّا وأنا أقتحم الغرفة، فقد استيقظ داخلي كلٌّ شيء. . حتى أشياؤنا الصغرى اندفعتْ إلى الذاكرة بعنف وخالجَني حزن عميق، كذلك الحزن الذي ينتابنا حين نغرقُ في صورة طفلٍ قُتل دون أن يجرم في حقِّ أحد، وقتلتُك يا مراد! فما أفضحني وأقساني!! تجرَّأتُ باسم الأدب على قتل ملاك. ولكنّني أحببته إلى درجة جعلتني أقتله!

وها أنا قد قتلتُه وكان ما كان. . ماذا بعد؟ تجري السنون دون أن أجد كوَّة ولو بحجم ثقب إبرة، أنفذُ من خلالها إليك وأكتبُك على الرّغم من أنَّ في حوزتي كلَّ ما يلزم لأفعل. كانت حياتك أكبر منّي، أكبر بكثير ولم يكن يليق إلّا بكَ كتابتها، أمّا أنا المغلوبة على حرفي، فإنّي مهما حاولتُ أن أتقمّصَكَ فلن أكون «أناك» بصدق، لذلك أجدني كلّما حاولتُ أن أكتبك شرعتُ في الكتابة عنّي، واختزلتُ حياتك في ما دار بيننا وفرَّت حيواتك الأخرى من بين يديَّ كالزئبق.

Twitter: @ketab_n

غرفتنا باردة وحزينة جدًّا. . فتحتُ باب الشرفة، دخَّنتُ طويلاً وأنا أتملَّى برؤية إغرم ـ كما لم أرها يومًا ـ تبكي بنشيج مسعور، والوادي يهدر وتصطخب أمواجه كأنّما تحاول ابتلاع القرية، كان كلُّ شيء غاضبًا بشكل غير مبرّر، لكن بفضله عرفتُ القليل عن مراد، نحن نكذب بشكل مقصود إذا قلنا إنّ ذاكرة الأمكنة لا تتدخّل في تكويننا النفسي.

مراد كان أبعدَ ما يكون عن صيف إغرم، عاد إليها في الوقت الذي كانت تستجدي هدنة. بمعنى آخر قرّر العودة صيفًا لأنّه الفصل الذي لا تشبهُهُ فيه إغرم، كان هذا هو الوضع الوحيد الذي ربّما جعل حياته فيها ممكنة، أو على أبعد تقدير كان هذا الوضع هو الوحيد الذي يسمح فيه لمراد بالانسحاب من إغرم بأقلّ قدر من الخسارة، لذلك لم أستغرب أن يتمّ ذلك بشكل نهائي مع أوّل قطرة مطر. . أمّا والشتاء على ما هو عليه الآن، فقد فهمتُ سرَّ تَنَاسِيهِ لهذا الفصل، وكأنَّ إغرم لا فصل لها سوى الصيف، الشتاءُ في إغرم غامض كمراد؛ فاضح، فاحش، ومليء بالمتناقضات كمراد؛ دافئ وحزين يلعب دور الصبيّ العجوز أو العجوز المتصابي تمامًا كمراد؛ شتاء إغرم يبلغ حدَّ التماهي مع مراد. . فلا أنا الآن أقوى على النفاذ إلى أعماقه ولا أنا أستطيع التخلّصُ منه ومن ذكرياته.

لكن كيف أنسى؟ ترى أينسى القاتل وجه الضحيّة ولحظاتها الأخيرة وهو يستلُّ مديته من لحمها؟ بالطبع لا، لذاك لستُ أنسى ليلتنا الأخيرة التي هيَّأتُ فيها مراد للرحيل الكبير، كانت ليلة من زمن آخر وكان فيها مراد ملاكًا ضائعًا متأكّدًا أنّ نهايته قد دنتْ لا محالة، ولم يكن يملك أمام هذه الحقيقة المرّة سوى ابتسامته الساخرة من الحياة ومن كلِّ شيء، في تلك الليلة الباذخة شرب مراد كثيرًا ودخَّن طويلاً

Twitter: @ketab_n

ورقص بهدوء وإتقان وفرح، ومارس الجنس بشراسة، كأنّما كان يستنزف ملذّات الحياة ويأخذ منها قدر ما يستطيع، لأنّه كان يعلم أنّني قد زرعتُ في أوردته ما يودي به نحو الموت.. كان كريمًا جدًّا حين علم بأنّني أشرع في قتله، ولم يغضب ولم يثر، كرمه أصابني في مقتل، حين اختفى وضعتُ يدي على حقيبته، ارتبكتُ أوّل الأمر وأنا أسحب الشرائط الصوتيّة، كانت تقبع داخلي ذبالة أمل في ألّا تكون الشرائط مستنسخة عن شرائطي، لا سيّما وأنّها تتشابهُ في العدد والترقيم، لكن فور أن وضعتها في المسجّلة الصغيرة حتى أغمي عليَّ. كانت المرَّة الأولى التي يُغمى فيها عليَّ، استيقظتُ حين أذِنَ الموت بذلك، لحظتها شعرتُ أنَّ الإغماء موت تجريبيّ وإنذاريّ في الوقت نفسه، استيقظتُ على صوتي وهو يتدفّقُ من الثقب الصغير للمسجّلة، كدتُ أنكر صوتي، ليس فقط لأنّني لا أعود إلى ما سجَّلته إلّا بعد ردح من الزمن، وبالضبط بعد أن أكون قد حقّقتُ مسافة بيني وبين الصوت الذي كنته، بل لأنّ الصوت كان لاإنسانيًّا البتّة، وكان فيه من الإجرام أكثر ممّا فيه من الأدب..

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

خيانات بالجملة

«الألم هو أكبر مساعد على تقوية الذاكرة»

نيتشه

«وشرَّدني رفاتي..

إلى ما لم تشأ سفني الأصيلةْ

تركتُ الحلمَ يكبرُ فيَّ

ويأكلُ من حياتي

Twitter: @ketab_n

ويسعى حيَّة في كلٍّ أعضائي العليلةْ»

مراد الوعل

«إنّ الحزن الصامت يهمس في القلب حتى يحطّمه»

شكسبير

Twitter: @ketab_n

(١)

أيقظني آذان الفجر!

أنقذَني من هول ذلك الكابوس المرعب، لكنّه حرّك داخلي الخوف الطفوليَّ الذي كنت أستشعره كلّما سمعتُ المؤذّن يعلن حلول الفجر، كانت عيناي لا تزالان دامعتين وجسدي يتصبّب عرقًا، أمّا الوسادة فقد كانت مبلولة تمامًا، رأيتُ فيما يرى النائم أنّني كنت أركض بسرعة مجنونة وإحساس بالخوف يكبّلني، كأنّ شيئًا ما أو شخصًا يطاردني، وأنّه على وشك أن يمسكني، كنت هاربًا من مزار سيدي عيسى حيث رأيتُ أمرًا هائلاً لا أتذكّره، وكان نباح كلاب لا أراها يحاصر خطواتي، والليل مستحكم بالقرية التي أسلمتني فجأة لدروب المدينة الضيّقة، هي نفسها المدينة التي نفيتُ إليها بعد إغرم!! كانت أصوات السكارى تتعالى معربدة، هكذا مررت طفلاً أمام منزل كان فيما مضى منفايَ الأوّل، رأيت صفيّة تحمل في يدها قضبانًا ملتهبة كتلك التي نخرتْ بها ظهري، صاحت فيَّ بوجهها المدوَّر والزبد يتطاير من شدْقيها:

Twitter: @ketab_n

ـ واخّا فيك يا ولد الحرام.

هربتُ من صوتها القاسي.. هربت بسرعة مجنونة، إلى أن أسلمتني الدروب الضيّقة للمدينة ـ ولا أدري كيفَ! إلى غرفتي بإغرم حيث وجدتُ على السرير خولة عارية تمامًا، ندّتْ عن شفتيها ابتسامة حزينة، وفتحتْ ذراعيها إليَّ كأنّها تشجّعني على عناقها، فألجأني الخوف إلى أحضانها وأنا أصيح بها: دثّريني، دثّريني!! فتوحّدنا في السرير. كان جسدها الميت العاري يحاصرني بحنان أموميٍّ طالما افتقدته، جعلتْ تربتُ على شعري الأسيب، فبكيت طويلاً على صدرها وغرست وجهي بين نهديها الصلبين، كانت دمعاتي تنسكب على جدرانهما فأجهش أكثر فأكثر، وأمصّ دموعي على صدرها قائلاً:

ـ سامحيني يا خولة، أرجوكِ أن تفعلي وإلّا خذيني معك...

وما كدتُ أنهي كلامي حتى شرعتْ تفُكُّ الطوق الذي ضرَبتْه عليَّ بجسدها، فاستيقظتُ...

تقلَّبتْ جوليا في نومها بعد أن سقطت مكدودة بعد ليلة جنس طويلة، كان جسدي يفيض برائحة أشبه ما تكون برائحة الخيول، رائحة شهويّة، أمطتُّ الملاءة عن جسدي، تسلّلت بخفّة من السرير وانتصبت واقفًا، وترنّحتُ أوّل الأمر يمنةً ويسرةً. انقضّ على جسدي بردٌ فادح، فسارعتُ إلى إغلاق باب الشرفة الذي كان مشرّعًا عن آخره وانصرفتُ إلى الحمّام، تأمّلتُ طويلاً وجهي في المرآة، كان ممتقعًا وشبه غائب، رشقته طويلاً بالماء وتأمّلت جسدي، تخيّلتها تطلّ من زجاج المرآة وتطوّق ظهري كعادتها كلّما انشغلت بحلاقة وجهي عنها.

في السرير، كانت الملاءة قد انزاحت قليلاً عن ظهر جوليا. أعدتُها إلى مكانها، وعدتُ إلى الجانب الآخر من السرير وبشجاعة

Twitter: @ketab_n

فارغة من أيّ معنى، وربّما محاولة منّي للهروب للأمام، قمتُ بقلب الوسادة التي بلَّ وجهها إلى صفحة أخرى، إلى الوجه الآخر الذي لم يُبلَّ بعد.. وبسرعة استجبت لنداء النوم.

* * *

هي رياح المرض إذن!

تهبُّ دون مقدّمات واضحة لتقصف تماسك الجسد، وتبدّد كلّ المحاولات التي قمنا بها من أجل لَمِّ الشتات، هي قطراتُ دم تتدفّق من دون إذن أو سبب في لحظات سكون وسلام، نزيف يخيط الفضاء بين الأنف والأرض، قطرة تنفجر تلو أخرى وتتمدّد في كلّ اتّجاه، لا تذكّرني سوى بدرس من دروس التربية التشكيليّة عندما كنّا صغارًا، نُسقط قطرات الحبر على الورق وننفخ فيها بقوّة فينفجر الحبر في كلّ الجهات، تمامًا كدمي حين يرتطم بالأرض.

مذ قلت لخولة في الحلم الكئيب دثّريني، دثّرني حزن جافّ وقاس... آه كانت تلبسني بعناقه، أو بالأحرى كانت تلبسني جسدها ـ الفتنة. أهكذا يعانقني الموت دون أن يفكّر بجعله عناقًا أزليًّا؟

حزن فادح ودرجة حمى مرتفعة وضغط دم مضطرب.. قالت جوليا بلهجة متثاقلة:

ـ لما لا تزورُ الطبيب؟

فأجبتُها بلغة محمومة أقرب إلى الهذيان:

ـ لن أخرجها إلّا ميتًا.

ابتسمتُ لفكرتي وهي تقدِّم لي حبوبًا ـ قالت إنّها مسكّنة...

أغسطس.. شهر الحزن والتفتُّت والانحلال، شهر الوجع الذي

Twitter: @ketab_n

يتسلّل تحت الجلد وينخر الأعماق. عندما تمدّدت جوليا كلبؤة قربي على سرير المرض، ألقتْ ذراعها على صدري المتعب ونام شعرها الذهبي على زندي العاري، قلت:

ـ هل تريدين سماع شيء عن تيه أوداد؟

ـ ماذا تقصد أوّلاً بالتيه؟

ـ أقصد هجرته، أو على وجه التحديد تهجيره من إغرم إلى المدينة.

ـ إذن، احكِ إن كان الأمر يريحك.

ـ بعد تفوّق أوداد المدرسي وبعد الدمار الذي حلَّ بعائلة امحند التي آوته، لم يجد أمامه سوى يد تنادي بالرحيل، قال: إلى أين؟ قيل له: إلى المدينة... قال: وما المدينة؟ قالوا له: لا تخف إنّه شيء لا يُخاف.. ومضى مع اليد التي اقتادته طفلاً مضرّجًا بأوجاع الحياة. كان يومًا حزينًا للغاية ذلك اليوم الذي يغادرُ فيه مملكة الجنّة ـ إغرم، ويمضي صوب أفق مجهول. في ذلك اليوم ـ كما قال لي فيما بعد ـ كانت تسيل منه أشياء صميميّة، كانت طفولته تتشبّث بتربة إغرم لا تبرحها، غادرها وصرّة الملابس المرقّعة ترقص في يده رقصًا غير منتظم...

رمَت جوليا فخذها الشهيّ فوق الخاصرة، فأهاجت داخلي براكين عجز المرض عن إطفائها، وداعبت بأصابعها القمحيّة زغب صدري.. كانت الحمّى تمضغني، لذلك كنت خائفًا من أن تخذلني العبارة، وأنزلق إلى استعمال ضمير المتكلّم بدل الغائب، فتنفضح أوراقي أنا المسكون بالضميرين معًا.

ـ غادر إغرم، لكنّها ظلّت مزروعة داخله وظلّ مسكونًا بها، كان

Twitter: @ketab_n

حنين الوعل دائمًا للجبل وحمرته العنيفة للوادي وصخوره الصمّاء الصلبة للحقول وخضرتها التي تتناسل في الروح وتبعث في الجسد إحساسًا فجًّا بالحرّيّة...

ـ وكيف وجد المدينة؟

ـ لست أدري كيف ترين المدينة هنا! لكنّها أسوأ ممّا تتوقّعين، بالإضافة إلى أنّه من الصعب أن يعيش وعل في المدينة من دون أن يستحيل إلى كلب ضالّ أو هرّ... انتقل إلى أحد الأحياء الشعبيّة.. كان حلمُه البسيط يتعقّد، ومشروع عودته يبتعد ويتأجّل باستمرار، إلى أن أصبح بمضيّ الوقت أمرًا غير مرغوب فيه، كان الحسين، هذا الرجل الذي تبنّاه، أبًا لثلاث بنات وزوجًا لصفيّة، هذه المرأة التي كانتْ تشتعلُ حقدًا تلقّفته وأنشبتْ أظافرها داخله في منعرج خارج عن سيطرة الصدف. ذات يوم سألته: كم مرَّة متَّ؟ فأجابني ببؤس: أكثر ممّا تظنّ...

ـ وكيف كان الوضع المادّي لتلك العائلة؟

ـ متوسّط أقرب إلى الفقر، كان ربُّها الحسين موظّفًا بسيطًا براتب هزيل، لكنّ العائلة وفَّرتْ له حقيبة مدرسيّة بلوازمها، ورغم الضغوط والمضايقات التي كانت تحفُّه من كلّ جانب، إلّا أنّه استطاع في ظرف قياسيّ، أن يحقّق نتائج باهرة على مستوى التحصيل الدراسي، الأمر الذي جعله موضع استغراب الجميع، حينها، وبعد أن التفت إلى نبوغه، وضع أحلامه نصب عينيه ولم يراهن إلّا عليها... كان يعرف ما يريد!

وداهمني دوار حادّ، حين استفسرتْ جوليا عن طبيعة العلاقة التي تجمع أوداد بربّة البيت صفيّة! آه، لو تعلمين أيّتها البهيّة أنّ الندوب

Twitter: @ketab_n

العريضة التي لا زالت موشومة على ظهري هي من فعلها، لو تدركين أيّ إحساس ينتاب الطفل الذي كنتُه، وهو يواجه الملامح القاسية واليد التي تشدُّ على قضيب حديديّ ملتهب وتضعه بشكل بشعٍ على ظهره، أيَّ إحساس فادح بالألم أحسَّه ورائحة جلدِه المشويّ تتناهى إلى أنفه.

تحت الدوش الذي كان ينشج ببكائيّات حزينة، كان جسدي يوجعني، أمّا الحمّى فقد زارتني على خلاف المتنبّي في وضح النهار، ولاكت دواخلي واهتصرت عظامي. متكوّمًا كصرَّة ملابسَ بالية تحت الدوش، والماء إذ يجتاحني مثلما تفعل المصائب ينزلُ من الذكريات ثقيلها. وانتحبتُ، فاندمج بكائي الأقرب إلى الهمس مع النشيج الصاخب للماء، ترى أيُّ ذنب اقترفه أوداد هذا الطفل المريض بالحزن والحنين ليلقى من الحياة ما لقي؟ طالما كان متماسكًا، أو على الأقلّ كان يظهر لنفسه وللآخرين أنّه متماسك، لكنّ الحقيقة أنّه مسكون بالوجع وقابل للتفتّت.. وها أنا ذا يُزعزعُني المرض ويغرقُ فيَّ أظافره اليابسة، وتذكّرت في لحظة ألمَ خولة، خذيني إليك أيّتها القدّيسة...

دثّريني بالموت،

دثّريني..

* * *

«كان دائم التهرُّب من ماضيه، لا يتحدّث عنه.. وهذه حقيقة كان عليَّ أن أفهمها مبكرًا وأن أتقيّد بعدم الاقتراب منها.. كان يفرُّ من أسئلتي، يضطرب أحيانًا، وقد يغضب إن أنا تماديت في السؤال. كان يسكنه حزن غامض مرتبط بما خلف أبواب الماضي التي كان يُحكم إغلاقها..

في صباح هذا اليوم، قدمتُ إلى منزله وجلسْنا إلى فنجاني

Twitter: @ketab_n

قهوة أعدَّهما بيديه، كان جميلاً في هدوئه الصباحي. خبَّرته بأنّ أمّي مسافرة فلم يأبه كثيرًا، تحدّثنا بعدها عن أشياء عديدة ومتشعّبة. وحين وقعت يدي وأنا أتأمّل مكتبته على أحد دواوين درويش المبكرة، طرتُ إليه، وقرأتُ له من قصيدته الشهيرة للحنين إلى الأمّ، ولم آتِ على إتمامها حتى اكتظّتْ عيناه دمعًا، وكان هذا اليوم هو أوّل يوم يميط فيه مراد اللثام عن شيء من ماضيه. قال لي: أمّي يا خولة! وابتلعه صمت بهيم، حتى إنّني ظننتُ أنّه لن يقول أيّ شيء بعدها.. لكن قال وبصوت متهدِّج: أمّي ماتت منذ زمن بعيد جدًّا، لدرجة أنّني أجهل ملامحها..

كانت كلماته تبكي وتستفزّ مدامعي.. قفزتُ إليه، طوّقت رأسه بحنان. أمّا ما أردف ذلك فكما لو أنّها كانت لحظات مقتبسة من زمن غير زماننا، لست أدري على وجه التحديد كيف وقع الأمر، لكنّه في ذلك العناق الحزين، شرع يعرّيني شيئًا فشيئًا قبل أن يطرحني على السرير، ودون أن ينبسَ ببنت شفة، سقط مكدودًا إلى جانبي، أخمد وجهه بين نهديَّ وجعل يمصّ كلّ نهد على حدة لكن بحزن عميق، في الوقت الذي كان مستسلمًا ومغلوبًا على أمره وموجوعًا بشيء ما خفيّ، كنت أستلذّ إحساس الأمومة المبكر.. أحبّك يا مراد بكلّ أحزانك.. أنا أحبّك».

وأنا أيضًا أحبّك، وإن لم أنتبه للأمر إلّا بعد غيابك...

في تلّة العرعار أمام القبور، كنت واقفًا بالكاد يحملني جسدي، وجوليا هناك على بعد أمتار تناجي مسجّلتها الرماديّة بعد اتّصال هاتفي طويل.. كنت مأخوذًا بكلّ شيء من حولي، حين نمرض ينْقلب كلّ

Twitter: @ketab_n

شيء رأسًا على عقب، كأنّ العالم يتفسَّخُ أكثر وتتّسع الأشياء من حولنا تارة وتضيق تارة أخرى، كلّ شيء يرتبك مثل الجسد والروح، يعود بي هذا المرض إلى مرض آخر كدت أهلك بسببه، كان ذلك بعد انتحار خولة، سقطتُ لأشهر، وكنت أمام أبواب الجنون المشرّعة، طالما اعتقدت أنّه لا يفصلني عن الجنون سوى خيط رقيق وقابل للتمزّق في أيّة لحظة.

عندما أمرضُ ـ وكان الأمر نادرًا جدًّا ـ يفتحُ اليأس في أضلعي ثقبًا واسعًا، أشعر إثره كما لو أنّني أجوف وتدهسني ببساطة كلّ الأوجاع التي عبرت.. أحيانًا، أحسّ أنّ دوري في حياتي لا يتجاوز صناعة الخيبات، كلّما دخلت قلبًا أضعته وكلّما مسّني كره قتلته، الجدّة احترقت لأنّها كانت تكرهني، ومصطفى صديقي الوحيد طواه الإرهاب لأنّه أخلص لي في صداقته، صفيّة ابتلعها الموت لأنّها عذّبتني، وخولة انتحرت لأنّها أفرطت في حبّي.. فلماذا يموت الذين أحبّهم والذين أكرههم على حدّ السواء!؟ وتكتفي الحياة بدور المتفرّج المحايد..

اقتربتْ خطواتُ جوليا المتثاقلة، ولم يزد همسها للمسجّلة إلّا سرّيّة، ماذا لو علمتْ جوليا أنّني أوداد الذي لا أنفكُّ أحدّثها عن شذرات من طفولته، ترى هل ستواصل عشقها لي بمنطق ما أنا عليه الآن أم بمنطق ما كنتُ عليه فيما مضى، هل سينقلب الأمر إلى شفقة؟

ـ كيف حال موجوعي الجميل، لا شكّ أنّك تتماثل للشفاء!

قالتْ، وأنا أضع كفيَّ على خصرها الثريّ، فكيف تظنّ أنّني أتماثل للشفاء وأنا ذاكرة من وجع.. حتى في أقصى الحالات التي أبدو فيها سليمًا لا أشكو من شيء، تكون هناك قطرات دم تنزُّ في الذاكرة وتهتصر الروح والجسد معًا.

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، جميلتي أحسُّ أنّني كذلك.

ـ وأريدك ألّا تفكّر إلّا في أمر واحد، هو أنّك لست مريضًا، لأنّ بداية المرض الحقيقي هي عندما نقتنع أنّنا مرضى. وإيّاك أن تنسى أنّني حبيبتك وطبيبتك أيضًا.

ووددت في سرّي لو أنّها قالت: وأمّك وأختك أيضًا.. لو أنّها تحاول أن تسدّ مسدّ المرأة في حياتي.. واسترسلتْ وهي تمرُّ بأصابعها على جبيني:

ـ على أيّ حال، حرارتك انخفضت وهذا مؤشّر إيجابي.

ومرَّت بأصابعِها الجميلة على أنفي تداعبه كأنّما تداعب غرَّة حصان، ففجَّرتْ جانبًا من الذاكرة بطلقة عشوائيّة، كانت من عادة خولة أن تفعل الشيء نفسه وتداعبني بتلك الطريقة. قلت:

ـ كيف أبدو يا صغيرتي؟

ـ وسيم واستثنائيّ..

ـ وماذا أيضًا؟

ـ غريب الأطوار أحيانًا وغامض.

ومرّتْ بأصابعها على فتحة القميص، وبخفّة فكَّت الزر الأوّل وجاءت بعده على باقي الأزرار بمهارة وبشغف جنسي واضح، قلت:

ـ وماذا أيضًا؟

ـ مقنعٌ جسديًّا إلى أبعد الحدود.

وجعلت تداعب بمهارة الزغب الذي يشقّ الصدر.. في الوقت الذي غرستُ أصابعي في سنابل شعرها، تنهّدت بعمق وعضّت على شفتها السفلى. ملامحها كانت متألّقة وناصعة، أمّا أنا فكنت أحسّ

Twitter: @ketab_n

كما لو أنّ طبقة من الصدأ تعلو ملامحي، حين هممتُ بتقبيلها انبعث الشيطان ذو القرون الوعليّة من رماد المرض وجعل يرقص. قبّلتها قُبَلاً متقطّعة على شفتيها وجيدها وأرنبة أذنها.. وتوقّفتُ بحجّة أنّه من المحتمل أن أعديها.

ومضيْنا ونحن نشتبك بين الحين والآخر في عناقات متحفّظة ومتقطّعة في تلّة العرعار بين إغرم وقبورها، بين أحيائها وأمواتها. حين تطلّعت إلى الأفق البعيد المنبسط خلف القبور، رأيتُ رجلاً ذا لحية مسبلة، أو ربّما ذا وجه أسود، إذ إنّ عامل البعد يربك الرؤية أو ربّما هو المرض كذلك يضعف الحواسّ، ولكي أتأكّد، أمسكت جوليا من ذراعيها، وبخفّة بدّلت مواقعنا قائلاً:

ـ عذرًا.. حبيبتي، أريد أن أعرف إن كنتِ ترينَ أمامك رجلاً يلبس ثوبًا أبيض!

وجعلت تتأمّل، بينما أبحرتُ أنا في أزرق عينيها، وغصّة حمقاء تشدّ على جوفي.. قالت:

ـ لا، لا أرى أحدًا.

ـ ركّزي جيّدًا!

ـ أنا متأكّدة، ليس هناك أيّ شخص بتاتًا.

Twitter: @ketab_n

(٢)

بعد أن لفظتني إغرم بحجّة أنّني تواطأت مع القدر في اغتيال العجوز..

وبعدما اعتبرتني لعنة ابتليتْ بها القرية..

وبعدما قدّموا الذبائح والأضاحي لرجال البلاد، واستفتوا عجائزهم في أمري..

وبعد أخذ وردّ، قرّروا نفيي بعيدًا عن إغرم.

بعد إبعادي القسري تلقّفتني المدينة كهديّة من السماء، فتحتْ أضلعي كأنّها تفكّ خيوط الهديّة، فما وجدت غير قلب مدمّى، لم ترأف به بل دقّت فيه العديد من المسامير الغليظة وردّت الأضلع إلى حيث كانت، كأنّما لم تفعل بالقلب ما فعلتْ.. وأسلمتني لنزيف موجع لا ينقطع.

باختصار، في المدينة كنت على موعد مع أوجاع أخرى...

Twitter: @ketab_n

بمنطق الحاجة إلى ذكر في البيت، استقدمني الحسين إلى المدينة بعد أن تأكّد أنّ أهل القرية قد عقدوا العزم على القذف بي في إحدى الخيريّات، تجنُّبًا لمصائب أخرى ـ على حدِّ تعبيرهم ـ تبنّاني بشكل رسمي مستغلًّا في ذلك منصبه وعلاقاته في وزارة الداخليّة، وكذا سجّلني في «كناش الحالة المدنيّة» الخاصّ به، وغيَّر اسمي بطريقة ذكيّة من أوداد إلى مراد. لكن فور مقدمي إلى منزله، اندلعت حربٌ ضروس بينه وبين زوجته.. وكانت حجّتها في ذلك أنّه لم يأخذ مشورتها. كان هذا ما صرَّحت به، أمّا ما لم تصرِّح به فكان الحقيقة المرَّة التي آلمتها، هي التي كانت أمًّا لثلاث فتيات، انتهى بها التفكير بشأني إلى أحد أمرين، إمّا أنّني ابن حقيقي لإحدى خيانات الحسين، وإمّا أنّ الحسين لم يأت بي إلّا حبًّا في صبيٍّ عجزتْ هي أن تأتي به وبالتالي أكون في كلا الأمرين برهانًا على رغبة الأب الملحّة في ابن ذكر، وتأكيدًا على عجز صفيّة من جهة أخرى. لكن صفيّة كانت سيّدة عنيفة إلى درجة لا تطاق، حتى إنّ الحسين كان يرهبها ويتحاشى لحظات غضبها، ولا يملك إلّا أن يواجهها بالصمت في الوقت التي كانت هي نارًا تندلعُ باستمرار ولأتفه الأسباب.

سجّلني الأبُ في إحدى الإعداديّات المجاورة، ونسيني تمامًا، في الوقت الذي بدأ حقد صفيّة يتضخّم أكثر فأكثر، الأمر الذي جعلها تتحيّن الفُرصَ وتتتبّع أبسط زلّاتي لتصبَّ عليَّ جام غضبها، شأنها في ذلك شأن العجوز أمّ امحند. لم أجد لي موطأ قدم في هذا المناخ الجديد إلّا بأعجوبة، كان المنزل يقع في حيّ قديم ضيّق الدروب بـ «المدينة القديمة»، وجرَّت عليَّ محاولة انخراطي في السير العادي لهذا الحيّ الويلات، وكلّفني ذلك سلسلة من العراكات مع أترابي من الصبية. وعلى الرّغم من أنّني كنت أظفرُ بهم، إلّا أنّ سعادتي بذلك لا

Twitter: @ketab_n

تدوم كثيرًا، إذ سرعان ما تظفر بي صفيّة التي كانت تجد في شكوى أمّهات المهزومين ذريعة. . لذلك كانت أسعد اللحظات هي تلك التي أعيشها في الفصل الدراسي، كنت أحظى بتقدير خاصّ من أغلب الأساتذة، ربّما شفقة على هذا الطفل ذي الملابس الرثّة والبالية، وربّما ـ وهذا الأمر المرجّح ـ إعجابًا بالتفوّق والذكاء المنقطعي النظير بالنسبة لطفل في ذلك المستوى.

وعلى الرّغم من أنّني انتقلتُ إلى حياة اجتماعيّة أكثر رحابة، إلّا أنّني كنت أعيش عزلة ووحدة قاسيتين، ملابس رثّة وحذاء لا ينسى، كان دائمًا فاغر الفم، أمّا ملامحي فكانت تفيض بؤسًا، أيّامها كنت أتحرّج من الجميلات اللواتي كُنَّ يدرُسن معي، بيضاوات، نظيفات، وطاهرات كملائكة منزّلة يتطلّعن إليَّ بازدراء واضح وأحيانًا بحسد خفيّ، لا سيّما عندما توزّع علينا نتائج الاختبارات. .

لست أنسى ذلك اليوم الماطر الذي لا يشبهُ أيَّ يوم، حين استوقفني مدير الإعداديّة عند بابها وتطلّع إليَّ بازدراء، قائلاً بنبرة أقرب إلى النباح:

ـ أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

أجبت ببساطة:

ـ أدرس هنا.

فنظر إليَّ بتعال واضح، وأطال التأمُّل في ملابسي البالية وملامحي المتّسخة، وجرّني من كتفي ودفعني خارج المؤسّسة معربدًا:

ـ كلوشار. . اخرج من هنا ولا تعد إلّا ووالدك معك.

وجرحني مرّتين. . المرّة الأولى، عندما طردني بتلك الطريقة

Twitter: @ketab_n

السافلة، والثانية حين أمرني بأن أعود بصحبة (والدي)! هكذا أطفأ في صدري رصاصتين، وولّى مدبرًا بجثّته الضخمة ورأسه الكبير المكوّر التي تحفّه الشحوم من كلّ ناحية، أمّا أنا فقد أسلمتُ جسدي إلى الأرضِ متّكأً على حائط المؤسّسة، بكيت بحرارة واستسلمت للمطر وهو يجلدني، ويضخّم داخلي ذلك الإحساس المستبدّ بالضياع.

ما أبشع أن يطعنَ الوعل في حرِّيّته.. أن يسجن خلف قضبان قفص في حديقة الحيوان! مرَّت عليَّ أيّامٌ وشهور تعيسة جدًّا، صدق الذين قالوا إنّ الخيبات لا تجرّ إلّا خيبات أخرى أكثر سخاءً؛ وصفيّة كانت جحيمًا، بل نارًا تضطرم وتحرق في طريقها كلّ شيء. عشتُ معها أتعس أيّامي وأنا أراقب في صمت طفولتي وهي تنتهك وتحترق، ودمائي وهي تسيلُ إثر كلّ مرّة يرسو فيها قضيب حديدي ملتهب على ظهري ويخطّ ندوبًا في الظهر والروح، عجز الزمان عن محوها.

وما كادت دراستي بالمرحلة الثانويّة تنتهي، حتى انفجر جسدي بشكل غريب ومزعج ولافت للانتباه... ارتفعت قامتي عن الأرض أكثر، واتّسع جسدي وبرزت عضلاته مفتولة، ودبَّ الزغب فوق ذقني.. هكذا كنتُ أراقب جسدي وهو يتفتَّقُ ـ كزهور إغرم حين يزفّ الربيع ـ ببراءة. وكانت تلك الليلة التي انفجر فيها الماء بين فخذيَّ، وكلّ الأطياف والخيالات التي سبقت ذلك إيذانًا بأنّ مجرى حياتي سينجرف كثيرًا، وأنّه لن يبتعد عن أجساد الفتيات اللواتي تفتّقتْ نهودهنّ كتفّاح إغرم، وفاضت أجسادهنّ، وثقلت أردافهنّ التي كانت الأثواب الفضفاضة وقتها ـ على عكس بنات اليوم ـ تعجز عن إضمار خصبها الطافح، ومثلهنّ كانت بنات صفيّة قد تبرعمن الواحدة تلو الأخرى، الأمر الذي جعل صفيّة تضرب عليَّ حصارًا مستمرًّا، رغم أنّني لم أكن أتجاوز يومًا حدود الأخوّة المفتعلة، حتى في ذلك اليوم

Twitter: @ketab_n

الذي جاءتني فيه الوسطى شبه عارية، وارتمت بين أحضاني بِوَلَهٍ جنسي! أذكر أنّني فررتُ منه بأعجوبة، على الرّغم من أنّ نداء الجسد كان يضجّ داخلي.

مع هذه التغيُّرات الجسديّة المهمّة والمفاجئة تضاعف حقد صفيّة، وطفل الأمس الذي عجزت على أن تأتي بمثله يصبح رجلاً. أصبحت تتهجّم عليَّ لأتفه الأسباب غير آبهة باستعطافات بناتها وزوجها، بل إنّ الأمر لم يكن يزيدها إلّا حقدًا. لم أكن أتصوّر أنّ هناك إنسانًا يحمل داخله كلّ تلك الضغائن ولا يزال حيًّا.

في تلك الأيّام الشائكة التي سبقت التحاقي بالثانويّة، والتي كانت تتحرّك ببطء سلحفاة تعرّفتُ على مصطفى، كان أستاذًا بالإعداديّة التي كنت أدرس بها، لكنّني لم أتتلمذ على يده بل إنّ تفوُّقي وتميُّزي هما الأمران اللذان جعلاه يلتفت إليَّ برحمة واضحة. عرض عليَّ أوّل الأمر مجموعة من العناوين المغرية التي كانت تزخر بها مكتبته، ومع كلّ كتاب كنت أقرأه كنّا نردفه بنقاش، ومع كلّ نقاش كانت علاقة التلميذ بالأستاذ تنتفي وتحلّ محلّها صداقة لا تنفكّ تكبر مع الأيّام وتتوطّد، إلى أنّ جاء ذلك اليوم الذي أطلعته فيه على أشياء صميميّة من محنتي. لم يخفِ تأثّره أبدًا، لكنّ الأمر لم يغيّر شيئًا من نظرته إليَّ بل زاد من حبّه وتقديره لي.

في بدايات التحاقي بالثانويّة وما رافقها من تغيّرات، وجدتُ نفسي ولأوّل مرّة أفكّر بشكل مختلف في الجنس اللطيف ـ والذي لم يكن لطيفًا معي! فبعد الترقية التي حصل عليها الحسين اشترى لي ملابس جديدة، كما أنّ مصطفى لم يكن يتردّد في دعمي بين الحين والآخر ماديًّا، لذلك وجدتني أنكفئ على جسدي بقوّة، وأصرُّ على أن أبدو دائمًا في أفضل حال.

Twitter: @ketab_n

وما كادت السنة الأولى في الثانويّة تأفلُ، حتى توّجتها بحبٍّ أوّل. تعرّفت على ليلى، وكنت مجنونها الماجن. ليلى هذه كانت مملكة للخصب، ورغم أنّني كنت أعرفها من قبل، إلّا أنّ الطريقة التي فاض بها جسدها والنضارة والجمال المفاجئين، جعلاني ألتفت إليها كأنّني أكتشفها لأوّل مرَّة. كانت أجمل اللحظات وقتها هي تلك التي نقضيها معًا بعيدًا عن أعين المدينة، لست أنسى تلك الأويقات التي أزيح فيها المنديل الذي كان يغطّي رأسها، فينتفض شعرها الأسيب البنّي ويشتبك بأصابعي كلّما هممت بتقبيلها، شفتاها كانتا مصراعي الجسد المفتوحين أمامي، كانتا غوايتي الأولى! لكن، ومثلما تأتي الأشياء الجميلة بعفويّة وبساطة، فإنّها كذلك ترحل.

ليلى كانت جزيرتي الأولى، لكن سُفني لم تطل عندها المكوث، لأنّها سفن مسالمة، ولأنّ مدينة القهر والضغينة والكبت، مدينة الوجع والقيء، أرسلت قرصانًا ليغتصبها باسم ورقة صفراء كملامحها يوم بكت بين ذراعيَّ، بعد أن وافقت (القبيلة) على تأطير هذا الاغتصاب الوحشي بكذبة كبرى تسمّى: الزواج.

وتزوّجت حبيبتي الأولى، وعدت إلى وحدتي المريرة وكابدت الأمرّين لنسيانها. بعد أن غلّفها هذا الزواج، كنت أراها لمامًا في بعض الشوارع، وقد تصادف كثيرًا أنّنا كنّا نتقاطع. أنا وحدي، وهي تتأبّط ذراع قرصانها. كانت تنفجر ضاحكة كلّما رأتني ربّما لتغيظني، أو ربّما لتوهمني كما توهم نفسها أنّها نسيتني.

بهذه الطريقة، تعرّفتُ على القبيلة التي تعشّشُ في ذهن كلّ فرد من أفراد هذه المدينة المزبلة، التي لا تفكّر سرًّا إلّا فيما بين فخذيها وتحارب جهارًا كلّ من يفكّر في ذلك، تأكّدتُ أنّ المدينة ترفض أمثالي وأمثال مصطفى وأبطال الروايات التي كان يختارها لي، ترفض

Twitter: @ketab_n

الاعتراف بالتناقضات التي تعيشها، ترفض أن تزيح عن وجهها القناع الذي ينزاح من تلقاء نفسه ليلاً.

ولأنّني كنتُ أخرج أيّامها ليلاً لألملم زجاجات الخمر الفارغة قصد بيعها صباحًا، فإن هذا الأمر أطلعني على الوجه الحقيقي للمدينة. كنت ألمح أولئك الذين يعِظون الناس وينصحونهم نهارًا، وهم سكارى تتقاذفهم الجدران ليلاً، فكيف ينهون عن شيء ويأتون بمثله؟ أيّ خراء هذا الذي يقبع داخل جماجمهم! أيّ روائح للزبل تتبخّر من أفواههم الواعظة!! في ليل المدينة العاهرة، سمعتُ صراخ بعض النساء وهنّ يُضربن أو يُغتصبن، رأيت اللواتي يتسلّلن ليلاً إلى منازل أخرى، وتأمّلت السكارى وهم يعربدون ويضربون كلّ شيء يجدونه أمامهم لا سيّما أكياس القمامة. رأيتهم يتبوّلون على الأرصفة والجدران أو يصطفّون أمام أبواب المومسات ويدخلون تباعًا، ليل المدينة كان يعرّي الجسد المسخَ للقبيلة التي تعيش داخل كلّ فرد، هذا الجسد المسخ الذي تمّ السعي على مرِّ قرون إلى مواراته في أثواب بيضاء لا تصلح له بل، ولا تزيده إلّا بشاعة.

ـ اغتالت المدينة أفراحي الموقّتة، اغتصبت حبيبتي لا بشرعيّة الحبّ بل بشرعيّة العرف. أيّ مرض هذا الذي تفشّى هنا منذ زمن بعيد!! لم يكذب مظفر النوّاب حين صرخ: ما أوسخنا. ما أوسخنا. ما أوسخنا...

قلت لمصطفى ذات حديث شجي!

ـ تمنّيت لو أحرق تلك المدينة بما فيها ومن فيها.

قلت لبنهاشم، وأنا مستلق على أريكة عيادته:

ـ المدينة اختارتنا، والقبيلة والتفكير القبلي لا يزالان داخلنا.

Twitter: @ketab_n

قلت لخولة:

وناولني مصطفى مجلّدًا أحمر قائلاً:

ـ هذا «رأس المال» لكارل ماركس، آن أوان قراءته، وتذكّر أنّك لن تكون رجلاً حقيقيًا إلّا حين تختار أنت ذلك.

واختفى من حياتي طويلاً، والتقينا فيما بعد في الدار البيضاء مطلع الألفيّة الجديدة، وصرنا أصدقاء.

* * *

الغروب في إغرم، هروب مشروع إلى العوالم الداخليّة..

وأنا أرى إغرم عروسًا مجلّلة بعبق سحري خفيّ، لا يستشعره إلّا من اغترف من نهرها وذاب كقطعة ثلج في حقولها البديعة. من هنا، أقصد من فوق هذه الهضبة العالية، تبدو إغرم والعتمة تكسوها ككاسية عارية..

وجوليا أمامي، أشدّ على خصرها بأصابعي وتستند ببلاطة ظهرها على صدري المتعب، كنّا معًا مستسلميْن لغروب إغرم، لكن كان كلّ واحد منّا يصغي لأوجاعه وهي تنتفض كسمكة سُحبتْ من إنائها. ها أنذا قد عدتُ إليك بعد ردح من الزمن يا إغرم، مدمّى بأحزان غير تلك التي عرفتها، عانيت كثيرًا وبطشتْ بي الحياة، ولا زلتُ رغم كلّ الخسارات واقفًا أردّد مع عجوز همنغواي مقولته الشهيرة: «يمكن للإنسان أن يدمَّر لكنّه لا ينهزم».

وقَّعتُ على جيد جوليا قبلة طائشة، فارتعش جسدها أمامي، والشمس في الأفق انزلقت نحو هاويتها السحيقة.. فما أفدح هذا الانتحار اليومي، هذا الانحدار الاعتيادي! معًا كنّا أنا وخولة، قبل

Twitter: @ketab_n

سنوات في مثل وضعيّتنا أنا وجوليا، ويداي تحطّان كفراشتين متعبتين على خصرها، كان ذلك ذات غروب في شاطئ البيضاء. معًا، كنّا نتملّى بمنظر الغروب، كنّا عاشقين دون أن ندري، عاشقين لا يعرفان شيئًا عن فقه النهايات. أتذكّر جيّدًا أنّها سألتني:

ـ أتحبّ الغروب.

ـ أحيانًا، لكنّني أخافه.

ـ لماذا؟

أجبتها بحزن:

ـ لحلم بائس عاودني أكثر من مرَّة، كنت أرى فيما يرى النائم أنّني أقف على شاطئ جميل وأتأمّل الغروب، لكنّ الشمس لم تغب بل سقطت على البحر، ولم أشتعل ولا اشتعلت الأشياء من حولي نارًا، بل كان ذلك الصوت الصاخب لانطفائها رهيبًا وحادًّا، كنت أتأمّل الناس على الشاطئ وهم مشدوهون لا يتحرّكون. تحرّكت بينهم، كنت الوحيد القادر على ذلك، وراقبت الدماء وهي تنزلق من آذانهم إثر ذلك الصوت الصاخب.. وكان آخر ما رأيت، أنّني مددتُ أصابعي إلى أذنيّ فتحسّست البلل وتطلّعت إلى أصابعي، فإذا هي قد احمرّت، وإذا هي الدماء تندفع أكثر فأكثر من أذنيَّ قبل أن يكتسح الأحمر كلّ شيء تقع عليه عيناي.

ولم أخبر خولة وقتها أنّني استيقظتُ على رعاف.

في طريق عودتنا، أنا وجوليا، كان أذان المغرب يعلو بارتباك ورطانة قبل أن يكسره الصمت، وهناك في الأعالي زوج نسور يحوم حول قمّة الجبل، ويرسم لوحة أخرى من لوحات إغرم البهيّة.

* * *

Twitter: @ketab_n

«حين رأيت الهاتف يرتجف في يده، ثم حين خذلته دمعة، أدركت أنّ في الأمر خطبًا ما. بعد المكالمة، فرّ تاركًا خلفه كلّ شيء. بعد هذا الخروج الغامض والسريع، أوردت نشرات أخبار عاجلة نبأ وقوع تفجيرات في الدار البيضاء.. شعرت أنّ لخروج مراد بذلك الشكل علاقة بالأمر. حين عاد كانت دموعه تسبق كلماته، قبّلني بقوّة غير مفهومة، ثم قال بكلمات غائمة:

ـ حبيبتي أنقذتني من موت محقّق.

لم أفهم شيئًا، لا من كلامه ولا من دموعه، كان مخرّبًا بصفة تامّة. راقبته وهو يهرقُ في فيه كأسًا تلو أخرى ثم وهو يهذي، اشتعل جسده بالحمّى تلك الليلة.. كانت المرّة الأولى التي أعرف فيها أنّه يجيد التحدّث بالأمازيغيّة، تحدَّث عن الماركسيّة والسجون والنضال، ورفع بعض الشعارات اليساريّة التي لا زال الطلبة إلى اليوم يردّدونها في مظاهراتهم.. وبكى بعد ذلك بشدّة هامسًا في أذني:

ـ صديقي الوحيد مات اليوم، مات على يد أعدائه الحقيقيين الذين طالما انتظرهم، يا لتفاهة الأقدار.. لماذا تنطفئ الفراشات بسرعة!!».

في تلك الليلة الحزينة وقبل أن أعود إلى خولة، عرجتْ بي سيّارة الشرطة إلى ثلّاجة الموتى قصد التعرُّف على الجثّة. لن أنسى ما حييت تلك اللحظات المجنونة، حين أماط ضابط الشرطة الغطاء الأبيض عن وجه مصطفى، كأنّما توقّف الزمان أو تباطأ بشدّة، كأنّي كنت أنزلق في منحدر حادّ، وأتكوّر وأتألّم دون أن أملك سلطة التوقّف، داهمني

Twitter: @ketab_n

إحساس فظيع بالاختناق ثم الغثيان، كان الإرهاب قد شطر وجه مصطفى نصفين، الأوّل لم يغيّر قطّ بل وكان أكثر بياضًا وصفاء، والثاني أكله الظلام وأحرق شعر تلك الجهة وأكل لحمة الخد وعرّى أضراسه.. لكنّني كنتُ أراه جميلاً وطيّبًا، فانهض أيّها الرفيق، انهض وكلّمني! آه هذا الظلُّ الذي أبقت منك أقبية النظام جاء الظلام وابتلعه، لم يجبني ولم أصخ السمع أيضًا لأوتار قلبه وهي تتكلّم، كنّا نفتعل معًا الهدوء ولو في أشدّ اللحظات احتراقًا. جاؤوا بكفرهم ليزيدونا تناقضات يا صديقي، هم سليلو الكره والظلام.. وابتسم الشطر المشوَّه من وجهه، أو أحسستُ بذلك، لا فرق. وسحبتني دمعة غاضبة من فوضى الذكريات كما سحبتني كذلك يد الضابط من ذراعي. كان يلهج بكلمات لا أكاد أسمعها.

كان أمرًا واردًا أن أكون الآن ممدّدًا إلى جوارك، لو أنّ الحياة لم ترسل خولة لتؤجّل موعدي معكما، أنت والموت. أنا الذي أخذتك من يديك إلى موعدك الأخير وتغيّبت عنك، لأنّ الحياة لم تسأم منّي بعد، ولا أنهت لعبتها القذرة معي. أرادتني أن أبكيكَ وأبكي بعدك خولةَ أن أتورّط بشكل أو بآخر في قتل من أحببتُ. أرادت الحياة أن تعلّمني بكما كيف يكون الحبّ وجهًا آخر للجريمة. أجرمتُ حين أحببتُكما، وأنا على علم مسبق بأنّ اللعنة تنغل في دمي.

* * *

ـ حبيبتي.. هل تعرفين شيئًا عن موت الفراشات؟

ـ لا، ولكنّني أعرف الكثير عن حياتها.

هكذا ردّت جوليا بمكر، وهي مقبلة تحمل في يدها حقنة الشفاء كما صرّحت من قبل.

Twitter: @ketab_n

ـ يقولون إنّها تموت بسرعة وخفّة!

قلت: وخولة ومصطفى لا يفارقان الذاكرة! فأجابت بسرعة حاسمة:

ـ ولكنّك ستعيش أكثر ممّا تظنّ يا حبيبي.

قمت بطيِّ القميص حتى الساعد، قائلاً:

ـ لست أقصد نفسي. لست جميلاً بقدر الفراشات! كلّ ما أقصد أنّ الأشياء الجميلة، فراشات أو ورودًا أو غيرها، لا تعمّر طويلاً، ينفجر جمالها بسرعة وبسرعة ينطفئ. غريب رحيلك الشتويّ يا جوليا!

كنتُ أهذي. بسمت عن برد، كما قال المتنبّي، فتمطّتْ شفتاها وعضّت على السفلى في إيحاء مثير، لحظتها وخزني رأس الحقنة، انحنت جوليا إليَّ تقبّلني، ذبنا معًا في حرارة القبلة والحقنة تنام في لحمي. إلى حدود تلك اللحظة، كان كلّ شيء مفهومًا، لكنّها قبل أن تسحب الحقنة تطلّعت إليَّ بنظرات غامضة وبعينين دامعتين، وببراعة سحبت الحقنة، ومرَّت بقطعة قطن على الثقب الصغير الذي خلّفته في ساعدي الأيسر، اجتاحتني بعدها أحاسيس غريبة، ارتخاء وصفاء ودهشة.. كما لو أنّني فقدت الذاكرة للحظات، كما لو أنّني كنت أكتشف نفسي لأوّل وهلة، وأرى حياتي من زاوية نائية بالغةَ التعقيد والغرابة. كانت الأشياء من حولي.. روائح وصور وأصوات تتناهى إلى حواسّي واهيةً، حتى صورة جوليا وتلك الدموع الثقيلة تتقطّر من عينيها، كانت تبدو لي بعيدة وضعيفة.

ـ أحبّك يا وغْلي..

قالت، ثم غيَّبها نشيج لم أجد له معنى، ارتمت على صدري وطوّقت عنقي بذراعيها واسترسلتْ في البكاء. ولأنّني أستوعب معنى

Twitter: @ketab_n

أن يداهم الانكسار المرء أحيانًا، لم أحاول أن أكسر بطنين أسئلتي تواريها خلف سياج أحزانها، وحين فضَّت عناقنا طارت إلى مسجّلتها وفرَّت بعدها إلى الشرفة هناك، حيث ظلّت تناجي همسًا نفسها، أمّا أنا فدهشتي الطارئة بدأت تزول شيئًا فشيئًا؛ وعلى الرّغم من أنّني لا زلت أستشعر بعض الخدر في أطرافي، قلتُ: قد يكون الحلّ في كأس خمر، حين وضعت الزجاجة فوق الطاولة دخلت جوليا طلقة الملامح، كأنّها أزاحت ذلك الغمّ الثقيل الذي كان جاثمًا على صدرها، تناولت كأسها وشربته دفعة واحدة، أطلقت موسيقى صاخبة ورقصتْ بجنون، ودارت حول نفسها وهي تكركر إلى أن سقطتْ على السرير. أيقنت وقتها أنّ نوعًا من الجنون يسكن جوليا، أمّا حين انكسر إيقاع الموسيقى وصار أقلّ صخبًا فقد شرعت في خلع ملابسها..

جوليا طازجة وشهيّة تتعرّى أمامي، فيزغرد الشيطان الأحمر داخلي. وقفتُ أمامها بعد أن نفضتْ شهيّتي الجنسيّةُ عنّي كلّ تعب وعياء، فداعبتْ أنفي تمامًا كما كانت تفعل خولة، فانفجرت الذكريات جميلها وتعيسها داخلي.

في تلك الليلة التي أثقلتني فيها غربة مريرة وغامضة، طارحت جوليا الغرام، لكنّ النزيف أدركني، وأدركني حنين قاس إلى الشهيدين: مصطفى وخولة!

Twitter: @ketab_n

(٣)

استيقظتُ على ألم يشطر رأسي وعلى رعشة تتغلغل كمدية في جوف عظامي، تركت السرير أوّل الأمر هربًا إلى الشرفة لأتأمّل صباح إغرم، ثم دنفتُ بعد ذلك إلى الحمّام. استوقفتني المرآة، أو بالضبط استوقفني وجهي الذي كان بعيدًا وغريبًا عنّي. كان شاحبًا إلى حدّ يبعث الأسى واليأس معًا. انتبهتُ إلى أنّ شعر الذقن قد تمدّد في غفلة منّي.. أكره اللحى ـ قلت في السرّ ـ وأكره أيَّ شيء يمتُّ بصلة إلى قتلة مصطفى.

لمَّا كانت شفرة الحلاقة تجري في وجهي وتجرّ معها شعر الذقن ورغوة صابون الحلاقة، تمنّيت لو أنّ للذاكرة شفرات تحلقها وتزيح عنها أكوام الذكريات البالية والمتّسخة التي تجثم فوقها، على الأقلّ، سيكون أمام المرء احتمال استنبات ذكريات جميلة!! في لحظة سهو، انحرفتْ شفرة الحلاقةِ وجرحتْ أسفل خدّي قليلاً، رشقتُ وجهي بالماء طويلاً ومسحتُه بفوطة، لكنّه ظلّ يلوح هناك في المرآة بعيدًا عنّي وغريبًا كأنّه ليس وجهي. تأمّلتُ شعر رأسي، فإذا هو قد طال أيضًا

Twitter: @ketab_n

أكثر ممّا ينبغي، حتى إنّه بدأ يغطّي أذني، أمّا الجرح، جرح الحلاقة، فلا يزال ينزُّ دمًا. جرفتُ الدم بأصابعي وتلاعبت بها. إنّها الإثبات الوحيد على أنّ من يبحلق في المرآة هو أنا لا غيري، وضعتُ ضمّادة صغيرة على الجرح وانسحبتُ من الحمّام. تأمّلت جوليا الممدّدة على السرير كأنثى طاووس، وارتديتُ ملابسي.. سحبت من الرفّ مذكّرة خولة وانزلقتُ بخفّة إلى المقهى، حيث وجدتُ حميد يرتّب ببطء صباحها. حيّاني وهيّأ لي طاولة، بينما تناولت سيجارة من العلبة، طلبتُ منه أن يهيّئ لي وجبة الفطور واسترحتُ على المقعد، ووضعتُ المذكّرة على مقعد آخر.

أشعلت سيجارة الصباح، فاندفع دخانها متطايرًا في كلّ ناحية، سيجارة الصباح الأولى ليست كباقي السجائر. عادة ما يكون فيها شيء من السيجارة الأولى بدخانها الغريب والعنيف في آن، يتدفّق ملء الرئة كسمّ زُعاف، ثم ينسحب ساخنًا من الفم، يتطاير ويرقص ويتداخل ثم يتبدّدُ ويتلاشى، ولا يبقى منه فيَّ سوى ذلك الإحساس المستبدّ بأنّ ما قمت به خطأ لا يغتفر، لكن مع النَفَس الثاني وما يليه، أستلذّ ذلك الإحساس بالخطيئة أكثر ممّا أستلذّ بجرعات النيكوتين التي تندفع في رئتيَّ!

تأمّلتُ حميد وهو يقوم بأعماله، أحيانًا أتمنّى لو كنت رجلاً عاديًّا وبسيطًا كحميد. صحيح أنّه يعيش على الكفاف، لكنّه لا يجرُّ خلفه أيَّ حزن فادح، يعيش في قرية لم يُخلق إلّا لها، له أب وأمّ وإخوة وأطفال وبيت يعود إليه، قد يكون سعيدًا وقد لا يكون، المهمّ أنّه ليس تعيسًا بالقدر الذي يجعل حياته بالغة التعقيد أو غير محبوبة. حميد، من المؤكّد أنّه كان يعرفني، لكن من المؤكّد أيضًا أنّه أسقطني بسرعة من ذاكرته، لأنّني لم أسكن فيها إلّا على الهوامش الضيّقة التي سرعان

Twitter: @ketab_n

ما تمحوها هموم الحياة الأشدّ بساطة.. نسيني تمامًا مثلما فعل أهل إغرم جميعهم، ومن غير المستبعد أنّه كان من بين أولئك الذين طالما تطلّعوا إليَّ بازدراء وشفقة! هذا وارد بشدّة. الحياة أسوأ لعبة يتورّط فيها أمثالي. نعم، رغما عنّي دخلتُ اللعبة بحصان أعرج، دخلتها وأنا على علم مسبق أنّني خاسر، خاسر لكنّني عشتها لا بحثًا عن تعادل سلبي وإنّما على أمل الوصول إلى أقلّ النهايات مأساويّة، أمّا الحياة الحقيقيّة فربّما هي أجمل لعبة ماتت فيَّ قبل أن يلفظني رحم إلى الجحيم.

والتفتُّ إلى مذكّرة خولة التي لا تفارقني، لا وسيلة في حوزتي لتأبين حبّنا إلّا بقراءتك أيّتها الشهيدة، بل ولا وسيلة في حوزتي وحوزتك لننتقم معًا إلّا هذه الجثّة الحمراء، التي جعلتِ منها حبلاً تنشرين فيه مرَّ حبّنا وحلوه! أقبل حميد، ووضع الفطور على الطاولة قائلاً:

ـ شهيّة طيّبة أسي مراد.

ـ شكرًا.

وهمَّ بالانسحاب، لولا أن استوقفه قولي:

ـ حميد.. أريد أن أسألك.

ـ تفضّل سيّدي.

ـ أَسبق لك أن رأيت وجوهًا غريبة عن القرية؟

ـ القرية يزورها يوميًّا العديد من الغرباء ويرحلون..

ـ لا.. لم أقصد السيّاح، أقصد أشخاصًا ملتحين، وظاهر حالهم يقول إنّهم متزمّتون دينيًّا.

Twitter: @ketab_n

أطرق يفكّر، وقد علتْ ملامحه علامات التعجّب واضحة، طوى شفته السفلى وحرّك رأسه سلبًا:

ـ لا، سيّدي لم أر أشخاصًا كهؤلاء، أنت تعرف أنّ حياتي لا تخرج عن مكانين، الفندق والمنزل. وجلُّ الملتحين الذين أراهم هم أبناء إغرم، وأعرفهم واحدًا واحدًا. هل في الأمر خطب ما؟

ـ لا، لا شيء. بإمكانك العودة إلى عملك... شكرًا.

وانسحب بلطف وبساطة، وانصرفتُ إلى وجبة الفطور بنهم مسبوق. كنتُ أشعر بجوع فظيع، إنّه المرض، محنة الجسد، لكنّني حتى في لحظات المرض أشكّل استثناء مزعجًا، إذ عادة ما يدفع المرض الناس إلى هجر الطعام؛ أمّا أنا فلا يزيدني المرض إلّا إقبالاً عليه.

بعد أن أنهيت فطوري، طلبت من حميد أن يهيّئ فطورًا آخر أصحبه معي إلى جوليا، أمّا حين هممتُ بالانسحاب قال لي:

ـ أنت والسيّدة التي معك مدعوّان إلى تناول العشاء عندي في المنزل، إن تشرّفتما بقبول الدعوة.

ـ لِمَ لا، يسرّني أن أقبل.

ـ إذًا، سأصحبُكما معي ليلاً، وشكرًا على قبول الدعوة.

ـ على الرحب والسعة.

جوليا لا تزال نائمة، كانت رائعة حتى في منامها، ملاك يرسو على السرير وفوضى الملاءة يضمر تفاصيل جسد مشتهى، دنوت أكثر منها ومددتُ أصابعي إلى خصلات شعرها القمحيّة وأزحتها عن ملامحها. كانت أروع من غزالة! انزلقت أصابعي إلى شفتيها

Twitter: @ketab_n

المكتنزتين، فضجّ نداء الجنس داخلي. تخيّلتُ أنّني أضاجعها وهي نائمة، إلّا أنّني سرعان ما صرفت عنّي هذا الجنون، واكتفيتُ بمداعبة شعرها إلى أن فتحتْ عينيها وأسبلتهما بسرعة، همستُ في أذنها:

ـ صباح الخير، جميلتي..

وقبّلتُ أرنبة أذنها إلى أن استيقظت وأماطت الملاءة عنها، فبدت كسيف يُسحب من قرابه:

ـ صباح الخير، أيّها الوسيم! هل استيقظتَ باكرًا؟

ـ نعم، كما ترين.. وحلقتُ ذقني وتناولت وجبة الفطور، وجئتُك بوجبة أخرى.

ـ شكرًا حبيبي، لكنّني أفضّل أن أستحمّ أوّلاً.

ـ لِمَ لا، ولنفعل ذلك سويًّا!

ابتسمتْ لجنون الفكرة، قائلة:

ـ سيكون الأمر جميلاً..

ومددتُ لها يديَّ إلى أن انتصبت واقفة كشجرة أرز، سحبتها إليَّ. فارتمت بين أحضاني، شعرتُ في تلك اللحظة أنّ المرض يضخّم من حاجتي للجنس، لذلك انزلقتْ أصابعي فجأة وفكّت حزام منامتها، وتوغّلت أصابعها هي تحت القميص ثم جعلت تفكّ أزراره زرًّا تلو الآخر؛ كنّا في تلك اللحظة أقرب إلى مراهقين يلتفتان لأوّل مرَّة إلى ثروة جسديهما، ولم نستفق من ذلك الذهول العجيب الذي داهمنا ونحن نجرّد بعضنا من الملابس، إلّا ونحن جسدان عاريان إلّا من أحزاننا.

واشتبكنا عاريين تحت الدوش، الماء يتدفّق أوّل الأمر باردًا،

Twitter: @ketab_n

لكنّه لا ينفكّ يدفأ رويدًا رويدًا. كنت في تلك اللحظات أغالب رغبة ملحّة في الفناء في جسدها إلى أبعد احتمال، وعلى الرّغم من أنّني مريض، إلّا أنّني لم ألجأ إلى جسدها كمتعب تمامًا، كما فعلتُ مع خولة ذات حلم! ولا همستُ في أذنها: دثّريني، بل ضلعتُ إليَّ جسدها عاشقًا، ورستْ أصابعي على ضيعة ردفيها أشدّهما إليَّ بكلّ ما فيَّ من شبق، فتئنُّ جوليا وتتنهّد وتتطلّع إليَّ ببراءة، فلا أملك إلّا أن أوقع على شفتيها قبلة ساخنة نندمج معًا في أثيرها، ونكتظُّ بها جنسًا ورغبة ـ وإن مضمرة ـ في التحام أبديّ أو حلول، علَّنا نلغي المسافات القصيرة التي يحسن الماء استغلالها. جوليا تشتعل كنيزك، تكرُّ بكلّ ما في جسدها من محنة وتفرُّ كغزالة، تغمرني بشهويّة وتتراجع، تنفلتُ أحيانًا من صخب اللحظة وتتلوّى أحيانًا أخرى كأفعى، وأنا ثابت متّزن الخطى، أحاول بأصابعي وبالمهارة الوحيدة التي أهدتني إيّاها الحياة ترويض ما لا يروَّض.

أحيانًا، أعتقد أنّ في جسد جوليا معنى وسرًّا خاصّين، لا أجد لهما تفسيرًا إلّا في تلك الأجساد الطريّة الشقراء التي كانت ولا تزال تسوَّق في الأفلام البرنوغرافيّة.. أجساد شهيّة تمتلئ بالحياة، لكنّها كانت مستحيلة في الوقت نفسه. أيعقل أن يكون سبب إقبالي النهم على جوليا هو الحنين إلى ما صدّقه البصر وخانه الفعل؟! أيعقل أن يكون عطشي إليها فعلاً تأجّل في الماضي؟ لستُ أدري.. كلُّ ما أعرفه الآن أنّني إزاء جسد ساحر ينفثُ داخلي أسئلة حارقة عن جدوى الحياة والموت.

في الطريق إلى منتهى الشهوة، كانت حواسّي تزغردُ لهذا الفرح الغامض والفجائي، إلّا أنّ ذكرياتي كانت تومض كالبرق وتخبو، تباغتني كلّما أحسستُ أنّ في الجسد أملاً في الشفاء منها. عندما

Twitter: @ketab_n

أطبقتُ جفنيَّ لأستلذّ بتلك الرعشة المستبدّة التي تملّكتني، رأيت طفولتي تصعد الجبل في ثبات بحثًا عن موتها الأوّل، أمّا عندما بدأ يعلو أنينها وهي تشدُّ بأظافرها على ظهري، وأنا أضرب أسوارها اللحميّة المتماسكة، فلم أتذكّر غير خولة.. وخفتُ ـ أنا المغمض العينين ـ أن أفتحهما على الشهيدة فأخرَّ صعيقًا..

جوليا تصرخ وتغرق أظافرها كهرّة في الظهر، جوليا تئنّ، تُجنُّ وتعلن شغفها الأبديّ بي، أمّا أنا فكنت أستنزف لحظات الفرح الطارئ معها، وأحتمي بمحنة جسدها من ذكرياتي التي تتقدّم خطوتين وتتراجع خطوة.

* * *

القنديل يرقصُ في يد حميد وترقص معه ظلالنا. كان يفتضّ الحلكة المطبقة على دروب إغرم. حميد يتخلّف عنّا قليلاً وجوليا تتأبّط ذراعي، عائدين إلى الفندق، بعد أن لبَّينا دعوة حميد وعائلته، هذه العائلة التي تجشّمت طيلة السهرة الحديث بالعربيّة ونسيتني، لم تكلّف نفسها عناء الالتفات إلى وعل لقيط ينام في الرفوف المهملة لذاكرتهم. كنت مأخوذًا بأطفال حميد الثلاثة، ربّما لأنّهم كانوا يجرّونني أكثر من أيّ شيء إلى مستنقع طفولتي، كانوا يكركرون بشكل احتفالي، وتصلني وشوشاتهم بالأمازيغيّة، فلا أجد صعوبة في فهمها. وعلى الرّغم من أنّني كنت أفتعل البسمة وأحاول ما استطعتُ أنّ أضمر الحزن الثاوي داخلي، إلّا أنّ مجرّد التفاتة إليهم كانت كفيلة بإرباك لغتي وإسقاط تلك البسمة.. كانوا ملائكة إغرم، وكنتُ الملاك المطرود من رحمتها. وانتهت السهرة بموافقتي ـ أمام الإصرار القويّ للعائلة ـ على حضور حفل عرس سيُقيمه أحد أقربائها.. وكنت لا أزال أحمل معي خوفًا دفينًا من أعراس إغرم، من موسيقاها التي تنهش الأعماق

Twitter: @ketab_n

وتتركني على حوافّ الأسئلة الصعبة هشًّا يجرحني كلّ شيء وأيّ شيء. سألتُ جوليا:

ـ كيف وجدتِ الدعوة؟

فأجابت بصوت متقطّع، ربّما كان سببه ذلك البرد الذي يخْرج صيف إغرم، وآبه على وجه التدقيق، أجابتْ بعدما شدَّت على ذراعيَّ بقوّة:

ـ كانت رائعة جدًّا، على الرّغم من أنّني كنتُ بعيدة عن حواراتكم، إلّا أنّني كنت جدّ مغتبطة بالتفرُّس في ملامحكم وتأمّل ذلك الفضاء الأمازيغي الأصيل، خاصّة ذلك السقف العجيب والأعمدة البنّيّة الداكنة التي تحمله. كان الأمر رائعًا! أفي مثل هذا المنزل كنت تسكن أنت وصديق طفولتك أوداد؟

نزلت عليَّ كلماتها الأخيرة باردة قاسية.. أَيعقل أن يكون الإنسان بمثل هذه القسوة دون أن يدري؟ اضطربت واصطخبت الكلمات في فمي، لكنّني افتعلت هدوءًا لولا أنّنا نسير في درب مظلم لانفضح.

ـ منازل إغرم تمامًا كسكّانها متشابهون.

ـ ولكنّك أنت وصديقك أوداد لا تشبهونهم!

ـ ولا نشبه بعضنا بعضًا أيضًا. لكلّ منّا ظروف غيَّرته.

ـ ماذا عنك؟

ـ غيّرتني الحياة خارج إغرم كثيرًا، ربّما تكون العزلة أيضًا سببًا في اختلافي.

ـ وماذا عنه؟

Twitter: @ketab_n

ـ ولدت معه ظروفه التي عزلته وحالت دونه ودون إغرم. . وأنت تعرفين القصّة!

ـ هكذا إذن؟

ـ إلى حدّ ما.

وتطلّعت إلى السماء، كانت نجومها أشدّ توهُّجًا ونضارة، تبدو مترامية في الفضاء كقطيع يتحرّك بغير انتظام؛ وعلى الرّغم من ذلك الضباب الخفيف الذي يتمدّد شيئًا فشيئًا، فإنّ ذلك لم يكن يزيدها إلّا تألُّقًا، ولأنّها ليلة من ليالي أغسطس، فقد تذكّرت قصيدة لألفريد دي موسيه، فهمست بها لجوليا، ربّما لأصرفها عن ذلك الموضوع المرّ الذي أثارته: «ليلة أغسطس».

أحبُّ. . . وأريد أن أنشد الفرح والسرور،

تجربتي المجنونة. وأريد أن أحكي وأعيد بدون حبيبة. .

قرّرتُ بشكل جدّي الحياة والموت حبًّا.

أمام جلال السماء وهذه الشجرة الأوروبيّة الباسقة تطوّقُ ذراعي والليل يستحكم بالمكان، وخرير المياه يندفع من مكان قريب وينسكب في الآذان كذكرى أغنية حزينة، أمام كلّ هذه العوالم التي تسبح في فراغ ما، تتعرّى الكلمات وتفرُّ. . إذاك إمّا أن تقول شعرًا أو ترقص أو تتمترس خلف صمتك، هكذا تنحصر الخيارات كثوب مبلّل على جسد جميل، ويصاب القلب برهافة ويبكي دونما سبب.

بعد أن ودّعت حميد صعدنا السلالم بتثاقل، كانت الغرفة تغرقُ في عبق جنسيّ ألفته وحفظته عن ظهر قلب. سحبتُ من الثلّاجة زجاجة وأخذتها رفقة كأسين إلى الطاولة، وراقبتُ بِوَله جوليا وهي

Twitter: @ketab_n

تخلع ملابسها وترتدي أخرى.

أهرقتُ الكأس الأولى في جوفي، ونهضتُ بحثًا عن الموسيقى، قلّبتُ الأقراص المدمجة، جرّبتُ بعضها إلى أن استقرَّ قلبي على لحن عاد بي سنوات إلى الوراء، أربكتني أوّل الأمر موسيقاه، عدتُ إلى الأريكة وصببتُ لي كأسًا أخرى أحتمي بها من هذه الأغنية الواخزة، التي تقتاد ذكريات خولة من يدها إليَّ.

ـ الموت الخداعة داتلي لي نسعى خلاتني لوحدي..

وتسلّلت خولة بين ثقوب الذاكرة وغلَّفت خرومها بسواد لزج، أهرقتُ الكأس الأخرى دفعة واحدة في هذا الجسد الخِرْبة، وأشعلتُ بانفعال سيجارة:

ـ مون آمـور مون آمور، مشالي واسكن بين القبور... مـون آمـور.

خولة.. أتغفرين لي ما فعلتُ بقلبكِ الحزين يوم قرّرتُ الرحيل، يوم آثرتُ الهروب إلى الأمام، تركتك تستهلكين الانتظار والجنين في أحشائكِ يكبر يومًا بعد يوم ويؤذن بالفضيحة، اخترتِ الموت لأنّني تغيّبتُ عنك أكثر ممّا ينبغي، لأنّني كنت جبانًا لم أجد سوى الاختفاء دليلاً لأروِّضك على النسيان.

خولة.. أتغفرين لي ضياعي بعدكِ؟!

ودبَّت في أوصالي رعشة حادّة واستحكمت بجبيني حرارة قاسية، ارتجف الكأس في يدي، وكان هذا الأمر وحده كافيًا ليؤكّد لي بأنّ جسدي لم يعد هو الآخر يطيق انتظار موت عابر.

حين أطلَّتْ جوليا، كنتُ ساهمًا عند أبواب الثمالة. كانت ترتدي

Twitter: @ketab_n

تنّورة أقصر من قصيرة وقميّصا مشدودًا وقصيرًا أيضًا يُظهر سرَّتها، وتضع كحلاً على أهدابها وما يمكن أن نصطلح عليه «أسود شفاه» على شفتيها. كان السواد الذي اشتبك فجأة بملامحها يثير داخلي قلقًا وخوفًا مبهمين، كأنّها ليست جوليا التي أحفظُها وأعرفها كما يعرف المرء ظاهر يده. كانت تحملُ حقنة أخرى؛ ومع كلّ الإمكانات التشكيليّة التي خلّفها الأسود على ملامحها، كانت تبدو ملاكًا شيطانًا انزلق إلى الأرض. سألتها:

ـ ما هذا السواد كلّه، هل للأمر علاقة بالساحرات الأوروبيّات القديمات أم بطقوس عبادة الشيطان؟

وضحكت بصخب، قبل أن تجيب:

ـ شيء من هذا وشيء من ذاك.

وحين انتهت إليَّ مدَّت أصابعها إلى أنفي وداعبته، كما كانت تفعل خولة.. فهزّني حنين فادح إليها، فقلت مستفسرًا:

ـ جوليا، لماذا تداعبينني على هذا النحو؟

وتمامًا، كما يستقبل عابر في شارع ما سطل ماء يهرق عليه من فوق، استقبلتُ إجابتها التي لم تختلف في شيء عن إجابة خولة عندما سألتها عن سرّ هذه المداعبة:

ـ أنا أداعب حصاني الجميل، ألستَ كذلك؟

أيعقل أن تكون الصدف بهذا الغباء؟ أم تراني لشدّة ما أغرقت قلبي في الخمر، توهّمتها تقول ما كنت أريد أن أسمعه:

ـ يجب أن تأخذ الحقنة هذه الليلة! لقد بدأت تتماثل للشفاء.

وامتثلتُ لرغبتها وشمَّرتُ عن ساعدي الأيسر، قبّلتني أوّل الأمر

Twitter: @ketab_n

فداهمني عطرها، إنّه العطر نفسه الذي كانت تضعه خولة. أحسست لوهلة أنّ ما يجري لا يفسِّره إلّا أحد أمرين، فإمّا أنّ حواسّي بدأت تخذلني ـ وهذا المرجّح ـ وإمّا أنّ القدر يضمر لي شرًّا إضافيًّا.

بعد وخزة الحقنة، شعرتُ بارتخاء طفيف، ثم دبَّ في كلّ أعضائي إحساس غريب... لكنّه سرعان ما انجلى، ورقصنا تلك الليلة بجنون وفرح، وقمنا بأشياء كثيرة مجنونة.. وكانت أويقاتُ الفرح التي نختلسها من قبضة الأقدار اللعينة تمرّ بسرعة، ولم أدرِ بعد أن ألجأني التعب إلى حضنها سوى أنّني استغرقتُ في نوم بائس ورأيتُ كوابيس غامضة، فما أتعب نوم الوعول!

* * *

«يظلّ غشاء البكارة في هذا العالم الموبوء عقدتنا وهاجسنا الأبدي، أمام أسوارها الشفّافة الهشّة تموت الأنوثة الحقيقيّة، ولا يبقى منها سوى زغاريد القبيلة وترّهاتها وحموضة ناسها..

أمّا عنّي يا مراد، فقد أسقطتُّ على أعتابك كلّ مفاهيم الشرف المزيّفة التي ملأت بها القبيلة مسمعي، وقدَّمتُ لك قلبي قبل أن أقدّم ما ترى فيه الشرقيّة كلّ حياتها.. منذ تلك اللحظة المسروقة من تقاطع حلم عابر ويقظة هشّة، أحسستُ أنّكَ منّي، أنّكَ تقاسمني حتى الهواء الذي أتنفّسه».

خولة.. صباح الخير.

هنا في هذه القرية حيث تنتهي الأحلام والذكريات، آن لي أن أصيح: اشتقتُ لبهاء حضورك جدًّا...

لماذا يا خولة كلّما قرأتُك انتفض الشوق في عينيَّ دموعًا؟! يا من

Twitter: @ketab_n

تركتُك على الحوافّ الصعبة للموت، حين أقلّب صفحات ذاكرتك أو مذكّراتك لا أجد سواي، سوى آثار قدميَّ المضمّختين بالدم والخطيئة! أراني في كلّ ما تكتبين حبيبتي كأن ليس في ذاكرتك إلّايَ. أهملتِ حتى نفسك أحيانًا. أعتقد أنّني لو أحببتكِ بربع الطريقة التي أحببتني بها لما كان ما كان، لكنّ الحياة سطّرت لكلّ منّا طريقه سلفًا، فكانت مشيئتها أن أكون قاتلكِ وأن تكوني الشهيدة، ثم راحت ترقبنا من بعيد بطريقة فيها من الاستهزاء والسخرية الشيء الكثير.

طويت مذكّرة خولة حين تناهى إلى مسمعي صوت سيّارة وافدة، وبفضول خفيٍّ تطلّعتُ إلى الشرفة، فإذا هي سيّارة مرسيدس، ما كدت أنهي قراءة لوحتها حتى انسحبت منها نضال...

على عجل، ارتديتُ قميصًا ورميتُ آخر أدماه نزيف صباحيّ قويّ، تركتُ جوليا غارقة في بياض الملاءة التي تحتفي بكروم جسدها الجميل. في المقهى، واجهني ظهر نضال. كانت حركة قدميها دليلاً واضحًا على توتّرها، باغتني حميد:

- صباح الخير.

فالتفتُّ إليه ورددتُ التحيّة وتقدّمتُ بخطى متثاقلة نحوها، في حين انتصبتْ هي واقفة فبدتْ في رونق الأخضر الذي ترتدي شجرة وارفة، صاحت:

- صباح الورد، مراد.

- صباح الخير، كيف هي أحوالك؟

ومددتُ لها يدي في برود، لكنّها لم تتوان في الارتماء في حضني ومعانقتي بحرارة.. فكّرت أنّ موقفي أمام حميد قد غدا حرجًا، إذ ربّما لم يعد يفهم من حياتي سوى أنّني سكّير وزير نساء!!

Twitter: @ketab_n

قالتْ:

ـ اشتقتُ إليك كثيرًا، ولستُ أبالي إن كان مجيئي إلى هنا حماقة أم لا.

وبقيت مأخوذًا بالمفاجئة، لا أنبس ببنت شفة. كانت الكلمات تتمزّق داخلي وتتطاير أوراقها في كلّ ناحية، وفقت طويلاً لا أجد ما أقول. راقبتُ ملامحها وهي تتبدّل، وفمها وهو يلهج بكلمات أكاد لا أسمعها.

جلسنا إلى فنجانيْ قهوة، بالكاد سمعتها تقول:

ـ إن هي إلّا ساعة وأعود أدراجي، كلّ ما في الأمر أنّني اشتقتُ إليك، وإلى هذه القرية.

ـ ولكنّك تدركين مدى تعبي وغناي عن أيّة علاقة سرِّيّة.

ـ ولكنّني مجنونة بك يا مراد... مجنونة!

وتفشّى بيننا صمت حزين، فاسترسلتْ بنوع من التوسّل:

ـ ألست من كنت تردّد منذ عهد بعيد قول لامارتين: «نعشق الحياة من خلال من نحبّ».

ـ بلى، ولكنّني اليوم أقول مع فاروق جويدة: «لا أنت أنتِ ولا الزمان هو الزمان». يجب أن تعلمي أنّ وضعكِ الآن لم يعد يسمح بالحبّ أصلاً.

ـ أتقصد زواجي.

ـ نعم.

ودوّت ضحكتها لهنيهات، ثم قالت:

ـ لا شكّ أنّك جننت! أيّ زواج هذا الذي تتحدّث عنه؟ إنّها

Twitter: @ketab_n

مجرّد ورقة يغتصبني بموجبها على مرأى من الجميع، يستبيح جسدي في ما لا يزيد عن ربع ساعة ثم ينكفئ على وجهه ويعلو شخيره، حتى قبل أن أنسحب إلى الحمّام.. أنا مجرّد عشيقة. أمّا الزوجة الحقيقيّة التي استنزفتْ فحولته واستنزفها كذلك، أمُّ الأولاد كما يسمّيها أو أمُّ الورثة، فلا تعرف عن أمري شيئًا.. فهمت؟

ـ أحاول أن أفهم. لكنّني لا أستطيع.

وانسحبنا باحثين عن إغرم. كان المرض لا يزال يقضم القلب الذي يخفق بقوّة احتجاجًا على هذه الخيانة الصباحيّة، ولم نعج على إغرم كما تمنّيت. فقط في تلك اللحظة التي ضغطت فيها على يدي، وأومأت برأسها أن نتّجه صوب المضيق الجبلي، فهمت أنّ لوثتي الجنسيّة أعادتها إليَّ. أشعلتُ بانفعال سيجارة، لكنّها خطفتها بخفّة من شفتيَّ، فأشعلت واحدة أخرى.. ومضينا.

Twitter: @ketab_n

(٤)

أربكني، ونحن نخترق المضيق، خوفٌ من أن نكون مراقبين، لا سيّما من طرف تلك الأشباح التي تتبدّى هنا وهناك، تلك الخفافيش الملتحية التي لا تؤمن إلّا بالدماء، ترى.. أيحصون خطواتنا من عل؟

التعب يحطُّ على جسدي، ويدُ نضال تعانق يدي وتستدرجني. كنّا نمضي باسمين ابتسامًا مزيّفًا، في لحظة كانت نضال قد خطّطت لها جيّدًا، سحبت يدي بدهاء صوب جزء مستور من أجراف الجبل، وتأكّد لي تخميني أوّل ما رأيتها بأنّ الجنس هو جلُّ ما أعادها إليَّ. فلماذا كلّما وطأت امرأة أدمنتني، وخفتُ أن يكون الأمر نفسه هو سرّ انجذاب جوليا أيضًا.

في كلّ امرأة مثقّفة شيء من الغباء حين يتعلّق الأمر بالرجل والجنس، هكذا فكّرت وأضفت في سرّي، كم أنا في حاجة إلى امرأة تناديني: بنيَّ! فأطير إلى حديقة صدرها طفلاً وأظلّ بين ذراعيها، أقصُّ عليها ما خرَّب قلبي المعطوب قبلها.

Twitter: @ketab_n

وضعت يدًا على خدّي الملتهب، فكدت أبكي لولا أنّ الشيطان ذا القرون الوعليّة انفجر ضحكًا وهمستْ بي أن أتقدّم للأمام، خططتُ على شفتيها قبلة، فعادت بي ملامحها إلى ذكريات ظهر المهراز، إلى مسالك كلّيّة الآداب الضيّقة.. هناك، حيث كنّا رفيقين عاشقين يسرقان لحظات عشق ومتعة! كيف تغيّرنا بهذا الحجم، نضال..؟ وهل كانت من سخريات القدر أن أنتظر إلى أن يفتضَّكِ غيري لنمارس كلّ هذا الشغب الجسدي؟

اللهفة كانت تفكّ الأزرار والوله يزيح الملابس على عجل، ونحن نزدحم ببعضنا، وينفجر الشيطان ذو الرأس الأحمر والقرون الوعليّة ضحكًا حتى لتكاد قرونه تمزّق أحشائي، ويلتحم الجسدان وتنزلق ركبة ويطفو على راحتي نهد، وتشرئِّب الدماء، وينتابني إحساس فادح بالاغتراب.. أيُعقل أن تكون قد تكبّدتْ كلّ هل المسافة من أجل لحظات جنس؟ أيعقل أن تكون بهذا الجنون؟ لا أدري. لكن ما أنا متأكّد منه هو أنّ هذه المرأة في غمرة اللذّة تستزيد وتستزيد! أيُّ نهم يسكن هذه المرأة، وأيُّ عطش يعشّشُ في هذه الشاعرة المناضلة. فهل يعقل أن تجمع بين النضال والجنس، بين الشعر والجنس في مخدع واحد؟

قالت، ونحن عائدون من غربة الجسد:

ـ أنت آخر الفحول...

ضحكتُ في سرّي، وقلت ممازحًا:

ـ ولماذا أغفلني الأصمعي في طبقاته؟

ـ لأنّك أكبر من الشعر.

وانفجرنا ضاحكيْن، ثم أردفت والتورّد يعلو وجنتيها:

Twitter: @ketab_n

ـ عندما تلتحم بي أتمنّى لو أنّنا لا نفترق، أتدري؟

ـ ماذا؟

ـ أدمنتُك.

وابتسمتُ لقولها في الوقت الذي كان حريًا بي أن أذرف هذه الدموع المتمترسة خلف زجاج عينيَّ:

ـ بعد هذا اللقاء الرائع في هذه الرقعة البهيّة من الأرض، ما عاد بإمكاني أن أتجاهل وجودك، أو بالأحرى عودتك إلى حياتي.

ـ ولكنّك. . .

لكنّها وضعت سبّابتها على شفتيَّ ملتمسة صمتي، ثم اقتربت وهمست:

ـ أحبّك يا مراد ـ فهِمْ أصاحبي ـ هذه هي الحقيقة الوحيدة التي يجب أن تتأكّد منها، وما دون ذلك باطل يا حبيبي باطل. .

ومضينا بعد ذلك نقترب من بعضنا حينًا وتُبعدنا جنادل الوادي أحيانًا، واستغرقنا في حديث طويل عن السياسة الجنسيّة في العالم العربي، إلى أن انتهينا إلى الفندق، فدَنَفْنَا إلى سيّارتها. . خفتُ أن تطلَّ جوليا من الشرفة فينفضح أمري، قبّلتها على عجلٍ وامتطت صهوة سيّارتها، ومضتْ تُخرج يدها من النافذة وتلوّح لي مودّعة. أمّا أنا فقد تتبّعتُ السيّارة بحزن وهي تجرُّ ذيلاً من الغبار، كانت تصعد القمّة في رتابة مملّة، هناك حيث بدا لي شبح رجل ملتح، كان يبدو حينًا ويضمره الغبار حينًا آخر، إلى أن طواه الأفق البعيد.

* * *

غارقة في جلال نومها، كانت جوليا. .

Twitter: @ketab_n

والملاءة كعادتها انزاحت عن جسدها، وواجهني ظهرها العاري كروحي. تجوّلتُ في الغرفة، رتّبتُ القليل من فوضاها، وحاولتُ أن أُعيد بعض الأشياء إلى مكانها. قذفتُ ببعض الملابس التي أدماها الرعاف إلى سلّة، وأعدتُ الأقراص المدمّجة إلى مكانها، ولملمتُ ملابس جوليا التي بدّدها التحام ليلي لم أعد أذكره نهائيًّا. وضعت تلك الملابس فوق الحقيبة، لمحتُ في أحد جيوب الحقيبة المفتوحة دفترًا صغيرًا، تردّدتُ أوّل الأمر في تصفّحه، إلّا أنّ قوّة خفيّة ألحّتْ عليَّ أن أفعل.. شيء أقوى من مجرّد فضول عادي، كأنّ الحقائق حين تنضج وتستوي لا تنتظر منك أن تبحث عنها، بل تتقدّم هي نحوك! وقد يكون الأمر غير هذا تمامًا، قد تكون الحقيقة سلسلة صدف تتعرّى الواحدة تلو الأخرى، لكن أيًّا كانت هذه القوّة التي تقتادنا نحو اكتشاف حقيقة ما، فإنّ أهمّيّتها سرعان ما تتبدّد، بل ويغيب السؤال بشأنها ما إن نكون حفاة أمام أمر نكتشفه أو نكتشف أنّنا كنّا مغدورين به، وأنّه كان يعيش معنا، وربّما في دمنا دون أن نعي ذلك.

سحبتُ الدفتر الصغير وفتحته. هل كان الأمر فضولاً، قدرًا أو لوثةً تعيش داخلي؟ لا أدري. راقبتُ جوليا وهي ممدّدة لا تتحرّك، وقرأت خواطر كتبتها بلغة أدبيّة راقية ما كنت أتصوّر من قبل أنّها يمكن أن تكون بهذه الجماليّة. في تلصُّصي السرّي والهادئ على دفترها، وضعت يدي على رقم هاتف مغربيّ، كان الأمر مثار استغرابي، إذ إنّ جوليا لا تنفكّ تؤكّد أنّني جلُّ ما تعرف في المغرب. لحدود تلك اللحظة، كانت هناك إمكانيّة للتراجع بمجرّد أن أرجع الدفتر إلى الحقيبة وأنصرف إلى شأن آخر؛ لكنّ اللعنة حين تندلع، فلا أحد يعرف أين أو متى تخمد. سحبت من الجيب هاتفي لأدوّن هذا الرقم

Twitter: @ketab_n

وأعرف فيما بعد صاحبه، لكنّني لم أكن مضطرًّا لذلك. من سلبيّات التكنولوجيا أنها جعلت كلّ شيء مكشوفًا وعلى قدر كبير من السهولة، إذ ما كدت أنهي تدوين الرقم في هاتفي الخاصّ، حتى وجدت أنّ الرقم موجود أصلاً باسم الدكتور بنهاشم. اضطربت يدي قليلاً وهزّتني رعشةٌ مخبولة، حين بحلقتُ جيّدًا في اسم بنهاشم غير مصدِّق ما أرى.. أيُعقل أن تكون جوليا إحدى مريضاته؟ لا.. لا يبدو الأمر منطقيًّا. أحسستُ بالضياع وبوخز أسئلة كثيرة وأنا أعيد الدفتر إلى مكانه.. لكنّني حاولت أن أتماسك، أو على الأقلّ أن أبدو كذلك، حاولت أن أتجاهل الأمر، فكَّرتُ ما دامت الصدف هي التي اقتادتها إليَّ، فلا شكّ أنّ الصدف نفسها هي التي اقتادتها إليه؛ وما دام بحثها عن الجانب الجنسي في العالم العربي هو الذي ألجأها إليَّ، فليس بعيدًا ولا غريبًا أن يكون الموضوع نفسه هو الذي ألجأها إليه، هكذا كنت أتحايل على نفسي، ربّما لأستقرّ على صيغة لا تقلق هذا السلام العاطفي والجسدي الذي أتفيّأُ تحت ظلاله صحبة جوليا.

وانتصف النهار، وجوليا لا تزال مستغرقة في نوم عميق...

تردَّدتُ أوّل الأمر في إيقاظها، لكنّني مللتُ الانتظار. تمدّدتُ إلى جانبها في السرير وأزحتُ عن وجهها خصلات شعرها القمحيّة الجميلة، فإذا السواد يعلو محيط جفنيها... وحده الكحل يفضح بكاء جوليا الليلي! فما الذي أبكاك أيّتها الجميلة الشقراء؟ وقلت في سرّي: لست عجوز غارسيا ماركيز التسعيني لأحاور نوم جوليا، ولا هي غيلغادينا النائمة. وضعتُ أصابعي على شفتها السفلى مداعبًا، وما هي إلّا لحظات حتى اندفع أزرق عينيها قويًّا شرسًا، قالت بتثاقل:

ـ صباح الخير حبيبي هل استيقظت باكرًا؟

Twitter: @ketab_n

ـ صباح الخير جميلتي. نعم، استيقظت باكرًا. . لكنّني لم أشأ أن أوقظك.

ـ حسنًا، وماذا فعلت؟ لا تقل إنّك خرجت من دوني؟

ـ للأسف، فعلت.

وكان حريًّا بي أن أكاشفها بأنّني ببساطة مارستُ الجنس مع جسد لاجئ. ولم أسألها، لا عن سرّ بكائها الليلي ولا عمّا يفعل رقم بنهاشم في دفترها، واكتفيت بمراقبتها وهي تفرّ عارية بهيّة إلى الحمّام. أشعلتُ سيجارة ثم أصختُ السمع إلى الماء وهو يتكسّر على جسدها الباسق كشجرة أرز، كان يتناهى إلى أذنيَّ أوّل الأمر مثيرًا، إلّا أنّ صداه في ما بعد يتردّد داخلي كأوان تتحطّم.

بعدما أنهت الدوش مددت لها الفوطة، وانسحبتْ من الحمّام التصقت بي، قبّلتني بشغف، ثم ارتدت ملابسها وسحبت من جيوب الحقيبة مسجّلتها الرماديّة الصغيرة، ونزلنا بتثاؤبٍ سلالم الفندق إلى المقهى. جلسنا في ركن ركين، كان المقهى على غير عادته مكتظًّا بالأجانب! تناولنا بسرعة وجبة فطور، وتركنا الفندق صوب «جميلة» معلّقة في الهضبة المواجهة للفندق نحو إغرم.

في طريقنا عبر الحقول، رأيت فلّاحين يشمّرون ثيابهم إلى سواعدهم ويكدحون، رأيتُ الفؤوس وهي تعلو لتطاول السماء ثم تهوي بغضب عنيف وغير مبرّر لتشقَّ الأرض وتفجّرها حياة وخصبًا، إلى أن استوقفنا زمرة أطفال، كانت أياديهم الصغيرة تحمل تفّاحًا وخوخًا. ببراءة وخجل كبيرين، ناولونا الفاكهة وهم يكركرون ويتهامسون، وما إن أخذنا ما لذّ وطاب منها حتى قفلوا هاربين إلى ذويهم، مخلّفين داخلي غصّة مريرة ـ كم كنت أشبههم، وكم هم أنا!

Twitter: @ketab_n

وكاد الدمع يخذلني على مرأى من جوليا، لولا أنّني تماسكت. لوّحتُ لذويهم شاكرًا فلوّحوا لي أيضًا، وشممْتُ الفاكهة، فإذا رائحتها توقظ داخلي كلّ السنوات التي قضيتها هنا دفعة واحدة، واختلطَ داخلي فرح من يحبُّ لأوّل مرَّة بحزن من يرى حبيبته لآخر مرَّة... وانقضَّت عليَّ أسئلة وهواجس مريرة. ما كدنا نجهز على حبّات الفاكهة حتى انتهينا إلى المنزل القديم، قلت:

ـ أتذكرين أوداد؟

ـ وأذكر مأساته أيضًا.

نزلت عليَّ كلمة «مأساة» باردة كقطعة ثلج تنزلق بين الظهر والقميص، ماذا لو قلت لها إنّها تطوِّق ذراع المأساة؟ ماذا لو علمت أنّ المأساة نفسها أحبَّتها وطارحتها الغرام بكلّ ما فيها من شجى وأنين؟ ما كان أبعدك عن كلمة «مأساة» يا جوليا! فلماذا هذه الرصاصة، هذه الطلقة العشوائيّة التي أطلقتها على مقربة من وجع عتيد؟ لستُ أدري إن كان سيأتي يوم، وأخبركِ أنّ أوداد الوعل الذي لا أنفكّ أحدّثك عنه، ما هو إلّا الوجه المسخ لمراد.

ـ المأساة أكبر من أن تأخذ شكلاً بسيطًا أو تختزل في شخص محدّد.

قلت هذه العبارة وأنا في حالة أقرب إلى الهذيان، وانصهرنا في الدروب الضيّقة الصفراء، وكانت تلّة العرعار وجهتنا.

* * *

سألتُ جوليا، ونحن واقفان نواجه القبور الموزّعة بانتظام عبثيّ على بساط ترابي شاسع:

Twitter: @ketab_n

ـ أتشعرين أنّك سعيدة؟

ـ إلى حدّ ما.

ـ كيف ذلك؟

ـ هي أشياء لا ينبغي أن نفهمها كثيرًا، لئلّا نمرضَ بأسئلة أخرى لا أجوبة لها. في النهاية لكلّ منّا لحظات سعادة وبؤس.

ـ وأيّهما يغلب؟

ـ لنقل تجاوزًا الثانية، ولا شكّ أنّني حدّثتك عن القليل من تعبي.

وقلت بمكر، وأنا أركّز في أساريرها كأنّي جهاز لكشف الكذب:

ـ ألم تضطرّك أحزانك يومًا إلى البحث عن معالجَة نفسيّة؟

إلّا أنّها أحبطت توقّعاتي، إذ أجابت بشكل عفويّ والبسمة تعلو محيّاها:

ـ لا، لم أفكّر في الأمر قطُّ.

وابتَلَعنا صمتٌ جافّ وقاس، كنت خلاله أتفرّس في ملامحها علّني أصطاد ما يشفي غليل أسئلتي، ويفسِّر لي حضور رقم بنهاشم في دفترها! لكن عبثًا ما أحاول، ربّما لأنّ جمالها وزرقة عينيها على وجه خاصّ تفضُّ أيّ حصار، أحاول ضربه على أساريرها...

استأذنتُ جوليا الرحيل وتركتها لأختلي بهاتفي، دنوتُ بخطى مضطربة من القبور، فكّرت، أو بالأحرى تساءلت، إن كانت هذه المقبرة تضمّ جثّة (أبي) أو (أمّي). لكنّني لم أستسغ التفكير في الأمر. لا يهمّ الآن من هما، أو أين هما، لأنّهما ماتا فعلاً، وإن كانا لا يزالان على قيد الحياة. غيابهما أحد أوجه الموت.. غيابهُما ـ بالنسبة

Twitter: @ketab_n

لي - في الوقت الذي كنت في حاجة إليهما يعني موتهما.

تفقّدتُ الرسائل الخطّيّة، وكذا الصوتيّة الواردة على هاتفي، أصدقاء يستفسرون عن سرّ هذا الغياب، قال أحدهم إنّ إحدى المجلّات ستفرد عددًا خاصًا حولي. تأمّلتُ جوليا التي كانت تناجي المسجّلة الرماديّة بسرِّيّة وهدوء، فعلتُ ذلك وأنا أستمع لرسالة صوتيّة من د. بنهاشم الذي لا يملُّ من تكرار الرسائل ذاتها.

حين قفلنا راجعين، جمعتُ لجوليا قصفة من «أزير»، هذه النبتة المنتشرة بكثرة على هذا التلّ بأريجها الغريب والجميل في آن، سكنتْ وجداني.. وعلى الرّغم من أنّني تركتُ إغرم صغيرًا، إلّا أنّ هذا العبق ظلّ يصطخب داخلي ويرقص بجنون ويفيض بي حنينًا.

المدن، كلّ المدن المغربيّة تستنبت أزير وينجحون في ذلك، لكنّه يبقى نسخة رديئة وأقلّ أريجًا، بل وسرعان ما يبهت لونه ويصبح يابسًا سريع الانكسار، أمّا أزير إغرم فإنّ لونه الأخضر القاتم لا يغيّره اختلاف الفصول، كما أنّ رائحته تهاجم الأنف بشراسة وتبقى وشمًا في الذاكرة.

في الطريق - العودة، انتبهتُ إلى أنّ هذه الطريق قد تكون ملغومة، لكن ذلك كان بعد فوات الأوان. لم أكن أملك - بعد أن توغّلنا فيها - طاقة للرجوع، تقدّمتُ في الأزقّة الضيّقة الصفراء بتهوُّر إلى أن انتصبت الذاكرة وحالت دون تقدُّمي، كانت قابعة كهزيمة على عتبة المنزل القديم تتلفّعُ ثوبًا رماديًا باليًا وحزينًا، وتضع على رأسها غطاء أمازيغيًا أحمر ينسجم إلى حدّ ما مع خصلات شعرها الحمراء كزغب الذرة التي لم يفلح الغطاء في درئها. اقتربتُ منها بشجاعة، لكنّها لم تنتبه لي، كانت كما لو أنّها تنام مفتوحة العينين، أو كما لو

Twitter: @ketab_n

أنّها غارقة في تفكير عميق بعد أن حوّلها العمى إلى ما يشبه الجزيرة المعزولة. اقتربتُ أكثر، تأمّلتُ يدها المبتورة، فضجَّتْ داخلي ذكريات ذلك اليوم الذي استحالت فيه كنَّتُها إلى كومة رماد. همستْ جوليا في أذني:

ـ لنرحل يا حبيبي..

إلّا أنّ العجوز قد سمعتها، وهاجت بصوت مرتفع أقرب إلى نعيق غراب في يوم ممطر، وهي تدير رأسها صوب كلّ الجهات:

ـ مَنْ هنا؟ مَنْ..؟

لم أنبس ببنت شفة، استدرتُ إلى جوليا، أومأت لها أنّ تسكت، تطلّعت صوب الجهات الأربع بحذر سارق، لم أر أحدًا، فانحنيتُ قائلاً، ولأوّل مرَّة منذ عهد بعيد باللغة الأمازيغيّة:

ـ السلام عليكم.. أنا شخص غريب، جئتُ أبحث عن قريب لي..

ردَّت التحيّة بفتور، وقد تبرّمت ملامحها وأردفت:

ـ لا أدري، ولن أساعدك في شيء، يمكنك أن تسأل غيري..

ـ نعم فعلتْ.. ودلُّوني على هذا المنزل. فقدناه في الأسابيع الأولى من ولادته، وقيل لنا الآن بأنّه كبر في هذا المنزل. بالله عليكِ دلّيني عليه.

وكان في اضطراب ملامحها وطول إطراقتها دليل على أنّ كلماتي قد صكّتْ أذنيها، ونفضت الغبار عن أوراق ذاكرتها، قالت:

ـ نعم، من المرجّح أنّك تتحدّث عن أوداد..

ثم فغرتْ فاهًا وأطرقت تفكّر، غابت لثوان خلتها دهرًا، وكان

Twitter: @ketab_n

يبدو من خلال اضطراب ملامحها أنّ الذكريات ازدحمت بها كثيرًا، إلى أن أضافت:

ـ وَجَده زوجي ـ رحمه الله ـ مرميًّا قرب القرية وملفوفًا في خرق بيضاء.

نزلت عليَّ عبارة (رحمه الله) واخزة، هكذا إذن قضى من انتشلني ذات صباح صيفيّ من أرض قفار، بعد أن سقطتُ سهوًا أو خطيئةً من رحم سيّئ إلى حياة أسوأ. كتمتُ كلّ هذه الأوجاع التي تستيقظ دفعة واحدة، وواصلت استجوابي لذاكرة الزوجة قائلاً:

ـ وكيف كان أوداد هذا؟

ـ كيف كان؟!

وابتلعها الصمت مرَّة أخرى، وكان الانتظار فنًّا قاسيًا لم أتقنه يومًا. أضافتْ:

ـ كان جميلاً، وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان، وذكيًّا بل قويَّ الذكاء.. لكنّه إلى جانب كلّ هذا، كان غريب الطباع، يؤثر العزلة. كان يقضي النهار بحاله بين الجبل والحقل ولا يعود إلى المنزل إلّا ليلاً، وأحيانًا يتغيّب عن المنزل حتى ليلاً، المهمّ أنّ القرية كلّها لم تكن ترى فيه سوى لعنة ابتليتْ بها.

صفعتني كلماتها الأخيرة وعصفتْ بأشياء كثيرة داخلي.. أيقظت ذكريات وعبارات ووجوهًا خلتني نسيتها، واسترسلت:

ـ قبل أن يُؤتى به، كانت القرية تعيش في سلام ورغد من العيش، لكنّها انقلبت رأسًا على عقب في تلك السنوات التي عاشها هنا، كانت المصائب تعصف بالقرية الواحدة تلو الأخرى.

Twitter: @ketab_n

وكمن به شوق للكلام، جعلتْ تسرد عليَّ بتفصيل بلغ حدّ الملل قصصًا كثيرة، لكم تأذّوا بسببه. . لمن ابتلع فيضان النهر غنمه فقط، لأنّه شتمه، ولمن مات أو اختفى فقط لأنّه كان يكيل له العداء أو يزدريه إلى أن انتهت إلى العجوز ـ كنّتها ـ التي صيّرتها لعنتُه إلى جثّة متفحّمة، قائلة:

ـ وكان أوداد هو المتسبّب في موتها ـ كما أكّد شيخ القرية وفقيهها ـ لأنّها كانت تعنِّفُهُ كثيرًا، احترقت بألسنة لعنته. ولم تعد القرية إلى ما كانت عليه إلّا بعد رحيله. . واعذرني يا بنيَّ، لقد نقلت لك ما كان يدور وقتها في القرية، هذا إن كان أوداد أصلاً هو قريبك الذي تبحث عنه!

شعرتُ بيد جوليا تسحبني من ذراعي، استسلمتُ لها ومضيتُ وتركت العجوز تكمل الحكاية لوحدها، وكان صوتها كلّما ابتعدتُ يدنو ويقسو. تألّمتُ لكلامها، حتى إنّ العبرة خذلتْني على مرأى من جوليا التي لم تتوان عن كفكفة دموعي، واستدراجي إلى أحضانها ثم ضمّي بقوّة. كنتُ في تلك اللحظات أشعر إزاء جوليا بالامتنان، لأنّها شهدت انخذالي أكثر من مرّة دون أن يحرّكها الفضول أو يدفعها إلى طرح أسئلة محرجة.

بالنسبة لرجل مثلي، ولدت في فضاء فيه الكثيرون ممّن يدقُّون في القلب مسامير غليظة بمطارق كلماتهم وأفعالهم، وآخرون لا يفعلون شيئًا سوى سحب تلك المسامير. والحقيقة أنّ الصنفين وجهان لجرح واحد، حتى آلامي جرّاء فعلهما لا تختلف كثيرًا! والعجوز، هذه العجوز قد شهدت الكثير من المسامير وهي تدقُّ في القلب، وها هي اليوم بعد ردح كبير من الزمن، تسحب من القلب بعضها وتبقي فيه خنادق واسعة ومفتوحة على نزيف لا ينقطع.

Twitter: @ketab_n

وعانقتُ جوليا على مرأى من بعض العابرين، كنت أحسّ في تلك اللحظات أنّني أشبه ما يكون بشجرة منخورة من داخلها، كنت أستشعر ذلك الفراغ المهول في جوفي. وكما خانني الكثيرون، خانني أنفي، انفجرت الدماء على ثوب جوليا، ملأت يديَّ، فمضيت بخطوات متسارعة إلى النهر.

كانت الدماء تسيلُ بغزارة واندفاع دونما توقّف، ودونما توقّف كنت أحثُّ الخطو صوب النهر. كانت كلمات جوليا تطاردني وتصلني بعيدة كحلم غامض ومنسيّ، في غمرة النزيف تذكّرت الخصلات الحمراء لشعر العجوز، وعبرت بخاطري أشياء أخرى حمراء، الجبال الكبيرة التي تطوّق إغرم الحمراء، ومذكّرة خولة حمراء، ورأس الشيطان الذي يطلق زغاريده الآن داخلي أحمر، والمنديل الذي يحاول أن يحاصر رعافي أحمر.. حتى ذلك الإطار الذي سقط عليه بياض «الخبر العاجل» أحمر (فجّر الإرهاب البيضاء وقتل مصطفى)... أحمر.. أحمر كأن لا لون للخيبة سوى الأحمر.

ولم يتوقّف النزيفُ، حتى خلتُ أنّني وضعت قدمًا في حياة أخرى غير حياتي. اهتصرني وجع قاس في رأسي بدَّد كلمات جوليا. كان وجعًا يحاول عزلي عن أيّ شيء خارجي ويسحبني نحو أعماقي القصيّة، بالكاد فككتُ طباق عينيَّ، عصرتُ المنديل بعد أن أخمدته في ماء النهر.. أحمر.. أحمر، آه حتى تلك الدماء الجليلة، التي انفجرت من معصمك حين شقّته شفرة انتحارك، حمراء يا خولة حمراء! أعدت المنديل إلى النهر، فبهتَ الأحمر وجعل يتبدّد ويتلاشى، ورويدًا رويدًا بدأت أعود بتثاقل إلى الحياة بعد موت موقّت أو تجريبي.

في الطريق إلى الفندق، قلت لجوليا:

Twitter: @ketab_n

ـ الموت يدنو منّي بحذر مبالغ فيه..

وتطلّعت إلى أساريرها، فقرأت تواطؤ عبرات مع حزن عميق، تحرّكت شفتاها كما لو أنّها أرادت أن تقول شيئًا، لكنّها تراجعت.. شدَّت على ذراعي بقوةّ...

وبكت بعدها..

بكت بشدّة!

Twitter: @ketab_n

(٥)

الحمّى تنهشُ لحمي وتتوغّل في أعماقي عاطفة حمراء مشوبة بسواد مرير، ومثل جريدة ملقاة على طاولة في مقهى ساحلي قديم، كنت مُلقى على سرير المرض، والليل خلف النافذة يعوي كذئب جريح، وجوليا تملأ الحقنة.

في هذه الليلة، وتمامًا كليالٍ كثيرة سبقتها، لم أكن خائفًا من الموت.. فأنا أنهيتُ قصتي معه يوم ارتميت إلى أحضانِه في النهر طفلاً صغيرًا، أدمتْه الحياة، فأبى أن يأخذني معه. في ذلك اليوم الحزين والماطر، تأكّدت أنّ في الموت الكثير من الجبن. ما يخيفني من المرض، ليس هاجس الموت، بل هي تلك الأطياف التي تنقضّ عليَّ وتعذّبني على مهل!

على سرير المرض، وعيناي نصف مغمضتين، لا أبصر من جوليا سوى ساقيها الطازجتين كجذعيْ شجرة قادمين إليَّ بتثاؤب. أخذتْ تشمّر عن ساعدي، أحسستُ بوخزٍ طفيف، ثم بذلك المحلول وهو

Twitter: @ketab_n

ينسكب في أوردتي..

ولدتُ مهزومًا.. ولدتُ لأجد الحياة، وقد ضربتْ حولي متاريس الخيبة. وجدتُ في مقارعتها بطولةً، لكنّها كانت بطولة مجهضة. فبحثت بالعلم والمعرفة عن بطولة زائفة وانهزمت، لأنّ كلّ ما فعلته المعرفة، أنّها عمَّقت فهمي لمأساتي.. والآن، إذ ألتفتُ إلى شرط حياتي وهو يبرق في سماء المرض ويختفي، تأكّدت أنّني من أولئك الذين قدموا إلى الحياة أمواتًا.

مرَّت جوليا بأصابعها على جبيني الملتهب، ثم وضعتْ خرقة مبلولة عليه، وحرّكتْ يديَّ بحنان، فتطلّعتُ إليها ورأيت الكحل وهو يزغرد في عينيها جميلاً متألّقًا.. اعتلتْ السرير واستلقتْ بقربي، وأخذتْ رأسي وأسندته إلى صدرها، وجعلت تداعب بلطف شعري. تمنّيت لحظتها لو أنّها تغنّي..

ذات ليلة قاسية من ليالي الجامعة والنضال، وبعد مواجهة دامتْ ساعاتٍ مع قوّات الأمن، شرّدتْني مطاردة رجال الأمن في الدروب الضيّقة لأحد الأحياء المتاخمة للجامعة، كان المطر ينزلُ بغضب ولهفة على جسدي المتعب، فجلستُ القرفصاء تحت إحدى النوافذ بعد أن انتصف الليل أو كاد، فإذا بصوت حنون ودافئ ينطلقُ من خلف النافذة:

ـ نيني يا مومو... حتى يطيب عشانا

ويلا ما طاب عشانا... يطيب عشا جيرانا

كانت كلماتها دفئًا تسرّب بين جوانحي خلسةً، وبكيتُ في تلك الليلة تحت تلك النافذة المغلقة، كما لم أبك منذ عهد قديم، وحسدتُ في سرّي ذلك الطفل الصغير الذي تفرشُ له أمّه صوتها لينام.. بكيت، لأنّني ما نمتُ قطُّ على صوت عذب كهذا.

Twitter: @ketab_n

لم تغنِّ جوليا ـ كما تمنّيتُ ـ بل بكتْ، تطلّعتُ إلى انتحابِها، وبعد أن كفكفتُ دموعها سألتها:

ـ ما الذي يبكيكِ حبيبتي؟

لم تجب. تطلّعتْ إلى شحوبي، مرَّت على جبيني بأصابعها وارتمت عليَّ، ضمَّت أضلعي المتداعية إليها فارتفع نشيجها. في غمرة بكائها قالتْ، أو ربّما تهيّأ لي أنّني سمعتها تقول:

ـ سامحني.. سامحني.

وأحسستُ لأوّل مرّة في حياتي أنّ عينيَّ تنغلقان رغمًا عنّي، فاستسلمتُ لنداء الموت.. أقصد لنداء النوم.

* * *

لم أفكّر في الذهاب إلى الطبيب، ليس فقط لأنّني أنفُرُ من الأمر وأعتبر أنّ فيه شيئًا من الهزيمة، بل أيضًا لأنَّ شيئًا ما يشدّني إلى إغرم. أخاف إن أنا غادرتها ألّا أعود إليها، المكان، ليستْ هناك آصرة أقوى من هذه التي تجمعني بهذا المكان، رغم أنّه بالغ في خيانتي! المكان يُحبّ ويُنسى.

كعادتي، استيقظتُ باكرًا، خفَّ وجعي قليلاً.. أخذتُ دوشًا وثلاث سجائر وقصيدتين للوركا وفصلاً لنيتشه، وكتبتُ شذرات من فصل لكتاب أعدّه عن الإسلام والعلمانيّة. فعلتُ كلَّ هذا وجوليا لا تزال غارقة في نوم عميق، لستُ أدري لماذا انقلبتْ إلى «نؤوم ضحى» فجأة؟ تذكّرتُ وأنا أتأمّلها نائمة رقم بنهاشم الذي وجدته في دفترها، حاولتُ أن أصرف عن ذهني هذه المسألة، إلّا أنّها لا تنفكّ تعود بإلحاح بلغ حدّ الإزعاج.

Twitter: @ketab_n

داهمتني رغبة مجنونة في أن أفتّش حقيبتها، علّني أجد أشياء ذات صلة برقم بنهاشم الهاتفي، اقتربتُ من الحقيبة بسرِّيّة وعيني على جوليا. حملتُ الحقيبة وهربتُ بها إلى الشرفة، فتحتُها بسرِّيّة حاسمة، ملابس، قنِّينة عطر كتلك التي كنت أحضرها عادة لخولة، صُوَر، كتب، مذكّرة، وساعة يد أنيقة، ولا شكّ أنّها باهظة الثمن. وبحركة عفويّة وغير مفهومة كأنّ قوَّة ما خفيَّة سطّرتها، عدْتُ إلى الكتب ـ ربّما لأنّ عيني لم تقع على جوليا وهي تحمل كتابًا في هذه القرية إلّا لمامًا ـ كان الكتاب الأوّل رواية بعنوان «أسقف متشابهة»، وزاغت عيني إلى المؤلّف، فإذا اسمها يبدو بارزًا كنقش على حجر، جوليا (ك). ولأنّني لم أعد أتذكّر اسم جوليا العائلي بشكل دقيق، فقد فكّرتُ بأنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد تشابه في الأسماء، كان ذلك قبل أن تقلب يدي الكتاب بسرعة حاسمة، وتواجهني صورة جوليا على ظهر الرواية واضحة وقويّة، كما هي هناك بخصلات شعرها القمحيّة المندفعة وبزرقة عينيها، إنّها هي.. نعم.

وماذا بعد؟

فكّرتُ أن أصرخ بقوّة وتهوّر حتى تنتفضَ طيور القرية وتنفُضَها الجبال. فكّرتُ في البكاء. لماذا أخفتْ جوليا هذه الحقيقة عنِّي؟ فكّرتُ أنّ أوقظها وأضعها أمام الأمر الواقع، أمام خيانَتِها، إلّا أنّني لسبب ما أجهله قرّرتُ أن أتمهّل وأن ألعبَ لعبتها، إلى أن أصل إلى الأسباب التي دفعتها إلى الكتمان. قرّرتُ أن أواصل هذا الجنون إلى آخره..

هربتُ بعد ذلك إلى إغرم. همتُ على وجهي والأفكار تتزاحم في رأسي وتتناسل بسرعة، أريد أن أفهم أمرًا واحدًا: من هي جوليا بعد اليوم؟! أريد أن أفهم أمرًا آخر: كم عليَّ أن أخسر لكي أزفّ في يوم ما إلى الموت؟!

Twitter: @ketab_n

جوليا! كيف يغيب عنّي اسمك الروائي؟ ولماذا الرواية؟ وما كان يضيرك لو أنّك أخبرتني؟ يا له من منطق سمج أن أضيع في خمائل جسدك، دون أن أعلم أنّني على مرأى كاميرات قلمك. وضاقت بي الأسئلة فبسطتُ على الغار ـ غار سيدي عيسى، جراحاتي، واتّكأتُ على جداره وحزنتُ.

ما نفع حياتك يا مراد إن كنت تعيشها من صفرها إلى اليوم على الكذب والنفاق؟ أحيانًا، كان منطق الصدمة حين أتوقّعها يفرض عليَّ أن أتحاشى قدر المستطاع اكتشاف الحقائق. كنتُ أغضّ الطرف، أمّا أن تأتيك الحقيقة على طبق من صدفة، وأنت لم تشف من حقائق أخرى قديمة، فإنّها تنزل على القلب كسيف بارد يزاحم كلّ الجراحات القديمة، فيوجعك كلّ شيء.

وإن يكن.. لا بدّ أن أعترفَ أنّها حرّيّة جوليا التي لا تمسّ، ولا بأس إن هي لم تشأ إخباري. على أيّ حال، هي حرَّة.. هكذا أتحايل مرَّة أخرى على نفسي، لكن عبثًا.. جوليا خانت بصمتها.

في طريق العودة، فاجأني ألم حادّ في رأسي، وجع يشطر وجهي نصفين، ويحتدُّ عند أعلى الأنف تمامًا بين الحاجبين يظلِّلُ سداد الرؤية.. في طريق العودة، لم أكن أعرف أنّ أولى رسائلهم ستصلني ويتأكّد لي بما لا يدع حيّزًا للشكّ أنّهم هنا وأنّني هدفهم الأوّل. كان اللون الأحمر على أحد صخور الوادي الكبيرة يناديني، اقتربتُ بخطى واثقة، فإذا الحمرة على الصخرة تنقلب حروفًا غليظة وقاسية تبدو حينًا ويبدّدها الوجع حينًا آخر.. وما إن وقفت على مقربة من الصخرة، حتى انتصبت الحروف الحمراء حاسمة وقويّة: «تُب إلى ربّك وإلّا سفكنا دمك»! ارتبكتِ العبارة في فمي وانكسرتْ، ولم أتمّمها لأنّها رفرفتْ إلى الذهن حقيقة لا تقبلُ أيَّ طعنٍ أو نقاش. دنوتُ من العبارة

Twitter: @ketab_n

وتحسّستُ الطلاء، فإذا هو لا يزال لزجًا، كانت لزوجة الطلاء تقول أمرًا واحدًا، إنّهم قريبون. رأوني قادمًا فكتبوا إعلانهم هذا وانسحبوا، توقّعت أن تُسقطني طلقة، كما أسقط سيف الرومي السفّاح سيدي عيسى.

وأدرتُ ظهري لأعدائي ومضيتُ، كنت أمشي واثقًا من أنّ الموت أمر وارد.. أيُّ موتٍ جافّ هذا الذي يطلبني وأنا في رحم هذه القرية! في غمرة هذا الإحساس الموجع بالضياع والفقدان والخيانة، تذكّرتُ لوركا، ترى هل سيأتي الموت ليقدَّ قميصي من دبر، أم سيغمرني مثلما غمر ذات يوم مصطفى ويحرق القميص كلّه.

* * *

وكأنّ شيئًا لم يكن، حاولت أن أواري غيظي وأكتم غصّة الخيبة التي يكتظُّ بها جوفي، فأنا ـ كما قال درويش ـ لم أعد أخسر غير الغبار. كانت مياه الدوش تنزل على الجسد الرخاميّ وتنكسر عند أدقّ تفاصيله سرِّيَّة، صوت شرس يجرّني من خاصرتي بحثًا عن ضحيّة. حين أغلقتُ باب الحمّام بعد أن تجرَّدتُ من كلّ ملابسي وبعض أحزاني، تراءى لي جسدها حلمًا مستعصيًا أو أملاً زائفًا. كانت نوافذ عينيَّ المشرّعة عن آخرها تتأمّل عريّها الروائي المدثَّر بالحروف والكلمات، تمامًا مثلما يفعل قارئ محترف حين يواجه قصيدة عصيَّة ملغّزة، صاحتْ:

ـ صباح الخير، حبيبي..

تناهت إلى مسمعي الكلمة الأخيرة كأنّها سرب حمام تطاير إثر طلقة طائشة، في غمرة التناقض الذي استبدّ بي وأنا أواجه جسدها العاري، كأنّني لأوّل مرَّة أفعل، ألحَّ عليَّ صوت أحد الشّيوخ. سمعته

Twitter: @ketab_n

يصيح في إحدى القنوات بلهجة شديدة لا تخلو من نرفزة، وتلك اللحية الجرباء على وجهه تعلو وتنحني كمكنسة الغبار، كان يصيح:

ـ يد المرأة عورة، شعرها عورة، وجهها عورة.. جسد المرأة كلّه عورة!

وتطلّعت إلى خصرها العاجي، قائلاً:

ـ لا شيء فيكِ عورة.

استفسرتْ جوليا عمّا قلت، فلم أجبْ، بل تقدّمتُ نحوها. فعلى الرّغم من الشحوب والمرض كان نداء الجنس يتضخّم داخلي، الجنس يقاوم المرض والجسد يقاوم نفسه. الجنس هو البديل الحقيقي لكلّ محاولات الحبّ المجهضة، الجنس يؤسّس والحبّ يقوّض. الحبّ قوّة تخريب سامية، أمّا الجنس فهو قوّة بناء منحطّة.

وغمرتُ جسدها والماء ينسكب بحرارة ونزق، طارحتها الجسد بشراسة، كأنّني أنتقم منها. كانت تأوّهاتها تصلني كاستعطاف لم أكن أملك أمامه إلّا التمادي في ضرب أسوارها اللحميّة، لست أدري شيئًا عن طبيعة هذه القوّة التي تنزّلت فيَّ، لكنّني كنتُ أعلم أنّها لو لم تستوقفني لغادرتها جثّة. كنتُ متأكّدًا إلى أبعد الحدود بأنّ بمقدوري أن أقتلها جنسًا!!

حين تركتها مشدوهة لا تصدّق فشلها الذريع في المقاومة، كنتُ في لحظة بين الحلم والحقيقة تتداخل الأشياء في ناظري وتلبسُني كلُّ مخاوفي، في تلك اللحظة بالضبط، كان صوت الشيخ المنفعل يصحو ويتلاشى داخلي، ثم لا ينفكّ يضجُّ:

ـ عورة.. عورة.. عورة...

Twitter: @ketab_n

جوليا.. صرتُ أخافك، أخاف أن ترسلي قلمك لتعبثي بجراحاتي، أخاف أن تكوني حزنًا يفيض عن الذكريات. لماذا تخفين عنّي كونك روائيّة، وأنا الذي حاولتُ أن أطرّز في أعماقك اسمي؟ وهل في جعبتك غير هذه الكذبة؟ صرتُ أخاف أن أتقدّم خطوة أخرى في نبش الحقيبة السوداء التي تتكوّم هناك في ذلك الركن الركين.

صببتُ كأسًا رابعة في جوفي، إذن هي المشاكل تتكالب عليَّ. جوليا من جهة وحلفاء الظلام من جهة أخرى، هدّدوا بقتلي بالعبارة نفسها التي وجدتها مرارًا مكتوبة على سبّورة قاعة المحاضرات. لا شكّ أنّهم يرون فيَّ شيطان هذا المكان، لذلك يفكّرون في تصفيتي حتى يرفرف بياضهم الزائف دونما دنس، لكنّني باق هنا ولو كان في ذلك موتي، ما عاد الموت يخيفني.

كانت الموسيقى الأمازيغيّة تجرّني من قلبي صوب طفولتي الشقيّة، أمّا حين اكتظّت بي الهواجس والظنون إلى درجة لا تُطاق، فقد أسندتُ رأسي على صدر جوليا. كان جبيني، بل وكلُّ جزء من جسدي، يضجُّ بكلمات مبهمة:

ـ كلّ الأشياء تبدو حزينة.

قلتُ لجوليا، فردَّتْ بسرعة كأنّها كانت تنتظرني أن أبادر بالكلام:

ـ أنا أيضًا، أحسُّ بالشيء نفسه.

ـ أفعلاً تحبّينني؟ أحقًّا تفعلين؟

وطوت شفتها السفلى مناورة، وسكتتْ لهنيهة، ثم اندفعت بجنون:

ـ أحبّك.. أحبّك.

Twitter: @ketab_n

كانت الكلمة تصلني كموجة صاخبة تغمرُني، لكنّها تتجاوزني إلى أبعد منِّي. قلتُ:

ـ لم أحاولُ يومًا أن أؤذيك يا جميلتي، ولن أفعل.

وأحنتْ رأسها وتأمَّلَتني، ثم جعلتْ تحرِّك عينيْها في كلّ الاتّجاهاتِ قائلةً:

ـ من يحبُّ لا يؤذي من أحبَّ.

وابتلعنا صمتٌ مريض محفوفٌ بآلاف الكلمات الجارحة، قلتُ معرِّضًا:

ـ أتحبّين الأدب؟

ـ من منَّا لا يحبُّ الأدب!

ـ في النهاية، كلّ شيء يستحيل إلى أدب.

وكأنّها كانت تفرُّ من الكلام على الأدب. اكتفت بكلمة «نعم»، وشرعت تداعب شعري برقّة. في تلك اللحظات، وأنا أتخبّط في مصيدة صمتها، كنتُ في حاجة إلى البكاء، البكاء، باعتباره حلًّا موقّتًا يخفِّفُ عنّي وطأة هذه الخيباتِ التي تحاصرني.

* * *

في الهزيع الأخير من الليل، استيقظتُ على نزيف حادّ. عندما وقفتُ أمام المرآة، كان أنفي لا يزال ينزُّ دمًا، وكان نباح الكلاب يعلو مفاجئًا وحادًّا، ثم سرعان ما يستسلم للصمت المطبق على القرية! رشقتُ وجهي بالماء طويلاً، والدم هذا الأحمر الحيويّ لا ينفك يغادرني. في المرآة ـ بعد أن استسلمتُ للنزيف ـ رأيتُ خولة وهي تتردّد أوّل الأمر في وضع شفرة الحلاقة على معصمها، رأيتُ أصابعها

Twitter: @ketab_n

تخذلها، وتلك الأوردة الخضراء التي تزخرف معصمها تئنُّ ويكاد يجنُّ داخلها، رأيت خولة والطفل في أحشائها يبكيان معًا. كان الحزن يثقب قلبها البريء ويطفح ثم يتدفّق كطوفان، والشفرة ترسو على سطح المعصم.. رأيتُ جمالها الباذخ وجسدها العاجي المصقول ينبلج من المرآة ثم يختفي دفعة واحدة.

«أغرك منّي أنّ حبّكَ قاتلي؟»

كتبتْ خولة، كأنّها كانت تنتظرُ موتها أو تتوقّعُه، لكنّها حين تأكّدت أنّ الموت لن يختارها، اختارته هي وغرست الشفرة الظمأى في المعصم الجميل وسحبتْها بعنف، لتخلّفَ في تلك الأوردة الجميلة رتقًا لا يُرأب إلّا بمعجزة؛ ولأنّ المعجزاتِ ماتتْ منذ زمن بعيدٍ، فإنّ خولة كذلك ماتت حين استسلمتْ لنداء الموت المخيف، الموت الذي كان يزحف في ثبات ليبتلع الجسدين معًا، وابتلعهما البياض الحليبيُّ ورذاذ البحر، وجرّتْها كفٌّ مجهولة من معصمها المدمًّى نحو السديم.

وتوقّف النزيف، بعد أن وقفت أنا وخولة على عتبات السديم..

انسحبتُ من الحمّام إلى المطبخ الصغير، حثثْتُ الخطو كي لا أزعج نوم جوليا كما أزعج يقظتها! صببتُ كأسًا وأشعلت بعصبيّة سيجارة وراح تفكيري يشقُّ طرقًا مختلفة، والمرض يهرش عظامي. تساءلتُ عن جدوى وجود إنسان مثلي، أنا ابن الخطيئة، تساءلتُ أيضًا، أيُّ سيّدة هذه التي زجّت بي في خرق بيضاء، وأسلمتني إلى أرض خلاء ومضتْ؟! ترى أكانت كأمٍّ كليم الله مكرهةً على الزَّجِّ بي في قفص البعد، أم فعلت ما فعلت درءًا للَفضيحة؟! في غمرة أسئلة شائكة انتصبت مفاجآت جوليا بارزة. تساءَلتُ: ترى أتفكّر هذه المخبولة في جعلي جرحًا روائيًّا؟ أتفكّر في إخضاع أوجاعي لعمليّة

Twitter: @ketab_n

تجميل أدبيّة تصير حياتي بموجبها ملحمة؟! لكن كيف ذلك وجوليا لا تكاد تعرف عنّي شيئًا؟

وعُدْتُ..

أحكُّ القشرة الدمويّة اليابسة على سطح الجرح؟

أستفزُّه لينزف أكثر، فقد ماتتْ فيَّ كلّ إرادة للبناء، ولم يبق أمامي سوى الاستسلام إلى صوت الفجيعة يصيح بي أن أخرِّبُ كلَّ شيء. أزيزُ الحقيبة أخرسَ نباح الكلابِ، قد تصحو جوليا في أيّة لحظة وتضع يدها على جريمتنا معًا.. وقعت يدي على روايتها فتجاوزتها بلامبالاة، وكما وضعتْ خولة الشفرة على معصمها كنتُ أضع شفرة الفجيعة على الروح المتعبةِ، وضعتُ يدي على مسجّلتها الرماديّة وعلى بعض الشرائط الصوتيّة، هذه الشرائط قد تقول أشياء مهمّة، ربّما قد تقول كلَّ شيء! لكن لا مجال للسماع. وانزلقتْ يدي إلى أسفل الحقيبة ـ الجرح، لست أدري لماذا أحسستُ أنّني قد أسحب أحشائي وجراحاتي من أسفل الحقيبة. أوّل الأمر، تردّدتُ في سحب الملفّ ـ لطالما كان يحذّرني صوت خفيٌّ عندما أكون مهدّدًا بالاحتراق، لكنّني دائمًا كنتُ أتحدَّى هذا الصوت وأحترق.. طفحَ الكيلُ ووصلتُ إلى نقطة اللارجوع، ارتجفتْ يدي وأنا أسحب الملفّ المثقلَ بالأوراق، هربتُ به إلى الحمّام بحثًا عن إضاءة وخلّفتُ الحقيبة مفتوحة!

أحمر.. أحمر.. حتى الملفّ كان أحمر، وكانت صورتي تتوسّطُ واجهته، وقلبي المسكين كان يخفِقُ بقوّة، مثل دفٌّ في أحد أعراسِ إغرم. وجثمتْ على جثّتي غصّة كئيبة، وأنا أقرأ في الهزيع الأخير من الليلِ على واجهةِ الملفّ تمامًا فوق صورتي: «ملفّ المريض» كُتبت العبارة بالفرنسيّة وبخطّ مرقون، وبعد النقطتين كتب اسمي بخطّ اليد.

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظات امتلأ الحمّام بهمس مجنون.. أسفل الصورة كان اسم بنهاشم الكامل مكتوبًا بخطّ مرقون ومضغوط، بحلقتُ في المرآة فإذا صورته تبرز مبتسمةً بل وضاحكةً. إنّه هو بعينيه الغائرتين ولحيته المتواضعة ورأسه المكوّر الأصلع الذي لا تفارقه القبّعة إلّا لمامًا.. ابتلعني إحساسٌ مبهمٌ بالغثيان، كأنَّ كلّ شيء داخلي شرع بالانهيار والتفتُّ، ولأنّ الصدمةَ كانت أكبر من أنّ يتحمَّلها قلبٌ معطوبٌ، فقد خذلتْني قدمي وسقطت على ركبتيَّ، وتقيَّأتُ إلى درجة أنّني خلتُ أنّ أحشائي ستندلع في دورة المياه دفعة واحدة، بعد أن سمَّمَتْنِي روائحُ الدسيسة التي كان يفوح بها ذلك الملفّ.

وماذا يفعل هذا الملفّ في حقيبتك يا جوليا؟

لستُ أدري، كلُّ ما أعرفه الآن هو أنّها على علم بمأساتي من صفرها إلى اليوم. وماذا بعد؟

قمّة الخيانة أن يعانقك خائِنك كلَّ يوم، أو يوهمك بحبّ كبير وهو في السرّ يزرعُ نصالَه في ظهرك، وانسحبتُ من الحمّام تفقّدتُ نوم جوليا، وعدت إلى الملفّ أقلّبُ أوراقه وأقرأُ بعضها، كانت تتحدَّثُ عنِّي وعن أوداد الذي كنتُه. هذه الأوراق لا تقولني كما أنا أو كما كنتُ، بل إنّها تصوّرني مريضًا بالمخاوف والهواجس، إنّها تتحدّثُ عن مراد آخر لا يوجد إلّا في ذهن بنهاشم. وحزَّ في قلبي ما اكتشفتُ، وتردّدتُ في اتخاذ أيِّ قرار، فاكتفيتُ بإعادة كلِّ الأمور إلى نصابها كأنّي ما قرأتُ شيئًا ولا اكتشفتُ شيئًا، وقلتُ في خاطري: خسرتُ كلَّ شيء، ربّما كانت جوليا آخر خساراتي. بعد هذه اللحظة، تقلَّصتْ هوامش الربح والخسارة، إن لم نقل إنّها انعدمتْ، ولم يعد أمامي سوى أن أواصل هذا العبث إلى آخره.

Twitter: @ketab_n

وتمدّدتُ قرب خائنتي التي كانت تغطّ في نوم عميق وهادئ. .

بإمكاني الآن أن أقتلها ببرود، مثلما قتلتُ أوّل أرنب في حياتي! أذكر ذلك جيّدًا، ربّما لأنّه عاودني في الحلم مرّات كثيرة، كان ذلك أيّام صبايَ بهذه القرية بالضبط، بعد هلاك العجوز احتراقًا، واعتزالي الناس، أو بالأحرى بعد تعرّضِي لإبعاد متعمّد من طرف أهل إغرم. . التجأتُ إلى الجبل، ولا أملك في جيبي غير عود ثقاب، وكان الجوع قد عضّني فطاردتُ ذلك الأرنب المسكين ـ الذي بكيت فيما بعد حزنًا عليه ـ ولأنّ غريزة البقاء، لا أنا، هي التي كانت تطارده، فقد تنزّلت فيَّ قوّة لا أدري إلى حدود اللحظة كُنهها، قوّة جعلتني أمسك به. ولأنّني لم أكن أملك من وسيلة لذبحه في أعالي الجبل، فقد أطبقتُ على عنقه بأسناني، وعَضضْتُ بإلحاح الجوع الذي كان يعتصر أحشائي حتى انفجرت دماؤه على وجهي وثيابي، فطرحته أرضًا. كان ينتفضُ ويهرب فتخذله أرجله ويتكوّر بنزق، ويرتجفُ، إلى أن استسلم في النهاية للموت، وأنا بالقرب منه، بالقرب من جريمتي الأولى، ذاهل أبصقُ دمه وفروته الرماديّة التي اكتظّ بها فمي. بإمكاني أيّتها الجميلة أن أفعل بكِ ما فعلتُ بالأرنب، لكنّني لن أفعلَ احترامًا لأحزاني الكبيرة، بل وسأواصل معك المسرحيّة لأرى ماذا تدبّرين لي، سأصغي لأوتار قلبي وهي تتمزّق على يدك.

Twitter: @ketab_n

(٦)

في الصباح، ولأنّني لم أنم سوى سويعات قليلة ومليئة بكوابيس مخيفة، فقد استيقظتُ على ألم حادّ يشقّ رأسي، الآلام والأحلام جعلتني ألتفتُ إلى أحداث الهزيع الأخير من الليل، كأنّها ذكرى قديمة تبزغ وتتلاشى في سماء ذاكرتي.

ناولتُ حميد مفاتيح سيّارتي، قائلاً:

ـ أريدُ منك أن تذهب الآن على وجه السرعة إلى المدينة.

ـ على الرحب والسعة.. لكن ما المطلوب؟

وأخرجتُ من الجيب الأشرطة التي أخذتُها من حقيبة جوليا مغتنمًا فرصة دخولها إلى الحمّام.

ـ أريد نسخًا لهذه الشرائط، إضافة إلى الجرائد والمجلّات الأدبيّة المتوافرة.

ومددت له المال اللازم لذلك، وهرولَ صوب السيّارة. نزع عنها

Twitter: @ketab_n

الغطاء التي تسربلتْ فيه طيلةَ مكوثي هنا. . وعدتُ مسرعًا إلى جوليا، لأحول دونها والحقيبة. بعد ساعات ستكون الشرائط في حوزتي، لا شكّ أنّها ستفضح هذا التواطؤ الخبيث وتقول بصراحة من أنا، بعد ما اكتشفتُ ما اكتشفت. كابدتُ الأمرّين من أجل إبعاد جوليا عن الحقيبة، بالكاد أقنعتها أن ترتدي الملابس المبعثرة هنا وهناك، بدل البحث عن ملابس أخرى في الحقيبة، واستعجلت الخروج لئلّا أمهلها فرصة العودة إلى أدوات زينتها في الحقيبة، أمّا حين خرجنا من الفندق فقد تنفّست الصعداء. . كنتُ أشدُّ على مذكّرة خولة بقوّة غير مفهومة، وكانت يدي اليمنى تخاصرُ جوليا، يد على القتيلة وأخرى على القاتلة، وماذا بعد؟ هي الآن تعرف كلَّ شيء وأنا أعرف أنّها تعرفُ كلَّ شيء، ولم يبق بيننا سوى تمثيلِيّة يجب على كلٍّ واحد منّا أن يُتقنها.

استغرقنا في أحاديث طويلة ومتشعّبة. كنتُ أحاول جاهدًا أن أعوج بها إلى ما يمكن أن يعمّق جراحاتي. تذكّرنا معًا أوّل ما قاد المودّة بيننا، فاندفعتْ تردّد كلمة واحدة: الصدفة! ترى أيّة صدفة هذه التي تنتهي بملفّي النفسيِّ في حقيبتك؟ لا شكّ أنّها كانت تخطّطُ لكلِّ شيء، وحتى (حبُّها) الذي لا تنفكُّ تصرِّح به وبروعته وعظَمَتِه! لا شكّ أنّ هذا الحبّ زائفٌ. ما حزَّ في قلبي أنّ تمثيليّاتها قد نجحت معي، وبالفعل أتقنتْ دور العاشقة، أوهمتني بحبّها المفتعلِ، ببكائيَّاتها الصاخبة حين يُدركنَا الوداعُ. . أقنعتْنِي دمعاتُها الشفّافة حين تسترسلُ في حديث ذي شجون عن والدها الخائن! آه، لا شكّ أنّ أحزان جوليا كحبّها زائفة.

وبنهاشم! أيعقلُ أن يخذِلَنِي؟ أيعقلُ أن يتاجرَ في ملفّي وهو على علم بأنّ الأمر يتعلّقُ بجريمة قد تقحمه في خندق، له بداية وليس له نهاية أخرى غير السجن؟ أيعقلُ أن يكون الرجل الوحيد الذي ائْتَمَنْتُهُ

Twitter: @ketab_n

على سرِّي من طينة أولئك الذين يبيعون كلَّ شيء، كلّ شيء حتى مؤخّراتِهم لقاء المال؟!

المرض والدسيسة يلوكان أضْلُعِي وسرب من الحمام صفَّقتْ أجنحتُه، فكسرتْ صمتَ الغروبِ المَهيبِ، هنا فوق هذا التلّ المكتَظِّ بالحزن والشوق و«أزير»؛ وعلى ضوء ما أبقى الغروب في هذا النهار من ذُبالةٍ، قرأتُ ما كتبتْ خولة بعد مرور عام على ارتباطنا:

«بعد زوال يوم أمس، احتفلنا معًا بمرور عام على حبِّنَا، كان يومًا من أيّام العمر كما يقال، قال لي:

ـ أعلمُ، وأُعلمك أيضًا بأنّ ما سنقوم به الآن هو ضربٌ من الجنون، لكنّها فكرةٌ عنّت لي، فكرة تعطي لهذا اليوم معنى خاصًّا.

استفسرتُ عن هذه الفكرة، فلم يُجب بل فرَّ من أمامي، غاب للحظاتٍ في المطبخ إلى أن رأيت سحائبَ البخور والندٌ تنطلق في كلّ اتّجاه، ظللتُ مشدوهة ومأخوذةً بهذا السحر الذي بدأ يستحكمُ بالمكان، ثم عاد مراد يحمل في يده شفرة حلاقة. استغربتُ من الأمر، وزادت تلك النظرات الغريبة التي حَدَجَنِي بها من استغرابي، قال:

ـ أأنتِ مستعدّة؟

ـ لمَ؟

وجلسَ على الأريكة إلى جانبي. كانت عيناه خلف سحائب الدخان تأْتلِقان بفرح عارم. ناولني الشفرة، ومدَّ لي يده اليسرى قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ سبقَ وصرَّحتُ أنّ هذا الأمر جُنون، لكنّه جنون جميل، وأجملُ اللحظات هي تلك التي نقترفها، ونعلم مسبقًا أنّها ستُوشمُ في الذاكرة.. كلّ ما في الأمر، حبيبتي، أنّنا سنتذوّق قليلاً من دماء بعضنا.. ربّما بهذه الطريقة، سيبقى في داخل كلّ منّا شيء صميميٌّ من الآخر!

تحمَّستُ للفكرة، وجرحت بحذر بالغ سبّابة يده حتى نزفتْ، وأخذتها إلى فمي، أمّا وأنا أمصّ دمه والمكان يعبقُ بروائح سحريّة، فقد أحسستُ كما لو أنّني أدخلُ في غيبوبةٍ أو أعيش حلمًا جميلاً، تمنّيتُ ألّا ينتهي. حين أخذ سبّابتي إلى فمه فقد استغرق الأمر زمنًا، أحسستُ فيه كما لو أنَّ مراد طفل يلتصق بثدْي أمِّهِ بعد عطش طويل.

وكنّا سعيدين بحماقَتِنَا تلك.. رقصنا بعد ذلك بجنون وفرح، مستسلمين فيما بعد لصخب الموسيقى وغواية البخورِ ونداءِ الجسد.

حين همْمنا بالخروجِ، طلبتُ منه أن أحتفظ بتلك الشفرة، فلم يمانع. أخذ يدي وقال:

ـ تعرفين أنّ هذا الجرح الذي خلّفته الشفرة في سبّابتك سيَلتَئِمُ بسرعة؟

ـ بالطبع.

وضع الشفرة في يدي، وقال بصوت مضطرب كما لو أنّه يخاطب نفسه:

ـ «وحدها جراحات الروح لا تندمل، بل تواصل نزيفها كلّ يوم بغير انقطاع..».

Twitter: @ketab_n

قبل الغروب بلحظاتٍ، ونحن عائدان إلى الفندق، حكيتُ لجوليا عن أولئك الذين ثقبوا قلب أوداد (قلبي)، قبل الغروب، كان في الروح متّسع للحكاية، وكانتْ إغرم رحمًا يضجُّ بروائح وأصوات مبهمة!

بعد الغروب، وبالضبط بعد أن رتَّبتُ بإتقان عمليّة إعادة الشرائط الأصليّة إلى الحقيبة وخبّأتُ الشرائط المستنسخة، خلعتُ عن جسدي القميص الأسود وأدرتُ ظهري لجوليا، وأنا جالسٌ على طرف السرير ممّا لا شكّ فيه أنّه سبق لها وأن رأت تلك الندوب التي تجثُمُ على ظهري، لكنّها المرّة الأولى التي تراها بشكل صريح، ربّما هي الآن تتطلّعُ إليها بقلق أو استغراب وربّما بشفقة لا فرق! قلت معرضًا:

ـ هذه هي الخيانة يا جوليا، لا يهمّ مَن خانَك ولماذا أو كيف فعل! الزمان كفيلٌ بمحوِ كلّ هذا.. أصعبُ ما في الخيانةِ هو ما يرشَحُ منها ويبقى شاهدًا عليها، ولا يقوى لا الزمان ولا النسيان على محوه، وهذه الندوب التي تشقُّ شعابًا في الظهر لن تمَّحي يا جميلتي، لن تمَّحي. وأعتقد أنّه لو تعلَّق الأمر بهذه الندوب لهَان الأمر.. هناك ما هو أكثر إيلامًا. إنّها نُدوبُ القلب والروح!

وابتلعنا صمتٌ بارد، شعرتُ فيه أنّ كلماتي قد وقعتْ في نفسها موقعًا غير هيِّن، وأنّ الرسالة التي كنت أقصدُها قد وصلتْ كما ينبغي.. بعد الغروب، أحسستُ أنَّ أحشائي متفحِّمةٌ، وأنَّ الصدأَ الخفيَّ يعلو ملامح وجهِي. كانت كلمات جوليا وعناقاتها وقبلها فيما بعد تتناهى إلى جسدي المنكوب باردة. كانت جوليا وقتئذ تتراءى لي كسفينة تبتعد عن جزري، تبدو حينًا ويحجبها الضباب أحيانًا.

* * *

Twitter: @ketab_n

رأيتُ في ما يرى النائم...

إنّني كنتُ مصلوبًا على شجرة التين الوارفة التي تتوسّطُ مزار سيدي موسى. بين الحياةِ والموتِ، كنت مصلوبًا أمامهم، أقصد من قاموا بصلبي ودقِّ المسامير الغليظةِ في معصميّ. كانوا منتشرين تحتي بانتظام واضح، متسربلين في البياض؛ وكانت لحاهم المتدلّية ترقص حين يبسملون أو يُحَوْقِلُون.. واهتصرني في تلك اللحظاتِ وجعٌ قاس وأنا أتأمّل بمشقّةٍ دمائي، وهي تنزلقُ بخفَّةٍ وتُعانِقُ لحاف الشجرة العجوز، ثم تنزل بهدوء، سمعتُ أحدهم يقول:

ـ لن نحسم حربنا الخارجيّة مع أعداء الله إلّا إذا حسمنا حربنا الداخليّة مع بيادق الإلحاد في بلاد الإسلام، فـ (أعدّوا لهم ما استطعتم..).

ورويدًا رويدًا، كنتُ أموتُ. سَرَتْ في أطرافي رعشة مرعبة، وانثالتْ عليَّ في تلك اللحظات صورٌ كثيرة تقترب وتبتعد، تبرق وتختفي وأطبقتُ في الحلم جفنيَّ، بالكاد استطعتُ فعل ذلك، لكنَّنِي لم أستيقظ، بل أسلَمَنِي حلمٌ إلى حُلمٍ، تناهى إلى مسامعي صوتُ بنهاشم باهتًا، كأنّه يُهاتفني قائلاً:

ـ هل هدَّدوك؟

ـ قليلاً.. رسالتان طرقتا بابي قبل ١٦ مايو، وعلى سبّورة قاعة المحاضرات في الجامعة التي أدرسُ بها، كتبوا مرارًا عبارات تهديد ووعيد..

ـ ولماذا أنتَ دون غيرك؟

ـ لأنّني أسفِّه لحاهم وأعرِّيهم بقلمي.

Twitter: @ketab_n

وطال صمته بعد ذلك، ففتحتُ عينيَّ ببطء شديد، وتطلّعتُ إليها باستغراب واضح: خولة! كانت ترتدي وزرة طبِّيَّةً بيضاء، فزعتُ لرؤيتها بقربي وأنا ممدّد على الأريكة النفسيّة في عيادة بنهاشم، فأطبقتُ جفنيَّ بقوَّة ثم فتحتهما على فضاء من الحلكة والحزن، وكان يكفي أن أبحلق في العتمة جيّدًا لأدرك أنّني استيقظتُ. مضرّجًا بالعرق والدموع، كنتُ تحسستُ بيسراي جوليا، لمستُ ظهرها الحريري العاري، فاستدرتُ وتمدّدتُ على جنبيَ الأيسر، واقتربتُ من جوليا إلى أن التصقَ صدري المبلول ببلاطة ظهرها. احتضنتها بل وشددتها إليَّ بقوّة، محاولاً أن أنسى ذلك الجرح الغائر الذي خلَّفَتْهُ تمثيليّاتها في القلب.. لكن دون جدوى!

توسّدتُ شعرها القمحيَّ. في تلك الليلة قلتُ لها:

ـ الحبّ لم يصْقلني جيّدًا يا جميلتي، ولأنّني أواصل حياتي انتظارًا لموتٍ عابرٍ يختارُني فأكونه، فإنّني لم أعرف للحبّ من سبيل. ذات صباح، سأصحو ميتًا، لن تسيل دمعة صادقة حزنًا عليَّ، ولن تتأثّرَ حياة غيري بغيابِي.. هكذا يموت الغرباء! أمّا عنكِ، فإنّي أخاف عليك من صَحْوَة الضمير، أخاف أن يتضخَّمَ إحساسُك بالذنب إذا ما تورّطتِ بشكل أو بآخر في خداعي أو اغتيالي بشكل أو بآخر، كما تورّطتُ أنا في اغتيال فراشة في حقلِها، فراشة اسمها خولة.

لماذا اخترتِ الدسيسة؟ أنا متأكّد من أنّني سأجد جوابًا في الشرائط المستنسخة، لكنّني أحبّذ أن أسمع من صمتك، الصمت بريء. لذلك فهو يقول كلّ شيء، فقُولي بِصمْتكِ كُلّي آذان صاغية..

أيّتها الجميلة النائمة، لا شكّ أنّ التقرير الطبّي قد فضح كلَّ مناوراتي، وفسَّر لك كلّ تلك الحالات الغريبة التي ألمَّت بي وأنت في

Twitter: @ketab_n

حضرتي! الآن، أنت تعرفين كلَّ شيء عنّي، تعرفين.. وأسفي! أنّني وأوداد الذي ابتدعتُه لأقول لك من خلاله كلَّ شيء، من دون أنّ تطالني نظراتك المشفقة، وجهان لشخص واحد. إنّه الجانب الحيُّ منّي، وإنّني الشقُّ الميتُ منه... جوليا أنت لم تقدّري كون عذابات الأرض والسماء قد حلَّت بي، فاستوقفَتْنِي في حقلك الملغوم وأجهضتْ آخر محاولاتي لتفريخ حبٍّ نَاضِج.

وعلى الرّغم من كلّ شيء أشتاقُ إليك كثيرًا، لا كما أنتِ الآن بين يديَّ مدانة، بل كما عرفتُكِ من قبل. تمنّيتُ لو أنّني ما مددتُ إلى أشيائِك يديَّ، لكنَّها لعنتي التي تصوّبني كلَّ مرَّة إلى وجعٍ جديد، كم جميلٌ لو أنّني لم أتذوّق شيئًا من علقم هذه الحقيقة، وبقيتُ طفلاً معلَّقًا على جدائلك ناسكًا في معراجِ جسَدِكِ العاجي!!

ومددتُ أصابعي إلى نهديْها الصلبين، كانا واقفين بكبرياء؛ أمّا حلمَتَاهما النافرتان فقد كانتا منتصِبَتَيْن كرصاصتين. تُرى هل حدَّثك الملفّ عن إغرم كما ينبغي؟

إغرم، يا جميلتي، هي أرض البداياتِ، هي أمّي الوحيدة الجديرة بأن أناديها أمّي، وإن تخلَّت عنّي ونسيتني..

جوليا.. أنا متعب أكثر ممّا تظنّين، منذ أن ولدتُ وأحزاني ترفرف عاليًا، جئت إلى الدنيا منذ البدء مطعونًا في القلب مستسلمًا لنزيف موجع لا ينقطع. فما الذي يغريك في رجلٍ خراب مثلي؟ أهو الجسد أم إحساس الشفقة، لكوني كما يُقال: «إكس بن إكس» أم أنّك ترين فيَّ مشروع عمل روائي أم كلّ هذه الأشياء مجتمعة؟

حبيبتي الخائنة! لم أكن يومًا عاشقًا حقيقيًّا، كلّ ما فيَّ كان يقودني نحو الفناء. وحدَه الجسد كان يستبقيني، الجنس هذا الوحش

Twitter: @ketab_n

الذي يرقد داخلي ويحرِّكني بحرارة لأفتضَّ المدى اللحمي لضحايايَ، كان يجعلنِي أتشبَّثُ بالحياة، فكيف للأقدار بأن تحملني بإرادة الموت وتزرع في الجسد إرادة مضادّة؟

أمَّا عنكِ، فقد اكتشفتُ الآن أنّني التجأتُ خطأً إلى مملكة خصبِك، لأنّكَ أسلمْتِنِي إلى وجعٍ لا أظنُّ أنّني سأبرأُ منه، عانقتك بصمت وأنا أتمزَّق، فإذا بي أستيقِظ الآن، وأجد أنَّ ذراعيّ فارغتَان إلّا من الحزن، فأين رحتِ؟ هكذا تبخَّرتِ أنتِ أيضًا كما تتبخَّر أفراحي القليلة، ولم تبقي لي سوى وجع آخر يضاف إلى القائمة الطويلة.

وراودتني على نفسي غفوة جميلة ولذيذة، وأنا أداعب زَغَبَ عانَتِهَا، ولا أذكر بعد ذلك سوى ذلك الصفير الغريب الذي صكَّ أذنيَّ، والذي قيل لي في ما مضى أنّه صوتُ الموت الذي ينادي به ضحاياه.. وقلتُ للصوتِ في سرّي (لبّيك)! لكنّ الموت لم يأتِ وظلّ الصوتُ يضجُّ في أذنيَّ إلى أن ذبتُ في صخبه، واستسلمتُ للنوم!

* * *

صباحُ الخير يا إغرم..

صباحُ الخمر والسجائرِ الثقيلةِ والضلوعِ العليلة..

جوليا تأخذ حمَّامَها الصباحيَّ، في حين كنت أقلِّبُ أوراق المجلّاتِ والجرائد التي استقدَمَها حميد بسرعة، كما لو أنّني أفتِّش فيها عن شيء يخصُّني. كنتُ أتّكئ على الأريكة مكدودًا، أكرع زجاجة الخمر وأحاول جاهدًا أن ألملمَ أفكاري التي كانت تتطاير كدخان سجائري في كلِّ اتّجاه. وكان فيَّ من الحزن ما يكفي لقتلي، لولا أنّني أغرقتُ القلب خمرًا. قرأتُ في إحدى الجرائد ما يلي: «تمكَّنت

Twitter: @ketab_n

عناصر الأمن الوطني صباح يوم أمس من تفكيك خليّة إرهابيّة مكوّنة من أحد عشر فردًا، وقد اعترف بعضهم بأنّه تلقّى تدريبات نظريّة وميدانيّة بالعراق وأفغانستان ودول مجاورة...».

لم أستطع أن أواصل القراءة، لأنّ تلك العبارات المكرورة كانت تجرحُ أشياء كثيرة داخلي، وتوقظ جراحات أخرى لم ولن يكتمل اندمالها. وعرجتْ على البال صورة مصطفى، لا كما عرفتُه في السنوات الأخيرة، بل كما تعرّفتُ عليه أيّام انغلقتْ في وجهي جميع الأبواب إلّا بابه.. بأيِّ ذنبٍ أخذَ مصطفى والعشرات ممّن قضوا نحبهم في تلك الليلة السوداء في البيضاء! عندما يضيق هامش الحوار الفكري الحرّ أو يختفي، تنفتح آفاق العنف الأشدّ دمويّة.

وانسحبتْ جوليا من الحمّام، وهي تدير فوطة ورديّة على جسدها. جوليا أكثر من جميلة، كاملة كخوخ إغرم، شامخة كجبل عيّاش ومناورة كطائرة حربيّة. جوليا الآن، تعرف عنّي كلَّ شيء، وأنا أعرف أنّها تعرف عنّي كلَّ شيء. أنا في نظرها خربةٌ من الحزن والضياع قد تصلح لمغامرة أدبيّة، وهي في نظري جزيرة التجأت إليها، فإذا هي حوت نائم استيقظ فجأة وأسكنني بطنه.

ـ صباح الخير.. حبيبي.

(صباح الحزن والبكاء. أيَّ خير يرجوه من استهلَّ يومه بالخمر، أيّتها البهيّة).

ـ صباحك ورد وعسل.

ـ كيف حالك؟ لا تقل لي بأنّك لا تزال مريضًا.

(مريضٌ ومريضٌ بك أكثر، لا مرض غير مرض الروح حين تكون معطوبة، فإنّ القلب والجسد يكونان مفتوحين على هاوية سحيقة).

Twitter: @ketab_n

ـ أحسُّ أنّني بدأتُ أتماثل للشفاء، وإن لم يبرحني إحساس قاسٍ بأنّني بدأتُ أشيخ.

وتأمّلتُ ساقيها الذهبيّتين المكتنزتين وهما تتّجهان نحو علبة الأدوية التي لا تفارق حقيبة جوليا. أخذتْ حقنة وزجاجة دواء، واقتربتْ قائلة:

ـ لا تزال شابًا.. وما مرضُك سوى غيمةٍ عابرة! ألا تنظر إلى نفسك ونحن في غمرة الجنس كيف تبدو شرسًا وضاريًا؟

وجعلتُ أفكُّ زرَّ القميص وأشمّر عن ساعديَّ، وأنا أراقبها مقبلة كنيزك نحوي. استرسلتْ:

ـ الجنس، يا حبيبي، هو الذي يحدّدُ عمر الإنسان، وأؤكّد لك أنّك في ريعان شبابك، بل وأقوى. لا أدري كيف أشرح لك الأمر، لكن تأكّد أنَّك مختلف عن باقي الرجال، حينما تمارس الجنس تستحيل إلى قوّة مزلزلة لذيذة، إلى طوفان جامح.

عندما وخزَتني الحقنة، كنتُ أتأمّل عينيها الزرقاوين، علَّني أكتشف ما يضمرانه، فإذا بهما يكتظّان دمعًا، لكنّها لم تقو على البوح بعبرة، بل غالبتْ ذلك بابتسامة جدّ مفتعلة. قلتُ:

ـ أتشتكين من أمر ما؟

واستلّتْ الحقنة من ساعدي بمهارة قاتل يستلُّ مديته من لحم الضحيّة. انتصبتُ واقفًا، فانتصبتْ أمامي أطياف ورؤى، بالكاد تمالكتُ نفسي، واستطاع هذا الجسد العليل أن يحملني. وقفتُ أمامها في انتظار أن تخذلها العبرة، لكنّها لم تبكِ بل فرّتْ إلى عناقي هامسة:

ـ لا شيء حبيبي، لا شيء.

Twitter: @ketab_n

أحسستُ تلك اللحظات، وهي تشدُّ بأظافرها على القميص بقوّة، أنَّ أشياء كثيرة توجعها، وأنَّ ضميرها يعاتبها.. ولا أدري لماذا وكيف شعرتُ في تلك الأثناء أنّها تبتعد كلّما شدَّت عليَّ بقوّة. أغمضتُ عينيَّ ورأيتها في فقّاعة صابون كبيرة جدًّا تغازلها الرياح. تعلو الفقّاعة أكثر فأكثر، وفي لحظة مجنونة تنفجر وتختفي، وتختفي جوليا أيضًا، ولا يبقى في الصورة سوى ذلك الطفل الشقيِّ الذي كنتُه، يحرّك بحماس رغوة الصابون بالجعبة القصبيّة وينفخ فيها، فإذا هي فقّاعات كثيرة وجوليات كثيرة، لكنّها كلّها كانت سريعة الانفجار، سريعة الزوال.

وفضَّ عناقنا نقرٌ خفيفٌ على الباب، اتّجهتُ صوبه بخطى متثاقلة. فتحتُ الباب، فطالعني وجه حميد الوديع. كان يحمل في يده برقيّة صفراء.

ـ صباح الخير سي مراد.

ـ صباح الخير، كيف الحال؟

ـ الحمد لله.

ثم مدَّ لي البرقيّة، مردفًا:

ـ وجدتُ هذه البرقيّة قرب الباب، وعليها اسمك.. لا شكَّ أنّها تخصُّك.

وكمن يتلقّف طردًا ملغومًا، تلقَّفتها.

ـ شكرًا، حميد.

ـ لا شكر على واجب.. إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

استغربت من أمر هذه الرسالة، لأنّها لم تكن تحتوى على أيِّ

Twitter: @ketab_n

عنوان، سواء عنوان المرسل أو المستقبِل، ممّا يعني أنّ صاحبها أوصلها بنفسه إلى باب الفندق، كان اسمي وحده متراميًا على ظهر البرقيّة بخطّ رديء، وكأنّه كُتب بانفعال، وبانفعال كنتُ أمزّق الطرف العلويّ للبرقيّة، ثم سحبتُ الورقة البيضاء وفتحتُها. كانتْ البسملة أوَّل ما واجهني، كُتبتْ بخطّ كوفي غليظ على صدر الورقة، اتّجه بصري بعدها وبشكل عفوي إلى رأس الورقة، فإذا الرعشة تداهمني مثلما داهمتني العبارة: «الجبهة السَلَفيّة الإسلا...».

Twitter: @ketab_n

(٧)

لم تقل الرسالة شيئًا جديدًا..

قالت «سنقتلكَ»، وإن بطريقة أكثر التواء وعجرفة.. حين اقتربتْ جوليا دسسْتُ الرسالة بحركة خفيّة في جيبي.

ـ ما الأمر؟ أرى وجهك ممتقعًا!

ـ لا.. لا شيء، إنّه التعب والمرض فقط.

وأغلقتُ الباب بإحكام، وأنا أتخيّلهم خلفه بسواطيرهم المضرَّجة بالحزن والدم.. رأيتُ عيونهم التي تشتهي الدماء، وخفتُ للحظات أن يأخذني سيف ماكر غيلةً، لا.. لا يجب أن يتسلّل الخوف إلى قلبي. فالخوف هزيمة إن لم نقل إنّه صورة مصغّرة للموت.

والتجأنا إلى السرير، وحاولتُ أن أنسى ما خطّته في القلب من جراح جديدة. أعرف الآن، بعد هذه الرسالة، أنّ عيونهم تحصي خطواتي ببراعة، وأكاد أجزم أنّهم يردّدون الآن «والزانية والزاني..». أيّ ذنب اقترفته ليتبعني هؤلاء إلى هنا، إلى قبلة حنيني وموطن

Twitter: @ketab_n

أحزاني. جوليا كانت تجلسُ على حافّة السرير، وقد انزاحت الفوطة الورديّة على فخذها فتوسَّدتُه، في حين شرعت هي تداعب شعري بأصابعها القمحيّة الرقيقة، وفي غمرة الرؤى والخيالات التي كانت تطوفُ بي، وربّما بسبب الوضعيّة التي اتّخذتُها على السرير وأنا أتوسّد فخذ جوليا، انبثقتْ صورة «حياة» التي تعوَّدتْ في ما مضى أن تفرشَ لي فخذها لأتوسّدَه، اندفعتْ ذكرياتها كأنّها لم تغب ولا تلاشتْ في صخب الحياة، قلت لجوليا باضطراب واضح، وفي لحظة أشبه بالهذيان:

ـ هل تعرفين حياة؟

وقهقهتْ مجيبة:

ـ أنا؟ أنا أعرف كلَّ شيء، ولا أعرف شيئًا في الوقت نفسه!

نزلتْ عليَّ عبارتها قاسية جدًّا. نعم، الآن أنتِ تعرفين كلَّ شيء ما دام بحوزتِكِ ما بُحتُ به لبنهاشم. قلت متجاوزًا، ربّما لأنّه كان يسري داخلي حنين مبهم لحياة وذكرياتها:

ـ إذن، سأطلعك على فصول من حكايتها، أو بالضبط حكايتي معها.

ـ تفضّل.

ونزلتْ بشفتيها على رأسي، وقبّلتني بِوَلَه موجع:

ـ حياة هذه، برقتْ صورتها للتوّ في الذاكرة، لأنّها كانت أوّل امرأة أتوسّدُ فخذها تمامًا، كما أتوسّد فخذك الآن.. كانت متعبة كأوراق الخريف وبريئة كإناث العصافير. تبًّا.. لم أجد الخيط الأوّل للحكاية!

Twitter: @ketab_n

ـ لنبسِّط الأمر.. ما الذي كان يجمعكما؟

وقلتُ باندفاع:

ـ السرير، هو أوّلُ ما وحّدنا، كنتُ في أوج المراهقة حين جرّتني رغباتي إلى وكر بغاء، لم أطرق الباب المفتوح على مصراعيه. لا أنكر يا جميلتي أنّني كنتُ ممتلئًا بتوجّس مشوب بالخوف، اخترقتُ بتهوّر حلكة المدخل الذي اقتادني إلى البهو المضيء، وأنا أضع يدي على العازل الطبّيِّ الذي ينام كفضيحة في الجيب، إلى أن استوقفتني كلمات سيّدة عجوز:

ـ يا أنت.. ماذا تريد؟

وأخذتْ نَفَسًا عميقًا من السيجارة الرخيصة التي تموتُ بين أصابعها، أجبتُها بمكر:

ـ أنتِ أدرى بما أريد..

وانفجرتْ ضاحكة، كأنَّ عبارتي وقعتْ في نفسها موقعًا حسنًا، فأجابت ساخرة:

ـ إذن، أنت تريدني أنا؟!

فتطلّعتُ إليها باستغراب ممزوج بالاشمئزاز، فأردفتْ ضاحكة:

ـ لا تخف أيّها الرجل الصغير، ألديك مال؟

ناولتها النقود، وأومأت لي بسبّابتها إلى باب موصد قائلة:

ـ هناك.

وهناك، تعرَّفتُ على حياة، بعد أن دخلتُ هاجمتني عتمة المكان، لم تكن في تلك الغرفة من إضاءة سوى تلك الشمعة اليتيمة التي تبكي وتحترق في صمت، وقرب الشمعة على سرير أبيض صغير

Twitter: @ketab_n

كان يتمدّد جسد ذهبي، هو جسد حياة. اقتربتُ بخطى مضطربة من السرير إلى أن جلستُ على طرفه، فالتفتتْ إليَّ.. كان واضحًا أنّها تكبرني ببضع سنوات، لكن كان في تفاصيل وجهها شيء ما شدَّني إليها، صاحتْ بتذمّر:

ـ ماذا تنتظر؟ أتنتظر أن أخلع عنك سروالك؟ أتنتظر أن أفعل؟

ولم أستجبْ ولم أجبها حتى.. بل جعلتُ أتأمّلُ وجهها الذاوي بهدوء، تنقضُّ عليه من حين لآخر ضحكات العجوز التي تنفجر صاخبة ومجلجلة، ثم تنحصر بسرعة. مدَّت أصابعها تفكُّ أزرار السروال فاستوقفتها واضعًا يدي على يدها. تأمّلتُ وجهها للحظات، كانت جميلة جدًّا وحزينة، بل وكان الحزن يلبس وجهها، شعرتُ أنّها لا تستحقُّ ذلك المكان، وأحسستُ كذلك أنّني مذنب. كان وجهها يقول ذلك، دون أن تفصح عنه. مددتُ يديَّ إلى ملامحها وداعبتها برقَّة، خبَّرتها بأنّها غير ملزمة بتلبية رغباتي، وأنّني لن أطالب بالمال الذي دفعتُ. حاولتُ أن أستدرج حزنها بكلماتي، وشرعتْ هي بخلع ثيابي واستدراجي إلى الجنس.. في قمّة اللذّة وأنا أنزل على جسدها بعنفوان مبتدئ في الجنس، بكتْ.

أمّا وأنا أرتدي ثيابي، فقد قفزتْ إليَّ وعانقتني بحرارة، قائلة:

ـ أرجوك.. زُرني مرّة أخرى، عد ولن تدفع فِلسًا، لستُ أدري لماذا أنت دون غيرك. أحسُّ أنّني بحاجة إليك.

ولم أفهم سرَّ تعلُّقها بي ولا سرَّ بكائها إلّا في ما بعد.. حين خرجتُ، شعرتُ بقوى غامضة تعيدني إليها. أكان الحبّ أم التعاطف؟ لا أعرف.. وضحكتُ ـ كلُّ ما أعرفه أنّني أخمدتُ يدي في الجيب لأجد العازل الذكري، وقد نسيتُ استعماله.

Twitter: @ketab_n

وضحكتْ جوليا قائلة:

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ لا شيء، جمعتنا الأحزان. كنتُ آخذ من وقتها الليليّ ما يسعفُ لأتوسّد فخذها وأستثير أحزانها، إلى أن تبلّلَ وجهي مدامعُها ونذوب فيما تبقّى لنا من الوقتِ جنسًا وحنينًا إلى أشياء، يعرفها كلُّ واحد منّا على حدة..

ـ هل أحببتَها؟

ـ نسبيًّا، العجيب أنّني لم أرها إلّا من خلال ما تسمح به الشمعة الذابلة، لذلك لم أحفظ من ملامحها سوى حزنها وذبولها.

ـ وكيف كان فراقكما إذن؟

ـ لم يحدث بيننا فراق بالمعنى الحقيقي، اختفتْ هي بين عشيّة وضحاها. بحثتُ عنها طويلاً في شوارع تلك المدينة المزبلة، في أزقّتها ومقاهيها وحاناتها، حتى دور البغايا طرقتُ بابها دارًا تلو دار، إلى أن يئستُ وتأكّدتُ بأنّ ثقبًا من ثقوب الحياة السوداء قد امتصّها، وبقيتُ ربّما لسنوات قليلة أعيش على أمل أن تجمعني بها صدفة مجنونة!!

ـ ألا زلتَ تنتظرها؟

ـ الآن؟.. لا. لكنّها لا زالت تبزغُ من بين شقوق الذاكرة كلّما توسّدتُ فخذ امرأة أو تطلّعتُ إلى شمعة وحيدة. حين كبرتُ قليلاً استنتجتُ أنَّ حياة تختلف عن أغلب النساء في بلدي، وأنّهنَّ لا يختلفن كثيرًا عن شمعة حياة، هنَّ أيضًا يمتنَ في صمت وتدرّج حين تكتظّ بهنّ الأنوثة وتحترق فجأة، وتنسلخ عنهنَّ شراهة الجسد، ولا

Twitter: @ketab_n

يبقى منهنَّ سوى أنوثة ضامرة يسارعن إلى تكفينها في الجلابيب الفضفاضة.

وتطلَّعتُ إلى جوليا، ومددتُ يدي إلى الفوطة وفككتُ عقدتها، فسقطت بسهولة، وواجهني ناهداها المستفزّان، أزاحتْ رأسي عن فخذها وانتصبتْ واقفة، وعارية إلّا من أسراري وأحزانها.. تمشّتْ في الغرفة عارية، وهي تضحك وتقلّد عارضات الأزياء، لا شيء يقلق صحوها، حتى نظراتي لا تقلقها، وأنا أدقّق في تفاصيل جسدها من انثناءات ردفيها إلى ثروة نهديها، أخذتْ زجاجة الفودكا وجعلتْ تكرعها، لستُ أدري لماذا كدتُ أجنُّ وأنا أواجه هذا الجسد الماجن الخائن.. نعم، لأنّه فعلاً خانني ولم يبح بسرّ صاحبته.

ونهضتُ ورغباتي تفور وتجتاح أوردتي فتملأها دمًا، وأنا أفضُّ عنّي كلَّ زرٍّ، كلَّ شيء يمكن أن يلجم جسدي أو يحول دوني ودونها. وكالعنقاء انبعثتُ من رماد المرض.. أمّا هيَ، وقد رأتني مقبلاً، فقد وضعت الزجاجة وواجهتني بكلّ ما في جسدها من طيش، ومدَّتْ أصابعها إلى أنفي مداعبة، فكسرتْني..

ـ أحبّك يا حصاني.

الآن، أعرف أنّها تعرفُ عن خولة الشيء الكثير، هذه المداعبة والعبارة التي تردفها ليست مصادفة، وأن ألتقيها في المطار وهي تضعُ عطر خولة المفضّل ليس مصادفة كذلك.. قبّلتها، حاصرتها بكلِّ ما فيَّ من عطش إلى الجسد، فتراجعتْ خطواتها فتعثّرتْ بالطاولة، ثم ما انفكّتْ أن تمدّدتْ فوقها، حتى إنَّ زجاجة الفودكا سقطتْ لكنّها لم تنكسر، انفرجتْ شفتاها ثم انكمشتْ مذعورة.. سحبتها إلّا أنّها التصقتْ بأرضيّة الغرفة، فتمدّدتُ فوقها وأنا أتخيّلهم في مكان ما قريب

Twitter: @ketab_n

يردّدون: «واقتلوا الزانية والزاني».

والتحمنا، كانت تتأوّه بعمق ووجع، وكان حزني يكتظّ بي، فأجاحها وتجتاحني زرقة عينيها. في ذروة الشهوة، في تلك اللحظات التي يصاب فيها الجسد والروح باختلال موقّت، تمنّيتُ لو أنّني أسحق خرومها. في لحظات الاحتراق تلك، قفزتْ خولة من بين ثقوب الذاكرة. كانت عارية، فبدا جسدها بتماسكه واتّساقه حلمًا مستحيلاً..

جوليا تملأ الغرفة بفحيحها المجنون وتأوّهاتها، وتشدّ بيديها على ذراعيَّ، وتتأمّلُ بعينين نصف مغمضتين وجهي الذي ينزُّ عرقًا. كنتُ غائبًا أكابد تلك السعادة الطارئة، تلك اللذّة القارصة التي تأسر الجسد إلى أن تقطّرت حمرة غامضة على نهديها، قطرة تعقبها أخرى، وأنا مشدوه لا أبالي لصوت جوليا وهي تستوقفني، فقد كنتُ أقرب إلى الحلم أو الهلوسة منّي إلى الواقع، ولم أكن أملك من أمري سوى تقفّي هذا الجنون العذب، ليتني أقتلكِ جنسًا.. آه ليتني أفعل!!

كنتُ مأخوذًا بسحر الأحمر الذي يعلو صدرها ويتضخّمُ شيئًا فشيئًا، وبالكاد سمعتها حين صاحتْ:

ـ مراد.. أنتَ تنزف.

وكنتُ أضرب كصاعقة جدرانها اللحميّة، وأتذكّر خولة، خولة...

في كلّ ضربة، كنتُ أسمع اسم خولة يتردّد داخلي..

خولة..

خولة..

إلى أن ذبلتْ جذوة الشهوة. وقتها كانت القطرات الحمراء مثلي

Twitter: @ketab_n

تنسحب من جسدها، قطرة أسفل الصدر وأخرى قرب السرّة وثالثة فوق العانة و. . .

وسمعتُ نقرًا على الباب كان نقرًا مستفزًّا ومخرّبًا إلى درجة لا تطاق. .

مرحبًا، مرحبًا. . جئتم لقتلي! إذن فلتفعلوا يا أعداء الحياة، سأستسلمُ لموتي دون أدنى مقاومة. . دقّاتٌ أخرى ونحن عاريان على بساط من الشهوة، انسحبتُ بسرعة إلى الحمّام. حافي القلب كنتُ، وكانت التناقضات تنتعلني، رشقتُ وجهي بالماء طويلاً دون أن أبالي بالطرْق المتكرّر على الباب، وبالكاد كبحتُ لجام النزيف. .

استيقظ الطرْق على الباب مرَّة أخرى، ربّما هم بكامل وحشيّتهم ينتظرون أن أنزف أكثر، ارتديتُ ملابسي، بينما انسحبتْ جوليا إلى الحمّام لتنظف (سيفها) جسدها ممّا علق به من دمي.

وأنا أتهوّر وأضع يدي على قبضة الباب، تخيّلتُ أشكال الموت التي قد تكون على موعد معي خلف الباب، رصاصة باردة أو طعنة محرقة أو خطف وصلب لا فرق!! لكنّني في اللحظات الأخيرة، وأنا أسحب الباب، قلتُ في سرّي: لن يكون الموت بالبساطة التي تجعلني أتوقّعه.

وانفتح الباب على خفقة قلب قويّة. .

ماذا تبقّى منك يا أوداد؟ خفقات قلب قليلة مثل هذه، وتموت. .

تموت.

* * *

وجدتُ نضال خلف الباب. بعد أن يئستْ من الطرْق جالسة على

Twitter: @ketab_n

حقيبتها، ربّما هي مثل جوليا تحاول قرصنة الذاكرة..

ـ أعرف أنّ وجودي هنا يقلقكَ، لكن صدِّقني ولو لآخر مرَّة، لا أجد لحياتي من معنى الآن. كلُّ الأشياء الجميلة تبخَّرتْ إلّا ذكراك، فلا تحرمني منك.. أرجوكَ، سأرضى منك بالقليل.

ـ نضال، لقد جئتُ إلى إغرم هاربًا من وجع الذاكرة، جئتُ لأرتاح فإذا الذكريات تتبعني إلى هنا، أرجوكِ استوعبي قدري. أنا أموتُ تدريجيًا، وإن لم تحملك الرأفة على ذلك، فقدِّري خطورة ما تقومين به.

ـ دعك منِّي، وقل لي ما الذي يؤلمك يا مراد، لطالما كنتَ غامضًا.

ـ لا.. لا يهمُّ.. الأهمّ أنّني أتهشّم شيئًا فشيئًا.

ـ على أيّ حال..

وتراجعتْ خطوات للوراء، كانت ذابلة العينين، مهيضة الجناح، ثم أردفتْ:

ـ كما قلتُ، سأرضى بالقليل، ورأيتُكَ تكفي.. لقد حجزتُ لنفسي غرفة في الفندق وسأمكثُ فيها أيّامًا قليلة، أظنُّ أنّ الأمر لن يزعجك في شيء.

واستدارتْ.. حملتْ حقيبتها، ثم بدأتْ تصعد السلالم بتثاقل، ربّما لأنّ الحقيبة كانت ثقيلة، وربّما لأنّها كانت تنتظر أن أستوقفها. كنتُ مأخوذًا بتأمّل ردفيها المكتنزين قبل أن تستدير بشكل مفاجئ، وتقول:

ـ مراد.. أنا آسفة على الإزعاج.

Twitter: @ketab_n

وأغلقتُ الباب، أحسستُ أنّني كنتُ فظًّا معها أكثر ممّا يجب، هرولتُ صوب بذلة أخرى ارتديتها قبل أن تخرج جوليا من الحمّام، ثم أخذتُ مذكّرة خولة وهربتُ إلى إغرم. حين كنتُ أنزل سلالم الفندق، فتحتُ المذكّرة وشممتُها بعمق، كأنّني أقتفي فيها روائح خولة.

أنا آسف، لأنّني تركتكِ تتقدّمين إلى الموت، فوحدهم العشّاق ـ كما قال درويش ـ يحسبون المياه مرايا وينتحرون.

خولة! أنا وحيد في مكان ما، كنتُ أعتقد أنّني سأستشعر فيه الوحدة، على الرّغم من أنّني خلّفتُ في الفندق سيّدتين في غاية الجمال، فالوحدة ليستْ دائمًا ذلك الإحساس القارص الذي ينتابنا حين ننعزل عن الآخرين، أو تجبرنا الحياة على ذلك! أنا أتأبّط مذكّرتك التي أغمدتِها فيَّ قبل أن ترحلي، المذكّرة التي أورثتْني حنينًا لا ينطفئ إليك.

خولة! يقول أعداء الحياة بأنّهم سيقتلونني، فمتى سيفعلون؟ أنا متأكّد أنّهم هنا في مكان ما يرصدون خطواتي، وربّما يشحذون سيوفهم أو يلمّعون مسدّساتهم، ويصيحون بدونكيشوتيّة: حيَّ على الجهاد.

تعبي الآن تضخّم أكثر ممّا ينبغي، وأحزاني لا تُطاق.. وأظنّ أنّ الوقتَ قد حان لتعرفي سرًّا طالما كنتُ أضمره أيّتها الشهيدة: أنا لقيط، أنا (ولد الحرام). هذه الحقيقة التي لم أجرؤ على إخبارك بها هي أمُّ مصائبي كلّها، تمنّيتُ في تلك الأيّام الجميلة، ونحنُ متوحّدان في سرير واحد، أن أقصَّ عليك عمَّن ثقبوا قلبي بمساميرهم الغليظة، وأخمدُ بعدها وجهي وأحزاني بين نهديك إلى أن أشفى أو أموت!

حبيبتي، إليك حيثُ أنتِ...

أنا حزينٌ كليلة ماطرة، هنا في هذه القرية وجدتُ نفسي أوّل ما

Twitter: @ketab_n

أدركتُ أنّني آدميّ، سمعتُهم يقولون عنّي في ليالي الشتاء الماطرة، حين يجمعهم البرد حول الفرن: قد يكون ابن جنّيّة، لأنّ البلاد لم تعرف من قبل من رمى بفلذة كبده إلى أرض خلاء. الإنسان لا يولد حين يبصقه رحم إلى الحياة، بل يولد حين يقوى على التذكّر، ويموتُ حين يبالغ في ذلك.

كبرتُ كوعلٍ بين أجراف الجبل الحادّة، حرًّا طليقًا، ولهذا السبب أطلقتْ عليَّ القرية اسم أوداد، والتي تعني «الوعل» بالعربيّة.. لكنّهم ظلّوا يتوجّسون منّي خيفة، بل وحسبوني لعنة سُلّطتْ عليهم. لذلك أكثروا من تقديم الذبائح لـ «رجال البلاد»، لكن رجال البلاد كانوا يحبّونني فقط، لأنّني كنتُ أشعل الشمع ليلاً حول قبورهم، وأشتري بالقطع النقديّة الصفراء التي يخلّفُها الزوّار حول قبورهم، أشتري الحلوى وأطرحُها حول أضرحتهم علّهم يأكلونها.

رجال البلاد كانوا جميلين في صمتهم المهيب، وكنتُ أحسُّ أنّهم يحبّونني، لأنّني أكسر الصمتَ المطبق على مزاراتهم بكلماتي وخربشاتي على جنبات قبورهم، وكان منتهى حلمي وقتها أن أقول «أمّي» لامرأة تستحقُّها، كنت أجلس الساعات الطوال في الطرق التي يسلكها الوافدون إلى إغرم، وأطيل النظر في أعينهم، لعلَّ أحدهم يلتفِتُ إلى ملامحي أو يسألني من أنت؟ لكنّهم كانوا يمرُّون والصمتُ اليابس كلحاء الشجر يغلّف وجوههم.

هكذا، كِنتُ أكبرُ شيئًا فشيئًا، وحلمي البسيط يموتُ يومًا بعد يوم إلى أن اضمحلَّ واختفى يوم حاول النهر اغتيالي.

لا شكّ أنّك تتساءلين، وما نفعُ هذا الكلام؟ سأجيبك، كلُّ ما أردتُ هو أن أحيطك علمًا بأنّني ولدتُ خاسرًا، وما حياتي إلّا

Twitter: @ketab_n

استمرار بشع لهذه الخسارة.. أمّا أنا، فلن أسألكِ لماذا انتحرتِ؟ فهذا سؤال بليد، كلانا يعلمُ لماذا انتحرتِ، لكنّني سأسألك لو لم تنتحري ما الاسم الذي كنتِ ستختارينه لطفلنا، الذي ابتلعه الموتُ في بطنك؟ قولي. فأنا أسمع كركراتك الساخرة تنبعثُ من مكان ما. أما زلتِ حين يعضّك الحبُّ في سرَّتك ـ كما تقولين عادة ـ تداعبين أنفي وتصيحين: أحبّك يا حصاني، أحبّك.

اخترقتُ المضيق الذي يشطر الجبل إلى نصفين، مررْتُ بضريح سيدي عيسى، وأطلتُ التأمُّل في قلعة الرومي التي تهدّمتْ أجزاء كثيرة منها، وصحتُ بلامبالاة:

ـ ها أنا جئتكم، فافعلوها وخلّصوني!

فلم يجبني سوى الصدى الذي تردّد بقوّة مجنونة..

ـ ها أنا أسلّمكم جسدي..

وكنتُ أنتظرُ رصاصة لا تخطئ، لكن بلا فائدة، فالموتُ دائمًا مخاتل يأتي من حيثُ لا ندري. وانتهيتُ إلى «أغبالو نتامجا»، وتعني بالعربيّة عين «تامجا». لم تتغيّر هذه العين أيضًا، لا تزالُ كما عهدتها تصبُّ في بركة مائيّة قريبة، كانت هذه العين مسبح القرية في ما مضى، حتى نساء القرية كنَّ يغتسلن فيها، ورغم أنّهنَّ كنَّ يشدّدن الحراسة حين يقمنَ بذلك، إلّا أنّني كنت، ببراءتي وخبرتي العميقة بمسالك الجبل، أتسلّلُ إلى حيثُ لا يرينني، وأراقبهنَّ ببراءة مشوبة بكثير من الفضول.. أراقب نهودهنَّ الممتلئة وأردافهنَّ المكتنزة وهنَّ يضحكن ويتغامزنَ، وفي كثير من الأحيان يتراشقن بالماء. أذكر جيّدًا هذه الصور، ربّما لأنّها كبرتْ معي، أذكرها بلذّة موجعة.

تطلّعتُ إلى السماء. كان قرص الشمس يرقص في كبِدها، اقتربتُ

Twitter: @ketab_n

من البركة، انحنيتُ وأخذتُ القليل من الماء بيدي، كان باردًا جدًّا. . أمّا ذاكرتي، فقد كانت تهتزُّ أمام البركة وترتجف. فككتُ بحمقٍ أزرار القميص وتجرّدتُ من ملابسي، ثم أغرقتُ قدميَّ في الماء، وجعلتُ أتقدَّمُ شيئًا فشيئًا، كما فعلتُ قديمًا حين حاولتُ اجتيازَ السيل فابتلعني. في كلِّ خطوة، كنتُ أغرقُ أكثر، حين بلغ الماء منّي السرّة، داهمتني رعشة غريبة وتعالتْ أنفاسي، كان إحساسًا مثيرًا يحفل باحتمالات موت خرافيّ. وحين انتهيتُ إلى قلبِ البركة، أغرقتُ رأسي في الماء وأطبقتُ جفنيَّ مستسلمًا لذلك العدد الكبير من الأفكار، التي كان يضجُّ بها ذهني. استسلمتُ بعد ذلك للماء، حين طفوتُ وكان وجهي غارقًا. طفتْ كذلك على سطح الذاكرة خصلاتُ العجوز، كانت حمراء كزغب الذرة، تذكّرتُ وجهها اليابس الذي خرَّبته التجاعيد، فحاولتُ أن أفرَّ من هذه الصورة عندما سحبتُ رأسي من الماء، تطلّعتُ إلى الأعلى، فلم أرَ سوى الجبل كما ألفته شامخًا صامتًا.

أغرقتُ رأسي في الماء مرَّة أخرى، أغمضتُ عينيَّ بقوّة، فداهمتْنِي خيالات أخرى مفزعة، تخيّلتهم يتحلّقون كاللقالق حول البركة، تخيّلتُ زعيمهم يصيح بالجلّاد:

ـ قلْ باسم الله وتوكّل عليه. .

فيهزُّ بندقيَّته، يحشوها ثم يصوّبها نحو الظهر. انكمش جسدي، تخيَّلتُ الدماء تنفجر من ظهري، وتفجِّرُ تلك الندوب التي خطَّتها قضبان صفيّة الملتهبة، ثم رأيتُ دمائي وهي تنتشر كفضيحة في البركة، وأنا أطفو جثَّة هامدة. استبدّتْ بي قشعريرة مريرة، كأنّي أعانق جثّة لا وجه لها. تذكَّرتُ مقولة لستُ أدري أين قرأتها: «كدتُ أموتُ حين نسيتُ أن أتنفّس».

Twitter: @ketab_n

سمعتُ خشخشة خارج البركة، أو تهيّأ لي ذلك! صوتٌ أقرب إلى وقع حوافر حصان يقترب، هدأ الصوت، فعمَّ المكان صمتٌ بارد. المخيف في الصمتِ دائمًا هو أنّه لا بدّ وأن يسلّمك إلى صوت، قد لا يكون مرغوبًا فيه. وكدتُ أموتُ، لكنّني تذكّرتُ..

تذكّرتُ أن أتنفّس، فاندفعتُ من البركة بقوّة وصخب...

أحسستُ، في تلك اللحظة واللحظات التي تلتها، أنّني أعيش حلمًا هو نفسه الإحساس الذي داهمني مرارًا في المنام، والذي همس لي في السرّ أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد حلم. أوّل الأمر، رأيتُ ساقيْ حصان، كانا يرقصان بشكل ما، أو كأنّهما يراوغان شيئًا ما خفيًا، وتملّكني الذهول أمام تلك القدم العاجيّة الحافية التي تتدلّى، تتبعّتها فأسلمتني إلى الثوب الأسود الذي ينسدلُ إلى حدود الركبة، ودون صبر أو انتظار تطلّعتُ إلى وجهها.

وكما لو أنّها تتأمّل الوعول في أعالي الجبال، كانت تتطلّع إلى الأعلى وهي تشدّ بكلتا يديها على صهوة الحصان. لهنيهات توقّف الزمن أو كاد. توقّف كلّ شيء.. هنيهات قليلة من الهدوء والصمتِ المطبق، خفتُ أن تكون مجرّد هلوسة أو وهم، حتى إنّني في تلك اللحظات بدأتُ أشكُّ إن كنتُ مستيقظًا أم لا، لولا أنّني تذكّرتُ أنَّ أحلامي كأيّامي لا تكون سعيدة، وتمنّيتُ لو يطول بنا الحال على ما نحن عليه، كانتْ تهزُّ رأسها صوب رأس الجبل بشموخ، وكان شعرها الأسود الكثيف يتدلّى على سواد الفستان، ويتطاير بفعل الرياح الهادئة ولا ينفكُّ يعود إلى الفستان، أمّا جيدها الماسيُّ، فقد كان آية في الجمال وهي تتطلّع إلى الأعلى بأنفها الصغير الدقيق المرتفع قليلاً بكبرياء، كانتْ عيناها واسعتين كبحيرتين يسيّجهما الكحل ويشعُّ، يهاجمني بعنف وضراوة، أنا الذي قبل أن تقرع الحرب طبولها

Twitter: @ketab_n

استسلمت، كلُّ ما فيها كان يُجلُّ عن الوصف، وكاد جمالها يفتك بي، أنا المشدوه أمامها لا أقوى لا على على الحركة ولا على الكلام.

السواد يحفُّها من كلِّ جانب.. حصان شامخ أسود، وفستان أنيق أسود، وكحل مشعٌّ أسود، وشعر حريري بالغ في السواد.. وهي تبدو من خلال كلّ هذا السواد ملكة مهيبة، تضافرتْ فيها كلّ أسباب الجمال منقطع النظير. قلتُ ـ ربّما أستفزّها على الكلام:

ـ ما أروعك!!

التفتتْ، لكنّها ظلّتْ صامتة تتأمّلني، تتأمّلُ صدري العاري، حين التقتْ نظراتنا لأوّل مرَّة، أحسستُ أنّها مثل الحياة هزمتني قبل البداية، شدَّتْ بعد هذه النظرة الخاطفة على لجام الحصان، فاستدار بعفويّة، صحتُ بها:

ـ انتظري! أريد أن أحدّثك وحسبْ.

ولم يتوقّف الحصان، ولم تلتفتْ قطُّ. تسارعتْ خطواته التي كانتْ تدكُّ صخور الوادي الصمّاء، ازدحمتْ في رأسي آلاف الأفكار المجنونة، فكّرتُ أن أتبعها عاريًا إلى أن أجدها أو أموتَ دون ذلك، وفي الأخير ضربتُ ماء البركة بقوّة، وأنا أصيح بلا أمل:

ـ انتظري..

إلّا أنّها كانتْ تبتعد إلى أن امتصّها الفجُّ. كانت متوحّشة الجمال.. تُرى من تكون؟ هذا السؤال يقتاتُ من أعصابي، يحفر داخلي، في جمالها العاصف شيء ملغّز، غامضٌ، ساحرٌ، فاتنٌ وقاسٍ، كأنّي رأيتُها فيما مضى في حلمٍ أو في حياة غير هذه! فكّرتُ، حتى وجود فتاة تمتطي صهوة حصانٍ في مكان كهذا، وبزيٍّ كذلك

Twitter: @ketab_n

الزيّ، يبدو بالغ الغرابة، إذ إنَّ تقاليد القرية صارمة فيما يخصُّ الإناث، ولا أظنّها تقبلُ مثل هذا الأمر. أضف إلى ذلك، أنّ أغلب سكّان القرية إن لم نقل جلَّهم، يكدّون من أجل توفير لقمة عيشهم، وأبعد الظنِّ أن يملك أحدهم حصانًا مثل ذلك الحصان الذي كانت تمتطيه.

خرجتُ من البركة بخطوات متثاقلة، وليس في البال سوى هذه التي كسرتْ عزلتي بجمالها. وارتسمتْ أمامي لهنيهات لوحة كاملة، ومضتْ بعد أن خلَّفتْ داخلي زلازل لا تهدأ وبراكين لا تخمد. رحلتْ وتركتْ للشوق وللأسئلة القاسية أن تخزّني من كلّ جانب.

في طريق العودة، حزنتُ لأمرين يخصّانها.. الأمر الأوّل، أنَّ عينيَّ لم ترتَوِيا من جمالها بما يكفي، الأمر الذي يجعلني أعيد تركيبَ تلك اللحظات في خيالي دِون أن أفلح في ذلك. أمّا الأمر الثاني، فهو أنّ هناكَ احتمالاً قاسيًا: ألّا أراها مجدّدًا، وأبقى زمنًا قد يطولُ مسكونًا بها وبهذه الصدفة الغريبة. ولأنّني لا أعرف اسمها من جهة، ولأنّ ملامحها تقول ـ بما لا يدع حيِّزًا للشكّ ـ أنّها أمازيغيّة، فقد فكَّرتُ أن أسمِّيها باسم إحدى الملكات الأمازيغيّة التي انقرضتْ منذ زمن غابر، أن أسمّيها «نوميديا»، نعم نوميديا. هذه الملكة التي لا أدري أين نسيتْ مملكتها.. عودي، ففي القلب لك مملكة جديدة. ردّدتُ الاسم في فمي وفرحتُ به، وصرختُ ملء السماء باسمها فيخفق باسمها الصدى. نوميديا ولعٌ ووجعٌ آخر لن يغادرني إلّا عندما تعود.. «لا بدّ أن تعود».

Twitter: @ketab_n

(٨)

يتلوّى دخان سيجارة ويعلو، كنتُ أراقبه باهتمام بالغ، ويتداخل ويغادرني، ثم تجرّه النسائم إلى حيثُ لا أدري..

والليلُ...

هذا المتغطرسُ الجبّارُ! كيف يجثمُ بكلِّ سواده على صدر إغرم دون أن تلعَنَهُ أو تنتفضُ، في الوقتِ الذي يقاومه آيت مرغاد هناك في أعالي الجبال، يزعجون هدوءه بتلك النيران التي يوقدونها حول خيمهم.. بقعٌ ناريّة فوق الجبل هيَ كلُّ أثرهم في هذه الحياة، التي تعاملهم بحيادٍ تامّ، فلا هي تتدخّلُ في رحلة شتائِهم وصيفِهم، ولا هم يطمعون في أكثر من ذلك.

اقتحمتْ جوليا عليَّ وحدتي في الشرفة، طوَّقتْ ظهري، فاستدرتُ قليلاً، وأطلتُ التأمّل في وجهها المضرّجَ بالطفولة والدسيسة، قالت:

ـ أحبّك.

وتشبّثتْ بي كطفلة، وأسندتْ رأسها على ظهري. تذكّرتُ لحظتها

Twitter: @ketab_n

ملكة جبل عيَّاش، تذكّرتُ حصانها الفولاذي الضخم وغرّته البيضاء الناصعة، وأجبتُ:

ـ وأنا أيضًا أحبّك.

ـ حبيبي، ما سرُّ تلك النقاط الضوئيّة هناك في الأفق؟

ـ إنّهم غجر الشرق، وتلك نيران تضيء ليلهم وتبعدُ الذئابَ المحوِّمة حول قطعانهم. يعيشون حياتهم رحلة، ويرفضون الانغراس كوتد في مكان ما، فَهُم يرون أنّ الأرض كلُّ الأرض ملك الجميع، وأنّهم أحرار في الدنيا. هم مثلنا يفرحون ويحزنون ويتعبون، ويمارسون الجنس حين تخزّهم الرغبة في ذلك، لكن أهمّ ما يميِّزهم هو ذلك الإيمان العميق بأنّهم يعيشون تحت السماء وفوق الأرض أحرارًا، وأنّ ما دون ذلك وهم باطل.

رستْ يداي على خصر جوليا حين استدرتُ واتّكأتُ بظهري على حائط الشرفة، تأمّلتُ شعرها الذي يتهادى حين تغازله النسائم الباردة، وتطلّعتُ إلى ملامحها البريئة، فأوجعني تذكّر خيانتها، وإن كان لي، في كونها كاتبة، نوعٌ من السلوى. انحنيتُ وقبّلتها بعنفٍ ونزقٍ، ثم قالتْ بعد أن فضَّ شيء ما خفيّ عناقنا:

ـ مراد، أعودُ وأقول لكَ مرَّة أخرى لماذا تتحاشى الحديث عن نفسك؟ أنا أكاد أجهلُ من أنت.

هكذا أهرقتْ هذه الكلمات كزيتٍ ساخن على مسمعي، كادتْ تخذلني عبرة فاض بها حزني لولا أنّني تجلَّدتُ، كدتُ أصرخ في وجهها الجميل: «وهل هناك أشياء أغفلها التقرير النفسي؟!» لكنّني فضَّلتُ ألّا أتهوّر! وحده بنهاشم يعرف مأساتي، وها هو قد فتح جرحي لتدخل من بابه الواسع جوليا، والحياة وحدها تعرف من

Twitter: @ketab_n

سيَعرِفُ بعدها القناطير المقنطرة من الوجع والحزن التي أجرّها خلفي، قلتُ:

ـ حسنًا، سيأتي يوم وأخبرك فيه بأشياء حزينة..

ولم تلحَّ لمعرفة شيء، وتجاوزت الموضوع حين وضعتْ كفَّها على جبيني قائلة:

ـ حرارتك انخفضتْ، ممّا يعني أنّك لستَ بحاجة إلى دواء الليلة..

ـ نعم، أحسّ أنَّ حالتي تتحسّن.

وارتعدتْ فرائصي فجأة، حين سمعتُ وقع حوافر حصان تكسر الصمتَ الجاثم على المكان. بحلقتُ طويلاً في العتمة وأنا أتمتم:

ـ نوميديا... نوميديا.

مرَّ الصوتُ بسرعة وتلاشى، لم أرَ شيئًا، لكنّني أحسستُ بها قريبة جدًّا، بنظرتها الصلبة وجمالها الفتّاك. سمعتُ جوليا تقولُ وهي تضغط على ذراعي:

ـ ماذا قلت؟ نو... مي... دي...؟!

ـ لا.. لا شيء.

والتجأتُ إلى الغرفة مكدودًا، فكَّرتُ في الخروج لعلّي أراها، لكنّني عدلتُ عن الفكرة لأسباب، أهمّها أنَّ ليل إغرم غامض ومخيف، وأنّني وعدتُ نضال حين التقيتُها صباحًا في المقهى أن أقُدَّ من ليلي القليل لأجلها..

ناولتني جوليا حبَّتين، بعد أن خبَّرتها بأنّ الألم يكاد يشقُّ رأسي، قالتْ إنّهما حبّتان مسكّنتان، تناولتهما وأنا أصبُّ الكأس الأولى.

Twitter: @ketab_n

أتذكَّر أنّني قلتُ لها، بعد عدد غير قليل من كؤوس الخمر، بأسف:

ـ سيقتلونني يا حبيبتي، هكذا قالوا..

ـ متطرِّفون، ربّما هم نفسهم قتلة مصطفى..

ـ ومن مصطفى؟

ـ مصطفى.. صديق عزيز.

ولا أتذكَّرُ ما قلتُ بعد ذلك، لكنّني متأكّد من أنّ لهجة جوليا كانت أقرب إلى الاستجواب، ولهذا أعتقد أنّني قلتُ أشياء كثيرة، ربّما هي نفسها تلك التي تنبلج حينًا وتتبدّد أحيانًا في آفاق الذاكرة الأشدّ حلكة!

* * *

استيقظتُ على ألم حادّ يشقُّ رأسي، التفتُّ إلى الساعة المتاخمة للسرير، كانت تشير إلى السادسة وخمس وأربعين دقيقة. قفزتْ نضال إلى الذاكرة، لقد ابتلعتني دوّامة السكر وحالتْ دون الوفاء بوعد زيارتها البارحة. تدحرجتُ بخطى ثقيلة إلى المرآة، ثم تطلَّعتُ إلى وجهي المتعب، غمرته بالماء ثم تطلَّعتُ إلى المرآة مرَّة أخرى، تمنّيتُ لو أرى نوميديا من خلال المرآة واقفة تتأمّلني باشتهاء!

ارتديتُ ملابسي، أخذتُ علبة السجائر والولّاعة في يد ومذكّرة خولة في اليد الأخرى، ثم خرجتُ إلى الشرفة. صفعتني أوّل الأمر رياح باردة، ونفضتْ عنّي ما تبقّى فيَّ من رغبة في النوم. صباحات إغرم تبرد أكثر فأكثر، والصيف بكلِّ أوجاعه وتناقضاته بدأ يأفل، لكن ما دام آيت مرغاد في الأعالي فالصيف باق، عندما يرحل الصيف سيرحلون، وسأرحل أنا أيضًا.

Twitter: @ketab_n

إغرم في مثل هذه الأوقات تطرد ليلها، وتوقظُ عصافيرها وأناسها وحيواناتها. أشعلتُ سيجارة الصباحِ الأولى بعصبيّة، كانت أحزاني تنتفض داخلي كأسراب طيور، تحلِّق في سمائي عاليًا، ثم ترميني بحجارة من غربة وتشرذم إلى أن تنزف الروح، ويكتظّ بي وبها حنين إلى أشياء لا نعرفها. قرأتُ في مذكّرة خولة قولها:

«فاجأني هذا الصباح دوار خفيف في منزل أمّي، تقيّأت بغزارة وأحسستُ أنَّ شيئًا ما يسير على غير ما يرام، استلقيتُ على السرير بعد أن أحسستُ أنَّ جسدي لا يسعفني على الوقوف، وفكَّرتُ في مراد طويلاً، فكّرتُ في غيابه الذي طال أكثر ممّا يجب، فحزنتُ».

وقفزتُ على صفحتين، وقرأتُ:

«لم أكن في حاجة إلى زيارة الطبيب لأتأكّد أنّني حبلى، لكنّني فعلتُ. دبَّتْ في أوصالي رعشة غامضة، وأنا أسمع كلمات الطبيبِ وهي تتناهى إليَّ ثقيلة، صحيح أنّني ـ لسبب ما ـ فرحتُ أوّل الأمر، لكن سرعان ما انقلبَ هذا الفرح الموقّتُ والمخاتل إلى هواجس ومخاوف، لا سيّما وأنَّ غياب مراد قد طال أكثر من المعتاد».

أغلقتُ المذكّرة بانفعال وأسف، وأنا أتمتم سامحيني... سامحيني، ثم وضعتها على الكرسيِّ، واتّكأتُ على حائط الشرفة كجريح تنام في ظهره عشر رصاصات، ورغم ذلك يتكوّر ويتدحرجُ ولا يفكّر إلّا في شيء يسنده، لعلّه بذلك يدفع عنه الموت الذي يبحثُ له عن ضربة قاضية.

أشعلتُ بانفعال سيجارة أخرى، أخذتُ نفسًا عميقا كأنّي أفكّر في

Twitter: @ketab_n

الإجهاز على هذه السيجارة دفعة واحدة، ثم نفثتُ الدخان، فتلوّى في الفضاء كعفريت ينطلق من فانوسه، تابعتُ خيوطه وهي تعلو وتتداخل وتتزاحم مع بعضها بعضًا إلى أن تتبدّد فجأة وتختفي، تمنّيتُ لو كانت أحزاني كخيوط الدخان هذه، تخرج من فمي وتبدّدها الرياح.

وفجأة، هتف صوتُ نضال من مكان ما:

ـ سيجارة الصباح تحرّر الجسد من تعب النوم..

تطلّعتُ إلى الأعلى، كانتْ تطلُّ من شرفة غرفتها، أجبتُ:

ـ صباح الخير، نضال.

وابتسمتْ. كان شكلها وأنا أتطلّع إليها من الأسفل حزينًا بعض الشيء، قالتْ ممازحة:

ـ «مواعيد عرقوب كانت لك مثلاً..».

ـ أنا آسف جدًّا، لستُ أدري كيف غافلني النوم، ربّما لأنّني أفرطتُ في الشرب.

ـ أو أفرطتَ في الجنس!! على أيّ حال، قل لي ألا تزال حبيبتك الشقراء نائمة؟

ـ جوليا؟ نعم عادة تستيقظ متأخّرة.

ـ إذن لِمَ لا تصعد، سأفتح لك الباب.

ـ فليكن.

نعم، فليكن لها ما اشتهتْ ما دمتُ لم أفِ بالوعد، أغلقتُ باب الشرفة بإحكام وسحبتُ ستائر الغرفة، ربّما سيجعل الأمر جوليا تنام أطول فترة ممكنة. تأمّلتُ ظهرها العاري، وأخذتني خصلاتها الشقراء المسبلة على شعرها إلى جراحاتي الحديثة، وانسحبتُ.

Twitter: @ketab_n

أمّا وأنا أصعد سلَّم الفندق، فقد كنتُ متأكّدًا من أنّ جلَّ ما تريده نضال منّي هو الجنس، لا أدري من أين لهذه الشاعرة المناضلة كلُّ هذه الشراهة الجسديّة! فما إن دفعتُ الباب حتى ارتمتْ بجنون على شفتيَّ، وذبنا معًا في عناق حارّ وقُبَلٍ أكثر حرارة. حين تجاوزنا عتبة الباب، دفعته بكعبي فارتطم بقوّة ارتعدتْ لها أضلع نضال، شدّتْ على عنقي بكلتا يديها وأنا مأخوذٌ بحلاوة غريبة أستشعرها في رأس لسانها. اندفعتُ هائجًا، فتراجعتْ خطواتها إلى الوراء. في غمرة هذا العناق وهذه القبل الملتهبة، كان ماضينا النضالي يصحو داخلي رويدًا رويدًا، تذكّرتُ بأسف جامعة «ظهر المهراز» ومواجهاتنا الدامية مع النظام والظلام، كم كبرنا وكم ضِعنا في دروب الحياة الأشدّ حلكة وتأزّمًا!!

وعلى الرّغم من أنّنا اندفعنا برعونة صوب السرير، إلّا أنّ عناقنا لم يُفضَّ قطُّ. كانت ملابسنا تندفع وتتطايرُ في كلّ اتّجاه إلى أن التحمنا عاريين فوق سريرها، لحظتها أحسستُ أنّني لن أشفى من لوثة الرغبة الجامحة في الجنس إلّا بالموت! الغريب أنّني حتى في تلك اللحظات التي كنتُ أغزو جسدها وأقاوم بنزقٍ ارتفاع ساقيها، كنتُ في الوقت ذاته، أحسُّ أنّ روحي تنزف بشدّة، وتصحو كلُّ أحزاني وتشتبِكُ بملامحها التي تفيض باللذّة، وتعانِقُ تأوهاتي الداخليّة تأوّهاتها الجنسيّة، ويذوب كلُّ واحد منّا على حدة في ألمه الخاصّ، حتى ألمنا في تلك اللحظات لم يكن مشتركًا!! راقبتها وهي تدمدم بكلمات غير واضحة، ثم وهي تتلوّى كقطّة، شعرتُ كما لو أنّني إزاء جسد غير جسد نضال التي كنتُ أعرفها، أو بالأحرى كما لو أنّني أضاجع جسدًا بمعزل عن ذاكرته، عن تاريخ صاحبته.. شدَّتْ بكلتا يديها على عنقي ثم سحبتني إليها، فطاوعها جسدي الذي أحسسته أبعد ما يكون عنّي.

في غمرة اللذّة والشهوة التي كان يتقطَّر بها المكان، تذكّرتُ ذلك

Twitter: @ketab_n

الجسد الملوكيّ الباذخ، القدم الحافية المنحوتة بإتقان بالغ والساق الناصعة الممتلئة.. تذكّرتُ نوميديا باشتهاء، وانبلجتْ صورتها في الخيال كاملة وطازجة، فصرتُ أعصف بنضال أكثر فأكثر فتتلوّى كأفعى، في لحظة ما شدَّتْ بفخذيها على خصري وكأنّها تستوقفني، تأمّلتُ ملامحها، كانت تتفرَّسُ فيَّ كذئبة جريحة وانطفأتْ. وبقيتُ مشتعلاً كنيزك بين سيِّدتين، واحدة تعشِّشُ في الخيال وتستعصي على الفهم، وأخرى مستنزفة.. في تلك اللحظات التي بدأتْ تأفلُ فيها الشهوة وتغيب، ويحلُّ محلَّها ندم موجع تحُفُّه الأسئلة الصعبة، أحسستُ أنّهم يتربّصون بي من مكان قريب، وهم يردّدون «والزانية والزاني...».

* * *

غادرتُ نضال مضرّجًا بالخطيئة، وكان في نسائم إغرم المشحونة بعبق سحري ما يبدّد تعبي الجنسي، فبعدَ أن أجهزتُ على وجبة فطور كاملة، تدحرجتُ بخطى متثاقلة صوب الحقول، وعجتُ بعدها على الوادي، سلّمتُ في الطريق إلى تامجا على مقام سيدي عيسى وفاءً لشيء ما داخلي، ربّما هي طفولتي، أمّا عندما بلغتُ العين، فقد كان الشرب من زلالها أوّل ما بدر لي، ثم عرجتُ على البركة وجلستُ قربها معلّلاً نفسي باحتمال أن أرى سيّدة الحصان مرَّة أخرى.

وخفتُ، والدقائقُ تستنزف، ألّا تكون سوى حلم عانق صحويّ فتشاكلتْ عليَّ الأمور، إذ إنّه من غير المعقول أن أجد فتاة على ذلك القدر الكبير من الجمال هنا، بين هذه الجبال المتعبة من وحدتها، حتى شكلها وملابسها وحصانها الشامخ.. كلّ هذه الأشياء لا تقول سوى أمر واحد، إنّها مستحيلة!!

Twitter: @ketab_n

تطلّعتُ صوب الأعالي، وأطلتُ التأمّل في نسر يحومُ حول الجبل في ثبات لا يفسّره إلّا أحد ثلاثة أمور: إمّا أنّه يقوم بتمشيط منطقته بحثًا عن فريسة، وإمّا أنّه مثلي يفتّش عن أنثاه، وإمّا أنّه مثلي يفكّر في موت شريف! وحدها النسور تقدّر شرف الحياة ولا ترهبُ الموت، لذلك تختار موتها في كثير من الأحيان قبل أن يختارها، ووحدها خولة استفادتْ من النسور. أمّا عنّي فقد جبُنتُ وخانتني الإرادة منذ ذلك اليوم الشتوي الماطر، الذي وقفتُ فيه على عتبات الهاوية وانكسرت، وانتصر عليَّ الموت، لو فعلتها أيّام صباي كنتُ أعفيتُ نفسي وغيري من تعب امتصّ فيَّ أشياء كثيرة، وامتصّ غيري بكثير من القسوة.

أغمضتُ عينيَّ، واستنشقتُ بعمق هواء إغرم البارد، الذي يتسرّبُ بخفّة إلى الروح. وحدَها إغرم لا تخون، ووحدها لم تتغيّر، إغرم متكبّرة كإناث الوعول وغامضة كنوميديا، لا تبالي بالقادمين إليها ولا بالهاربين منها.. هكذا، تواصل لعبتها مع الغرباء، تتورّط في كلّ شيء وتبقى على الحياد في الوقت نفسه، رائعة كهديّة من السماء ومستفزَّة ككلمة نابية.. وأغربُ ما فيها أنّها تجيد اصطياد المارقين عن نواميسها.

صكّتْ أذنيَّ ـ وأنا لا أزال مغمض العينين ـ أصوات تقترب وتنأى، وتترك للصدى فراغات يراوغ فيها ويظلّل مسمعي، إنّها حوافر الحصان تدكُّ جنادل الوادي وتخربط فيَّ أشياء كثيرة، ولأنّني لم أقوَ على مقاومة ذلك الصوت ومقاومة الشوق كذلك، فتحتُ عينيَّ بلهفة لأجد الحصان أمامي، وسيّدة الحصان بطلعتها البهيّة والمخرّبة في آن.

اقتربَ الحصان منّي أكثر ممّا كنتُ أتمنّى، كانتْ ترتدي هذه المرّة ثوبًا أبيض، كأنّها عروس فرّت للتوّ من عرس فُرض عليها،

Twitter: @ketab_n

ساقها تظهر من خلال سواد الحصان مملكة من ياسمين، يطوّقها خلخال أمازيغيٌّ أصيل، حافيةً كانت كما البارحة. لم أنبس ببنت شفة، وأنا أغرق في تفاصيل وجهها مشدوهًا ومستعبدًا ومستلبًا بها إلى أبعد الحدود! كيف لا والعين لا تشبع من رؤيتها، ولستُ أدري لماذا ردّدتُ في سرّي: كأنّها إغرم، كأنّ إغرم تجسَّدتْ فيها ولبستْ ثوبها البشريّ..

وكانت تلك الثواني القليلة كافية لتهدّم كلَّ شيء. أحسستُ أنّ الزمن تبدّد فجأة، وأنّني غيرُ حقيقيٍّ أو أنّها كذلك، غير حقيقيّة، بمعنى أنّني أمامها ألتفتُ إليَّ باندهاش كأنّني أكتشف نفسي أو أعيد بناء تاريخي، من زاوية أخرى ووفق نمط مغاير من التفكير. لا هو حلم كامل، ولا هو صحو كامل. هو أمرٌ بين بين! نهضتُ من مكاني ومشيتُ صوب الحصان الذي كان يهزُّ رأسه وينزله، كأنّه يترنَّمُ بإيقاع موسيقيٍّ لا يسمعه إلّا هو، وكان بين عينيها وعينيه شبه واضح، فإضافة إلى الاتّساع وطول الأهداب كانت القسوة التي يضمرها اللون الأسود أهمَّ ما يجمعهما. حين وضعتُ يدي على غرَّته الحليبيّة استكان وهدأ، تأمّلتُ نفسي من خلال عينيه، كنتُ أبدو غريبًا كما لو أنّني غيري! داعبتُه تمامًا، كما كانتْ تفعل معي خولة، إلى أن لفحتْ يدي حرارة أنفاسه التي ينفثها منخاراه، شددتُ لجامه قائلاً:

ـ هل أنتِ حقيقيّة؟!

تطلَّعتْ إليَّ بتعالٍ، لكنّها لم تجب. كان جمالُها الباذخ يقول ما ينبغي أن يُقال، وما دون ذلك ثرثرة فارغة. لذلك، وجدتني حائرًا في اختيار الكلمات التي قد تستدرجها إلى الكلام، لا سيّما وأنَّ قلبي لم يكن يسعفني، بل كان يخفق بقوّة ويزيد من اضطرابي، لأوّل مرَّة منذ زمن بعيد لم يخفق قلبي، ولم ترتعد جوارحي أمام فتاة.. آه! وأيُّ فتاة

Twitter: @ketab_n

كنت أمام رصاصة من ذهب مرصّع باللازورد، استطاعتْ في هنيهات أن تخترق الضلوع وتستقرّ في الصدر تمامًا في الجانب الأيسر. قلتُ:

ـ حصان رائع وصاحبته أروع..

فبسمتْ باحتشام، وبدتْ أسنانها ناصعة ومنضوضة، لكنّها سرعان ما تراجعتْ عن تلك البسمة دون أن تجيب ولو بنصف كلمة، وتعتقني من هذا العطش المستبدّ إلى سماع صوتها، هكذا تجلس على ظهر الحصان بفخر وخيلاء وبرود أيضًا. رفعتْ رأسها إلى السماء، كأنّها تستشيرها في أمر ما، فبدا جيدها رائعًا كما لو أنّه منحوتٌ من عاج. كانت قويّة في حضورها، في جمالها الفاتك، ورغم قسوة تلك اللحظات عليَّ إلّا أنّه كان يكفيني أن تظلَّ واقفة أمامي هكذا، بكامل سحرها الأمازيغيِّ، وأن أتأمّلها كما يتأمّل فنّانٌ تشكيليٌّ عظيم لوحة جميلة، تمنَّى لو أنّه صاحبها. وعدتُ للكلام مرَّة أخرى:

ـ هل تعلمين أنّني عدتُ إلى هنا على أمل أن أراك مرَّة أخرى، وأنّني مفتتن بكِ إلى أبعد الحدود، وأنّك ما فارقتِ خيالي لحظة، حتى إنّني ظننتُ بعد أن رحلتِ البارحة أنّك حلم عانق صحويّ واضمحلّ.

عادت البسمة لتعانق ملامحها وإن بتحفّظ واضح، وكان كياني يرتعدُ في انتظار كلمتِها الأولى، لكنّها تحصَّنتْ بالصمت، الصمتُ في بعض الأحيان موجع، الصمتُ قاس. استرسلتُ باللغة الأمازيغيّة:

ـ تصوّري! لقد تخيَّلتك ملكة أمازيغيّة بزغتْ من جبال هذه القرية، وسمّيتُك، تصوّري سمّيتكِ، باسم ملكة أمازيغيّة قديمة.. سمَّيتكِ نوميديا، فهل أعجبتكِ التسمية؟

لكنّها لم تجبْ، فتركتُ لجام الحصان بيأس قائلاً:

ـ لا أجد مبرّرًا لكلِّ هذا الصمت، إنّه يعذّب.

Twitter: @ketab_n

وجثم على المكان صمتٌ فادح مرَّة أخرى، تضخَّم وعظُم وغبّطى على كلِّ الأصوات الهامشيّة الأخرى، في لحظة مباغتة ترجّلتْ عن صهوة الحصان، راقبتُ شعرها وهو يهتزُّ ويتطايرُ بفعل الرياح، وقفتْ أمامي فرعاءَ كشجرة أرز وواثقة ككليوبترا، ثم مشتْ حافية القدمين صوب البركة بثبات بلقيس.. حين تأمّلتُ ساقيها البيضاوين وخلخالها الجميل خفتُ عليَّ منها، أنا الذي لم تبقِ منّي الحياة فسحة لأتحمَّل جمالاً قاسيًا كجمالها، استدارتْ، تطلَّعتْ إلى الحصان بنظرة، ثم أومأتْ له برأسها فالتحق بها ونزل إلى البركة وجعل يشرب من مائها.

في لحظة حمقاء، عاودني إحساس أنّني أحلم، عضضتُ على سبّابتي بقوّة، إلى أن تألّمتُ، فدنوتُ منها. كانت مستغرقة في تأمّل حصانها. غامرتُ حين مددتُ لها يدي مصافحًا:

ـ أنا مراد.. عابر سبيل!

ابتسمتْ ومدَّت يدها، كانتْ دافئة، ثم حرَّكتْ رأسها بشكل عمودي دون أن تتكلَّم. ورغم أنّها سلَّتْ يدها من يدي ببراعة، إلّا أنّني ظللتُ أحسّ يدها ودفئها يملآن راحة يدي. بعد أن ارتوى حصانها تطلَّعتْ إليَّ بنصف نظرة، ثم انحنتْ إلى الأرض وكتبت على الحيّز الرملي الذي يفصلني عنها:

ـ (أنا خرساء..).

وما كدتُ أنهي العبارة حتى مسحتها بهدوء، واعتلتْ بجسدها الممتشق صهوة الحصان، وأنا أقف مشدوهًا لا أصدّق ما قرأت. حين همَّتْ بالانسحاب، خاطبتها بما يشبه الرجاء:

ـ هل من الممكن أنّ نلتقي مرَّة أخرى؟

وكنتُ أعلم أنّها لن تقول شيئًا، كنتُ أنتظر مجرَّد إيمَاءة بيدها أو

Twitter: @ketab_n

رأسها، تفيد الممانعة أو الموافقة، لكنَّ شيئًا من ذلك لم يحصل، بل سحبتْ لجام الحصان فانطلق بسرعة، وبسرعة أكثر ابتلعهما الفجّ، وخلّفتني وحيدًا يملأني الحنين إليها، ويخزّني شعور حادّ بالوحدة. عندما قفلتُ راجعًا، استيقظتْ في داخلي صور قتلة مصطفى، وخشيتُ أن يفتكوا بي قبل أن أميط اللثام عن سرٍّ نوميديا وقلتُ، إن لم يكن من الموت بدٌّ فلأمتْ حبًّا إذًا.. أتمنّى أن أموت ألف مرَّة على يد من أحبّ على أن أموت مرَّة على يد من يكرهني.

* * *

نوميديا، هذه الجميلة الخرساء، ملاك ترجّل من عليائه، ما كنتُ أظنُّ قبل الأمس أنَّ السماء على الرّغم من حقدها عليَّ سترسل ملاكًا ليأسرني بسحره. عند عودتي، شعرتُ برغبة ملحَّة في البكاء. عدلتُ عن العودة إلى الفندق، واتّجهتُ صوب تلّة العرعار. فكَّرتُ بالاتّصال ببنهاشم، لا لشيء، فقط لأمتحن صوته، فالصوتُ الخائن كثيرًا ما يستحيل إلى سوط، لا سيّما إن هو تمادى في خيانته.

لم يكن الذين ثقبوا قلبي مثل أشرار الرسوم المتحرّكة، بأنوف معقوفة كالموز وملابس سوداء، وأظافر ملطّخة بالدماء والوحل، كانوا آدميين إلى أبعد الحدود، ولم يكن فيهم شيء يميِّزهم عن غيرهم، ينامون ويستيقظون، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق..

مررتُ بالحقول. كان رجال إغرم يحصدون، فتنزُّ سواعدهم وجباههم عرقًا تلتمع به، وكانتْ السنابل تنكسر على أيديهم حين تمرُّ بها المناجل. الحصاد عرس إغرم السنوي الكبير. حين انتهيتُ إلى تلّة العرعار، فوجئتُ بجوليا مكوَّمة على صخرة يواجهني ظهرها، وبخطى حثيثة اقتربتُ منها دون أن أثير انتباهها، فكَّرتُ أن أفاجئها وأطبق يديَّ

Twitter: @ketab_n

على عينيها. حين وقعتْ عينيَّ على المسجّلة الرماديّة التي تنام قربها إلى جانب هاتفها، تذكَّرتُ أشرطة الكاسيت التي استنسختها، وتركتها مخبَّأة تحت السرير في انتظار أن أجد متّسعًا من الوقت لسماعها، أو بالأحرى أن أجد الشجاعة الكافية لسماعها، لأنّي على ثقة بأنَّ الشرائط ستقول ما يذبح. آه.. أيُّ حزن وتعب هذا الذي ورَّطتِني فيه أيَّتها الجميلة.

عندما شددتُ على عينيها بكلتا يديَّ، فوجئتُ ببلل يملأ جفنيها. صمتتْ لبرهة، ثم قالتْ بلهجة شجيَّة:

ـ ومن غيرك يا حبيبي؟

فاستدارتْ إليَّ دامعة، قلتُ:

ـ لِمَ البكاء؟

فانتصبتْ واقفة، وارتمتْ بعد ذلك في حضني كطفلة خائفة وأجهشتْ. لم تقل كلمة واحدة، عجبتُ لهذه الدنيا التي بدأتْ تواجهني بالصمتِ أكثر فأكثر. ولم أحاول أن أكسر حزنها بطنين أسئلتي بل شددتُها إليَّ بقوّة. في مثل هذه اللحظات، كنتُ أسمع للأحزان هديرًا داخلي، وأرى السماء وهي تتّشح بالسواد سفنًا تتهادى ويبتلعها البحر دفعة واحدة.. في مثل هذه اللحظات، كنتُ أبكي وكانتْ الدموع تنسكبُ داخلي..

فضَّتْ عناقنا بسرعة وانحنتْ، ثم أخذتْ مسجّلتها والهاتف وانزلقت إلى القبور، وخلَّفتْ ذراعيّ في حالة عناق. جوليا متعبة ومنكسرة أكثر ممّا يجب، فكَّرتُ أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرَّد صحوة ضمير متأخّرة. حين كنتُ أبحثُ في هاتفي عن رقم بنهاشم، تذكَّرتُ الصدفة الحمقاء التي استدرجتني إلى اكتشاف مّا اكتشفت،

Twitter: @ketab_n

فاجأني أوّل الأمر صوتُ كاتبته. طلبتُ منها مهاتفة د. بنهاشم، انتظرتُ هنيهات، ثم اندفع صوته بفرح:

ـ أهلاً سي مراد، كيف الحال؟ اشتقنا لك.

ـ شكرًا دكتور..

ـ أين أنت الآن؟

فأجبته بمكر وبلهجة أقرب إلى القسوة:

ـ أظنُّ أنّك أدرى بمكاني.

ارتبك قليلاً، كان ذلك واضحًا:

ـ لا... لا أدري.

ـ أعتقد أنّك من أشار عليَّ بالذهاب على إغرم..

ـ أوه.. جيّد. استمتع بوقتك يا صاحبي، وحاول أن تتقبّل ماضيك وأن تتقبّل ما أنت عليه.. سيفيدك الأمر.

ـ أريد أن أخبرك بأمر مهمّ، دكتور.

ـ خير! إن شاء الله.

ـ لقد عاد الظلاميّون إلى تهديدي. تصوَّر! لقد أرسلوا لي رسالتين مضمونهما أنّهم سيقتلونني.

ـ لا أعتقد ذلك، فالأمور ما بعد ١٦ مايو صارتْ أكثر صرامة. لا شكّ أنَّ أحدهم يحاول إثارة مخاوفك لا أقلّ ولا أكثر.

ـ لا أرجّحُ ذلك، الأمر أعقد ممّا تتصوّر.

وأجاب كما لو أنّه أراد أن يجرَّني إلى حديث آخر:

ـ هل أنت وحدك في تلك القرية؟

Twitter: @ketab_n

فنزل عليَّ سؤاله باردًا، كأنّه لا يعلم أنّني رفقة جوليا، ورفقة الملفّ الطبّي الذي أسلمه لها:

ـ آلو... آلو.. لا أسمعك. هل تسمعني؟

هكذا، تظاهرتُ بأنّني لا أسمعه، لأجد مبرّرًا للانسحاب قبل أن أنفجر في وجهه بكلمات لا تسرُّه، حاولتُ جاهدًا أن أفتعل ابتسامة لكن دون فائدة. ما جدوى أن يبتسم إنسان محكوم عليه بالحزن المؤبّد؟! لقد كانتْ أحلام المستقبل كلُّ ما كان يدفعني إلى قبول الحياة، لكنّ الآن، بعد أن استهلكتُ كلَّ تلك الأحلام، وجدتُ أنّني كنتُ أعيشُ خديعة كبرى وأنا أطارد سراب المستقبل، الآن صار عليَّ أن أتدرَّب على فنّ الرحيل.

حين عادتْ جوليا منكسرة، بكتْ بصخبٍ. وكما انتظرتُ كلمة نوميديا الأولى، كنتُ أنتظر كلمة جوليا الأولى.. لكنَّ الرعاف لم يمهلني. جرح النزيف اشتباكنا، فابتعدتُ عنها وضاقتْ بي الأرض، كان صوتها الشجيُّ يتضخّم داخلي:

ـ سامحني.. سامحني.

Twitter: @ketab_n

(٩)

كانت الطريق إلى النهر شاقّة ومحفوفة باحتمالٍ بموت فُجائيٍّ، حتى إغرم، حين أبصرتني أزحف إلى النهر والمنديل المُدمى يحاصر أنفي، مدَّدت الطريق أمامي لتطيل معاناتي، وتمنح لطائر الموت الذي يتربّص بي من علٍ الوقتَ الكافي ليجد لي نقطة الضعف الأخيرة، ويفتك بي. وجوليا كانت تشدُّ على ذراعي كما لو أنّها تخشى أن أسقط مغشيًّا عليَّ. آه.. ما كان أبعدك عن جراحاتي أيّتها المرهقة بألمي، أهي غواية الكتابة؟ أن تغمدي ريشتك في محبرة من دماء حقيقيّة، وتكتبي وجعًا تورّطتِ فيه! أنتِ التي كذبتِ عليّ قائلة: الكتابة محنة لا حاجة لي بها.

عندما احتدَّ النزف، قلتُ لها بلهجة أقرب إلى الهذيان:

ـ لا أبشع من تعب الوعول!

لم تُجب، بل استوقّفتني. أخذتْ يدي التي امتلأتْ دمًا، ثم أقحمتْ سبّابتي في فمها وجعلتْ تمصّها بجنون، لا يذكّرني سوى

Twitter: @ketab_n

بخولة.. لا شكّ أنّها قرأتْ عن الأمر في الملفّ. غَشِيَني لحظتها بياض فاضحٌ، لستُ أدري لماذا ألحّتْ عليَّ صورة الحمقاء التي كانت تجوب الحيَّ، الذي انتقلتُ إليه بعد إغرم. كانت تتجرّد من ملابسها وتستحمُّ أمام الملأ، لا نظرات العابرين توجعها، ولا شمس الظهيرة تكسر ما يفجِّره عريها من خطيئة!

أمّا عندما رأيتُ النهر يبدو ويبتعدُ، فقد عبر طيف مصطفى أمامي:

ـ كم كبرنا يا صديقي..

قلتُ، لكنّه لم يجبْ. كان مثلي ينزف.. كم أنت كبيرٌ في صمتك أيّها المصقول بنارهم، وكم ظلمتُك حين خبّأتُ عنك أوجاعي كلَّها وتركتكَ تموتُ لوحدك! تُرى أكان يجدر بنا أن نتأبّط الكلاشينكوف بدل كُتبنا لنجد للحلم متّسعًا في بلاد أضيق منه؟! لا يجيب، يحرِّك رأسه كعادته أعلى وأسفل، ثم بحركة جانبيّة تُسمع لرقبته طقطقة. أذكر قولك ذات يوم:

ـ وأنا أحبُّ الله أيضًا، ربّما أكثر من برابرة الزمن الرديء هذا!

حين انتهينا إلى النهر، كان النزيفُ قد توقّف أو كاد، شعرتُ أنّني خائر القوى ومتداعي الأركان وأشبه ما يكون بمنديلي المدمّى، أغرقتُ وجهي وقميصي في الماء، وبدأتُ أعود وإن بشكل متقطّع إلى الحياة. أمّا عندما بلغنا مدخل الفندق، فقد زفرتْ جوليا بعمق قائلة:

ـ أخاف عليك يا مجنوني الإفريقي..

ـ ممّاذا؟

ـ من كلِّ شيء.. من صمتك ومن جنوني..

Twitter: @ketab_n

وضحكتْ، ربّما لتوهمني أنّها تمزحُ وتنأى بنفسها عمَّا يمكن أن يبعث في نفسي الشكّ؛ ثم أردفتْ، ربّما لتنسيني كلمة «جنوني» التي سقطتْ سهوًا من فيها:

ـ الصمتُ عادة ما يدلُّ على صخب داخلي.. على نزيف.

ثم التجأتْ إلى حضني كفراشة خائفة. كانتْ نبضاتُ قلبها تصلني ضعيفة، وأنا أعبثُ بسنابل شعرها الذهبي، لا أدري لماذا أحسستُ في تلك اللحظة بالضبط أنّني يمكنُ أن أحبّها! على الرّغم من كلٍّ ما بدر منها، فكَّرتُ في مكاشفتها بالحقيقة المُرَّة. لكن سرعان ما عدلتُ عن الفكرة حين ألحَّتْ عليَّ تلك الشرائط المستنسخة. قلتُ في سرِّي، وماذا لو كان في الأمر حقائق أكثر بؤسًا؟ حين بدأ عناقنا يبرد شيئًا فشيئًا، كان رأسها يهتزُّ فوق صدري، كانت تنتحب.. أخذتُ رأسها بين يديَّ وتأمَّلتُ سماء عينيها الزرقاوين، كانتْ في تلك اللحظات طفلة أدمتْها أشواك سياج يفصلها عمَّا تريد.. عيناها كانتا تنضَحان ببريق خاصّ، وأهدابها المبلولة بالدمع كانت إبرًا تخزني في القلب.

صامتين إلى أبعد الحدود، لكنَّ وقوفنا بذلك الشكل إضافة إلى اشتباكنا ونظراتنا كانت تقول أشياء كثيرة.. كان هذا قبل أن تكسر الصمت بيننا قائلة:

ـ سأرحل غدًا.. دائمًا تسحبني المشاكل من أحضانك، على أن أعود يومًا أو يومين قبل رحيلك. فمهما يكن، لا بدَّ أن نودّع معًا مملكتك إلى صيف آخر..

لم أجبها بل عانقتها، ربّما لأنّني لم أجد في نفسي أبلغ من ذلك. أنا مستعدّ لذلك، قلتُها في سرّي بعد أن ألحَّ عليَّ بيتُ المتنبي:

بما التعلّل لا أهلٌ ولا وطنُ ولا نديم ولا كأس ولا سكنُ

Twitter: @ketab_n

أمّا حين أزفَّ الليل، فقد تعمّدتُ أن أطفئ نور الكهرباء، واكتفيتُ بإيقاد شموع شمعدان منسيّ، وجلسنا إلى الخمر والسجائر. قلتُ لها وهي تعبثُ في الأقراص المدمجة بحثًا عن أغنية تليق بليلة وداعنا:

ـ بدأتُ أشتاق إليك. .

ـ أنا أيضًا. . لِمَ لا نرقص؟

حين دنوتُ منها كان وجهها ذاهلاً وأقرب إلى الشحوب، أو على الأقلّ هكذا صوَّرته لي الشموع، أمّا عندما انكسرت فوق زندي تمامًا كما تنكسر السنابل تحت المناجل، كان خوليو كلاسيس يغنّي:

ـ لا تحدّثني قطُّ عن الحبّ (ne me parle plus d'amour)

كان الجوُّ مكهربًا بأحاسيس غامضة ومتناقضة وسرِّيّة، تتماوج وتتلاطم داخل جدران الغرفة، وتحفرُ في دمنا خنادق جديدة لأحزان مؤجّلة. همستْ:

ـ لم تسألني عن سرِّ بكائي، أو حتى عن سبب رحيلي.

ـ لأنّ جانبًا من حبِّنا يقضي ألّا نُكثر من السؤال، وأن نحترم أحزان وأسرار بعضنا بعضًا.

وكانت أقدامُنا تتهادى مع هدوء الأغنية، قالتْ بعد صمتٍ طويل:

ـ أخي، يا مراد، رهينة.

ـ رهينة؟ كيف ذلك؟

ـ وصلتني في صباح اليوم رسالة نصّيّة من السفارةِ الفرنسيّة تطلبُ منّي الاتّصال بها فور قراءتي للرسالة، وهذا ما فعلتُ.

ـ وبماذا أخبروكِ بالضبط؟

Twitter: @ketab_n

ـ قالوا بأنّ إرهابيي تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي قد اختطفوا أخي وزميلاً له، كانا يعدّان ملفًا صحفيًا حول القاعدة.. وقيل لي أيضًا إنّهم أرسلوا شريطًا مصوّرًا يظهر فيه معصوب العينين، وبنادق القتلة مصوّبة إلى رأسه.

وارتعدتْ فرائصي للخبر، تذكّرتُ تهديداتهم لي، وعبرتْ بالبال حسرة مصطفى التي لن أبرأ منها أبد الآبدين. قلتُ:

ـ وما هي مطالبهم؟ المال؟

ـ لا.. مطالب سياسيّة وعسكريّة بالدرجة الأولى.

ـ وما موقف الخارجيّة الفرنسيّة؟

ـ خرجتْ بتصريح تندِّدُ فيه بهذا الفعل المشين، لكنّ الوضع لا يزال على ما هو عليه، وأخي..

وانسكبتْ من عينيها دمعتان، رأيتهما على ضوء الشموع نيزكيْن توحّدا أسفل ذقنها، استرسلتْ:

ـ ما ذنبه، أتدري؟ سأُجنُّ إن أُصيب بمكروه.

وشددْتُها إلى صدري بقوّة حين أجهشتْ بالبكاء، وكنتُ مثلها أبكي، لكنَّ دموعي كالعادة كانت تنسكبُ زيتًا حارقًا داخلي.. وأنا أشدّها أكثر فأكثر إلى صدري، تمنّيتُ لو أنَّ لي أختًا كجوليا كنتُ سأحبُّ الحياة على الرّغم من كلِّ دسائسها وخياناتها، سأحبُّ الحياة، لا لأنّها تستحقُّ ذلك، بل لأنَّ هناك من ستدمى عيناه إن أنا أصبتُ بمكروه!

من سيبكيك يا مراد بعد أن يفتك بك آخر الهمجيين؟ من سيعلُو نشيجه حين يأتيه نعيك؟ لا أحد. شربنا بعد ذلك كثيرًا، وتحدّثنا أكثر،

Twitter: @ketab_n

لكن لم يعلق بذهني من تلك الأحاديث سوى قولِها، وهي تقاوم دون جدوى إغراءات النعاس:

ـ سامحني، مراد! ربّما لأنّي ظلمتك أكثر ممّا ظلمتِ الحياة صديقكَ أوداد..

في الصباح، قلتُ لها ونحن نزيح الغطاء عن سيّارة الجيب خاصّتها:

ـ عودي إليَّ.. أريدك أنْ تعودي.

وقبّلتها بعنف على مرأى من نضال وامحند وزمرة من روّاد المقهى، ثم انطلقتْ سيّارتها تجرُّ خلفها ذيلاً غاضبًا من الغبار والحنين.. ذيلاً من الغبار والأنين.

* * *

أقبلتْ نوميديا كأنّها السعادة، فعاودني السؤال، أيُعقلُ أنَّ هذه الجميلة الخرساء حقيقيّة؟ أخمدتُ سيجارتي في الأرض ودهستها بقدمي، وعيني لا تفارقها. ترجّلتْ بخفّة من حصانها وأقبلتْ تجرجر ثوبها الأسود، مدَّتْ يدها فصافحتُها، وامتلأتُ بفرح عارم أربكَ قلبي، ثم تأمّلتُ بسمتها العذبة، قائلاً:

ـ إذن، أيمكن أن أعتبر هذا التوقيت موعدنا اليومي؟

فتطلَّعتْ إلى عينيَّ، وانصهرتُ أنا في عوالم تبدو وتتلاشى داخل عينيها الواسعتين، ثم أومأت برأسها موافقة. كانت كلُّ جوارحي تزغرد فرحًا بحضورها القويّ الذي يغطّي شقًّا كبيرًا من أحزاني.

ـ منذ الوهلة الأولى التي وقعتْ فيها عيناي على ملكوت حسنك، وأنا وقلبي لا نرجو من هذه الحياة البخيلةِ إلّا أن تمنحنا فرصة رؤيتك مرَّة أخرى.

Twitter: @ketab_n

تطلَّعتُ إلى أسارير وجهها، كانت طلقة كصباح ربيعي، ثم أردفتُ:

ـ كم أودُّ لو أعرف من أنت أيّتها الجميلة!

ومشتْ إلى مساحة رمليّة، وكتبتْ:

ـ (ما دمتَ قد سمَّيتني نوميديا، فأنا كذلك.)

ـ وماذا أيضًا؟

فمسحتْ العبارة بكفِّها، ثم كتبتْ:

ـ (أنا من هنا، من ضحايا هذا المكان.. ولا أظنُّ أنّ لي حياة خارجه).

أحسستُ في لحظة مسعورة أنّها تكتبني، مرَّتْ بكفِّها على العبارة، ثم أردفتْ:

ـ (لستُ أدري لماذا شدَّتني إليك قوَّة خفيّة.)

وبسرعة مسحتْ العبارة، وأردفتْ:

ـ (راقبتك خلسة من قبل، ربّما نظراتك العاشقة لهذا المكان هي كلُّ ما شدَّني إليك.)

ومرَّتْ بظهرِ يدها على العبارة وهاجمتني:

ـ (ماذا عنك؟ من أنتَ أيّها الغريب؟).

ثم اقتحمتني بعينيها الشرستين، كأنّها تستنطقني. قلتُ:

ـ بماذا سأجيبُ؟ لستُ أدري من أين تبتدئ الحكاية! لنقل إنّني مثلك وجدتُ نفسي ها هنا، ولم يكن لي اسم محدّد وثابت، لكنَّ الأغلبيّة الساحقة من أهل القرية كانوا يسمّونني أوداد، لأنّهم فهموا

Twitter: @ketab_n

مبكرًا تلك العلاقة الخفيّة بيني وبين الجبل.. على أيّ حال، كان هذا منذ زمن بعيد، ربّما قبل أن تأتي أنت إلى الوجود.

وابتلعنا الصمت. عادتْ تتأمّل عينيَّ، كأنّما حرّضتها عبارتي الأخيرة على محاولة اكتشاف الفارق العمري بيني وبينها!

ـ عشتُ سنوات في إغرم، كان هذا قبل أن تجرَّني يد إلى البعيد، لكنّني ظللتُ مسكونًا بها.

واقتربتُ منها ـ ربّما أكثر ممّا ينبغي ـ أخذتُ يديها الجميلتين بيدي، لم تبدِ أيَّ ممانعة أو تخوُّف، بل ظلَّتْ متمترسة خلف صمتها الاضطراري.

ـ أتعلمين أمرًا؟ لم أكن أعرف أنّ الأقدار ـ رغم خبثها الدائم معي ـ قد سطَّرتْ لي موعدًا مع ملكةٍ أمازيغيّة هاربة من كتب التاريخ. لم أكن أعرف أنّ الحياة، بعد أنْ مزَّقتْ كلَّ أشرعتي وشرَّدتني أكثر من أيّ إنسان قبلي، ستجرُّ سفني المخرومة والمتعبة إلى مرفئك الجميل! أنا لا أعرف للحبّ معنًى محدّدًا ربّما عشته في ما مضى وربّما لا، لستُ متأكّدًا بالضبط. لكن، كلُّ ما أنا متأكّد منه في هذه اللحظة، أنّ ما أحسُّه وأنا أكابد سحرك أقوى وأعنف من كلِّ الأحاسيس التي اختلجتْ وجداني في ما مضى. لن أجازف، نعم لن أفعل وأدَّعي بأنّه الحبّ، لكنَّه شيء مزلزل وعنيف، شيء يخزني في العمق ويشعلُ قلبي فيخفق بحرارة كأنّه يصفّق إعجابًا بك. أحيانًا أخاف عليهِ من ذبحة إن أنا أطلتُ التأمُّل في عينيك، وأحيانًا أخاف أن تكوني مجرَّد حلم سأستيقظ منه مجروح الفؤاد، أخاف أن تمتصّك ثقوب الحياة فلا تعودين إليّ، فأجنُّ وقتها ـ أنا الذي لم تبقِ فيَّ الحياة فسحة ولو صغيرة للانتظار واستجداء الأمل.

Twitter: @ketab_n

والتمعتْ عيناها ببريق خاصّ، يقول كلَّ شيء ولا يقولُ شيئًا، استلّتْ يديها من بين يديَّ، فغشيتني غربة فظيعة، ابتسمتْ بعد ذلك وهي تتراجع خطوات إلى الوراء، في كلِّ خطوة كانت تشعلني بجمالها. حين قفزتْ على ظهر حصانها الأسود ازدحمتْ داخلي أحاسيس غامضة، وألحّتْ عليَّ رغبة في البكاء. حرَّكتْ يدها مودّعة، فقلتُ:

ـ إلى اللقاء نوميديا.. إلى اللقاء.

وتشرَّدتْ خطايَ وأنا أراقبُ الحصان وهو ينأى، وما كاد الحصان يختفي حتى انفجر أنفي برعاف آخر، لم أكن أملك حياله سوى الارتماء بكامل طيشي في البركة. في قمّة الحضور / الغياب، وأنا أرى قطرات الدم تسقط فوق الماء، ثم لا تلبثُ أن تتلاشى وتختفي.. راودتني أطياف البرابرة الجدد، أولئك الذين إن دخلوا قرية أفسدوها، وابتلعني سواد مخيفٌ وأنا أستشعر دقّات قلبي وهي تتثاقل تدريجيًا. في قلب تلك الدوّامة التي جرفتني، رأيتُ خولة تنأى وتدنو، وكدتُ أموتُ، لولا أنَّ كفًّا دافئة كأنّها كفُّ نوميديا، سحبتني من البركة / الموت، وهمستْ بصوتٍ غائم وحزين:

ـ لا زال في إغرم متَّسع لموت أجمل.

* * *

حين بلغتُ بمشقّة غرفتي، قرّرتُ أن أفتح جرحي الأخير، سحبتُ من أسفل السرير الشرائط الصوتيّة السبعة التي استُنسختْ عن تلك الشرائط التي غادرتْ حقيبة جوليا خلسة. ترى ماذا عساك تقولين يا جوليا؟ وهل قرأتِ أوراق بنهاشم؟ وهل هذه الشرائط هي مسوّداتك الدمويّة لرواية ستتخلّصين بها منّي؟

Twitter: @ketab_n

تُرى كيف ترين مراد؟ وماذا سأكون في نظرك غير كومة من الأحزان! لكن أيّتها المراهقة في فنِّ الكتابة، أعتقدُ أنّك لن تكتبيني بالشكل الذي يليق إلّا إذا استطعتِ أن تنفذي إلى شراييني، ولن تقدري على ذلك إلّا إذا اخترتِ الصراحة.

في غرفةٍ أصبحتْ فارغة إلّا من ذكراك، أزحتُ عنّي أحزاني وملابسي، إذ لا بدَّ أن أواجه سِهامك التي سترسلها المسجّلة، عاريًا أو شبه عارٍ من كلِّ شيء. أطفأتُ الأضواء وأوقدتُ الشمعدان، وجرعتُ من كأس الويسكي على الطاولة قليلاً، وقبّلتُ بشغف مذكّرة خولة التي كانتْ تستلقي إلى جواري، ثم اخترتُ بعد ذلك شريط البداية بشكل اعتباطيٍّ.

التفتُّ فجأة إلى أنّني أزحتُ نفسي إلى الهامش الفجّ للحياة..

ماذا أقول ونهايات هذا الصيف الموجع تدنو وموسم الرحيل الكبير يُزفُّ؟ لن أقول الشيء الكثير. سأصيخ السمع إلى جوليا، حتى وهي تغرسُ نصالها في أشدِّ الأماكن وجعًا! وإن فاضتْ بي الدموع سأبكي.. فالرجال الحقيقيّون هم وحدهم من يجيد فنَّ البكاء، ربّما لأنّهم ببساطة يبكون لأمر يستحقّ ويعرفون متى يفعلون ذلك وكيف!

«في المغرب، وربّما في دول العالم الثالث بأسرها، كلُّ شيء قابل للبيع. كثيرون هم من يقصدون المغرب ليشتروا أشعّة الشمس وليتمدّدوا فوق شواطئها الفسيحة، بينما تجد البعض يقصد المغرب مقتفيًا سيرة شهرزاد والألف ليلة وليلة، أمّا البعض الآخر ـ وهذا شأن أخي روبير ـ فلا يرون في المغرب سوى مغامرة جنسيّة غير محسوبة.. أمّا أنا، فإنّ غواية الكتابة عن هذا الفضاء الغامض الذي كان إلى الأمس مستعمرة

Twitter: @ketab_n

فرنسيّة هي السبب الذي دفعني إلى المجيء إلى هنا. ولأنّني جئتُ إلى المغرب بهدف البحث عن مادّة روائيّة، ولأنّ منافذي للناس كانت شبه معدومة، ذلك أنّ اللغة لا تسعفهم، فإنّني لم أجد أمامي سوى أبواب الأطبّاء النفسانيين.. ولأنّني سبق وصرَّحتُ أنّ كلَّ شيء قابل للبيع، فإنّني لم أجد صعوبة في شراء ضميرِ أحدهم.

حين قابلته أوّل الأمر بحجّة أنّني مريضة نفسيّة، تطلَّع إليَّ بنظرة ملغّزة ثم ضحك بمكر، كأنّه يعرف ما أريد، أو على الأقلّ، كأنّه تعوّد أن يستثمر في ملفّات مرضاه. أمّا عندما خبَّرته أنّني بحاجة إلى قصّةٍ، فقد انفجر ضاحكا إلى أن تغيَّرتْ ملامحه جملة وتفصيلاً، أزاح القبّعة ومرَّ بيده على صلعته وثرثر بعد ذلك كثيرًا، بفرنسيّة فيها الكثير من الرطانة، عن الأخلاق والقيم! لكن ما إن وقَّعتُ شيكًا ووضعته على طاولته، حتى ازدرد ريقه وفرش ملفّاتِ مرضاه وشرع في المساومة كأنّما كان يبيع الملابس المستعملة!

حين وقعتْ يدي على ملفّ مراد، كنتُ مضطرّة إلى توقيع شيك آخر نظرًا لحساسيّة الملفّ، كما صرَّح مضيفًا أنّ هذا المريض، يملك من النفوذ والعلاقات، ما يكفي ليدمّرنا معًا إن حصل أيُّ خطأ، أو تسرّبتْ أيُّ معلومة مهما بدتْ هامشيّة، هكذا قامرتُ بكلّ ما أملك من أجل أن أفوز بملفّ مراد الوعل، ليس فقط لأنّه يمثّل مثقّف العالمَ الثالث، ولكن لأنَّ حكايته كانت أعقد من أن يطيقها عقل بشري.. كان مأساة لا تحتاج إلّا إلى كاتبة.

وكنتُ، بعد أن قرأتُ ملفّه مرّات عديدة وجلستُ الساعات الطوال مع بنهاشم مطالبةً بافتعال صدفةٍ حاسمة توصلني، بحثتُ عنه

Twitter: @ketab_n

في الجامعة إلى أن وجدته، وبحجّة أنّني أنجز بحثًا صحفيًا حول الجنس في العالم العربي، تعرّفتُ عليه. أمّا ما تلا ذلك، فقد كان الكذب سيِّده، كذبة تلو أخرى، وكذبة تشتبك بأخرى، ولأنّني أمتهن الأدب، فقد وجدتني أسخِّر كلَّ مهاراتي الروائيّة من أجل ضبط الكذبة، مهما تشعّبتْ أو تعقّدتْ.

مراد، لم يكن يعني لي أوّل الأمر أكثر من مادّة أدبيّة.. لكن مع مرور الأيّام، وكثرة المواعيد واللقاءات الحميميّة الصاخبة، اكتشفتُ أنّ مراد كان عاصفة ضربتْ لنفسِها موعدًا معي، ووجعًا اخترقني، وحبًّا سعيتُ إلى فوهته بقدميَّ، هذا الرجل جنوني النهائي، نارٌ أشعلتها، ولم أقو ولن أقوى على إخمادها قبل أن تأتي على أخضر حياتي ويابسها..».

طرْق خفيفٌ على الباب أوقف نزيفي الصامت، بالكاد تمالكتُ نفسي حين وقفتُ. كان الحزن والخمر قد أثقلاني، أسكتُّ المسجّلة أوّلاً، ثم ارتديتُ ملابسي وفتحتُ الباب، لأجد خلفه نضال تحمل بكلتا يديها «طاجينًا»:

ـ هل ستتركني واقفة هكذا؟

ـ بالطبع لا، تفضّلي.

استغربتْ من الحلكة المستبدّة بالمكان، واتّجهت صوب الشمعدان ووضعتْ الطاجين قربه، قائلة:

ـ لا شكّ أنّها طقوسُك الخاصّة للكتابة.

ـ بل إنّها طقوسي للألم!!

واختطفتنا أحاديث متشعّبة، ونحن نجهز على الطاجين. أمّا بعد أن خلصنا منه فقد قفزنا إلى السرير، نضال تصرّح أنّها مسكونة

Twitter: @ketab_n

بجسدي وتقول إنّها أدمنتْ فحولتي!! في تلك اللحظات، تأكّدتُ أنّها عادتْ لتنسف ماضينا النضالي المشترك، هي التي قاومتْ النسيان، وظلّتْ ذكرى جميلة عن زمن الرفاق، ووشمًا داخلي للمطرقة والمنجل. هي لا تعلم أنّها عادتْ لتحطّم بمطرقتها كلَّ إرثنا من الذكريات الجميلة، وتمزّق بمنجلها حاضري الذي لم يعد يتّسع لهموم إضافيّة.

حين سألتها، بعد أن خلصنا من الجنس، عن حلٍّ لما نحنُ عليه، أغمضت عينيها ثمَّ فتحتهما، أخذتْ نفسًا شرهًا من سيجارتي المحتضرة، ثم عركتها في المنفضة قائلة:

ـ لا شيء، استسلم لجنون شاعرتك أيّها الغاوي!

أمّا عندما اعترضتُ بمكر قائلاً:

ـ وزوجك؟

فقد تداخلتْ تفاصيل وجهها، أو على الأقلّ، هكذا صوّرها ضوء الشموع الباهتْ، وظلّتْ صامتة ترمقني بنصف نظرة كأنّما أصابها الخرس، ولم أنتبه إلى بكائها إلّا بعد أن ارتفع شهيقها، فتذكّرتُ حياة التي كانتْ مثلها تبكي متجرّدة.. وقتها عاودني الاستنتاج الذي خلصتُ إليه منذ وقت مبكر، وهو أنَّ للجسد بكاء خاصًا. كانت كلُّ منطقة في جسدها، حتى تلك الأشدّ إثارة، تهتزُّ وتجهش وتلهج بكلمات غامضة، لم أكن أملكُ حيالها سوى الصمت، ومقاومة ذلك الصوت المجنون الذي يتضخّم داخلي، ويحرّضني على الهروب عاريًا من كلِّ شيء إلى مقام سيدي عيسى..

إلى موتي..

إلى نوميديا.

Twitter: @ketab_n

(١٠)

أيّتها الجميلة والشهيدة..

صباح الخير.

خولة.. هنا في شرفة فندق أصبح ـ للأسف ـ فندقي، والسماء هناك بعيدة عن متناول الأيدي، وأنت أيّتها الشهيدة أقربُ منّي إليها وأقربُ إليَّ منها وأقربُ منّا معًا لله.

خولة.. هل تغفرين لي عبثي بحزنك وحزنِي لموتك وموتي المتدرِّج بعدكِ؟ هل تغفرين لي جنوني؟ رحلتِ ببساطة كخواطر الصباح وكانت مصادفة أن يكون آخر ما سمعته منك قولك: «الحبّ الكبير حبّ خاسر في البداية والنهاية، الحبّ العظيم لا يؤمن بالنهايات السعيدة». هكذا كنتِ تنزلقين نحو الموتِ بهدوء المحاربين الشجعان، ولم تكوني قطُّ كاذبة حين خطَّتْ يدُكِ ذات صباح هذه الكلمات:

«لا يكون الإنسان عاشقًا حقيقيًّا إلّا إذا هو وضع نصب عينيه احتمال الموت حبًّا».

Twitter: @ketab_n

كأنّك قرأتِ صحائف الغيب أو كنتِ أدرى بما سيأتي، وللعشّاق حين يفنَون حبًّا حكمة لا يدري بها سوى أمثالهم. وكتبتِ أيضًا:

«حبيبي.. الكلمات أضيق من أن تسع حبّي الكبير لك، ولأنّني لن أقوله ـ مهما حاولتُ ـ كما ينبغي، فسأكتفي بالصمتِ. آه ما أعذبك يا قلبُ وأعذبَ من عذَّبك.. كلُّ ما أعرفه لحدود اللحظة، أنَّ شيئًا ما يتفجَّر بحماقة وطيش من سرّتي.. تصوَّرا ويجرُّني نحو المدى البعيد، فأحسُّ أنّني أكبر من أكبر مجرَّة وأبسطُ من فراشة وأعقد من أحجية».

حين أقرأكِ يا خولة، أستشعر بشكل عميقٍ فداحة خسارتي، أنتِ التي لم تخوني العهد وبقيتِ حتى لحظاتك الأخيرة مؤمنة بحبِّك وطواك الموتُ على هذه القناعة، عكسي تمامًا، أنا الذي ما آمنتُ بشيء قطُّ سوى «لاجدوائيّة» الحياة. كتبتِ في البدايات:

«ما جدوى الحياة إذا نحنُ لم نستنزف أجمل ما فيها؟ هكذا قال أستاذي الوسيم، وأنا مذ عرفته لا أجد للحياة معنى بدونه، ببراءة وعفويّة اخترق حياتي وأطبقَ بقبضة فولاذيّة على القلب والذاكرة».

صباح الورد والياسمين.. حبيبتي وجهك الطلق الصبوحُ، وقامتك الفرعاء كشجرة أرز معي لا تفارقني، وأحزانك، نعم حتى أحزانك الصفراء لا تبرحني. ما زلتُ أذكر جوابك يوم سألتكِ ما أقصى أمانيكِ في هذه الحياة، فأجبتِ بحماس، وألق خفيٌّ يتأرجحُ بين محجريّ عينيكِ:

ـ أن أكون معك ونسافر إلى أبعد نقطة في الوجود، ونسكن كوخًا بسيطًا في غابة على جزيرة مهملة وننجب أطفالاً،

Twitter: @ketab_n

ستكون الطبيعة شريعتنا الوحيدة!

وعانقتني بعدها بنزقٍ هامسة:

ـ هي أمنية.. هي أمنية.

كان بمقدوري أن أحقّقَ كلَّ أمانيك، أن أسحبك مثلاً من يدك إلى إغرم، ونبني لنا منزلاً في قمّة الجبل، لكنّني تركتكِ في مهبّ الموتِ فارغة من كلّ ما يستحقُّ الغياب وممتلئة بحبّك الكبير.

خولة.. خاسرين كنّا منذ البداية، ربّما لأنّني لم أكن رجلاً بحجم حبِّك، أو ربّما لأنّ القدر كعادته لم يكتفِ بالتخلّي عنّا بل أصرَّ على التورُّط في هزيمتنا. هزمتكِ بغيابي وهزمتني بموتك، فهنيئًا للحبِّ بكلِّ هذه الخيبات!!

لو أنّني عدتُ يومين قبل موعد عودتي، لكان الله قد أصدر أمره بتأجيل موتك إلى أجل غير مسمّى، ولو أنّك انتظرتِ يومين إضافيين قبل الانتحار.. لتغيَّرتْ أشياء كثيرة، كأن نختار أن نبقى عاشقين ونترك لابننا أن يحيى كما يشاء، كأنّه ابن وعل حقيقيّ، لا شيء يكدِّرُ صفو حياته، حقيقته معي وحليبه الأوّلي معك.. وما عدا هذا متشابهات.

تصوَّري فيما أفكِّر حين تكتظُّ بي غصّة الحزن والأسف؟ أكاد أجزم في سرِّي أنَّ الله لم يخلقكِ إلّا ليعذّبني بكِ، لأنّه لم يكن حليفي يومًا، ومثلما سلَّط عليَّ عذابات من أكره، سلَّط عليَّ فقْدَ من أحبّ..

خولة.. أتغفرين لي أخطائي التي لا تنتهي؟ هل تغفرين لي مواعدتي لأنثى أدمتْ كياني، بسلسلة ألغام. إنّها جوليا واسمها هو قمَّة معرفتي بها، طعنة مسمومة في الظهر، ولأنّ الحياة قد أتعبتني بلكماتها التي جعلتني أترنّح وأسقط ثم أنهض، فقد اختارتْ أنْ تهب جوليا

Twitter: @ketab_n

شرف الضربة القاضية.

خولة.. هل تغفرين لي تورُّطي بعشق إضافي لا يتّسع له قلبي المتعب؟ عشقتُ طيفًا انبثق من عزلة الفجّ العميق الذي يشطر جبل عيّاش نصفين..

سامحيني إن وجدتِ أنّني تورّطتُ في حبِّها..

سامحيني، لأنّني لم أملك من أمري سوى الاستسلام لها..

لا شكّ أنّكِ ستُجيبين «لا يهمُّ، فالحبُّ شخصيّة ويكفيني أنّني أحبّك»! أعرف أنّك أكرم منِّي عاطفة، وهذا ما يمزِّقني أيّتها الجميلة الغائبة، لا زلتُ أذكر قولك ذات خصام عابر «سأحبّك مهما أسأتَ لي».

خولة.. العبارات تختنقُ في جوفي، ورأسي، أشعر كما لو أنّه إناء حبق يتهشّم فوق صخرة الندم القاسية. أنا في حاجة ملحَّة لسماع صوتك الدافئ يهمس في القلب: «سامحتُك». فتعالي، ولو بين رمشة عين وأخرى، قوليها وحرِّريني.. وإن لم تستطيعي فهبي لي موعدًا بعد أن أستسلم كطريدة للنوم.

اشتقتُ إليك كثيرًا..

اشتقتُ لكِ...

* * *

أعفتْني نوميديا من محنة انتظارها، جاءتْ قبل موعدنا، وكان الأمر على بساطته مؤشّرًا إيجابيًّا أزاح عنّي القليل من ذلك الغضب الداخليّ، الذي كنتُ أستشعره وأنا أتلو القليل من رسالة الغفران على معراج خولة. حين رأتني نوميديا مقبلاً ترجّلتْ عن حصانها الأسود

Twitter: @ketab_n

الضخم، كانت تلبس فستانًا كثير الألوان، فستانًا أنيقًا يُظهر ساقيها البضَّتين وجزءًا من صدرها، ألوانًا قاسية.. أحمر، أخضر، رمادي، وبني، أشكالاً لزهور تعانق بعضها وتتشابك وتستحيل في ذهني صورًا لأجنَّة انتحرتْ أمّهاتهنَّ.. كانت الألوان تتضخّم في عينيَّ شيئًا فشيئًا، فتشكّل وجه خولة ثم لا تنفكّ تتبدّد لتصبح مجدّدًا زهورًا متعانقة:

ـ كم أنا موجع بألوانك وحزني..

قلتُ، فابتسمتْ، وبدتْ أسنانها الأنيقة منضّدة بشكل رائع لم تومئ لي بأيّة إشارة، وإن كنتُ أقرأ في عينيها استفسارًا، اقتربتْ وسلَّمت وأبقتْ يدها في يدي فهزَّتني إثر ذلك رعشة خفيّة ومجنونة في آن، تشابكتْ بعدها أصابعنا بشكل عفويٍّ وتحرّكنا، أومأت بحركة من رأسها لحصانها، فلحق بنا على الفور.. فتملَّكني الذهول أمام هذا التفاهم الخفيّ بين جميلة خرساء وبين حصانها، قلتُ:

ـ هل تعلمين أنّني بالقدر الذي أحبُّ فيه حضورك السحري أخافه أيضًا، بعد كلِّ لقاء أحسُّ أنّني أغرقُ في يمِّكِ الهادئ أكثر، أتورَّطُ فيك أكثر، ويشهق قلبي المعطوب باسمكِ أكثر فأكثر، نوميديا..

وسكتُّ، فلم يبق سوى وقع حوافر الحصان تدكُّ الأرض ويُسمع له صدى عميق داخلي. تطلَّعتْ إليَّ بفرح محتشم وابتسامة طلقة والرياح تهزُّ شعرها الأسيب الطويل، فيرقص بفرح ويحلِّقُ في السماء، ثم يرتدّ إلى وجهها فتزيحه بأصابعها الجميلة، أمّا أنا، فقد كنتُ كحصان متعب، يجرُّ خلفه عربة مليئة بالأحزان الثقيلة والأفراح الموؤودة.

ـ رحلَ الذين أحبّهم، وها أنا أواصل وحدي بطولتي الزائفة.

استفهمتْ بإيماءة من شفتيها، فأجبتها على الفور:

Twitter: @ketab_n

ـ يحدثُ أن يموت المرء حبًّا وهي كذلك، خولة قتلها حبُّها، لستُ أدري لماذا أقول لك هذه الأشياء، ربّما لأنّني في حاجة ماسّة لمن يتقنُ فنَّ الإصغاء، الإصغاء إلى هذا الوجع الذي يقصُّ كلَّ يوم وريدًا من أوردتي، دون أن يفكّر في حسم معركته معي بضربة قاضية.

وفضَّتْ اشتباك أصابعنا حين انحنتْ إلى حيِّز رملي، وجعلتْ تخطُّ:

ـ كلِّي آذان صاغية..

ومرَّتْ بأصابعها على العبارة وواصلنا المسير:

ـ أنا متورِّط في جريمة قتل غير مقصودة..

والتفتتْ إليَّ باستغراب، فاسترسلتُ:

ـ قتلتُ بغيابي طفلاً وطفلة بريئين، فأمّا عن الطفلة فكان اسمها خولة، كانتْ عاشقة عظيمة، قامرتْ بكلِّ ما ملكتْ يداها كي نعيش معًا قصّة حبّ كبير، لكنَّ الأقدار خذلتنا معًا، ولم تبقِ لها الأيّام منّي سوى شفرة حلاقة أهديتُها لها ذاتَ يوم سعيد احتفاء بعامنا الأوّل، وانسجامًا مع طقس الوفاء الذي أقمته ـ وهذه قصّة أخرى ـ المهمّ أنّها بعد أن حطَّمتُ بغيابي كلَّ آمالها، حطَّت الشفرة كعقرب على معصمها المزركش بأوردة خضراء جميلة، وجرَّتها بعنف وقسوة، وظلَّت تنزف حبًّا وشوقًا، كنتُ كلَّ أحلامها، كنتُ ـ كما يحلو لها أن تصرِّح دائمًا ـ السبب الوحيد الذي يربطها بالحياة، وعندما تغيَّبتُ متعمّدًا عنها لم تجد من حلٍّ سوى الانتحار.

شدَّتْ على أصابعي بقوّة، تطلَّعتُ إلى ملامحها بحزن، واسترسلتُ:

Twitter: @ketab_n

ـ أمّا الطفل الذي قتلتُ، فقد كان يتقلَّبُ في أحشائها حين ماتتْ. كان لزامًا أن يموت هو الآخر فأسقطتُ عصفورين بطلقة غياب طائشة، وانهارتْ حياتي بعدهما ومكثتُ شهورًا في مصحّة نفسيّةٍ، ولا أزال إلى اليوم مريضًا بها وبه.

التمعتْ عيناها ببريق خاصّ وهي تسترق النظرات إلى عينيَّ المتعبتين، انحنتْ مرَّة أخرى وخطَّتْ بسبّابتها:

ـ (لا عليك.. هذه هي الحياة، ولستَ وحدك من يتحمّل مسؤوليّة ما حصل).

ومسحتْ العبارة بسرعة، وأردفتْ:

ـ (حسبُك الآن أنّك مع من أسميتَها نوميديا، وما عدا ذلك باطل.. باطل).

وتطلَّعتْ إلى عينيَّ بفرح عارم يضمِّدُ شيئًا فشيئًا كلّ الجراحات التي انفتحتْ هذا الصباح، قلتُ:

ـ جميلة هي الكلمات القليلة التي تخطّينها وجميل صمتك، وأنا سعيد لأنّك معي ها هنا والآن، وإن كنتُ أخاف من عواطفي عليَّ، ولأنّني لم أعرف الفرح إلّا لمامًا، فقد صرتُ أخافه بل وأتحاشاه أحيانًا لكي لا يعرّي أحزاني فأنفضح، وأنت فرح اقتحَمني فجأة على الرّغم من أنّني أكاد أجهل من أنتِ، أفهمتِ ما أقصد؟

هزَّتْ كتفيها بلامبالاة، أمّا عندما أطلتُ التأمُّل في وجهها الأمازيغي الأصيل، الذي لا أعلم إن كان يجرّني قرونًا إلى الوراء، أم يدفعني سنوات إلى الأمام، فقد مسحت العبارة السالفة وكتبتْ:

ـ (لا يهمُّ من أكون، اعتبرني إن شئت طيفًا يبزغ من شقوق الجبل ويغيب.)

Twitter: @ketab_n

ومرَّتْ على العبارة بجنون، وأردفتْ:

ـ (اغتنم صمتي الاضطراري ودعني أكون، لا كما أنا، بل كما تشتهيني أن أكون.)

تطلَّعتْ إليَّ لبرهة، ثم كتبتْ:

ـ (لماذا لا نركب الحصان معًا؟).

واخترقني السؤال، كان فرحًا لا طاقة لي به، خفقَ قلبي بحرارة والتفتُّ إلى كلّ الجهات غير مصدّق ما أقرأ:

ـ نعم من دواعي السرور، لكن عندي شرط واحد؟

تطلَّعت إليَّ باستغراب واضح فأجبتُ بمكر:

ـ أنا لا أؤمن بمقولة «وراء كلّ رجل عظيم امرأة».

فانفجرتْ ضاحكة، فبدتْ أجمل، أكثر ممّا يتحمَّلُ قلبي العليل، قفزتُ إلى ظهر الحصان بخفّة لم أكن أتصوَّر إلى الأمس القريب أنّني أملكها، هو الحبّ إذن! مددتُ إليها يدي وجذبتها فارتمتْ أمامي، وواجهني ظهرها والشعر منسدل كشلّال عليه. أيُّ نار تشتعل الآن بين جوانحي! أيُّ تعب يولِّده هذا الفرح الموقّت! أيُّ رغبة هذه التي تنفجر داخلي وأنا أشدُّ كطفل بكلتا يديَّ على خصرها!! ورغم أنّني كنتُ مأخوذًا بالعطر الجميل الذي كانت تضعه نوميديا، إلّا أنّني كنتُ أشمُّ روائحهم كأنّهم يحومون حولي كالذئاب. واستيقظ داخلي خوف بشع لا على نفسي، بل على هذه المليكة. خفتُ من أن تدركها رصاصة طائشة كانتْ في الأصل تستهدفني..

استدارتْ إليَّ وحرّكتْ شاهدة يدها بشكل دائري، كانت تريدني أن أتكلّم:

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا عساني أقول يا نوميديا وكلُّ الأحاسيس تتداخل فيَّ، ربّما هذه اللحظات على ظهر هذا الحصان الخرافي الرائع، ويدايْ تنامان على خصر ملكة أمازيغيّة، تتسلّل من حين لآخر من وجع التاريخ وشرك الجغرافيا لترود موعدي. . قلت، ربّما في مثل هذه اللحظات أشعر بسعادة مخيفة، أخاف على قلبي منكِ، من جمالك، من صمتك، ومن غموضك وأخاف عليكِ من سوء حظّي وعلينا معًا، أخاف من القدر الذي يحوم على ضحاياه كبنات آوى متحيِّنًا الفرصة المناسبة للانقضاض.

وحطَّتْ يديها على يديَّ وسحبتهما برفق من خصرها إلى أعلى بطنها، وضغطتْ كأنَّ شيئًا ما سيحدثُ، ثم سحبتْ لجام الحصان فانطلق كالسهم، في تلك اللحظات واللحظات التي أعقبتها لم أكن متأكّدًا بأنّني صاح بما يكفي، أو أنّ العالم حولي واقعيٌّ كما ألفته. . تداخل كلُّ شيء في عينيَّ حتى إنّني كدتُ أجزم أنَّ الإنسان يمكن أن يستغرق عمرًا كاملاً في حلم، وفرحتُ لأنَّ هناك أملاً ولو ضعيفًا جدًّا في أن أستيقظَ من حياتي على حياة أخرى.

الحصان يعدو بسرعة رهيبة وشعرُ نوميديا الأسود يتطاير في السماء ويحجبُ عن عينيَّ الرؤية، وكنّا نهتزُّ معًا ويلتصقُ ظهرها بصدري أكثر، وتنفجر داخلي حسرة مريرة ورغبة ملحّة في بكاءٍ ورثاءٍ استباقي لهذه اللحظات التي سأفتقدها لا محالة فيما بعد. حين وضعتُ يديَّ على يديها وسحبتُ بهما زمام الحصان، فقد انطلق بسرعة مضاعفة والتصقتْ بي نوميديا أكثر، وشددتُ على ردفيها المكتنزين بفخذيَّ فاشتعلتْ كنيزك، اشتعلتُ وراودني وَلَهٌ جنسي، ربّما اشتهيتها في تلك اللحظة أكثر ممّا اشتهيتُ أيّة امرأة قبلها. . كان اشتهاءً خاصًا واستثنائيًّا كذلك!

Twitter: @ketab_n

تركتُ يدها وشددتُ مرَّة أخرى على بطنها وأسبلتُ جفنيَّ مستسلمًا للريح. أيقنتُ لحظتها أنّ الأشياء الجميلة التي تأتي بسرعة لا بدّ وأن تختفي بالسرعة نفسها التي جاءتْ بها.

ـ كانوا يسمُّونني أوداد.

قلتُ لها حين بلغنا مرجًا أخضر شاسعًا وغير بعيد عن القرية..

ـ وكانوا يظنّون أنّني ابن الوعول، وكان بعضهم يزعمُ أنّي ابن جنّيّة الوادي..

تطلَّعتْ إلى عينيَّ باستغراب، ثم اتّكأتْ على الحصان بظهرها، خفتُ أن يتحرّك فيخذلها وتسقطُ، إلّا أنَّ شيئًا من ذلك لم يحدث، فاسترسلتْ:

ـ على أيّ حال، هذه قصّة حزينة لا تنتهي، ستسمعينها منّي فيما بعد.

قفزتْ إلى الذهن صورة شهرزاد. ترى أَمِثلُها أنا أحاول استدراج نوميديا إلى مواعيدي بالحكي؟ لا أظنُّ ذلك، فالحياة ليستْ كريمة إلى الدرجة التي تمنحني فيها نوميديا لمدَّة ألف صباح وصباح. دنوت منها أكثر فتنهّدتْ بعمقٍ، أمّا حين وضعتُ يدي بكثير من الحذر على خصرها الممتلئ لم تمانع، بل أكثر من ذلك انجذبتْ إليَّ قبل أن تتراجع خطواتها قليلاً وتتّكئ مرّة أخرى على حصانها.

حين التحم جسدانا قليلاً اشتَعلتْ في ظهري كلّ الحرائق الخامدة، أحسستُ بالرعود تهزُّ دواخلي وبسماء متّشحة بالسواد تكاد تمطر داخلي فرحًا. كانتْ شفتاها شديدتا الحمرة، شهيّتين وطائشتين تتفرّسان في شفتيَّ وتناديانني تعال!!

Twitter: @ketab_n

أدنو.. ويعلو رأسها ببطء. تأمَّلتْ شعري الذي يكاد يغطّي عينيَّ، ثم مدَّتْ بلطف يدها وشدَّتْ على عنقي، وسحبتني برفق إلى شفتيها ولم أكن أملك غير الاستسلام لها.. حتى تلك اللحظة كان كلُّ شيء واضحًا ومفهومًا، وكانت كلُّ حركة منسجمة إلى حدٍّ مقبولٍ مع الحركة التي سبقتها. وما إن تلامستْ شفاهنا بشكل طفيف أو كادتْ تفعل حتى فاجأنا الحصان بصهيل مجلجل. أمّا ما تلا تلك اللحظة كان غريبًا وغامضًا إلى درجة تبعثُ اليأس، وكان من السرعة بحيثُ إنّني ما أكاد أستعيده حتى يبرق كشبح في البال ويختفي، إذ ما كان الحصان ينهي صهيله حتى انكسر عناقنا وقفزتْ نوميديا بسرعة وخفّة إلى حصانها، ومضى الحصان بها مسرعًا إلى أن اختفتْ.

هكذا خلَّفتني عاريًا منها على رصيف شهوة حارقة، كانت قبلة موؤودة سرعان ما تسرّبتْ إلى تخوم المجهول، بترها بصهيله الحصان بعد أن أشعلتْ فيَّ ما أشعلتْ.

وكانت طريق العودة طويلة، طويلة.. كأنّ الأرض تتمدّد أو كأنَّ إغرم تفرُّ غاضبة منّي. في كلِّ خطوة أخطوها. كانتْ أحزاني تعاودني بل وتتضخّم أكثر فأكثر، كأنَّ الإنسان كلَّما جرع من السعادة الشيء القليل أحسّ بفداحة حزنه وعمق الخسارات التي مُنِيَ بها. حين يتأمّل التعيس أحزانه بمنظار حزنه. ربّما يبتسم لها باعتبارها قدرًا محتومًا، أمّا حين يفعل ذلك بمنظار السعادة ـ مهما كانت ظرفيّة وسريعة الزوال ـ فإنّه لا يرى سوى خيباته باعتبارها طلقات عشوائيّة أصابته، ولم ولن يحسن التعامل معها.

Twitter: @ketab_n

(١١)

تقول جوليا في شريطٍ صوتيٍّ:

«مراد، هذا الرجل المستحيل أسطورة في زمن تعب من الأساطير.. وكان أجدر بالحياة أن تجعل مراد شخصيّة من ورق، أمّا أن يكونَ من لحمٍ ودمٍ وتُقترف في حقِّه كلّ تلك البشاعات، فإنّ ذلك يرفع حياته إلى قدر أعمق من المأساة، ولو أنّ غيره تحمَّل ما تحمَّله لانخذَل عن أوّل داهية. مراد تحمّل فوق ما تتحمّلُ الروح البشريّة وواصل حياته من هزيمة إلى أخرى صامدًا، على الرّغم من أنَّه يضمر بين جوانحه نزيفًا، كأنّ الحياة لم تخلقه إلّا لتجرِّب به كلّ الهزائم الممكنة.

«كنتُ أظنُّ أنّني قادرة على شراء كلّ ما أريده من هذا العالم المستعدّ لبيع كلِّ شيء، لكنّني اكتشفتُ أنَّ الإنسان الوحيد الذي لن أقوى على شرائه هو مراد الوعل. صحيح أنّني

Twitter: @ketab_n

اشتريتُ حكايته، لكنَّ الحكاية ليستْ كلَّ شيء، اشتريتُ الوجه الثاني للإنسان.

«أحيانًا، حين يضلعني إليه بشكل سحري على سرير من الرغبات الجامحة، أحسّ أنّه أكبر من كلّ الروايات التي كُتبتْ والتي ستُكتبُ. أحسُّ أنّني أقتحم غيهبًا مريرًا وأنّني خاسرة لا محالة. حين تنزلقُ أصابعه المخاتلة إلى أقصى تخوم الوجع، أحسُّ أنّني أظلمه.

حين يغدقُ عليَّ من فيض جسده وغِنَاهُ المطلق ويتحدّى في ذلك الماضي البائس الذي يجرُّه خلفه، أحسُّ أنّني في كلِّ ثانية أحشاءه. فهل قدر الكتابة أن تكون جريمة أقترفها في حقّ من أحبّهم فقط كي أعبِّر لهم عن مدى ساديَّتي وعن حجم الكره المزيَّف الذي أستشعره تجاههم؟

حين تضيق الحياة بمراد، يشرع في الحكي عن «أوداد» باعتباره وجهه الثاني والخفي، يلحُّ دائمًا أنّه صديق طفولته. لكنَّ أوراق بنهاشم تقول إنَّ أوداد هي التسمية التي أُطلقتْ على مراد أيّام طفولته في القرية، كما أنَّ تلك الأوجاع التي يسندها إلى هذا الصديق المزعوم هي الأوجاع نفسها التي جاء الملفّ الطبّي على ذكرها، مراد موجوع أكثر ممّا يتحمَّلُ عقل بشري، فكيف ستسعفني الكتابة على نقش وجع كهذا بين دفّتيْ رواية حزينة جدًّا وجنسيّة نوعًا ما؟!

الجنس إرادة الحياة الفعليّة، هكذا يقول مراد. وعندما يمارس الجنس عادة ما يفعل ذلك في صمت وخشوع مؤلمين، يجتاحني كطوفان ويشعل فيَّ كلّ البراكين الخامدة. مراد

Twitter: @ketab_n

استثناء جنسي بكلٍّ ما تحمله العبارة من معنى، حتى إنّني لم أحظَ ولو بربع المتعة التي يفيض بها جسد مراد مع كافّة الرجال الذين مارستُ معهم الجنس بمن فيهم زوجي...».

لستُ أدري لماذا مرَّ بي حلم الغروب الأخير...

حين تنزلق الشمس نحو البحر وينطفئ جحيمها، فتصدّر ذلك الصوت المجلجل القاسي الذي أدمى آذان كلّ الواقفين على مقربة من الشاطئ من غرباء وعشّاق ومعتوهين... أسكتُّ المسجّلة حين عصفتْ بي كلمةُ «زوجِي». تحسَّستُ أذنيَّ، وتخيَّلتُ قطرات دم لزجة تتقطّرُ منهما، وهزَّني دوار موجع وإحساسٌ مخرِّب بالغثيان. في غمرة سكراتِ الموت تلك وأنا مأخوذ بما خلَّفته فيَّ جوليا من جراح قاسية، رأيتُ نوميديا في ثوب أبيض تفتح ذراعيها وتركض نحوي، وما إن ظننتُ أنّني عانقتها حتى اخترقتني كأمل زائف، وبقيتُ معلَّقًا من قلبي على شجرة يلتفُّ حولها برابرة الزمن البائس.

رأيتُ في تلك اللحظة التي يتفتّقُ فيها الحلم من اليقظة أشياء كثيرة...

رأيتُ العابرين على رصيف جراحي واحدًا واحدًا...

رأيتُ من انتهكوا حقِّي في حياة بسيطة وعاديّة..

رأيتُ زبّانيّة الظلامِ يشحذون سيوفهم ويصيحون: حيَّ على الجهاد.

رأيتُ زوجيْ نضال وجوليا مخدوعين مثلي وبي..

رأيتُ غواية الكتابة تستدرج الخيانة والخائنين إلى النهايات التعيسة..

وبكيتُ طويلاً..

Twitter: @ketab_n

ولم أتوقّف إلّا حين داهمني النزيف.

* * *

وكنتُ منهكًا حتى آخر وجع فيَّ. حين توقّف الرعاف شعرتُ أنَّ أشياء كثيرة تهشَّمتْ داخلي. تطلَّعتُ إلى المرآة متسائلاً: أأنا أنا؟ ووجدتُ في المرآة أنّ هذا السؤال فارغ من أيِّ معنى، فقد اكتشفتُ ربّما منذ البدايات الأولى أنّني لستُ سوى مشجب تُعلَّقُ عليه أخطاء الآخرين..

انسحبتُ إلى الشرفة بعد أن انفتحتْ في جسدي شروخٌ كبيرة جعلتْ حتى النسائم المسائيّة، التي تكون عادة عذبة، تخترقني وتؤلمني! أشعلتُ سيجارة وتنفّستُ بعمق مشوب بأنين خافت. في مدخل الفندق، اجتمع نفر من القاطنين يلهجون بلغات مختلفة، وحدها الفنادق قادرة على لمِّ شتات البشريّة وتوحيد ما تفرِّقه اللغات والديانات والأعراف، ووحدها تقوى على تحمّل واستيعاب أحزان الغرباء وأسرارهم.. ومن مفارقات القدر وسخريّاته ألّا أشتري أنا الغريب سوى مرفإٍ آخر لأمثالي!!

ـ جميل هو غروب ظهر المهراز! أتذكر؟

هكذا تدفّق صوتُ نضال، تطلَّعتُ إلى الأعلى، فإذا بها تتأمّلني من شرفتها، أجبتُ:

ـ نعم، لا سيّما إذا كنتِ في الطابق الرابع من كلّيّة الآداب العملاقة.

ـ آه.. كم أشتاق إلى تلك القلعة!

ـ وأيّامٍ لنا غرٌّ طوال..

Twitter: @ketab_n

ـ كانت بالفعل أيّاما لا تُنسى.

ـ لم تمَّح يا نضال صورتها الجميلة من ذاكرتي! هل تذكرين تلك الطريق التي تسلّمك إلى الجامعة، حيّ الليدو على يسارك، إضافة إلى الثكنات العسكريّة؟ أمّا على اليمين فيقف الحيّ الجامعي كجبل، إذا تقدّمتَ أكثر تواجهك على اليمين «ساحة العشرين يناير الطويلة» ووجوه الطلبة، حتى وجوههم رغم أنّ الزمان يبدّلها من سنة إلى أخرى، إلّا أنّها صارتْ جزءًا من المكان.. إذا لم تلتفتْ وواصلت المسير، فإنّ الطريق ستفضي بك إلى الكلّيّة العملاقة إلى سحر الآداب.

ـ كم كبرنا يا مراد، وكم ضاعتْ منّا السنوات الجميلة وكم ضاعتْ بعدنا ظهر المهراز! لم تخبرني بعد لماذا هجرتني وهجرت الرفاق دونما سبب؟

(من قال إنّني انسحبتُ دونما سبب، لقد كان في تلك المواجهة الأخيرة التي خضتها سبب كاف، لن أنسى ذلك اليوم الماطر الذي صاح فيه رفيق، كان إلى وقت قريب رفيقي، بكلمات ألهبتْ الطلّاب وآلمتني أكثر ممّا ينبغي:

ـ اضربوا أبناء الزنا، ليسوا سوى لقطاء.

وكان يقصد قوّات التدخُّل السريع، لكنّه ابتعد عن أخلاقيّات اليسار. أذكر أنّني انتحبتُ في تلك المواجهة، وكنتُ إن سألوني عن تلك الدموع، أجد حجّتي في القنابل المسيّلة للدموع. منذ تلك اللحظة تأكّدتُ أنّني لا أصلح أن أكون رفيقًا على الأقلّ في النسخة المغربيّة).

ـ لماذا طال بك الصمتُ؟

ـ لا شيء. انسحبتُ لأسباب شخصيّة، وعذرًا سأنسحبُ الآن، عندي أشغال سأقضيها.

Twitter: @ketab_n

ـ ما برنامجك الليلة؟

واختزلتُ عليها المسافات قائلاً:

ـ لنلتقي الليلة... وداعًا.

ـ إلى اللقاء.

* * *

هل هو أمر ضروري أن تذكّرني نضال كلّما توحّدنا في السرير أنّ لها زوجًا وأنّ لزوجها زوجة، وأنّ الحميميّة التي تَجمعنا ليستْ سوى خيانة مشروعة! قالتْ بفرح:

ـ أنا مع من أحبّ وكفى. الخيانة الحقيقيّة تكون حين ينزل عليَّ بجسده الثقيل ورأسه المخمور، وما أكاد أقول إنّنا بدأنا حتى أجد الرجل قد انتهى، وانقلب على جانبه وخلّف زوجته منفرجة الفخذين على الفراغ، تتجاذبها شهوات قُدِّر لها أنّ تظلّ مؤجّلة وإحساس بشعٌ بالمرارة والتقزُّز..

ورغم أنّها كانت تنام على صدري العاري، إلّا أنّني كنتُ مشغولاً عنها بمطاردة طيف نوميديا الذي يملأ بحضوره فضاء الغرفة، يسبح في كؤوس الخمر ويندفع كعفريت من سحائب الدخان ويهزّني من أناملي من أهداب عينيَّ إلى مجهول ممتع. في ذروة الجنس وأنا أتلحَّف جسد نضال، كنتُ أمارس مثلها خيانتي المشروعة، أطبق جفنيَّ وأعرّي في الخيال جسد نوميديا المقدّس، أقصف نضال بكلِّ ما فيَّ من عنف وشهوة وأجرف حيطانها اللحميّة. آه لو تسكتُ عن هذياناتها لتمَّ لي مرادي وضاجعتُ نوميديا ولو في الخيال! نوميديا خرساء تكتفي بفحيح محرِّض يشعل كلّ شهواتي، نوميديا نبيَّة.

وكانت تختفي كلّما اهتزّتْ مياهي، فأصحو على جسد نضال

Twitter: @ketab_n

المتعب، ثم أعود إليه وتعود نوميديا إليّ لتملأني بحضورها، بفحيحها جنسًا ورغبة.. إلى أن هدَّنا الجنس والتعب، فسقطنا صريعين على عتبات النوم ـ أنا ونضال.

أنا والرفيقة نضال..!!

* * *

المصائب لا تستأذن أبدًا، لا تملك من اللباقة ما يجعلها تفكّر في طرق الباب قبل أن تقتحمنا.. عندما انزلقتُ صباحًا إلى غرفتي متعبًا وضائعًا، واجهني باب غرفتي مشرّعًا كفضيحة. أوّل الأمر ظننتُ أنّني نسيته هكذا أو لم أُحكم إغلاقه، لكنّني كلّما تقدَّمتُ خطوة إلى الأمام، تأكّدتُ أكثر أنّني على موعد مع فجيعة أخرى. أحسستُ أنَّ العالم، كلَّ العالم يمشي وفق منطق معكوس، وأنّ أشياء غير طبيعيّة يعبق بها مدخل الغرفة وجوُّها الذي كان مشحونًا باحتمالات قاسية.

شعرتُ أنّني غريب جدًّا عن فضاء غرفتي وعن هذه الأشياء / أشيائي المقذوف بها في كلِّ مكان. مرَّتْ يد الفوضى من هنا فتبعتها. ملابسي مكوّمة على الأرضيّة كأنّها معروضة للبيع في سوق للألبسة المستعملة، السرير مقلوب، زجاجات الخمر تهشّمتْ وملأتْ دماؤها المطبخ. وتذكّرتُ فجأة أوراقي ومذكّرة خولة وشرائط جوليا، ولم أتنفّس الصعداء إلّا حين عثرتُ عليها في مكانها لم تُمسَّ، وحزنتُ وأنا أقتفي العاصفة إلى الحمّام، وصُدمتُ أيّما صدمة حين وجدتُ أحد كتبي مدقوقًا بمسمار فوق دورة المياه تمامًا، وصدمتُ أكثر حين التفتُّ إلى المرآة ووجدتهم قد تركوا لي رسالة بـ الأحمر:

«ـــــ التحذير ما قبل الأخير ـــــ»

وكنتُ في تلك اللحظات، أحترق وأشعر أنَّ كلَّ أعضائي الداخليّة

Twitter: @ketab_n

تتفحّم دفعة واحدة، تمنّيتُ لو يسعفني صوتي لأصرخ بصوت مدوٍّ يهتزُّ له الغربان ورعاة الظلام فوق الجبل. عاد الملتحون مضمّخين بدماء مصطفى، عاد البياض الزائف ليفتح في أضلعي فجوات مزمنة من الكراهية.

بين الحروف الحمراء القاسية لهذا التهديد المكتوب على المرآة، رأيتُ ظهر المهراز أواخر القرن الماضي. رأيتُ الساحة الجامعيّة التي غطَّتْها دماء الطلبة قد استحالتْ إلى رصيف هامشيّ يكتظّ بلحاهم، رأيتُ إنزالاتهم في تلك المرحلة، رأيتُ جزّارين وبقّالين وبائعي خضرة وبائعين متجوّلين غرباء عن الجسم الطلّابي، يمشون كالديكة في الساحة الجامعيّة التي كانت إلى الأمس القريب معقلاً للمجد والنضال، يتأبّطون سواطيرهم وسلاسلهم.. كم أساؤوا إلى الجامعة!

وأنا أمسح العبارة بيد وأرشُّها بالماء باليد الأخرى، رأيتُ شلّال الدم الذي انفجر من عنق أحد الرفاق بعد أن مرَّ به سيف من سيوف الجزّارين الجدد، رأيتُ الموت يخبطُ بإلحاح وقوّة على بابه، رأيتُ شريانه الذي انفتح على الفراغ وأصابعه المرتجفة، رأيتني وباقي الرفاق متحلِّقين حوله يمضغنا الأسى والغضب، رأيتُ سيّارة الإسعاف التي لم تأتِ، رأيتُ نضال البعيدة تمام البعد على ما هي عليه الآن دامعة العينين شاحبة، رأيتُ سيّارات الشرطة تطاردنا من سفوح وسلان إلى فضاءات باب الفتوح، وتنتشلنا واحدًا واحدًا مخلّفين الساحة في يد القتلة الحقيقيّين، رأيتُ أشياء موَّهتْني الذاكرة حين أوهمتني أنّني نسيتها، رأيتهم بلحاهم المسبلة كالقردة يقتحمون حلكة الطرق السرِّيّة في ليل الجامعة، ويفضّون عناق عاشقين وحّدتهما الغربة! ثم رأيتُ الرفيق الشهيد وقد استسلم للموت في النهاية بعد أن عجزت كلّ المناديل عن سدّ الرتق الكبير في عنقه.

Twitter: @ketab_n

وأخيرًا، رأيتني في المرآة شاحبًا، أهو الخوف؟ أم هو الحدس الباطني الذي باغتني هذا الصباح بدنوِّ أجلي؟ وإن يكن ستحسن لي الحياة كثيرًا إن هي عجَّلتْ بنهايتي.

سحبتُ من كومة الملابس قميصًا وسروالاً، غيَّرتُ ملابسي بسرعة، وألقيتُ علبة السجائر في جيبي والولّاعة وأخذتُ معي مذكّرة خولة وانصرفت. في مقهى الفندق حيَّيْتُ حميد وناولته على عجل مفاتيح الغرفة ثم أوصيته بالبحث عن سيّدة تلملم شتات الغرفة، وهربتُ إلى الحقول وكانت يدي اليسرى ترتجف. ولأنّني كنتُ أمسك السيجارة بها، فقد أشعرني الأمر باضطراب فادح. وما دام الإحساس بالجوع هو الذي يسبّب لي عادة هذا الارتجاف، فقد أخذتُ من حقول إغرم تفّاحة وحبّات عنب من دالية دانية. تذكّرتُ مصطفى ومضغني حزن جافّ، ابتلعتْه الصدفة وخلّفتني على عتباتها منتظرًا، حين بلغتُ الوادي ركضتُ بكلّ ما أبقتْ لي الحياة من قوّة، كأنّني أستنزف نفسي. فككتُ عن الوادي طوق الصمت الذي كان مضروبًا عليه، وصرختُ فيهم بعد أن فككتُ كذلك كلَّ أزرار القميص:

ـ افعلوها وخلّصوني. اخرجوا من شرنقة جبنكم واقتلوني.

وكانت الأصداء تعود إليَّ طازجة دون أن تصحب معها رصاصة ماهرة، فالتجأتُ إلى مقام سيدي عيسى متعبًا. تأمّلتُ حبّات التين التي احمرَّ حليبها، ولم أتمالك جسدي وانخذلتُ فوق صخور المقام وبكيتُ بشكل جنائزي. أحسستُ أنّني هشٌّ أكثر ممّا ينبغي، وبقيتُ هناك جاثمًا فوق صخور المقام إلى أن أدركتني نوميديا وحصانها، عندما تطلّعتُ إليها بعينيَّ الدامعتين، أحسستُ أنّها أمل بعيد المنال، وتأكّدتُ أنّني حقًّا علقتُ في شباكها.

Twitter: @ketab_n

(١٢)

أرخيتُ زمام الحصان حين رأيتُ غير بعيد عنَّا وعلاً صغيرًا يراوغ بمهارة غريزيّة جروف الجبل ويقاوم إغراءات الهاوية. أغرقتُ وجهي في شعرها المخملي المتطاير ثم اتّكأتُ برأسي على كتفيها، وكانت مذكّرة خولة تنام بيني وبين ظهر نوميديا؛ أمّا الحصان، فقد كان يمشي الهوينى واثقًا من خطاه ودربه.

ـ لم أختر على أيّ حال حياتي، لذلك لستُ خائفًا من أيِّ شيء أو أيِّ أحد، لم يبق في يدي سوى أن أتابعَ هذا الجنون إلى آخره. أتعلمين..؟ أحيانًا أصدِّق أهل القرية الذين ألحُّوا على أنّني لعنة، ولذلك أخاف عليك من هذه اللعنة، ويكفي أن تصيخي السمع إلى وجعي من صفره إلى هذه اللحظة لتتأكّدي أنَّ الذين أحببتهم، تمامًا كأولئك الذين كرهوني، ماتوا؛ وأنا اكتفيتُ بمراقبتهم وهم يسقطون كأوراق الخريف. كنتُ أموتُ بموتهم تدريجيًا، هكذا يأكلني الموتُ على مهل. إليك مثلاً قصّة سيّدتين كيف لقيتا موتهما، وكيف كنتُ متورِّطًا في ذلك بشكل أو بآخر. أعرف أنّني لن أقول كلَّ شيء وأعرف

Twitter: @ketab_n

أيضًا أنّ الحياة اللعينة قد سلبتك القدرة على الكلام والاستفسار، فعذرًا إن كان في كلامي فراغات كثيرة، ولك أن تملأي هذه الفجوات بما تريدين..

وحرّكتْ رأسها موافقة، فتابعتُ:

ـ العجوز أمّ امحند، للرجل الذي عثر عليَّ طفلاً في شهوره الأولى وأسكنني بيته، كانت أكثر من في ذلك البيت معارضة لوجودي، وكانت لا تفوّتُ فرصة لتهينني وتحطَّ من قدري، كرهها كان يكبر معي إلى أن استحالتْ في أيّامها الأخيرة إلى كتلة كره بشعة.. أتعرفين كيف ماتتْ؟

ـ ...

ـ لقد أصابتها لعنتي كما صرَّح شيخ القرية وزبّانيّته، احترقتْ بل واستحالتْ إلى كتلة لحم مشوي، واحترقتْ معها حياة أربعة أشخاص كانوا يتعاملون معي بقسوة أو يسكتون على ظلم العجوز لي. صحيح أنّهم لم يموتوا، لكنَّ حياتهم الطبيعيّة ماتتْ، كلُّ ما قاموا به أنّهم تطوَّعوا لإخراج العجوز من المطبخ الذي استحال إلى فرن كبير، لكنَّ لعنتي لم ترأف بهم ـ كما صرَّح فقيه القرية الدجّال ـ إذ التصق جلدها المحترق بأياديهم فأورثهم الأمر مرضًا خبيثًا لا يشفى إلّا بالبتر! أمّا المرأة الثانية فهي صفيّة وهي قصّة طويلة أفضّل ألّا تسمعيها كاملة، هي أيضًا ماتتْ، لأنّها كانتْ تكرهني وتكره ذكورتي ونجابتي.. لكنّها لم تمتْ إلّا بعد أن خلَّفتْ في روحي وفي جسدي ندوبًا لن تُمحى أبد الدهر! صفيَّة هذه كانت أمًّا لثلاث بنات ولم يستقدمني زوجها من إغرم إلى المدينة إلّا لأسدّ مسدّ الذكر في البيت، وربّما أيضًا لأنّ زوجها جاء بي من دون مشورتها، فقد اعتبرتني عدوًّا لها لاعتقادها أنّ الزوج لم يقدم على مثل هذه الخطوة إلّا بعد أن تأكّد من عجزها عن إنجاب

Twitter: @ketab_n

الذكر، ولأنّ معاناتي معها وبسببها كانت أكبر من الوصف، فإنّني أفضّل ألّا أخوض فيها وأكتفي بالسؤال، من قتل صفيّة؟ هل لعنتي أم حلمها.

ـ . . .

ـ حين زفّ لها الطبيب بشرى حملها، طارتْ كسرب غربان في السماء. أمّا حين أكّد لها فيما بعد أنّ ما في أحشائها ذكر، فقد قلّل هذا من سخطها عليَّ، لكنَّ ذلك كان بعد أن لبستها لعنتي وفاتَ الأوان وانتهى أمرها في صباح شتويّ بارد، استيقظتُ فيه على صراخ مزلزل هزَّ البيت. وفي الظهيرة جاءني نعيها. كلّ ما في الأمر أنّ السيّارة التي كانت تقلّها إلى المستشفى ـ وكانتْ لأحد الجيران ـ قد اصطدمتْ بشاحنة أزبال، كانت مرابطة صدفة في أحد أزقّة المدينة القديمة، قضت نحبها وقضى الطفل في أحشائها ونجا الباقون. .

وتوقّفتُ عن الحكي بسبب ألم فادح، جرّني من رأسي صوب عوالم تبرق وتضمحلُّ في أقسى وأقصى تخوم الذاكرة. تذكَّرتُ ما حلَّ بي بعدها، وكيف أنّ الحسين، زوجها، قد صدَّق ما راج في القرية عن لعنتي، فأسلمني بشكل سافل إلى شوارع المدينة التي تلقّفتني كمن يتلقّف هديّة من السماء. همتُ على وجهي، فوق الظهر حقيبة مليئة بالأسى والملابس والكتب، ليلاً كنت أفترش الجرائد وقطع الكرتون وأتوسّد حقيبتي، وألتحق صباحًا بالثانويّة. ومن حسن حظّي أنّ تشرّدي هذا كان بعد أن اشتدَّ عودي، فكنتُ أعمل في أوقات الفراغ حمّالاً أو بائع سجائر أو موزّع جرائد في أحسن الأحوال. على أيّ حال، كان ذلك قبل أن يفاجئني مصطفى في يوم حزين مفترشًا الأرض، ويأويني إلى بيته شهرين قبل الرحيل الكبير إلى القلعة الحمراء، إلى ظهر المهراز. .

Twitter: @ketab_n

حين انتهينا إلى بركة «تامجا»، توقّف الحصان بشكل عفوي. ترجَّلتُ عنه، ومددتُ يدي إليها وأنا أنزلها، التحم جسدانا في لحظة رائعة. لكنّها سرعان ما ابتعدتْ تطلَّعتُ إلى ملامحها، ناديتها:

ـ نوميديا.

تأمّلتني، وأنا أفكّ أزرار القميص زرًّا زرًّا، اقتربتُ منها، فتوجّستْ منّي خيفة. قرأتُ ذلك في أساريرها، لكنّها لم تتراجع ولو نصف خطوة إلى الوراء، حين وقفتُ أمامها كنتُ ممتلئًا بالفجيعة، أدرتُ لها ظهري قائلاً:

ـ أترين..؟

ـ ...

ـ إنّها صفيّة التي حدّثتك عنها.

مدَّت يدًا إلى ظهري، ومرَّتْ عليه بسبّابتها كأنّها تتّبع ندبًا إلى نهايته. في لحظة مجنونة وضعتُ مذكّرة خولة والهاتف جانبًا، وركضتُ نحو البركة، وأخمدتني فيها كأنّني قطعة حديد حمراء تحاول مطرقة الزمان تطويعها، لكن عبثًا.. في تلك الثواني القليلة التي سبقتْ اصطدام جسدي بماء البركة، تأكّدتُ أنَّ نهايتي ستكون لا محالة على يد نوميديا، وأنّ قلبي لم يعد يتَّسع لأوجاع حبّ جديد. وسَرَتْ في ذهني فكرة كأنّها الحقيقة «جمال نوميديا مرض مزمن وجسدها العاجي فتنة وصمتها.. آه صمتها وحي، نوميديا نبيّة».

حين اشتبك جسدي بماء البركة، خفتُ على نوميديا من سيوفهم الصدئة، وتوحَّدت الفجيعة داخلي. تخيّلتها شفرة حلاقة تنزلق في لحظة سهو من جوفي، وتخرّب في طريقها ما أبقت فيَّ هزّات القدر العنيفة، في أجزاء الثانية التي أعقبتْ انسحابي من الماء، وشعري

Twitter: @ketab_n

يتدلّى على عينيَّ. رأيتُ ـ أو تهيّأ لي أنّي رأيتُ ـ خولة تركض بجنونها المحبوب صوبي، أزحتُ بخفّة وفرح شعري عن عينيَّ، سمعتُ لارتطام جسدها بالماء دويًّا. أمّا عندما انسحبتْ من الماء كما تفعل إناث الدلافين ووجدتُ نوميديا، لا خولة، فقد تأكّدتُ أنَّ أشياء كثيرة في ذهني تسير على غير ما يرام، وأنَّ عالمًا من الأطياف يزاحم أمام العالم الحقيقي، وخزني وجع مؤلم في رأسي، في جبهتي بشكل دقيق، وسَرَتْ ذكرى خولة حين سألتني ذات مساء شتويّ حزين:

ـ كيف ترى أحزانك؟

ـ كالعنكبوت، تفتح في جسد ضحيّتها فجوة وتحقنه بمادّة تذيب صلابة عوالمه الداخليّة، ثم تشرع في امتصاصه إلى أن تتركه جسدًا فارغًا من أيّ شيء، وأنا لا شكّ معلّق في زيف خيوطها، تؤلمني الفجوات التي تتّسع داخلي يومًا بعد يوم.

التفتُّ بِوَلَهٍ إلى نوميديا، وفركتُ عينيَّ غير مصدّق ما أراه. كانت ترمقني بنظرات ملغّزة وصدرها يعلو وينزل انسجامًا مع شهقاتها وزفراتها، والماء هذا المجنون العاري وحّد ثوبها الأبيض وجسدها، فصار الأبيض شفّافًا، وصار الجسد محنة جديدة.. وموجات الماء تسافر بيننا مشحونة برغبات مكبوتة وعشق صامت، وحدها نوميديا كانت تملك جرأة التركيز في عينيَّ أطول قدر ممكن، عيناها الواسعتان والجميلتان كانتا مؤتلقتين ببريق سحريّ متميّز، أمّا شعرها فقد تشظّى بسبب الماء خصلات خصلات، فبدتْ أكثر إلغازًا وغموضًا ممّا هي عليه. أمّا جسدها الصلب المتماسك كشجرة أرز، فقد التصق به الثوب، فبدتْ تفاصيله محرِّضةً أكثر، جيد متماسك وغضّ، نهدان ممتلئان بالخصب، مرتفعان ونافران كأنّهما منحوتان بدقّة عالية.

Twitter: @ketab_n

نوميديا فتنة، حين أخذتُ أحثُّ الخطو نحوها، صار الماء ثقيلاً يقاومني، أمّا عندما لم يعد يفصل جسدينا سوى القليل القليل، فقد التهب قلبي وصفّقَ بإلحاح، أخمدتُ يديَّ في الماء فحطَّتا كطائرتين منكوبتين على سفوح خصرها، وارتجفتْ داخلي أشياء كثيرة وسرتْ في أطرافي رعشة لذيذة وحارقة، اقتربتُ أكثر حتى انغرستْ حلمتاها في صدري، شددتُ على خصرها بلطف ودنوتُ، جمال نوميديا يشرّدني، يبدّدني ويسحقني، جمال نوميديا أشرس عذاباتي. وكنتُ في السرّ خائفًا من أيِّ مفاجأة سخيفة، كأن يصهل الحصان فتفرَّ إليه، دنوتُ أكثر إلى الشفتين العسليّتين، فارتختْ أطرافها واستسلمتْ لحرارة الموقف..

لكنَّ شيئًا لم يكن، عندما أوشكتْ شفاهنا على الالتحام انخطفتْ نوميديا!! انزلقتْ من بين يديَّ كسمكة وامتصّها ماء البركة فجأة، بحلقتُ في الماء طويلاً وأنا واقف على حوافّ الشهوة، طال مكوثها تحت الماء، وكانت كلُّ ثانية في غيابها تمرُّ عليَّ كأنّها الدهر، وكدتُ أجنُّ لولا أنّها انسحبتْ من الماء باندفاع الدلافين، ولا أدري بالضبط إن كنتُ التفتُّ إلى تلك الحمرة الطافية حولي قبل انسحاب نوميديا من الماء أو بعد ذلك، لكنَّ الأمر الغريب أنّ ذلك لم يلفت انتباهي كأنّه أمر واردٌ واعتيادي. تأمّلتُ نوميديا، كانت تكبّل وجهها أسئلة مؤجّلة، وكان يكفي أن تشير بسبّابتها إلى أنفي لأدرك أنّني فريسة لرعاف آخر، جرَّني في لحظات سهو بين مخالب اللذّة وأنياب الفجيعة إلى التخوم القصيّة للدهشة.

لا بدّ أنّ النزيف قد داهمني في الوقت الذي هممتُ فيه بتقبيلها، وإلّا لما اكتظّت البركة حمرة ولا انفلتتْ من بين أصابعي إلى قعر البركة، وخلّفتني ذابلاً أنزف في صمت. ولم أفعل شيئًا لأوقف النزيف

Twitter: @ketab_n

الذي بدأ يقتات من أعصابي، كنتُ مأخوذًا بها جنسًا إلى أبعد الحدود، رأيتها تغادر البركة وتجرُّها خلفها وأنا واقف على صفيحة شهويّة حارقة، راقبتُ انسحابها من البركة مشدوهًا ومنخطفًا، وتابعتُ تفاصيل جسدها، أقصد تلك التي كان الماء يضمرها: ردفان مكتنزان يعلوان وينزلان كأنّهما جزء من نواميس العالم، وثوبها المبلّل التصق بها فبدتْ جسدًا حقيقيًا متكاملاً، كان الثوب الذي انحصر عند أعلى الفخذين يشعلني، فلا يضجُّ في روحي ولا جسدي سوى صوت الشهوة المزلزل، اشتهيتها جسدًا أضلعه إليَّ وأفنى فيه وأُبعثُ فيه حيًّا، ونسيتُ حقًّا أنّني أنزف، شعرتُ أنَّ النسيان صحبة نوميديا أمر ممكن، ليس نسيان الرعاف وحسب بل ونسيان جميع خيباتي وآلامي، رأيتُ فيها الشفاء.

أمّا ما جرى بعد ذلك، فقد كان أشبه بحلم ننسى نصفه. استدارت إليَّ بعدما اقتربتْ من حصانها فاشتعلتُ موتًا وحنينًا إليها، وتغلْغلتْ داخلي حقيقة مرَّة هي أنّ نوميديا أبعد من أن تدركها أصابعي، مدَّتْ يدها إليَّ وأومأتْ لي: تعال!

كانت أصابعها وعيناها البهيّتين تناديانني بإغراءات واضحة، فحثثتُ الخطو صوبها، فصار ماء البركة أثقل بكثير ممّا كان عليه كأنّها دمائي أثقلته. قاومتُ باستماتة تمرُّده وجبروتها ومضيتُ، صحيح أنّ ألمًا حادًّا كان يشقّ جبهتي إلّا أنّ نداء الحياة داخلي، نداء نوميديا استطاع أن يقهر إلى تلك اللحظة نداءات الموت التي أدمتني، لكن بعد ذلك لم أعد أذكر على وجه التحديد ماذا وقع! فالنزيف الذي تجاهلته طويلاً لم يتجاهلني، كان يأكل من قواي شيئًا فشيئًا. حين بلغتُ اليابسة أدركتُ فداحته.. أمّا نوميديا، فكانت تبدو وتختفي حينًا وتتداخل حينًا مع تفاصيل أخرى من حياتي، تطفو على الذاكرة

Twitter: @ketab_n

وتستحيل إلى صور حقيقيّة أراها رؤية العين، وأنا في كلّ هذا أقاوم ذلك الخدر الذي بدأ يزحف على أطرافي. أنا أزحف صوب إغراءاتها المتكرّرة، ودمي ينساب على فمي مالحًا ويشكّل نقطًا صغيرة أمام خطواتي المجهدة.. في لحظة انكسار ـ أذكر ذلك جيّدًا ـ مددتُ يدي إلى نوميديا، لم أكن أريد منها في تلك اللحظة أكثر من أن أحتضر بين أحضانها، إن كان لا بدّ من احتضار، لكن دون جدوى! لا هي تقترب قليلاً، ولا أنا أقوى على بلوغها، أحسستُ بفشل يصعد من قدميَّ ليشلَّ كلّ أطراف الجسد المستنزف. كانت أنفاسي تعلو وتخبو مجهدة، وكان قلبي المرقّع كجوارب الفقراء يتمزّق في صمت، ويقاوم تصدّعاته التي بدأت تتّسع بخفقان بطيء جدًّا، ولكنّه مدوٍّ يُسمع له صدى عميق وحزين داخلي.

ورأيتها تبتعد، أو لنقل كنت أراني أبتعد، جثمتْ على عينيَّ حلكة قاتمة، فركتهما، فاستحالتْ الحلكة إلى مساحات بيضاء تصغر شيئًا فشيئًا إلى أن اضمحلتْ في السواد، وسمعتُ لارتطام جسدي بالأرض وقعًا صاخبًا، وغشيني ألم لذيذ. كان نداء الموت يتنزّل فيَّ فيرفعه عنّي قليلاً نداء الحياة.

أمّا نوميديا، فقد أصبحت وجعًا آخر يلتحق بقائمة الأوجاع التي لا شفاء منها، وأنا الآن متعب وضعيف، وإن كنتُ أواري هذه الحقيقة حتى عن نفسي، أنا قشّة في مهبّ العواصف والسيول!

كلّ الذين أحبّهم يرحلون، حين يكون حضورهم بالنسبة لي ضرورة ملحّة. كلّ الذين أحبّهم يكلّفونني ما لا أطيق، أمّا الآخرون فكلّ بطل مسرحيّته التي لم يقرأ نصّها! الأسواق تكتظّ بهم والمنازل والفنادق والملاجئ والمرافئ والمحطّات.. وأمراء الظلام الجدد يدهنون لحاهم بالزيت، فتشعُّ ببريق قاس.. وخولة في مكان قريب

Twitter: @ketab_n

تبكيني، وتبكي طفلنا، وجوليا، هي الأخرى في البعيد تَحْبِكُ قصَّتها كأنّها «تغزل» الصوف أو تنضِّد ضفائر طفلة شقراء لقيطة! أمّا أنا، من أنا؟ أنا الممدّد فوق جنادل الوادي، عاريًا كمجنون ليلى في دقائقه الأخيرة..

الآخرون ثقبوا قلبي، حين لم يلتفتُوا إلّا شفقة إلى الأسلاك الشائكة التي تضيق كلَّ يوم على روحي القلقة. أحيانًا أسأل، أيَّ ذنب جنَيتُه لأعيش حياة القيء هذه؟ كان جميلاً لو كنتُ غيمة أو شجرة صفصاف، تراودني نسائم إغرم وأنا مستسلم لوحدتي..

إغرم لا تلتفتُ لغيابي أو حضوري، لا فرق! إغرم كنوميديا تعيشني كما تشاء هي، دون أن أظفر بفرصتي لأعيشها.. هكذا شاءت نواميسها، تعيش بنا أو دوننا، الأمر سيَّان عندها، إنّها في ملكوت سحرها وبهائها هي الأصل والمبتدأ، وهي المنتهى. أمّا مراد الوعل، فليس سوى عابر سقط سهوًا من مكان ما، ووجد نفسه في أحضانها، فتشبّث بها ظنًّا منه أنها أمّه.

إن كان لي حقٌّ في أن أأسف على شيء، فسآسف على أولئك الذين أحبّوني ورحلوا دون أن ألفتَ انتباههم إلى شعاب أوجاعي السحيقة؛ وإن كان لا بدّ من اعتذار، فخولة أجدر به، وإن كنتُ أملك الحقّ في أن أسامح، فسأسامح قلبي.. قلبي الذي أتعبتني ثقوبه وتصدّعاته «لقد عذّبني قلبي وأحسن تعذيبي».

Twitter: @ketab_n

مع مسوّدات رواية «مراد الوعل» لجوليا (ك)

قدري ألّا أُشفى منك يا مراد، تبًّا لكلمة «القدر»، التي نعزو إليها جميع حماقاتنا وخيباتنا! ربّما لنخرج من تجاربنا بالحدّ الأدنى من الشعور بالذنب. في إغرم ـ هذه القرية الغامضة واللامبالية ـ تستحيل الذكريات، حتى الجميلة منها، إلى لزوجة سوداء تضيق على القلب والذاكرة.. إغرم! أحسُّ أنّها تكرهُني في غيابك حدَّ المقت، أمّا أنا فلا أقوى إلّا على حبّها تمامًا، كما كنت تفعل ربّما وفاء لذكراك، أو ربّما لأنّ لوثة عشقها أصابتني مثلما أصابتك.

في كلِّ صيف، تغريني هذه القرية بالعودة، فأعود إلى غرفتنا في الفندق، في كلّ صيف تغريني بأن أذبحك مرّة أخرى بقلمي وأنشر دماءَكَ على البياض، في كلّ صيف تستبدّ بي حالة عطش إلى جسدك فأطارد سرابَك حتى أتعب. آه، كم أشتاق إلى عينيك، إلى محيّاك، إلى ذلك الزغب الخفيف الذي يتوسّط صدرك.. كم أحنُّ إلى صوتك المجروح دائمًا!

Twitter: @ketab_n

في كلّ صيف أموت بك، ربّما لا أموت بشكل كلّي، لكن تموتُ فيَّ كلّ صيف أشياء كثيرة، تنسلخ منّي أشياء صميميّة، وتتضخّم في المقابل أورام الذنب داخلي.

«... تمنّيتُ لو لم يكن بنهاشم وسيطًا بيني وبينك، لو حلّت الصدفة مكانه، كأنّ تكونَ على عجل فترتطم بي صدفة في مكان ما، فتنحني لتناولني الحقيبة وتدعوني بعدها إلى فنجاني قهوة، أو تطلب منّي على الأقلّ رقم هاتفي وتبتدئُ الحكاية بعدها! لكنّني لم أستجدِ الصدفة، لأنّني لا أؤمن بعبثيّتها. لقد اخترتُك قتيلاً عن سبق الإصرار والترصُّد، وبحكم أنّ بدايتنا كانت آثمة، فقد كان أمرًا طبيعيًّا أن يكون كلّ ما جاء بعدها أكثر إثمًا..

لكنّني أحببتك كما لم أحبَّ رجلاً سواك، لكن بعد فوات الأوان. فالحبّ العظيمُ لا يكتمل أبدًا، لا نلتفتُ إلى عظمته دائمًا إلّا بعد فوات الأوان.. وأنا لم أكن مستعدّة للتمسُّك أكثر بهذا الحبِّ، والعالم من حولنا ينهارُ بسببي. وعجّلتُ بنهايتك كذلك ـ وهذه قمّة التطرّف والساديّة ـ ليس فقط لأدفعكَ للكلام والبوح، بل أكثر من ذلك انتقامًا منّي، لأنّني لا أستحقّك. والآن، والزمان قد جرى بيننا، استشعر مدى أنانيّتي وغبائي حين لم أكتفِ بالتفرُّج فيك وأنت تَنذبح كلّ يوم أمامي، بسبب أولئك الذين لم يتركوا في قلبك ولو حيِّزًا صغيرًا يسعفك على الاستمرار. قرّرتُ أن أكون في صفِّهم ضدّك، وأن أرسل قلمي في ظهرك مديةً، لكنّهم كانوا أشرف منّي على الأقلّ. واجهوك وصرَّحوا بذلك علنًا، أمّا أنا فقد خُنتك وطعنتك في الظهر، صحيحٌ أنّني التفتُّ إلى هذه الحقيقة وحاولتُ معالجتها مهما كلّفني الأمر ـ لكن دائمًا بعد فوات الأوان ـ، أعترفُ يا مراد أنّني قتلتك، وأعترف أنّني تعمّدتُ أن أضع كلَّ الأدلّة التي تدينني في متناول يدك،

Twitter: @ketab_n

وأواجه بعد ذلك كلَّ النتائج المحتملة، تعمّدتُ مثلاً أن أُبقي حقيبتي مفتوحة علَّك تفتّشها، تعمّدتُ أن أنشر رقم بنهاشم في كلِّ أوراقي لعلَّك تلتفتُ إليه، كنتُ أرى في الأمر انتحارًا شريفًا، لكنَّك كنتَ أشرف منِّي حين صفعتك على خدِّك الأيمن فأدرتَ لي خدَّك الأيسر. كنت أتوقّع أن تَثُورَ عندما تكتشف حقيقتي، لا سيّما من الشرائط الصوتيّة التي اكتشفتُ بعد نهايتك أنّك استنسختها، لكنَّك لم تفعل. والأدهى أنَّ تصرّفاتك تجاهي بقيتْ على ما هي عليه، هكذا قتلتني مرَّتين بصمتك وكرمك.. ربّما، لأنّ كلَّ ما فيك وقتها كان ينزع نحو الغياب، بعد أن امتلأتَ بأحزانك، لم تعد حربك مع من ثقبوا بقسوة قلبك ـ بمن فيهم أنا ـ بل حربك كانت مع الحياة، التي ورَّطتك منذ البدء في مغامرة خاطئة. فلم تكن تبحث في النهاية سوى عن نهاية شريفة، أمّا ما دون ذلك، فلم يكن يهمُّك في شيء. أذكر قولك ذات يوم وأنت واقف بين الحلم والهذيان:

ـ لا يهمّني ما وراء الموت، عشتُ حياة بشعة، ما هو آتٍ مهما كان بشعًا لن يكون أبشع ممّا مضى.

«سامحني مراد، فقد استهدفتك أدبيًا حتى قبل أن أراك، وربّما قبل أن أجيء إلى المغرب أصلاً. كانت في البال ضحيّةٌ روائيّةٌ ما، وكان قدرك أن تكونها. لكن ما وجدته هنا كان مخالفًا تمامًا لما تصوّرته أو قرأته، كنتُ أتصوّر أنَّ روايتي ستكون حول رجل ضخم الجثّة، يلبس ثيابًا فضفاضةً وينتشي بكوب قهوته الحارّة، ويفتل شاربه من حين لآخر، ويعقفه نحو الأعلى برمًا بفحولته.. ومراد لا يمكن أن تسحب عليه هذه الوصفة الجاهزة التي سعتْ إمبريّاليتنا الأدبيّة والسياسيّة إلى تكريسها في أذهاننا. كان حضاريًا أكثر من أيِّ أوروبي، وفحلاً أكثر من أيِّ شرقي أو إفريقي، أكثر من ذلك كان مراد سرابًا،

Twitter: @ketab_n

غيمة. . كلّما حاولتُ ضبط ملامحها تغيَّرتْ، كان ألف رجل في رجل واحد.

«مراد. . رجل لم أفهمه قطُّ. كان فيه من التعقيد ما يجعله جذّابًا للنساء بشكل غير معقول، وبعد أن نبشتُ في حفريّات علاقاته القديمة، وبعد جلسات مع الكثير من الجميلات اللواتي وقعن في شَرَكه، استنتجتُ أنَّ ما يعطي لشخصيَّته كلَّ تلك الجاذبيّة هو غموضه، هذا الغموض الذي يجرّد المرأة من كلِّ طاقاتها، يشلُّها تمامًا، فلا تنفكّ تعيد السؤال ذاته: من هذا الرجل؟ دون أن تظفر بإجابة تشفي غليلها.

أخطأتُ إليك السبيل. . كان على الأمور أن تسير بشكل مختلف تمامًا، لكنّ الحياة، مثل كتابة رواية، تكون حرِّيّتنا فيها أوّل الأمر فجَّة، لكنّها مع أوّل اختيار حقيقي، تضيق شيئًا فشيئًا إلى أن تصير أضيق من عنق زجاجة! ببساطة، لأنّنا نستسلم للخيارات التي يمليها علينا الاختيار الأوّل. ولم أختر مراد أوّل الأمر بل كان امتدادًا لاختيار قبله، وهو استنطاق حاضر الشرق من خلال استنطاق الرجل الشرقي، كان هذا الموضوع واحدًا من ضمن مئات إن لم نقل ألوف المواضيع، التي كانت مطروحة أمامي، لكنّني لم أختر سواه، وكان بإمكاني أن أختار أيَّ بلد، لكنّني اخترتُ المغرب. وعند قدومي، كان بإمكاني أن أختار أيَّ رجل، لكنّني فضّلتُ أن يكون معتلًّا نفسيًّا. وعلى طاولة الطبيب كانت مطروحة أمامي عشرات الملفّات، لكنّني لم أختر سوى ملفّ مراد. وفي تعاملي مع هذا الوعل السيّئ الحظّ، كان أمامي العديد من السبل، لكنّني اخترتُ أن أوهمه بالحبّ. . وحده حبُّه الذي تغلغل فيَّ لم يكن اختيارًا بقدر ما كان قدرًا.

من الاختيار الأوّل، والذي كانت حرِّيَّتي فيه فجَّة، وعبر سلسلة

Twitter: @ketab_n

من الاختيارات التي استبعدتْ الكثير الكثير من الاحتمالات، انتهيتُ إلى خيارين لا ثالث لهما، أن أقتلك أو أنسحب.. ولأنّني تورّطتُ بما لا يدع حيِّزًا للتراجع، فقد عقدتُ العزم على الاختيار الأوّل مهما كلّفني الأمر، هكذا كانت الجريمة! كلُّ الجرائم لا تتمُّ إلّا بعد انحصار اختيارات المجرم في خيارين أو ثلاثة، لذلك نكون أحرارًا أكثر كلّما، كانت فرص الاختيار أمامنا أقلّ.

بعد اختفاء مراد، فهمتُ أنَّ الرجل الشرقي فيه شيء من شهريار، لكنّه ليس نسخة مشابهة له، وفهمتُ كذلك، ما فهمه العديد قبلي، أنَّ التعميم تعسُّف ينتج عن الاعتداد بالأنا الجمعي، أمّا عن مراد الوعل فلم يكن بعيدًا عن شهريار، لكنَّه كان مثقّفًا من الدرجة الأولى، وأكاد أجزم أنَّ نبوغه المعرفي على حسناته، قد عمَّق فهمه لمأساته الشخصيّة، هو الذي سعى دائمًا لوضع حواجز بين حياته وكتاباته فقط كي لا يكثر عنه القيل والقال..».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

نزيف على حواف الخيبة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«وأذكُرُ ما الحبُّ شتَّتَهُ من حياتي
فآسفُ حينًا . . . وأصرخُ ملءَ السماءْ
«أيا حبُّ لملمْ شتاتِي . .
لأوقنَ أنّي، أنا في رفاتي
أسيرٌ،
وأنَّ الجميلاتِ هنَّ القضاءْ
وأنَّ الجميلاتِ حرَّفنَ مجرى حياتي . . »

مراد الوعل

«ليس العلوّ هو الذي يخيف بل المنحدر
لأنّ فيه يتّجه النظر إلى الأسفل وتمتدّ
اليد إلىَ الأعلى باحثة عمّا تمسك به،

Twitter: @ketab_n

هناك

يصاب القلب بالدوار..»

نيتشه

«يمكن أن يدمَّر الإنسان، لكنّه لا ينهزم»

أرنست همنغواي

على كلّ من يريد المجد أن يتخلّى عن الشرف في الوقت المناسب،

ويمارس الفنّ الصعب،

فنّ الرحيل عن الدنيا في الوقت المناسب..

نيتشه

Twitter: @ketab_n

(١)

«حين ضلعت نوميديا إلى صدري، تيقّنت أنّني يمكن أن أنسحق بسهولة أمام جمالها، أمّا وأنا أغرق في عينيها الواسعتين وشفاهنا على أهبّةِ توقيع أوّل قبلة حقيقيّة، فقد أدركت أنّ حبّها لا محالة قاتلي! وانخطفنا بعد ذلك، إذ ابتلعتنا دوّامة القبل اللذيذة. كلّما شددت على ردفيها بقوّة، انغرست أظافرها كلبؤة في ظهري، وانفتح فيه أكثر من باب للجنون. انتقلتْ بأصابعها إلى شعري تداعبه وتشدّ على عنقي في الوقت الذي أغرقت لسانها في فمي، ففاجأني مذاق أزير ملتبسًا بالنوار. شعرت أنّ ذلك المذاق وحده، كفيل بأن يبعث فيَّ من الرغبة ما يكفي لأضاجعها إلى الأبد، دون أن يرتوي عطشي..

انزلقت شفتاي إلى جيدها المتماسك كجذع شجرة، واشتبكت بي، قاوم الماء يديَّ وأنا أسحبهما من سفوح خصرها، أمّا عندما حطّتا على كتفيها فقد انزلقتا وجرَّتا معهما فستان نوميديا، وأماطت الفستان أكثر عن نهديها المكتنزين الصلبين والشامخين، انحنيتُ إليهما وجعلتُ أمصُّهما بِشَرَهٍ، وأنا أصيخ السمع إلى خفقات قلبها القويّة

Twitter: @ketab_n

وتأوّهاتها السرّيّة. نوميديا تكرُّ وتفرُّ، تجتاحني كما فعل بي السيل أيّام الطفولة الشقيّة، تغرقني فيها وتمدُّ لي حبل النجاة كلّما لامست قعر الهلاك، وأنا مفتتن بها، أشدّ بكلّ حواسي على نهدها وبي حنين طفوليٌّ لذلك. أشدّ على الثوب الأبيض الذي انحسر عن فخذها، أسحبه إلى الأعلى بشهوانيّة، فيطاوعني فستانها إلى أن اجتمع كلّه عند صرّتها طافيًا، ناسيًا هشاشتي أمام هذا الجسد المحنة. وعبرتْ بي، وأنا ملتبس بشهوات غامضة، ذكرياتي وأنا وعل صغير يتلصّص على نساء القرية وهنّ يتراشقن عاريات بالماء. كنت ممتلئًا ـ كما الآن ـ بصمت موجع وشهوات مؤجّلة.

نوميديا تلتحم بي عاريين والماء يشطرنا نصفين، فوق الماء، عادت شفاهنا للالتحام مرّة أخرى، وإن بحرارة ونزق مضاعفين، تحت الماء، كنّا متداخلين نسقط ما تبقّى من ملابسنا، ولم أكن خائفًا لا عليها ولا عليَّ من زبانيّة الظلام. أحسستُ أنّني حرٌّ طليق من كلّ شيء، حتى من أحزاني، واشتبكنا اشتباكًا يقصِي كلّ احتمال للتراجع. شدّت بأظافرها على ظهري، التصقت بي وانغرست فيها، كان جسدي مشتعلاً كبركان نشيط يتطاير رغبة وشبقًا.. أمّا هي، ففي ذروة لذّتها، هزّت رأسها عاليًا كأنّما تتأمّل ملاكًا شاردًا، واشتدّ شهيقها وزفيرها معًا. في لحظة مبهمة، شعرت أنّ شيئًا ما قد انكسر بيننا. وما هي إلّا هنيهات حتى اندفعت إلى سطح الماء تمامًا، بيننا دماء ورديّة ضاربة إلى الحمرة. أدركت بسرعة أنّ عذريّتها سقطت وجثمت على عينيَّ. تلك الحمرة أراها حيثما أدرت رأسي.

التفتُّ إلى عينيها اللتين اكتظّتا دمعًا، فحزنت، واندفعت في جوفي حسرة مخيفة، وغافلني اندفاع الحمم البركانيّة بين فخذيَّ محرقة ومتهوّرة. وقتها طفا السواد على عينيَّ، وبدأت أسمع ضجيجًا أشبه ما

Twitter: @ketab_n

يكون بصافرات البواخر، ولم أذكر بعدها سوى أنّ الماء كان منافقًا وأنّ نوميديا نبيَّة». واستيقظت.

بالكاد، فككتُ طباق عينيَّ. فتحتهما على الأعمدة الغليظة لسقف الغرفة. كنت ممدّدًا على ظهري في مكان لم أستكنه جغرافيّته، في حين لفحني تاريخه كرياحٍ صيفيّة ثقيلة وساخنة. مسجّى كنت على زربيّة متشابكة الألوان ووسادة خشنة أيقظت داخلي حنينًا إلى طفولتي المنتهكة. ألستُ فعلاً أوداد الصغير الذي جرَّه النهر من قدميه، وانتهى به الأمر إلى غرفة كهذه؟ ألا يمكن أن يكون الله قد نسيني من يومها مسجّى على هذه الزربيّة، أبحلق في هذه الأعمدة الغليظة التي تهزّ السقف الطيني! وضعيتي الآن لا تختلف في شيء عن وضعيّة أوداد الذي رفضه الموت، كلانا نستيقظ من كبوةٍ ونبحلق في السقف.

وزحفتْ يدي إلى سروالي، ضحكتُ في سرِّي عليَّ، حين تحسّست بللاً لم يعاودني منذ عهد قديم. آه، كيف يحتلمُ من هو مثلي؟ وكدت أجزم أنّ جسد نوميديا لعنة ابتليت بها. نوميديا، أيوصلني عطشي إليك إلى حدود الحلم؟ أيّ جنون يفترع الآن روحي. حين يصيب الروح عطب ما، فإنّ الجسد يرتبك لذلك، وسرعان ما يتداعى، انتصبت واقفًا، لكن سرعان ما أقعدني دوار حادّ. بعد أن زالت السحائب السوداء عن عينيَّ، تأمّلت مذكّرة خولة وهي تستلقي مكدودةً إلى جانبي. أين أنا؟ لست أدري!

وكان آخر عهدي بالحياة، أن انسحبت نوميديا من البركة، وتركتني في مفترق الشهوة، بعد أن فاض أنفي. نعم، أذكر تلك الحمرة الفادحة التي جثمت على سطح البركة، وأذكر أيضًا أنّ أصابع نوميديا التي كانت تستدرجني إليها. نعم، وانسحبت من البركة وأنفي لم يتوقّف عن نزيفه مقتفيًا إيماءاتها المغرية، وهي تبتعد شيئًا فشيئًا إلى

Twitter: @ketab_n

أن أدركتني الغيبوبة قبل أن أدركها . .

لكن، كيف انتهى بي الحال إلى هذا المكان؟ وأين نوميديا؟ تُرى! أظلّت تتأمّل غفوتي الاضطراريّة أم مضتْ كعادتها إلى المجهول؟ أنا أحبّها، نعم. هذا الاعتراف الذي سعتْ كلّ النساء اللواتي عبرن في حياتي إلى انتزاعه، وكنت منافقًا جيّدًا حين كنتُ أحرِّك به لساني فقط لأسقطهُنَّ في شركي.

الآن فقط، أستشعرُ عمق خسارتهنّ. أسوأ أمر أن تشقَّ صدرك بمشرط الحبّ، وتنتزع قلبك من مكانه وتسلّمه لمن لا تعرفه تمام المعرفة. ما حصل لخولة معي، يحصل لي الآن مع هذا الملاك، الذي ترجَّل فجأة من عليائه وسلبني كلّ شيء.

واستبدّ بي وجع مزلزل في رأسي، شعرت إثره كما لو أنّ حبالاً داخل رأسي تشتدّ فجأة، ثم تتمزّق حبلاً تلو الآخر، فأخذتُ مذكّرة خولة بين يديّ وأنا أنزف ذاكرة.

المكان وحده ينسِفُ ما أبقتْ فيَّ الحياة من جميل يهزُّني ويسرَحُ بي في تخوم الذاكرة القصيّة. لكنّني لم أبتعد عنكِ يا إغرم. صحيح أنّ حساب الشهور والسنوات قد يخلط أوراق هذه الفكرة، لكنّ الرائحة التي يعبقُ بها هذا المكان، وهذه الزرابيّ، وتلك البندقيّة المعلّقة على الجدار، إضافة إلى الزخرفات الحديديّة على النوافذ قليلة الارتفاع، وذلك السقف الذي تهزّه الأعمدة الخشبيّة والقصب، كلّ هذه الأشياء، لا تقول سوى أمر واحد: إنّني لم أبتعد كثيرًا، وأنّ كلّ ما كان بعد إغرم ليس سوى غفوة خطفتني من سيول الحياة البائسة إلى كابوس أبأس. . وها أنذا أستيقظ.

المكان وحده يلجم الزمان، ويعلّمه فنَّ البحلقة في جاذبيّة الثقوب

Twitter: @ketab_n

السوداء التي تمتصّ أعمارنا. المكان مراوغ ومنافق هو الآخر يستوقفنا، فيفرُّ الزمان منّا إلى البعيد تمامًا إلى نقطة البياض في نهاية النفق. نقتفي أثره، نتبعه إلى آخر النفق ببراءة طفل يمدّ يده إلى جمرة! هناك لا نجد سوى موتنا وقد ملَّ لعبة الانتظار. كتبت خولة:

«نعيش معًا أو نموت معًا، هكذا أجبت صديقة نصحتني بإجهاضه، بالطبع لم أكن مقتنعة بأيّ رأي، وقرار الإجهاض لا يمكن أن أبتَّ فيه دون إذن مراد! آه، أينك يا حبيبي، لو تعلم فقط أنّني حبلى.. وما سوى ذلك لا يهمّ».

وكسر خشوع القراءة صرير باب انفتح في مكان ما، ثم تلتْهُ أقدام ووشوشات تدنو من الغرفة، لم أستبن منها سوى صوت حميد القائل:

ـ أين وجدتموه؟

وقاطعه صوت آخر، قائلاً:

ـ أوّل الأمر ظننّاه نائمًا، حين اقتربنا منه وناديناه، لكنّه لم يستجب. حين تأكّدنا أنّ مُصابًا ألمَّ به، ألبسناه ملابسه وحملناه أنا وأخي الحسين إلى البيت.

ـ أعتقد أنّ هذا الشخص غريب الأطوار وغامض جدًّا.

ـ كيف ذلك؟

ـ رأيتُه ذات يوم منكفئًا على وجهه في مقام سيدي عيسى، كان يبكي بحرارة.

وانطلق صوت آخر أكثر خشونة:

ـ أنا أيضًا رأيته يتكلّم وحده في الوادي، ويلهج بعربيّة كتلك التي تُدرّس في المدارس.

Twitter: @ketab_n

ـ لا شكّ أنّ الرجل يعاني من مشاكل اضطرّته إلى الاختفاء في القرية.

وأردفَ آخر:

ـ ولِمَ لا يكون قد اقترف جريمة في مكان ما، أو اختلس أموالاً وجاء يستثمرها هنا حيث لا تراقبه سلطة؟

وقال آخر:

ـ أنا أيضًا رأيته يركض في الوادي ويصرخ ملء جوفه «اقتلوني... افعلوها وخلّصوني».

ـ أمّا أنا، فأجد ملامحه مألوفةً كما لو سبق لي أن رأيته. حميد ما اسمه؟

ـ مراد... اسمه مراد، وأنا بحكم أنّني أقربكم منه، فأعتقد أنّه متعب فقط، لا سيّما بعد أن رحلت (الروميّة) التي كانت بصحبته، لقد أصبح كثير الشرود، يحدّث نفسه بكلماتٍ غامضة! تصوّروا أنّه قلبَ غرفته رأسًا على عقب من دون مبرّر.

وسكتَ لبرهة، ربّما كان يأخذ نَفَسًا من سيجارة، واسترسل:

ـ ربّما هو الإكثار من الشرب هو الذي فعل به ما فعل، إنّ الرجل لا يصحو من سكرٍ إلّا على سكرٍ.

وقاطعه آخر بانفعال، قائلاً:

ـ أظنّ أنّه ممسوس، ربّما سكنته جنّيّة الوادي! ألا ترون أنّه أدمن الوادي، وأنّه يتكلّم هناك بمفرده كما صرّح بعضكم.. أضف إلى ذلك، أنّه صُرِع.. هناك وأنا أكاد أجزم أنَّ جنّيّة الوادي وراء ما يقع له.

استنتجت من كلماته أنّه فقيه القرية، وكنت مع كلٍّ كلمة يضيفها

Twitter: @ketab_n

أرسم له ملامح في خيالي.. تصوّرته بوجه يابس نحيل ولحية غير مكتملة وجبهة ضئيلةٍ وأنف معقوف، ومزّقني صوت آخر بضربة أشدّ إيلامًا:

ـ قريتنا تكره الدخلاء و(رجال البلاد) يغضبون ويسلّطون نقمتهم على كلّ من يعيثُ فيها فسادًا.. ألا تذكرون كيف مات (سبعة رجال)؟!

وسرحت بي كلمتاه الأخيرتان إلى الماضي البعيد، هؤلاء الرجال الذين كانوا في زمن بعيد يلعبون القمار كلّ ليلة في مقام سيدي عيسى، ويشربون الخمر على مرأى من الوليّ الصغير النائم في قبره.. أذكر جيّدًا القصّة التي لا ينفكّ امحند يعيدها على مسامع أبنائه أيّام الطفولة. كانَ كلّ مرّة يُعيدُها بشكل مخالف للمرّة التي قبلها، وأحيانًا يقول أشياء تناقض أشياء أخرى سبق وقالها، لكن بؤرة القصّة أنّ هؤلاء الرجال الفاسدين والمفسدين سيعاقبون من طرف قوى غامضة ورهيبة لكنّها خيِّرة، يصرُّ أهل القرية على تسميتها رجال البلاد. أذكر أنّ امحند صرّح بأنّ رجال البلاد قد دبَّروا لهؤلاء الفاسدين صدفًا، تقود كلّ واحد منهم إلى ميتة مختلفة، ولم يُبقوا إلّا على رجل واحد، لكنّه ظلّ حيًّا ميّتًا بعد أن أكلت الغرغرينا ساقيه!!

ـ إنّها لعنة رجال البلاد، هي التي ألمّت بهذا الغريب.

أضاف أحدهم، وقاطعه آخر قائلاً:

ـ وقد تكون ضربة جنِّيّة الوادي..

وخرَّبني نقاشهم أكثر ممّا ينبغي، أحسستُ أنّني عقب كلّ كلمة تُقال، أتهاوى في بئر الانخذال السحيق. قالوا أكثر ممّا ينبغي، بل إنّهم قالوا كلّ شيء دفعة واحدة، ولم يتركوا للصمتِ ولو هامشًا

Twitter: @ketab_n

صغيرًا أسلو به، ومثلما حاكموني صغيرًا بتهمة أنّني لعنة، ها هم يحاكمونني كبيرًا بتهمة أنّني ملعون.

بقايا بقاياي ممَّا خلّفته الحياة والفقدان ومحنة جوليا ومرارة حلفاء الظلام.. جاءت هذه الترّهاتُ التي أصختُ لها السمع لتعصف به، وتفتح أمامي باب الجنون مشرّعًا عن آخره... ولأنّني لم أتمالك نفسي، أو ربّما لأنّ بعض الأشياء يجب أن تقع، وبالصيغة التي تمليها انفعالات الموقف، فقد فتحت الباب وصرخت فيهم لأوّل مرّة بالأمازيغيّة:

ـ لستُ مسكونًا بجنّيّة الوادي ولا ملعونًا، كلّ ما في الأمر أنّني متعب.. مريض..

وظلّوا مشدوهِين، لأنّهم لم يكونوا يتوقّعون أن أخاطبهم بلغتهم، لم أبالِ بعلامات الدهشة والاستغراب التي ارتسمت على ملامحهم، بل استسلمتُ ليد طفولتي التي جرّتني صوب الباب.. أحفظ هندسة منازل إغرم، لأنّها مثل سكّانها متشابهة.

عندما تنفّست هواء ما بعد الظهيرة، شعرتُ برغبةٍ جامحةٍ في البكاء، همت على وجهي ساعات لا تلوي قدمي على هدف. أنا الهارب من ضوضاء المدينة وزعيق السيّارات إلى ضوضاء العواطف ونزيف الذكريات، فتّشتُ طويلاً عن نوميديا، انتظرت بفارغ الصبر انبلاجها كالحقيقة من الجبل.. لكن دون جدوى.

في لحظة يأس، وأنا بمقام سيدي عيسى، خالجتني رغبةٌ مبهمة في الأكل من شجيرة التين التي تفتّقَتْ من دماء الشهيد. وقفتُ أمامها طويلاً، قلت ما دام في الأمر لعنة، فلأتقدّم أنا نحوها بدل أن أستسلم لها. حين مددت يدي لأقطفَ حبّة منها، تذكّرت أهل القرية كلّهم،

Twitter: @ketab_n

ومرَّتْ أمامي وجوههم حتى تلك التي كنت أظنّ أنّ النسيان طواها، كيف كانوا يشدّدون بلهجة لا تخلو من صرامة على ضرورة تجنُّب الأكل من حبَّات التين هذه، ويلحُّون على أنّ آكلها ملعون إلى أبد الآبدين.. هكذا بدأت ترشحُ داخلي كلّ تلك المخاوف القديمة...

تذكّرت آدم والتفّاحة اللعنة أيضًا، تخيّلتُه يمدُّ يدًا مرتعشة كيدي الآن. تعانق يده التفّاحة إذ تعانقه الغواية، فيستسلم لها؛ في حين أفرُّ أنا من المقام.. حين انسحبت من الوادي وابتعدت قليلاً عن الجبل، بدت الشمس هناك في المدى البعيد تنزلق شاحبة نحو الطرف القصيّ من الكون، شددت مذكّرة خولة بكلتا ذراعيَّ إلى صدري. لستُ أدري لماذا.. لكنّ الغروب يفزعُني!!

خولة.. ها أنتِ تشاهدين من كوّة الباب الذي يفصل الأحياء عن الأموات ما حلَّ بي بعدك، أقسم أنّني اشتقتُ إليك أكثر من أيّ وقت مضى. كيف تتغيّبينَ عنّي بعد أنْ خلّفتِ في القلب صدعًا فادحًا لن يزيده الدهر إلّا اتّساعًا؟! خولة.. إنّني أقاوم ما استطعت إغراءات الهاوية والغد، هذه الدوّامة التي تبتلع في طريقها كلّ شيء، صرت أخافه، أخاف مفاجآته التي لا تكون مأساويّة إلّا معي..

كنت مخطئًا حين قرَّرْتُ العودةَ إلى إغرم، لأنّ جراحاتي لم تندمل بما يكفي لأقوى وأتمكّن من مقاومة هذا النزيف الداخلي، الذي تسبّبه الذكريات حين تكتظّ بي. كانت طريق العودة إلى الفندق شبهَ مستحيلة، كأنّ الأرض تتمدّد بيني وبينه وينسحبُ أبعد فأبعد..

يا شهيدة حبّي! أجدني في لحظات اليأس المطلق ـ كهذه اللحظة ـ أشبهَ ما يكون بقلعةٍ مبنيّة من كؤوس زجاجيّة، مرصوف بعضها فوق بعضها الآخر، فلا تتأخر الحياة في مدّ يدٍ من لعنة إلى كأس من

Twitter: @ketab_n

كؤوس القاعدة، فأنهار ويغتالني دويُّ انكسار الكؤوس!

خولة.. سامحيني مرّة أخرى لأنّي سقطْتُ مرغمًا في شركِ نوميديا الصامتة، في شرك الفضول الذي يعضُّني في القلب، وفي شرك جسدها المحنة. سامحيني، لأنّي أسأتُ كثيرًا إليَّ أنا الذي لم أجد أحرص منك عليَّ...

خولة، لقد اكتشفت متأخّرًا آخر الخيانات التي تعرّضت لها: جوليا التي اكتشفتُ أنّها متزوّجة وقد تكون أمًّا كذلك. إنّها المرأة الوحيدة التي خُنْتُكِ معها، وهي متورّطة بشكل أو بآخر في قتلك، في السفر الأخير إلى باريس حين تغيّبتُ عنك وتركتك في مهبّ الموت، كنت بصحبتها! عذرًا حبيبتي على هذا الكلام الجارح، فما كنت لأقوله لولا علمي أنّكِ الآن حيث يفترض أن تكوني على بيّنة من كلّ شيء. تصوّري أنّ حبَّها الذي طالما ادَّعَتْه لم يكن سوى وهم تجرّعته على مضض، لا لشيء، فقط لتستفزَّني، لتحرِّضني على الكلام وتُعَلِّبَ حياتي بعد ذلك في كتاب. تواطأتْ مع طبيبي النفسي الذي باع ضميره وباعني لقاء ثمن بخس... تبًّا لوطن تعوَّد أن يبيع كلّ شيء! جوليا أجهزتْ عليَّ لا لأنّها حاولتْ أن تكتُبَنِي بل لأنّها خدعتني. عاشتْ معي ردحًا من الزمن بشخصيّة غير شخصيّتها، عرفت كيف تفتعل حبًّا مزيّفًا ربّما ساعدتْها على ذلك إمكاناتها الروائيّة، المهمّ أنّها أتقنتْ دورها ووثقتُ بها وانزلقتُ.. تصوّري أنّني كنت أُقَبِّلُ كذبة، أضاجع كذبة.. أعانِقُها حين أنكسر، وأشكو لها القليل من أحزاني، لكنّها، كانت مجرّدَ كذبةٍ انطلتْ عليَّ بسهولة، ولا شكَّ أنّ ما خفي في الشرائط أعظم!! وضحكتُ في سرّي عليَّ وعلى سخريات الحياة. فانفرجتْ شفتاي على ضحكة صغيرة، تطلّعتُ أمامي فإذا أحدُ الفلّاحين يتفرَّس في ملامحي باستغراب واضح. من يضْحك وحده؟

Twitter: @ketab_n

أعلم، أعلم.. إمّا أن يكون ممسوسًا أو أحمق...

واصلت طريقي دون أن أعيره أدنى اهتمام، لا شكّ أنّ الأمر سيؤكِّدُ ما ذهب إليه ذلك الجمع، وقد يتندَّرُ هذا الفلّاح بما بدر منّي الآن، وينخرط هو الآخر في مضغ سيرتي قائلاً: ورأيته يضحك بمفرده أيضًا!!

انقلبتْ حياتي رأسًا على عقب بعد أن تحامتني الخسارات. ماضيَّ لا يكفُّ عن ثوراته، زبانيّة الظلام يتعقّبون خطايَ، جوليا تغتالني في صمت ونوميديا أحرقتني بجمالها.. نعم، أيّتها الشهيدة أحرقني جمالُها ونثَر جسدُها الفاتنُ كلّ رمادي، ولو أنّها قالت لشهوتي نعم لانتفض الرماد، وقال: لبّيكِ، والتحم رمادي كعنقاء وسعيت إليها.

آه خولة! كم أنا هشّ الروح والجسد، وإن كانت هشاشةُ الروح قد ولدت معي، فإنّ هشاشة الجسد أمر طارئٌ يقلقني.. يومًا تلو الآخر يفيض أنفي بدم أكثر، سقطتُ اليوم مغشيًّا عليَّ بسبب ذلك، لا أدري كم دام الأمر. كلّ ما أعرفُ أنّني استيقظت في منزل أذكى حرائق الذكريات التي نشبت في الروح مذ قدمت إلى هنا.. اليوم أفقتُ من غيبوبتي، لكن غدًا أو بعد غد لا أحد يضمن أنّني سأستفيق. لا أهاب الموت، لكنّني لا أريد منه أن يغافلني ويقدَّ قميصي من دبر، كلُّ ما أرجوه هو أن يواجهني بشجاعة أستحقُّها.

حين دنوت من الفندق، كان الظلام قد بدأ يسحب وشاحهُ الأسود الثقيل على القرية، كانت نضال في شرفتها، لوّحت بكلتا يديها تمامًا كما يفعل الغريب على ظهر سفينة تجرُّه نحو أهله.. نضال مناضلة الأمس وشاعرة اليوم، أحد أوجاع هذا الصيف، سيّدة ترتمي

Twitter: @ketab_n

في جحيمي بكامل طيشها المكبوت، وتنسفُ في لحظة يأس ذاكرتنا النضاليّة المشتركة، تطمر كلّ عذابات المعتقلات والمواجهات الدامية أواخر القرن المنصرم، وتؤسّس لذاكرة جديدة وجنسيّة إلى أبعد الحدود.. نضال تحاول عبثًا الانسحاق في جسدي، ربّما كان الأمر انتقامًا منّي ومنها ومن ماضينا جنسًا. تسعى إلى استنزاف أكبر قدر من جسدينا لترتوي من ذلك العطش، الذي خلّفته الخسارات المتتالية في روحها وجسدها.

ألجأني التعب إلى طاولة في ركن ركين من المقهى، مذ دخلتُ وحميد يتفرّس فيَّ ولا تحيد عيناه عنّي. ناديته فقدم إليَّ والاستغراب يعلو ملامحه. داهمته:

ـ ما هذه النظرات؟

ـ لا شيء.. كنتُ أطمئنُّ عليك وحسب.

ابتلعه الصمت قليلاً، ثم أضاف:

ـ لقد وجدك شابّان من شباب القرية مغمًى عليك قرب البركة..

صمت مرّة أخرى، كأنّه يقرأ تفاصيل وجهي أو ينتظرُ ردًا، ثم أردف:

ـ لم أكن أعرف أنّك تتحدّث الأمازيغيّة بطلاقة؟

قالها بمكر، وبحلقَ في عينيَّ، بينما لم أجد خيارًا أفضل من أن ألوذ بالصمت. دققت النظر في عينيه، كان ينتظر الإجابة بلهفة، لكنّني لم أرحم فضوله حين أدرت دفّة الحوار صوب أفق آخر:

ـ هلّا أحضرت لي ما آكله! لم أذق شيئًا منذ الصباح.. وحبّذا لو أحضرت لي علبة سجائر قبل إعداد الأكل.

Twitter: @ketab_n

هزّ حاجبيه مستغربًا وقمع فضوله في جوفه، وانسحب إلى ما أمرته به. دخّنتُ سيجارتين قبل الأكل وأجهزتُ على ما تبقّى من العلبة بعد الأكل، وانصرفتُ. . ولكنّني قبل ذلك، مررت بحميد أخذت مفاتيح الغرفة وعلبة سجائر أخرى.

دار المفتاح دورته في رحم القفل! ذات يوم، قلت لخولة عند باب منزلي، وأنا أفتح الباب: «الحياة حتى هذه التي نعيشها في رغد التقنيّة، لم تبتعد كثيرًا عن ذلك الإنسان البدائي العاري، الذي يعشّش في أعماق كلّ واحد منّا، أحيانًا أرى الحياة كلّها تسير بمنطق الجنس حتى المفتاح والقفل!»، وضحكنا للفكرة ودخلنا المنزل متعانقين، في حين دخلتُ غرفتي الآن وحيدًا. كان الظلام يستبدُّ بالمكان، ظلمة موحشة كتلك التي تنتشر في دواخلي. أشعلت نور الكهرباء وشعرت بالمرارة. إذ تذكّرتُ: «ألّا خمر اليوم» بحكم أنّ آخر الهمجيين قد كسروا زجاجات الخمر التي كانت تحفلُ بها الثلّاجة.

التفتُّ إلى الشرائط المتكوّمة فوق المسجّلة، فاقشعرَّ لذلك بدني. اقتربتُ منها أكثر وأخمدتُ مذكّرة خولة في أحد الرفوف، باب الشرفة تراوده الرياح فيصرُّ بشكل مستفزّ، أو ربّما أنا في حالة نفسيّة تجعل حتى الأصوات التي لا أعيرها اهتمامًا في الغالب تجرحني، وتتسرّب من حواسّي المرهفة إلى شقوق الروح ولتصبح وجعًا إضافيًّا.

أيُّ حزن موجع هذا الذي تستثيره الوحدة؟!

سقطت عليَّ أحزاني غزيرة كمطر إغرم بعد صيف عسير، فانسحبت إلى الشرفة، فتحت علبة السجائر بنزق، تناولت واحدة بعطش وجعلت أدخّن وأطارد بعينيَّ سحائب الدخان وأراقبها وهي تتداخل بشكل غريب وتسحبها الرياح إلى البعيد. نطّ طيف نوميديا

Twitter: @ketab_n

بسرعة إلى بالي واخترقني... وا حرَّ قلباه، ألّا أكفّ عن التفكير بها، ربّما أكون مسكونًا ـ وإن مجازًا ـ بها. التفتُّ إلى أصابعي التي كانت تشدّ على السيجارة، كانت ترتعش. الآن فقط، تأكّدت أنّ جسدي شرع في الانسحاب. ترى أتكون الأدوية التي امتنعت عن تناولها سببًا في ما يحدث لي؟ لست أدري!

كلّ ما أعرف الآن أنّني مريض بالخيانات، ومريض بحبّك نوميديا ومتعب!!

تذكّرتُ أصابعها التي كانت تغريني وتبتعد، كأنّها سراب يغري محمومًا بالعطش، لكن هذا السراب أنقذني من موت محقّق، فقد نزفت في البركة طويلاً! ولولا انسحابها أوّلاً ثم إيماءاتها وإغراءاتها المتتالية فيما بعد ـ والتي كانت تستدرجني إليها ـ لأغميَ عليَّ في البركة وانتهيت غرقًا.. نعم، أنقذت حياتي التي صرت في غنى عنها، لكن لماذا رحلت وخلّفتني طريح الجنادل... كان يفترض أن تلازمني وأن أفتح عينيَّ أوّل ما أفتحهما عليها، لماذا تركتني وتركت للصدفة أن تقتاد إليَّ شابّين من إغرم، سيتجشّمان عناء إسعافي؟

دهستُ عقب السيجارة بقدمي وشابكت بقوّة أصابعي التي كان بعضها يرتجف، وخفت من أن يخذلني جسدي مرّة أخرى. مررت بيديَّ على وجهي. كان شعر ذقني قد كبر قليلاً وأخمدت أصابعي في شعري الذي طال أكثر ممّا ينبغي. لقد تجنّبت مذ دخلت الغرفة المرآة لسببين: الأوّل، هو ألّا أتأمّل وجهي وأفزع؛ والثاني، لئلّا أتوقّف طويلاً عندَ ما كتبه الظلام صباحًا «الإنذار ما قبل الأخير!!» فليكن الأخير، فلعبتي مع الحياة لم تستهوني، وأنا الآن أكثر من أيِّ وقت مضى في حاجة للخلاص... وسمعت فجأة شيئًا أشبه ما يكون بوقع حوافر حصان على الأرض، التفتُّ بسرعة وبحلقت بلهفة في الظلام

Twitter: @ketab_n

المخيّم أمام الفندق، رأيت ـ أو تهيّأ لي ـ أنّني رأيت طيف الحصان وسيِّدته، فصرخت بعفويّة:

ـ نوميديا!

صهل الحصان بعد ذلك بقوّةٍ مجلجلة، وهدأ بعد ذلك كلّ شيء، قبل أن تستيقظ حوافر الحصان مرّة أخرى تصكُّ هدوء الليل وتخفت شيئًا فشيئًا. ومثلما تضع حربٌ أوزارها أو يستسلم قتيل بعد عذابات طويلة للموت، ابتلع صمت بارد كلّ شيء. انزلقت عيني أسفل الشرفة، فإذا حميد يتأمّلني مشدوهًا بصحبة نفر من أبناء القرية، بادرني باستغراب:

ـ سي مراد، ياك لاباس؟

لكنّني كنت بين الحضور والغياب، لست أدري فيم كنت أفكّر. كنت أحسُّ أنّ الزمن بطيء جدًّا. أمّا سؤال حميد فقد كان يسافر بتثاقل في ذهني، أجبته بصوت مرتجف مهزوز، فيه قدر كبير من المرارة والخيبة:

ـ لا.. لا شيء.

وغادرت الشرفة وأنا مندهش، لا أفهم ممّا حدث شيئًا! لماذا لم ينشغلوا بالحصان وسيّدة الحصان؟ وازدحمت.. في رأسي آلاف الأفكار، أرغى ذهني وأزبد بها. ارتميتُ فوق السرير. تبدّدت بعض الأسئلة وظلّت أخرى علامات استفهام بارزة. شعرتُ بحاجة ماسّة إلى كأس نبيذٍ أبلُّ به جوفي. ارتقيت السلالم صوب نضال، طرقتُ الباب، ففتحت بسرعة، كأنّها كانت تنتظرني:

ـ مساء الخير..

ـ مساء النور مراد.. تفضّل.

Twitter: @ketab_n

دخلت وأغلقت الباب بعدي، وقالت:

ـ أين اختفيتَ هذا اليوم؟ بحثتُ عنك طويلاً دون أن أجدك..

ـ هي قصّة يطول شرحها... أشعر أنّ هذا اليوم قد طال أكثر ممّا ينبغي.

وجلسنا إلى الأريكة. قلت:

ـ أريد نبيذًا، أنا في حاجة للشرب...

انتصبت واقفة، بينما أخمدتُ يدي في الجيب وسحبتُ الولّاعة وعلبة السجائر. عندما سحبتُ النفس الأوّل، كانت نضال تضع زجاجة نبيذ وكأسين وشرائح لحم على الطاولة. أمّا حين عركت السيجارة في المنفضة وتلوّت كمن به مسّ، كانت نضال تصبّ لي الكأس الرابعة، قلت كأنّي أهذي:

ـ «لقد أزرى بيَ الدهر بعدها».

لم تقل شيئًا أوّل الأمر، بل ظلّتْ تتأمّلني بعينين ملؤهما وجع وغيظ خفيّ، ثم هاجمتني بطريقة لا تخلو من مكر أدبيّ، قائلة:

ـ «ما عاد الله بل نوميديا لا الدهر...».

ـ من نوميديا؟!

ـ هي الكلمة التي صرخت بها قبل قليل..

ـ أأنت أيضًا سمعتني؟

ـ نعم.

وابتلع الغرفة صمت متواطئ مع جراحاتي، صمت صاخب لا يكسره سوى ارتماءات الخمر في كأسينا. ناولتني كأسها ضاحكة:

Twitter: @ketab_n

ـ نخب «نوميديا» إذن!

واصطدم كأسانا بخفّة، فقلت:

ـ نخب الملكة الأمازيغيّة الصامتة، نخب أحزاني التي لا تمّحي..

واقتربتْ حتى التصق بي ردفها، ثم جذبتْ بظهري إلى صدرها، فتطلّعت إلى شفتيَّ فقبَّلتُها بنزق.. فاستسلمت لحرارة الموقف إلى أن قاطعتها مستفزًّا:

ـ أأبدو غريب الأطوار يا نضال، أقصد: ألا تلاحظين أنّ سلوكاتي غير سويّة؟ أو، أو أنّني...

ـ ماذا؟

ـ لا أعرف.. مجنون أو ممسوس مثلاً!

ـ أنت مجنون منذ أوّل يوم عرفتك فيه، وهذا أجمل ما فيك.

ـ لا.. لا أقصد...

لكنّها أخرستني بقبلة عميقة، وبدأنا ننزلق نحو تخوم اللذّة. كانت الملابس تتطاير في كلّ اتّجاه. أيّ جنون يحرِّك خصرها، وأيّة رعونة تسكن حمرة حلمتيها وتتدفّقُ على نهديها فيستثيران جنوني وأثور!؟

في لحظة مؤلمة، أحسستُ أنّنا متواطئان في جريمة ما، شعرت أنّ الجنس لا يعدو أن يكون مجرّد محاولة يائسة للانتقام من القدر، أو من أشياء أخرى أشدّ تفاهة. وكلّما ذبنا أكثر تسلّقت نوميديا كدالية بمحراب القلب ومعراج الذاكرة.. أنا وحيد من دونك نوميديا، مقعّرٌ وفارغ من أيّ معنى..

بدونك نوميديا، أنا وحيد!

Twitter: @ketab_n

(٢)

لم أنم كما كنت أتمنّى، ربّما لأنّني لم أبتعد كثيرًا عن صخب الأمس. من شرفتِها كنت أراقب إغرم وهي تتعلّق صباحها الجديد بثقة.. وهناك بعيدًا، كان أهل القرية ينزلون بخطى واثقة إلى الحقول. لكنّ السماء اليوم، ليست كباقي الأيّام، متّشحة بحزن فائض، وهذا يبشّر بدنوٍّ موسم الرحيل، ما هي إلّا أيّام معدودة، وينزل «آيت مرغاد» من أعالي الجبال صوب الصحراء.. أنا أيضًا سأرحل مثلهم، لم تبق إلّا أيّام قلائل وتشرّع الجامعة أبوابها.

السماء كئيبة و«آيت مرغاد» ينتظرون المطر الأوّل ليأذن لهم بالرحيل. قبل أن أرحل كسيحًا، لا بدّ لي من باقتيْ أزير، واحدة على قبر خولة والثانية على قبرِ مصطفى..

نزلتُ إلى غرفتي، حلقتُ ذقني وأخذت دوشًا وبكيت تحت سياطه الموجعة، بسبب أشياء كثيرة تحفر كالدود خنادق في صدري، ثم انزلقت إلى المقهى.. وجدت حميد منكفئًا على وجهه، لكنّه ما إن

Twitter: @ketab_n

سمع وقع أقدامي حتى دبَّ واقفًا:

ـ صباح الخير، أستاذ..

ـ صباح الخير، كيف حالك؟!

ـ بخير والحمد لله، أأعدّ لك فطورك؟

ـ نعم.

ـ للإشارة، أنت مدعوٌّ هذا المساء لحفل عرس سيقيمه أحد أقربائي.. بإمكانك أنّ تصحب معك تلك السيّدة.

وتأمّلني بنظرة خبيثة، كنت أعلم أنّه على علمٍ بما بيني وبين نضال، قلت:

ـ سنكون على موعد، وستصحبُنا أنت..

وابتلعتني الذكريات.. حلَّقت بي سنوات إلى الوراء إلى أعراس القرية، أعراس إغرم تمامًا كمآتمها تنفثُ في القلب حزنًا لذيذًا، وتجعل المرء على شفير الهاوية.

ما كدت أجهزُ على وجبة الفطور، حتى لمحت نضال تنزل بخفّة من درج الفندق.

ـ صباح الخير، مرادي..

ـ صباح الخير نضال، تفضّلي.

ـ هل استيقظت باكرًا؟

ـ نعم.

ـ ماذا!.. ألن تدعوني؟

ـ بلى، تفضّلي.. أمامك وجبة قرويّة بامتياز: سمنٌ. عسل.

Twitter: @ketab_n

زيت وشاي، وخبز للتوّ لفظه الفرن الطينيّ.

وحملتُ إبريق الشاي، كان لا يزال يحافظُ على وهجه وحرارتِه، وصببتُ لها كأسًا قائلاً:

ـ تفضّلي.

ـ شكرًا، ألن تأكل معي؟

ـ شبعتُ.

وتابعتها وهي تأكل ،وشدق الخبز يسافر بين الطاولة وفمها ويدور بين فكّيها، إلى أن باغتتني بسؤال:

ـ ألن تعود حبيبتُك الشقراء؟

ـ بلى... لقد وعدت بذلك.

ـ كلّ الذين يرحلون، عادةً ما يعدون بالعودة.. أتحبُّها؟

ـ لا أعتقد ذلك، فالحبّ مفهوم ملتبس جدًّا. لا أحبّذ الخوض فيه.

ـ أحبّكَ يا مراد.

ـ نسبيًّا، ربّما أنتِ تعلّقتِ بجسدي أكثر ممّا تعلّقت بي.. أليس كذلك؟

وتأخّرت إجابتها إلى أن ابتلعتْ ما في فمها بشربة شاي، قالت:

ـ أعتقد أنّه لا توجد حدودٌ صارمة بين العاطفة والجسد. في النهاية الجنس بدون عواطف حبّ ناقص وكذلك العاطفة بدون جنس.

ـ لستُ أدري، لقد تعانقت في عينيَّ أشياء كثيرة، ورأيت المرارة لدرجة أنّني أصبت بالعمى العاطفي. وأنا اليوم، أحرّك عصاي

Twitter: @ketab_n

باضطراب، وأتحسّس طريقي بخطى مجهدة بين دروب الحياة الملغومة، أنا حزين وتائه..

وتطلّعتُ إلى الساعة المعلّقة على الحائط فقفزت واقفًا، لأنّ موعد نوميديا اليومي قد دنا. استأذنتُ نضال وانصرفت.. كانت السماء حزينة هذا اليوم. إنّه الرحيل الكبير يعلّق مراثيه على أستار السماء. حين ستبكي السماء لأوّل مرّة، سيحمل الرُحَّلُ في الأعالي أحمالهم بيد وأشواقهم بيد أخرى، وسيرحلون.. أيُعقل أن تكون نوميديا منهم؟!

نوميديا.. أيّتها الخرساء الهادئة المكتظّة غموضًا وتاريخًا، كيف أمحوك من صحائف ذاكرتي المريضة، وكيف لي أن أسدّ هذا الفراغ المهول الذي خلّفتِه فيَّ؟ سلّمت على مقام سيدي عيسى وتأمّلت إغراءات شجرة التين اللعنة باهتمام، هنا أسلم سيدي موسى ابنه للسفّاح الرومي، وهناك حيث تفتَّقتْ شجرة التين طارتْ دماؤه، وزعموا أنّها ولدت من دمه، وأن ما يفسِّر ذلك هو كون البياض الذي ينفجر من رؤوس حبّات التين انقلب في هذه الشجرة حمرةً، ولذلك حرَّموا أكلها! إغرم تؤمن بالحكاية، ومعجزاتها تعيش وفق منطقها، وأهلها يعيشون صخب الحكاية ويدافعون عنها بما ملكوا. مرّت بي رياح باردة تشقُّ طريقها في الفجّ، اخترقتني لكنّها مرّت بسلام، تمنّيت لو تصكُّ حوافر الحصان هذا الصمت المقزّز الذي يطبق على الوادي.

انحنيتُ إلى الصخور المتكوّم بعضها فوق بعض، والتي ترسم حدود المكان الذي دُفن فيه رفاتُ الوليّ الصغير، قلَّبت وفاءً لشيءٍ ما تلك المناديل النائمة فوق الصخور، وراء كلّ منديل حكاية أو ربّما قصّة حبّ مكبوتة. مِثلهم كنتُ أو أكثر، كانت داخلي أسئلة واخزة وحنين إلى ما لست أعرف، وهذا ما كان يجرُّني إلى هذا المكان.

Twitter: @ketab_n

هممت بأن أتساءل في حضرة الوليّ إن كان قد مرَّ به يومًا ما رجل أو امرأة يبحثان عن طفل ضالٍّ. خفتُ ـ وإن كان الأمر بعيد المنال ـ أن يجيبني، فأخرَّ مغشيًّا عليَّ. بالدرجة التي كان يلحُّ فيها عليَّ هذا السؤال أيّام طفولتي، صار اليوم أشدّ ما أخشى. أخاف أن يخرج لي من مسالك الحياة الفجّة عجوزان أكلتْ التجاعيد وجهيهما واهتصرهما المرض، فيفتحان لي أذرعهما اليابسة ويناديان بحنان مزيّف: تعال. لقد عشت لقيطًا وحيدًا.. لم أختر ذلك على أيّ حال، لكنّني ألفته وتقبّلتُ مع مرور الوقت هذه الحقيقة المُرَّة، أنّ الله آثر أنّ يورّطني دون غيري في هذه الحماقة الكبرى، وأن يجعلني أدفع ثمن أخطاء لم أقترفها.

مقطوعٌ من شجرة صفصاف، لقيط، وبلغة مهذّبة: متخلّى عنك.. إنّه الوجع، حياة كالزبل هذه!! أن تكبر كالكلاب الضالّة تتقاذفك الأيادي والشوارع وتربطك الحياة بذيلها وتركض بك، وتجرجركَ في دروب المحن والأحزان... وأنت في كلّ هذا تموت بشكل تدريجي، تحمل جراحاتك بين الناس وتحاول جاهدًا أن تفتعل ابتسامة زائفة وسمجة، فقط لئلّا يلتفتوا إلى أنّك تنزف في صمت: ما جدوى حياتك؟! لو كنت شجاعًا لما أجّلْتَ موتك يوم وقفتَ طفلاً أمام الهاوية وقاومتَ إغراءاتها المتتالية، ولو كان الموت كريمًا يومها، لهشّم عظامك حين استدرجك السيل إلى الوادي الهائج، إنّها مسألة شجاعة وكرم يا مراد... لكنّني لم أكن جبانًا! لكنّك لم تكن شجاعًا كذلك.

مرّتْ ساعة وما حرَّكتْ صخورَ الوادي حوافرُ الحصان، والأشواق تتضخّم وأسقط سجينها.. حتى الندوب السوداء التي خلّفتها الشموع على جدران الكهف صارت ـ مثلما كنت أراها أيّام صباي ـ

Twitter: @ketab_n

أشبه ما تكون بقضبان قفص حديدي. وقفزت جوليا إلى معراج الذاكرة. تمنّيت لو تعود، لا لشيء، فقط لأراقبها وهي تمارس لعبتها الخبيثة بمهارة عالية. تمنّيتُ لو تصحب معها كفنًا يليق بحجم حكايتي، وأن تجهز عليَّ إذ تسحب النصل الذي أسكنته في ظهري بهدوء مليكةٍ قاسية! آه أيّتها الشقراء البهيّة الكاملة الحضور، كيف لي أن أتطلّع إلى نمش صدرك دون أن أتذكّر الخندق المفتوح على الموت، هذا الذي فتحته غيلة في ظهري؟! كيف سأضلعك كوسادة إلى صدري، كيف سأشتهيك وأغرق سفني كلّها في عينيك، وأنا متأكّد من أنّ هناك خيانة ما تتعقّبني، وأنّك في لحظات صحوك ترين شبح زوجك نائمًا بيننا؟

لكن، وبغضّ الطرف عن كلّ الخيانات الأخرى المحتملة، أهنّئك جوليا، فقد نجحت نظريًّا في مشروعك الروائي الجديد، ما يؤسف حقًّا أنّني سأكون المتغيّب الوحيد عن قراءتها، على الرّغم من أنّني الوحيد الجدير بقراءتها والمعنيُّ بها.

ومرَّ زمن ليس بالهيِّن، وصخور الوادي صمّاءُ لا تهتزّ لحوافر الحصان، وصبري اهترأ وأشواك الانتظار تخزني في كلّ مكان من قلبي المرقّع. تركت المقام، وتوغّلتُ أكثر في المضيق الجبلي حتى انتهيت إلى البركة، وأطلتُ التأمُّل في المكان الذي أغمي عليَّ فيه، لم أجد ولو أثرًا بسيطًا للدماء، عجبتُ لذلك ورجَّحْتُ أن يكون الشابّان اللذان عثرا عليَّ قد قاما بإتلاف أثرها.. تطلّعتُ بخفّة صوب كلّ الجهات، وتمنّيت في سرّي لو تلفظها الجبال كما جرت العادة، لكن دون جدوى..

أطلت الوقوف أمام عين تامجا، ولم تأتِ

أغرقت جسدي رغم برودة الجوّ في البركة، ولم تأتِ

Twitter: @ketab_n

دخّنتُ عاريًا، ولم تأتِ

حزنتُ كثيرًا وصرخت ملء جوفي:

ـ نو... مي... ديا!

لكن صخورَ الوادي خرساء لا تتحرّك، ولم أسمع لحصانها ذلك الهدير الأقرب إلى اصطخاب الأمواج، نوميديا لم تأتِ.

عندما امتلأت يأسًا وقرّرتُ العودة إلى الفندق، كان مؤذّن القرية يعلن حلول صلاة العصر بصوتٍ شجيٍّ ومرتبكٍ أقرب إلى النشيج.. عدت منكسر الهامة مطأطأ الرأس مغلوبًا، ربّما مثلما غلبتُ خولة بغيابي غلبتْني نوميديا بغيابها بعد أن أدمنتها. صرخت باسمها مرارًا، لكن بعد كلّ مرّة أصرخ كانت الجبال ترجع لي صوتي هشًّا يضمحل شيئًا فشيئًا، فلا يبقى منه داخلي سوى أصوات مبهمة، كأنّها وعود بأفراح وموسيقى سعيدة. أتذكَّرُ صمتها المهيب وإيماءاتها الساحرة وتقاسيم وجهها الطلق، أتذكّرها بل وأراها في خيالي، فأوقن أنّني اختزلت المسافة بين العقل والجنون، وأنّني سأموت حبًّا وشوقًا لا محالة.

فور دخولي الفندق، طالعني وجه ملتح. تأمّلته وهو يتفرّس في وجوه بعض الأجانب بنوع من الاستغراب المشوب بالاستهجان، المسكين يبدو مخدّرًا، إذ يعتقد أنّ الدين هو أن يسبل المرء لحيته ويلبس البياض ويدّعي الورع والتقوى!! الدين تواضع وحنان في قلب المرء قبل لباسه، كرم في التعامل، تسامح وحرِّيّة وإغداق في حبّ الله بصدق والتفكير فيه أكثر من الانشغال بكرهِ الآخرين عن حبِّه.

على عجل، تناولت وجبة الغداء، لم آكل بحماس ولا استمتاع.. فعلت ذلك فقط لئلّا أموت جوعًا، واندفنتُ بعد ذلك في غرفتي.

Twitter: @ketab_n

كانت شرائط جوليا ترتجف في يدي وأنا أواجه المسجّلة الكبيرة، هذه الشرائط كفيلة بأن تحرق في طريقها كلّ شيء، أخمدت بشكل عشوائي أحد الشرائط في المسجّلة، فإذا صوت جوليا يزفّ قلِقًا إذ تقول:

هنا أمام هذه القبور المرصوفة بانتظامٍ مزعجٍ، ينتابني شعور مبهم «بلاجدوانيّة» الحياة. مهما كانت إمكاناتنا أو اتّسعت خياراتنا وتشعّبت، فالجميع محكوم عليه مسبقًا بالموت. بعد مائة عام سيموت الجميع، كلّ من يدبّ فوق البسيطة سينطفئ. أحسّ أنّ حرّيّتنا مهما اتّسعت، فإنّنا لا نسير إلّا وفق خطٍّ مرسوم لنا سلفًا...

تركت مراد ليخلو بهاتفه، وابتعدتُ قدر الإمكان لأخلو بمسجّلتي وأستنطق هذه القبور الخرساء، فلربّما كان أحدها لأبيه أو لأمّه! لكن أوان طرح مثل هذا التساؤل قد ولّى، ومراد استحال إلى خربة أحزان، وشقوق قلبه بادية لا تقوى الحياةُ مهما ابتسمت له على جبرها.

أحيانًا، أحسّ كما لو أنّه يموت بالتدريج أو على مراحل متقطّعة، كلماته، همساته خمريّاته الحزينة، كلّ شيء يقول أمرًا واحدًا: إنّ مراد قد وضّب أغراضه وأنّه في أتمّ الجاهزيّة للسفر الأخير. لكن أحيانًا، وأقصد بالضبط حين يعتصرني جنسًا، ولا أملك إلّا أن أتهاوى أمامه كأوراق الخريف، أكاد أجزم أنّ الخلود هو مصير هذا الرجل المسكون بكلّ هذا الشبق. مراد مزيجٌ غير متجانس من رغبات يتعانق فيها الموت بالحياة، دونٍ أن يلتبسَ أحدهما بالآخر أو يقضي أحدهما على الآخر، يتأمّلني الآن من بعيد، أيُّها الرجل الهارب من

Twitter: @ketab_n

بين دفّتي رواية! خبِّرني كيف سأعيدكَ إليها دون أن أدمي قلبينا معًا؟

أتساءل بغباء: أأحببته فعلاً؟ ربّما خنتُ وجه الساردة حين أوريتُه خلف قناع العاشقة، لكنّني مثّلتُ أوّل الأمر دور العاشقة وصرت أوّل من يقتنع به، واكتشفت بسرعة أنّني متورّطة في هذا الرجل من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، ربّما لأنّ مراد من الرجال القلائل جدًّا الذين يُعشقون بسهولة، لأنّهم يملكون في خزراتهم الحذرة والبريئة، وفي صمتهم المهيب، ما يغرينا بالتقدُّم في حقولهم الملغومة.

من أنا بعدك يا مراد؟! أيّها المحكوم عليك غيابيًّا بالإعدام، وخزًا بحِقَن الموت ورميًا بالكلمات...

سامحني لأنّي اقترفتُ في حقّك جناية أدبيّة واقعيّة ودمويّة! والآن، وقد تغلغلَ حبُّك كحدّ السيف في شراييني أجدني ساديّة بامتياز. كيف أستعذبُ هذا الجنون الحافي وأنتعله وأمضي في الغدر والخيانة إلى منتهاهِما! وبين خيانتي لزوجي وغدري لمراد، ها أنذا أعيش حالة من القلق الدائم.. ولأنّ الكذب ملازم للحالتين معًا (الغدر والخيانة)، فقد صرت أدحرج كذباتي ـ كما يقول برنارد شو ـ ككرات الثلج، فتكبر أكثر فأكثر.. أخاف أن ينفرط عقد الكذب، فأخسر كلّ شيء دفعة واحدة.

لا تنبع الكتابة من المحن التي نكابدها وحسب، بل تندفع فينا حارقة حين نمضي باسمين في طريق الحماقات، ونحن على علم مسبق أنّنا سندفع ثمن ذلك غاليًا!

Twitter: @ketab_n

أخرجتُ الشريط من المسجّلة واخترت آخر، وارتميت على الأريكة في انتظار بزوغ صوتها. قالت ـ ويبدو أنّها كانت تبكي:

«ما أبشع أن يتورّط الإنسان في ذبح من يحبُّ...

اليوم، بدأ مراد يتهاوى كثور إسباني تنام على ظهره سيوفٌ كثيرة، شرع المرض في نهش لحمه.. آه أيّها الجميل البهيّ! كيف أفعل بقلبك المنخور ما فعلتُ؟ لماذا يدفع ثمن الكتابة غيرنا دائمًا، لماذا هذا النزوعُ والهروب الأدبيين إلى دفع خيباتنا في قلوب الآخرين والإجهاز عليهم بجرّة قلم؟

مخطئٌ من يظنُّ أنّ الكتابة لعبة حبر وورق! معك، استحال القلم إلى إزميلٍ، والورق إلى لحم بشري، هو لحمك يا مراد، فكم هي دمويّة لعبة الكتابة!!

وها هو مراد يموت شيئًا فشيئًا، ما هي إلّا حقنة مركّزة ويستحيل إلى جثّة هامدة. أعترف يا حبيبي أنّني لم أنجح في استفزازكَ لكي تتكلّمَ وتبوح بكلّ شيء، على الرّغم من أنّني التجأتُ إلى الطبّ النفسي ووسائله غير الشرعيّة من حقن تجعل إناء الورد يتشظّى، وتشرّع في جسد الإنسان وروحه خرومًا لا يملك أمامها سوى الانكسار والبوح. تمنّيتُ أن يعترف مراد من تلقاء نفسه حين تستبدّ به لحظة ضعف، لكنّه في أشدّ اللحظات مرارة كان يلوذ بالصمت أو يحدّثني عن «أوداد»... كان يودّ أن يسمعني الحكاية بمنطق مخالف تمامًا، أو ربّما كان يودّ أن يخلق مسافة ـ ولو وهميّة ـ بينه وبين ماضيه.

لكنّ شيئًا ما قدريًّا كان يجعلني ذاهلة أمام صمتِك وكلامك،

Twitter: @ketab_n

لا أقوى على كبح ذلك الصوت الذي ينتفض داخلي ويدفعني إلى البحث بلامبالاة عن طريقة تجعلني أنكأُ جراحاتك.

ـ هذه الحقن ستستثير أحزان مراد، وستعيده إلى حالة أسوأ من تلك التي كان عليها بعد وفاة خولة، لكن، لكي تجدي تفسيرًا أو بالأحرى مبرّرًا لحقنه، خذي هذه الحبوب، ضعيها في قدح قهوته أو كأس عصيره، حين سيسري مفعولها سيدبُّ المرض في جسده، مرض عضويٌّ طفيف، حمّى وشعور بالصداع. وقتها ستضعين هذه الحقن في علبة أدوية مهدّئة وستتعلّلين بمرضه لحقنه، هذه الحقن ستلهبُ مرضه النفسي، سينهار وسيقول أكثر ممّا تريدين سماعه...

هكذا قال طبيبه النفسي في بلد لا يفكّر إلّا في البيع والشراء! عندما وضعت يدي في المقبض النحاسيِّ البارد للباب، أردف بنوع من الاستفزاز:

ـ جشعك الروائي يا جوليا قد يخرس مراد، قد يخرسه للأبد. لكنّك ـ وتأكّدي من ذلك ـ خيرًا ستفعلين. على أيّ حال، حياته أقصر من قصيرة، وأكاد أجزم أنّ حياته بدون أدوية أقرب إلى الاستحالة غدًا أو بعد غد سيُجنُّ أو سينتحر...

وانزلقتْ من محجريَّ دمعتان حارقتان، أحسستُ أنّ كلامه يقتلني، أنّ رشاش الكلمات الجارحة أخطأ مراد وأصابني.. وعاودتني ذكرياتنا البسيطة والجميلة، تذكّرتُ في غمرة الوجع النفسي ويدي تشدُّ بقوّة على مقبض الباب، تلك الدمعة التي انحدرتْ من عينه وهو ينحني بتعب إلى تلك الطفلة بائعة الورد على حافّة نهر السين، كان في عينيه الكثير من الحنان والعياء. في بادئ الأمر تحاشى النظر إلى عينيَّ بشكل مباشر، لكنّه ضمَّني فيما بعد، وانتحبَ طويلاً دون أن ينبس

Twitter: @ketab_n

بحرف واحد. كان هذا الموقف على بساطته كفيلاً بأن يحرّضني على كتابة آلاف مؤلّفة من الروايات، فلماذا هذا الجشع الأدبي يقتادني من أهدابي إلى الثقوب السوداء التي تملأ ذاكرة مراد الوعل!؟

ليس الأدب وحده من شجّعني على غدرك يا مراد، ربّما هي لعنة البشريّة التي لم تبتلَ بها أنتَ وحدك: الفضول. آه، كم أشدتَ بصمتي المتعمّد واحترامي لصمتك وذكرياتك في اللحظات التي يفدحُك فيها الحزن، ولم تنتبه إلى أنّني كنت أحفر سرًّا، خنادق وجع في ظهرك!

أيّة قاتلة أنا؟ كيف أعانقه بكلّ ما فيَّ من حبّ وجنس، وأنا أدسُّ في صدره، صرّته، دخان سجائره، كؤوس خمره.. في الهواء الذي يستنشقه وفي الماء الذي يشربه، في النار الضارية التي تلتهم ضلوعه، أدسّ في كلّ هذا، وغيره خيانة وسمًّا زعافًا، وأصرخ بعدها: سامحني. أيّ تناقض هذا أيّ عبث، وأيّة لوثة هذه التي تقبع داخلي... سامحني مراد سامح...».

Twitter: @ketab_n

(٣)

عنيف هو الليل، ليلُ إغرم يورث خوفًا مبهمًا يتسلّقُ بثقة الشرايينَ القريبةَ من القلب. كان القنديل يتراقص برمًا في يد حميد ورفيقيه الغريبين.

عنيفةٌ أيّامنا السود، تسيلُ منّا بغزارة دون أن تنقطع في اللحظات التي نتمنّى فيها أن تغادرنا بصفة نهائيّة.. كانت أصوات الفرح تأتي غريبة وباردة كرياح الشمال من مكان ما قريب، وحميد لا ينفكُّ يُعيد عبارات الترحاب ذاتها. تمنّيتُ في طريقنا إلى العرس لو يعرج علينا طيف نوميديا وحصانها، علّها تبعث في الروح فرحًا فجائيًّا، يسعفُ على مواصلة هذا اليوم بأقلّ قدر ممكن من الشعور بالخيبة والضياع.

مذ أخرستُ المسجّلة ودمعتان حائرتان تقفان في عينيَّ، لا هما تعودان أدراجهما فتطمران ما تبقّى في الذاكرة من أفراح عابرة وموقّتة، ولا هما تنزلقان على خدّيَّ فيكون فيهما قليل من

Twitter: @ketab_n

السلوى، ربّما يصهران هذه الغصّة الواقفة كفضيحة في جوفي!

توقّف حميد فجأة. تطلّعتُ إلى حيث انكسرَ ضوء القنديل، فرأيتُ في مفترق العتمة والإضاءة ثور القبيلة، فحرَّك بسخط ذكرياتي الراسبة، شدَّت نضال على ذراعي خائفة، والتفتَ إلينا حميد قائلاً:

ـ حذار إنّه ثور القرية! فلنتقدّم ببطء وحرص.

أعادني الثورُ إلى ذكريات قديمة.. في إغرم ثورٌ وحيد يساهم كلّ منزل بقدر من المال من أجل شرائه، يطلق بعدها في القرية يرعى في أيّ حقل شاء، وتستفيد القرية أجمعها من فحولته. حثثنا الخطو ببطء شديد، بينما كان الثور ثابتًا وشامخًا تتّقدُ عيناه اللامعتين بغضب غير مبرّر كأنّما يتأهّب للهجوم، لكن مثل هذا لم يحدث، إذ انخطف بسرعة وابتلعه الظلام، وبقيتْ صورته ـ خاصّة عيناه الغاضبتان، ماثلة أمامي لا سيّما إذا أنا أطلت التأمّل في الظلام. قالت نضال عن الثور ممازحة:

ـ فكرة بروليتاريي إغرم، على الرّغم من أنّها اشتراكيّة صرفة إلّا أنّها تنطوي على خطر.

ـ الخطر وارد في كلّ وقت ومن كلّ شيء، أمّا النفع فهو الأصل. وللإشارة، فهذا الثور لا يهاجم أبناء القرية، لأنّه يكبر معهم ويعرفهم واحدًا واحدًا.

ـ إذن، نحن في مهبّ الخطر.

ـ ربّما، لكنّه على الأقلّ خطر معلن.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا تقصد؟!

ـ لا شيء.

كان الفرح يدنو إلى آذاننا شيئًا فشيئًا، كان ذلك يشعلُ فتيلَ الحرائق في دمي ويرجعني صوب طفولة، نسيتها معلّقة بين جدران هذه القرية. ولولا زجاجة الفودكا التي كرغْتُ نصفها قبل الانسحاب من الفندق، لاعتصر الماضي قلبي بصورة مضاعفة، هاجمتني نضال:

ـ لماذا دون سائر بقاع المغرب إغرم؟

لم أجب، ربّما لأنّني لم أقوَ على ذلك. ربتُّ على شعرها وتأمّلتُ تحت الإضاءة الخافتةِ والمضطربةِ للقنديل ملامحها. رأيت حلكة الليل تمرُّ وتفرّ في ملامحها، وعجبت لسخريات القدر: نضال التي تشدّ ذراعي الآن هي زوجة غيري بعدما وحّدنا وفرّقنا النضال!؟

انتهينا إلى قلبِ إغرم النابض بالفرح، حيث ضربتْ خيمةٌ واسعة وعالية والناس مأخوذون بالفرح، كلٌّ يرتدي أفضل ما عنده، كأنّي ما كبرتُ ولا غادرتُ إغرم.. ما زلتُ أراني ذلك الطفل الواقف على هامش العرس بثياب رثّة مستسلمًا للموسيقى وهي تلهب أحزانه وأسئلته.. كانت نضال تلهجُ بكلمات لا تكاد تصلني، إلى أن أخرستها الزغاريد المدوّية وصكّت أذنيَّ، كان فيها شيءٌ ما جنائزي أشعرني بالكآبة.

القرية كلّها متحلّقةٌ حول حصان العروسين، العروس تجلس أمام عريسها متّشحة بألوان عديدة ومسدلةً منديلاً أبيض على

Twitter: @ketab_n

ملامحها، كان لا يظهر من جسدها سوى القدم المزركشة بوشم والمطوّقة بخلخال، تأمّلته بعد أن اخترقنا أنا ونضال الحشود. كنت أردُّ تحيّات البعض بامتنان، وأرقبُ بحذر نظرات الآخرين المتوجّسة أو ربّما المستهجنة، وكدت أصرخ: هل نسيتم أوداد؟ لكنَّ الغصّة، تلك الغصة التي خلّفتها جوليا استوقفتني.

وشوقٌ كبيٌر إلى نوميديا أربكني.. وأربكني الفرح أكثر! آه كيف أواجِهه حافي القلب؟ لماذا أكون أنا النشاز الوحيد في جوّ تغمره البهجة؟ ألأنّ الله حمّلني أكثر ممّا تطيق هشاشتي، أم لأنّ عباده جرجروا قلبي في الطرق الشائكة الملتوية.. أم هما معًا تحالفا ليجعلا منّي وجعًا بملامح بشريّة أنيقة؟!

يعلو صوت الفرح أكثر فأكثر، لزمنا أنا ونضال مقعدينِ داخل الخيمة على مقربة من العروسين؛ وكنت حزينًا جدًّا، ربّما لأوّل مرّة منذ انتحار خولة، أرى الحزن يحمل بيدين يابستين رشّاشًا، ويتوعّدني بسفك دمي.

موسيقى...

كانت مجرّد موسيقى، تنبعث من كلّ مكان وتطبقُ على القلب بقبضةٍ من فولاذ. شجيٌّ هو العود الأمازيغي الأصيل وصخب الدفوف كان يصهر السعادة في الحزن. أمّا الصوت الذي انبعث من مكان ما مباغتًا، فقد آلمني كثيرًا. الموسيقى تقتل فيَّ أشياء كثيرة دون أن تجهز عليَّ، الموسيقى هذا الخليط الموجع من الحنين والخوف وانتظار ما لا يأتي. رأسي يدقّ كأجراس الكنائس وحشود الناس تتحرّك في كلّ اتّجاه وتتناهى إليَّ صورهم ثقيلة...

Twitter: @ketab_n

لا شيء، لا شيء غير الموسيقى، سمعتُ هذا الألم قبل اليوم وأحفظ هذا اللحن جيّدًا، أغمضتُ عينيَّ فانبلجتْ الذكريات ومرَّتْ بي صورٌ وأحداث وأشخاص، لكن كلّ شيء مرَّ بسرعة.

الموسيقى.. شأنها شأن كلّ شيء في إغرم لم يغيِّر الزمن ملامحها، لا زالت حين تندفع تجرح في طريقها كلّ شيء، في ما مضى كانت تُبكيني، أذكر هذا الفصل الأسود من طفولتي الشقيّة، وأذكر وقتها أنّني حين كان الحزن يفدحني أركض إلى أبعد نقطة في هذه القرية المجنونة، لكنّ الصوت.. صوت الأهازيج لا ينفكُّ يطاردني ويجلِدني، فأخرُّ متكوّمًا في مكان ما، مضرّجًا بدموعي إلى أن يفاجئني الصباح! هكذا، كانت تحتفي بي أعراس إغرم.

حين فتحت عينيَّ فتحتهما على كثير...

رأيت نضال تعلّق ليلها بعيدًا على إيقاعات الرقصة الأمازيغيّة.. بعيدًا كان هناك صفٌّ من النساء يواجه آخر من الرجال، وحركات تنسجم مع إيقاع الموسيقى وتشدُّني إلى ماضيَّ.. هم لا يعلمون أنّني أتمزَّقُ في صمت، لا يدركون أنّ الدماء قد تتدفّق من فمي حمراء طازجة، يتخلّون عنّي مثلما فعلوا قديمًا ويتركونني ـ ربّما دون أن يدركوا ذلك ـ كسيحًا جريحًا ممزّقَ الجناحين. لا يعلمون أنّني أعيشُ نزيفًا حادًّا والذكريات.

أهازيجُ ورقصٌ على موسيقى جنائزيّة، ومراسيمُ زواج على أنغام موت مقبل، وحنين ثقيلٌ وشائكٌ لتلك الأوهام والأمنيات التي كنت أدسّها في صدري! كم أضعت نفسي وكم أفلستْ كلّ الأمنيات. أضاعوني وأضاعتني المدينة، حين اقتأدني الحسين

Twitter: @ketab_n

إليها، لم يكن يعلم أنّها بالنسبة لطفل يحملُ كلّ تلك الأوجاع مقصلةٌ.. وأنّني هشٌّ جدًّا وملعون أيضًا. أمّا عندما استسلمت أنا ليدِه، فلم أكن أرى في الأمر سوى محاولة لتجاوز الواقع المرّ. أخضعت نفسي في المدينة لتحاليل النسيان، فإذا النتائج كلّها سلبيّة، وها هي الموسيقى تسبّب لي تضخّمًا في أورام الذاكرة.

بالكاد، أسعفتني قدماي على الوقوف، كنت موجوعًا كثيرًا بالموسيقى، ومضطربًا بسبب النظرات التي لا تنفكّ تضرب طوقًا عليَّ، وآثرتُ التقدّم للأمام. لكلّ حربٍ خطّتها يا مراد، لكنّ الحرب ـ حربَ العواطف هذه، ليست حربي يا أناي! لكنَّك الآن وسطها، لا.. أنا مدفوع إليها، ومن دفعك إليها؟! الله.. أو ربّما نقيضه.

كنتُ وسط هذا الفرح المشاع نشازًا، حتى البسمة المفتعلة على وجهي كانت نشازًا. لكن ومثلما يلوح لتائه في الصحراء قليل من الخضرة في مكان بعيد، أو مثلما تتعرّى السماء من غيومها وتلوح الشمس بعد أيّام طوال من المطر المتواصل، رأيتها ترقص. عاودني للحظات ارتجاف أصابعي، لكن ذلك لم يمنعني من التقدُّم، شعرها الليلكي هو نفسه وقوامُها الممتشقُ نفسه. كانت هي، لم أتردّد في الاقتراب، بل طرتُ إليها بخفّة فراشة.. أمّا وأنا أقف خلفها وأضع يدي على كتفها هامسًا:

ـ نوميديا.

فقد أدركت أنّني أخطُّ حماقة أخرى، بسرعة صادمة استدارت نحوي تلك الفتاة، لم تكن نوميديا، ولم تكن هذه الفتاة وحدها

Twitter: @ketab_n

من استدار وتأمَّلنِي بذهول مشوب بالاستهجان، كلّ الحاضرين فعلوا ذلك. أمّا الموسيقى التي لم يستوقفها الموقف، فقد أكملت حرائقها في دمي.. حين تأمَّلتُ الفتاة مرّة أخرى شعرت بالانخذال.. هكذا خانني نظري أو ربّما قدري.. لا فرق. في لحظة ما ثقيلةٍ، حطَّت يد نضال على كتفي، كانت يدها أثقل من كلّ شيء حتى من نظراتِهم. أمّا ما وقع بعد ذلك، فقد كان نهاية محتملة لحياتي، لكنّها لسبب ما أُرجئت. نهاية غير نهائيّة وقفزة في حضن الجنون! في البدء انسحبتُ بخطى متسارعة إلى الكوّة المظلمة التي لفظتْنا أوّل الأمر من الحقول إلى ساحة الفرح، لكنّ الأمر سرعان ما انقلب إلى هرولة ثم جري.. كنت أهربُ من كلّ شيء، من نظراتهم وحزني، من قدري الذي لا ينفكّ يلحق بي، ومن تلك الحرائق التي اندلعتْ في دمي عقبَ ذلك الموقف.. لكنّ الموسيقى ظلَّت تعيدني إلى كلّ شيء، وظلّ حزنها السرِّي يملأ الشعاب السحيقة التي حفرتْها الحياة على سطح روحي المتعبة.

وانتهيتُ إلى ظلام دامس بين القرية والفندق. صحيح أنّ أشجار إغرم لا تستنبتُ لها ليلاً قوائمَ أو أرجل، ولا تظهر بملامح بشريّة مثلما يحدث في الرسوم الكرتونيّة، لكنّها تبدو مكفهرّة وغاضبة جدًّا. أبحرتُ في حقول إغرم، كان خرير المياه يتناهى إلى أذنيَّ قويًّا ومصحوبًا بأصوات حيوانات، وحشرات لا تظهر إلّا ليلاً، أضف إلى كلّ هذا صوت الموسيقى الأمازيغيّة التي أبتْ إلّا أن تلتصق بأذنيَّ، ولا تبرحهما إلّا إذا هي أردتني قتيلاً.

وصرخت: نـو... مـي... ديـا.

Twitter: @ketab_n

لكن دون جدوى، فاكتظّ بي الشوق إليها، وفاضت بي مرارة ما سمعت اليوم من جوليا، وحزنتُ كذلك لما وقع الليلة في العرس، وعبرتْ بخيالي أطياف وصور وأوجاع وأنا وسط كلّ هذه الفوضى مستسلم للموسيقى، وهي تنهش لحمي وتجرجرني من أذنيَّ صوب طفولتي القصيّة. كبرتُ كثيرًا، لكن أوداد هذا الطفل الصغير لا يزال يعشِّشُ داخلي، وها هو ينتفض على إيقاعات هذه التراتيل الحزينة ويجدني قد هرمت وأدمتني الحياة والجميلات، ولم يبق فيَّ ولو حيّزٌ طفيفٌ لمشروع فرح عابر أو حتى بسمة مفبركة.

كبرتُ يا أوداد وخلفتُكَ ترعى الأيائل ها هنا، وتقاوم برد الشتاء بحثًا عن طريقك للمدرسة. آه، كم أفلست بعدك وكم انتظرتني أمام الهاوية، وكم ضعنا أنا وأنت عندما أزفّ الرحيل، أتعبتني طفولتك الشقيّة وأتعبَك انتظاري وأتعبتْنا الحياة معًا.

يؤذيك هذا الغناء القادم من هناك، يزيد هشاشَتَكَ! أعلم ذلك. هربت معي كما كنت تفعل وحدك قديمًا، لأنّ المبهمات كثرت عليك، وما دام الرقص محنة لم تتعلّمها وربّما لن تفعل، فاهرب إذا ما استطعت أكثر، وإذا ما استطعت تحاشى كلام القرية وصمت نوميديا..

أعادتني الحماقات إليكَ يا إغرم لتكملي ما بدأت منذ ما ينيف على العقدين، وها موسيقاك الآن تبحث فيَّ عن نقطة الضعف الأخيرة لترديني قتيلاً! لو تظهر نوميديا، واتعبي! لتمسحَ بعض هذا الوجع. سأرتمي عند ركبتيها وسأبقى مسجّى بحبّها هناك، دامع العينين، ولن أتركها تغيب عنّي ولو ثانية إضافيّة.

Twitter: @ketab_n

سأصرخُ ملء جوفي: أحبّك وسأحكي لها - إن استطعت - عن هذا الجنون الذي دسَّته جوليا في دمي، سأحكي لها - إن ظلّ في الحكاية ما يؤنس - عن طفولتي الشقيّة ها هنا، وعن شيخوختي التي فاجأتني قبل أوانها. سأقول لها إنّني أتمنّى أن يقتلني حبّها ألف مرّة، على أن يقتلني الجنون أو المرض أو حلفاء الظلام مرّة واحدة ونهائيّة.

تقدّمتُ دون هدف بين الأشجار وتوغّلتُ أكثر في الحقول إلى أن استوقفني صوت مزعج، أوّل الأمر كان أقربَ إلى أصوات سيوف تُشحذ، لكنّه سرعان ما انقلب إلى خشخشة عنيفة، كنت - إن صدق ظنّي - وسط حقل ذرة، ولأنّ الظلام كان دامسًا فقد كان الصوت يقتربُ ويدنو كما لو أنّه يأتي من كلّ الجهات، صوت يحيطني ويملأني رهبة ويدكّ الأرض بقوّة مزلزلة، وفي لحظة مخبولة انخطفتُ من مكاني، وأحسست أنّ شيئًا حادًّا كمدية قد انغرس في جنبي الأيسر. لكن، لماذا ارتفعتُ عن الأرض وطاولت رؤوس الأشجار؟!

لم أعلم أنّ ثور القبيلة هاجمني إلّا بعد أن استقرّ جسدي على الأرض ودنا من وجهي، جعلت أنفاسه الساخنة تلفح وجهي إلى أن انسحبَ فجأة وخلّفني والألم يهتصرني ويمزّق جنبي. آه ما هذا الموت الذي يبطئ كلّما اقترب منّي! لماذا يتراجع ويطعنني في الظهر ويتركني في مهبّ النزيف، وطعنة واحدة في القلب تكفي لحسم الأمور لصالحه.

ثم طفحَ الأحمر، وبدأ يتقهقرُ الأسود المستبدّ بالمكان، ويزحف على عينيَّ الأحمر وحده أحمر أحمر.. وألحّتْ عليَّ عينا

Twitter: @ketab_n

الثور حين صادفناه في طريقنا إلى العرس، كانتا تشعّان بغضبٍ غير مبرّر. وتذكّرتُ، وأنا جريح، مصطفى! تذكّرت حديثًا شجيًّا دار بيننا قبيل وفاته:

ـ مصطفى، أنتم جيل الهزائم الحقيقيّة! فلماذا كابرتُم ولم تخبرونا حتى غدونا امتدادًا لها؟

ـ لأنّ حربنا لم تكن يومًا حربكم!

ـ كيف؟

وجعل يصرخ:

ـ جاء الظلام... جاء الظلام.

وانطلقت الموسيقى بحماس أشدّ، وسمعت خشخشة بعيدة، لم أكن أقوى على الوقوف.. كنت أتمزّق وربّما أنزف بقوّة، جلُّ ما أذكر أنّني انطفأت بسرعة...

Twitter: @ketab_n

(٤)

«عُمْر الشقي باقٍ» أو هكذا يزعمون. . .

وأنا أكثر من شقيٍّ، استيقظتُ في غرفتي ممدّدًا على ظهري عاري الصدر، تطوّق ضمّادة كبيرة بطني وظهري، ولم أستبن موضع الجرح إلّا عندما حاولتُ الحركة، شعرت بوخز حادّ كأنّما هناك شيء يتمزّق فيَّ. تحامتني الحياة والذكريات، وكدت أزفُّ للموت وأنتهي، لولا أنّ عمر الشقيِّ باق. قلت لنضال إنّ ثور القبيلة لا يهاجم الغرباء، والبارحة انتبهتُ إلى أنّني ـ رغم ما كان ـ غريبٌ، وأنّ روائح إغرم سقطتْ عنّي كلّها. دخلتْ نضال بصحبة حميد إلى الغرفة، وبادرت:

ـ صباح الخير مراد، كيف الحال؟

وقال حميد:

ـ صباح الخير، أستاذ.

Twitter: @ketab_n

ـ صباح الخير. كما ترون أنا بخير، بخير..

اقتربت نضال، جلست على حافّة السرير، بينما ظلّ حميد واقفًا يتأمّلني بدهشة:

ـ لا شكّ أنّ بنيتك قويّة وإلّا لما استطعتَ أن تصمدَ أمام قرني الثور الهائج، على أيّ حال، ما كان عليك أن تنسحب من دوني، أنت تعرف أنّ المسالك صعبة وأنّ ليل إغرم أصعب.

ـ أعرف، أعرف، لكنّني شربت كثيرًا..

ـ ما الذي أصابك أستاذ، بدأت تتغيّر مؤخّرًا، انفعالاتك وأفعالك أحيانًا مدعاة للاستغراب، وأهلُ القرية بدأوا يحرّكون ألسنتهم بكلمات قد لا تسرّك...

ـ وماذا يقولون؟

ـ لعلّك سمعت شيئًا ممّا يقولون في ذلك اليوم، من المستحسن أن تتحاشى طريق الوادي، وأن تتجنّب المضيق الجبلي، فلتلك الأمكنة تاريخ من الجنون ولا أريدك أن تكون أحد ضحاياه.

ـ كيف ذلك؟

ـ يقولون إنّ الجنّ كانوا يعمّرون ذلك المكان قبل بناء القرية، وأنّ من يكثرُ الجلوس هناك عادة ما تصيبهم لعنتهم.

وضحكت ساخرًا، قائلاً:

ـ لعنتهم أم لعنتها كفى ترّهات.. أرجوك!

Twitter: @ketab_n

وتطلّعت إلى نضال التي كانت تتابع حديثنا بحماس، دون أن تنخرط فيه، إلى أن قال حميد، وكأنّه يضع حدًّا للنقاش:

ـ أتحتاج شيئًا.. أستاذ؟

ـ نعم، أحضر لي وجبة الفطور إلى الغرفة.

ـ حاضر.

ـ وعلبة سجائر أيضًا.

ـ حاضر.

وانصرفَ.. راقبتُ نضال وهي تراقب خطواته إلى أن غاب، وارتمتْ بعدها على صدري العاري تقبّله بنهم. قائلة:

ـ إذن، غافلك ثور القبيلة..

ـ ربّما غافلني قدري البائس مرّة أخرى.

ـ ثور القبيلة! يا للأقدار العجيبة، أليست مفارقة عجيبة أن يهاجمك نموذجك المتميّز للفكر الاشتراكي، أن يخونك؟؟

ـ كما خاننا الرفاق من قبل، وتسلّقوا بشرعيّة النضال الزائف معراج الدولة! دعينا من هذا الكلام الثقيل الذي يثقل القلب، فما كان كان، ومن خان خان..

ـ والاشتراكيّة يا مراد؟

ـ أخطأنا الفهم ربّما أو ربّما، كانت مجرّد حلم جميل كان علينا أن نكتشف مبكرًا أنّه مجرّد حلم، لا يصمد أمام هول الواقع بكلّ تناقضاته. كان حريًّا بنا أن نستفيد من أخطاء من سبقونا، وأن

Twitter: @ketab_n

نعلم أنّنا في وطن لا يحبُّ الأحلام كثيرًا.. أتعرفين من المفلس فينا يا نضال؟؟

ـ من؟

ـ من يكرّر الخطّة نفسها، التفكير نفسه، وينتظر نتائج مختلفة.

ـ وما العمل؟

ـ العبث يا نضال، العبث! في مجتمع لم يستفق من سباته الذي عمّر طويلاً لن تنفع لا الاشتراكيّة ولا غيرها. جاء الظلام يا نضال، جاء الظلام.. ليبارك هذا السباتَ ويحرس أحلام الحالمين، يصيحون فيهم: لكم جنّات النعيم، لكم أباريق خمر.. فناموا هادئين. وناموا وتركوا حياتهم تهرب منهم، ونسوا أنّ العالم يتقدّم بسرعة في الوقت الذي هم فيه يتآكلون ويموتون بشكل متقطّع، في انتظار الحور العين والرفاه الأخروي والبنين، كلام عذب وزائف في واقع بشع!!

وكسرَ حميد خلوتنا حين دخل ووضع صحن الفطور جانبًا، وناولني علبة السجائر والقدّاحة وغاب. كابدت الأمرّين أوّل الأمر لكي أنهض، لكن ما إن انتصبتُ واقفًا حتى أحسستُ بخفّة طارئة، ولولا الوخز الذي أستشعره بين الحين والآخر، لأنكرتُ أنّي تعرّضت لهجوم (ثوري). تذكّرت جواب مصطفى الساخر حين سألته أيّام مراهقتي عن الثورة، فأجابني بأنّها مؤنّث (ثور)!!. راقبتْ نضال خطواتي باهتمام واضح، ثم أشعلتْ سيجارة وناولتنيها بكرم، سألتها:

Twitter: @ketab_n

ـ والشعر يا نضال؟

ـ الشعر من أمر شيطاني..

ـ ولِمَ لا تكون شيطانة؟؟! لماذا تعيش شاعرة برهافة حسّك امتدادًا للمذكّر؟ التفتي إلى جسدك أوّلاً.

ـ هل أعتبرها نصيحة نقديّة؟

وضحكنا معًا، صحيح أنّ ضحكتي كانت مفتعلة تثير الشفقة، لكنّني فعلتُ ذلك مجاراة لنضال، التجأتُ إلى الأريكة وأكلت بنهم وأنا أتابع خطواتها وهي تذرعُ الغرفة جيئة وذهابًا. عندما اقتربتْ من المسجّلة ومن الشرائط ارتعدت فرائصي، ما هي إلّا كبسة على الزرّ وينزف صوت جوليا فضيحة. سألت نضال:

ـ لماذا كلّ هذه الشرائط؟

ـ إنّها مسوّدات صوتيّة خاصّة بالدراسة التي أنتوي تقديمها عمّا قريب.

ـ جميل.. هل لي أن أستمع لأحدها قليلاً؟

ـ لا أحبّذ ذلك، أفضّل أن تقرأي العمل مكتوبًا.

كنت أحاول أن أكظم الغيظ الذي ولّده فضولها، ثم أردفتُ لكي أنأى عن هذا الموضوع:

ـ لما لا تشاركيني الفطور؟

ـ شكرًا، لقد تناولته باكرًا.

ـ وما الذي تقصدينه بكلمة «باكرًا»؟

Twitter: @ketab_n

ـ الثامنة.

ـ الثامنة؟ وكم الساعة الآن؟

واستيقظت داخلي نوميديا كعاصفة هوجاء، تذكّرت موعدنا. لا بدّ أنّها تنتظر. هذا أوّل ما فكّرت فيه، حين قالت نضال بعد أن تطلّعت إلى ساعة يدها:

ـ إنّها العاشرة والنصف، حبيبي.

وقفزتُ من مكاني بخفّة والتجأتُ إلى أوّل قميص وقعتْ يدي عليه دون أن ألمس الجرح ولا الضمادة، أخذت معي علبة السجائر والولّاعة، أخمدتهما في جيب بنطالي المغبرّ، وأخرجتُ مذكّرة خولة وهاتفي المحمول من الرفّ. قالت نضال مستغربة:

ـ ما كلّ هذه العجلة!! تمهّل. فالجرح لا يزال حديث العهد.

(جراحي لا تندمل يا نضال.. جراحي ما إن تلتئم حتى تنبعث مرّة أخرى بنزف أشدّ ضراوة).

ـ سأحاول.

ـ إلى أين؟

ـ سؤال صعب، أفضّل ألّا أجيب.

ـ إذن، سأنتظرك في غرفتي، زرني فور عودتك.. اتّفقنا؟

ـ اتّفقنا.

حين وصلتَ إلى النهر الصغير، اقتفيتُ مياهه صعودًا إلى أن

Twitter: @ketab_n

انتهيتُ إلى حيث تفجّرت، إلى عين «تامجا». في الطريق، رأيتُ زمرة من شباب القرية كانوا يتأمّلونني بفضول، لم أُعِرْهم أدنى اهتمام بل تابعتُ طريقي وتوغّلت أكثر، مررت أسفل قلعة الرومي، هذا الإمبريالي الأوّل قاتل سيدي عيسى، توقّفت قليلاً عند مقام الشهيد، وعرجتْ على البال كلماتُ حميد بشأن التاريخ الملعون لهذا المكان، ووقفت مأخوذًا بإغراءات حبّة تين قد أكملت نضجها!

نوميديا.. يريدونني أن أهجر هذا المكان الذي أهدانيك أيّتها المليكة، أتذكّرك، آه.. أتذكّر شعرك الأسود المهيب وعينيك الواسعتين كمهاة وقوامك المعجزة الذي لا تسعفني الكلمات على استحضاره، نوميديا تلبس هذا المكان كأنّما ما خُلقت إلّا له...

مريض بكِ أنا ومتعب، فأين أنت؟ فلا طاقة لي على الصبر والانتظار.

(اسأل قلبك يا مراد، قلبك دليلك).

قلبي اهترأ لا بصر له ولا بصيرة منذ ابتلعته دوّامة نوميديا، وهو مصاب بتلفٍ في كلّ شرايينه، وذرعتُ المكان جيئة وذهابًا والسماء غاضبة تتّشح بالسواد، وقلبي فاض شوقًا وعشقًا ونوميديا غائبة.

أحنُّ إليك، أحنُّ إلى صمتك المعبِّر، في هذا الزمن المريضِ بكثرة الكلام، من نعم الله أن أُبتلى بحبِّ خرساء جميلة، وصرختُ لامباليًا:

ـ نـومـيـديـا.

Twitter: @ketab_n

فارتدَّ الصدى وصحب معه صخرة متوسّطة الحجم من أعلى الجبل، تطلَّعتُ إلى الأعلى، فإذا هو وعلٌ صغير يراوغ الجروف الحادّة، ويتسلّقُ الجبل بمهارة عالية.. لا شكّ أنّ صوتي أفزَعه، فأسقط تلك الصخرة. آه.. صوتي نفسه الذي لم يحرِّك في نوميديا ساكنًا... في الانتظار قرأت خولة:

«أغرّكَ منّي أنّ حبّكَ قاتلي...»

قلتها وأعدتها في غيابكَ أيّها الوسيم: أيّ حبٍّ هذا الذي يأتي على أخضر حياتي ويابسها، الحياة يا حبيبي تغيّر ملابسها، تغدو بنضارة وبإشراق وجهك وأنت متغيّب عنِّي، سألت عنك اليوم في الجامعة، فاهتزّ قلبي حين أخبروني أنّك استفدتَ من عطلة سنةٍ كاملة من أجل استكمال الخبرة، وإنّ إحدى العواصم الأوروبيّة قد ابتلعتك.. أيُعقل أن تعصفَ بك رياح الشمال دون أن تترك لي ولو أثرًا بسيطًا يدلُّ عليك؟ لماذا تركتني مربوطة إلى هاتفك الأخرس؟!».

«حبيبي سلام عليك حيث أنت...

سلام على حبِّنا وجنوننا وطيشِ أحلامنا... يقتلني صمت هاتفي ألا يحنُّ قلبك إلى صوتي...

شهران مرَّا منذ أن أشرعت باب الرحيل..

شهرانِ أو أكثر وابنكَ يتقلَّبُ في أحشائي وأنت لا تعرف عنه شيئًا.. أريده بصلابتك لا، بهشاشتي، وببوحي، لا بغموضك وتكتّمك. بعد زوال اليوم قصدتُ الجامعة بحثًا عنك. بكيت شوقًا إليك طويلاً، وبعد أن كفكفتُ دمعاتي

Twitter: @ketab_n

تسلّلت إلى الباب الخلفي للجامعة، ومنه إلى مرآب السيّارات. هناك حيث توجد شجرة التوت العالية، لا شكّ أنّها كانت شاهدة على جنوننا! لقد نضج توتها، فأين قامتك الفرعاء لتدني أغصانها إلى متناول يدي؟ أين ضحكاتنا ونحن نزدرد التوت بنهم؟ أين جنوننا؟ بالكاد طالت يدي غصنًا، أكلت منه لا لأجلي ولا حتى لأجلنا. كلّ ما في الأمر أنّني أردت أن أذيق هذا الملاك الصغير الذي يتقلّب في أحشائي منها، ربّما لكي نتورّط ثلاثتنا في فضيلة أو خطيئة شجرة التوت هذه...».

وانزلقت من عيني دمعة حارقة سقطتْ نيزكًا فوق المذكّرة، تمامًا فوق كلمة (خطيئة)، كأنّما تؤكّد أنّ شجرة التوت أيضًا لم تكن سوى خطيئة اقترفناها معًا أو ثلاثتنا ـ كما ذكرت ـ لا فرق. أقدارنا يا خولة كانت أعنف من أقدار الآخرين... كم أتمنّى لو كنت غيري، أقصد على الأقلّ لو لم أكن محمّلاً بكلّ هذه العقد، لجعلتُ منك أسعد نساء الدنيا.. لكنَّ حياتك البريئة قد دفعتك صوب رجل معطوب القلب والذاكرة. واصلت القراءة في موضع آخر:

«الدنيا إلى بغات تجي كاتجي باسبيبة، ويلا بغات تمشي كاتقطع السلاسل...

وأنا بدأت أسمع صليل السلاسل وهي تتقطّع...

أراقب جسدي وهو يتنكَّرُ لي يومًا بعد يوم، بطني بدأ ينتفخُ كلّ يوم أكثر، لا شكّ أنّ أمّي ستلاحظ ذلك، ستجنُّ إن علمت، أقسم أنّها ستفعل.. أمّا أبي، أواهُ.. لا شكّ أنّه سيقتلني.

Twitter: @ketab_n

إلهي.. أيُّ مأزق هذا الذي تورَّطتُ فيه. ألحّت عليَّ بعض الصديقات بإجهاضه، لكنّني لم أقو على ذلك دون مشورته. في النهاية هو ابنه أيضًا، وهو مثلي مطالب بالبتّ في أمر الجنين! لكنّ السؤال: متى يظهر؟ متى...؟

«اليوم ذكرى تفجيرات البيضاء، لكنّك لم تعد... صباحًا اقتنيت باقة نرجس ووضعتها على قبر صديقك المنسيّ والمهمل، صحيح أنّني ما صادفته قطّ، لكنّني أحببته من خلال أحاديثك عنه، وإن كان أغلبها غامضًا. نظّفتُ قبره كما كنّا نفعل أنا وأنت مرارًا. في العادة من السهل أن تميّز قبور الغرباء، فكما استبدّتْ بهم الفوضى أحياءً لم تفارقهم الفوضى أمواتًا.. كم انتظرتُك عند قبر صديقك لكنّك لم تأتِ».

«اليوم تركت المنزل مخافة أن ينفضح أمري...

التجأت إلى إحدى صديقاتي، طالبة جامعيّة قاطنة لوحدها قرب الجامعة، اليوم فقط اكتشفت أنّك أناني يا مراد! كيف تهجرني كلّ هذا الوقت بسبب خلاف بسيط، أم أنّك كنت تبحث عن ذريعة ولو وهميّة لتتخلّى عنّي؟

لماذا خلَّفتني معلّقة من قلبي بحبل هاتفك وابنك؟

لماذا لم تمنحْنِي، ولو نصف فرصة، لأخبركَ بأنّ هذا الطفل الوديع الذي يتّخذ من أحشائي سريرًا هو ابنك...».

«أنت تقتلني بغيابك يا مراد...

في هذا الحيّ الكئيب الذي لن يمحى أبدًا من الذاكرة،

Twitter: @ketab_n

أستنزف ذبالة الأمل علّك ترأف وترفع هاتفك. . . آه لو تحسّ بالمرارة التي أستشعرها حين تطاردني نظراتهنّ وتتفحّصني من أعلى رأسي حتى أخمصِ قدميَّ. كلّ يوم تراقبني نساء الحيّ بنظراتهنّ الشزراء الباردة، حين يجتمعن قرب أبوابهنّ أو حين يتلصّصن عليَّ من نوافذهنّ، البارحة أوجعتني إحداهنّ حين قالت لصديقتها معرضة:

ـ لي كايشطح ما كايخبيش وجهو.

وردّت صديقتها بوضوح وقح وقاس:

ـ إيديروها قد راسهوم أو يهربو.

أنا يا مراد أتمزّق كلّ يوم أكثر، وأنت لا تنفكُّ تواصل ذبحك لي بمديّة غيابك الصدئة. تعبت، تعبت، تعبتُ. . ولم تُبق منّي هذه المحنة ولو قليلاً يسعفني على الاستمرار. . . ارحم عذاباتي مراد! ارحمني يرحم والديك».

«هو الموت يا مراد، أراه هناك لا هو بالبعيد فأهمله ولا هو بالقريب فأتوقّعه، أراه وأشتهيه، في غيابك أشتهي الموت. موجعةٌ أيّامي بعد أن نسيتني في هذه البلاد، تمامًا مثلما تنسى معطفك على الكنبة أو فوق المشجب. رحلت دون أن تلتفت وراءك. أثبتَّ أنّك ما أحببتني قطُّ ولا حاولت! لم أكن أدري بأنّ قلبكَ قاسٍ هكذا، أمّا عنّي أنا التي أحببتك مثلما لم تحبّ امرأة رجلاً، فأهنّئك لأنّك نجحت في تضليلي عاطفيًا، ووضعت خطواتي في الطريق الصحيح طريق الجنون، حتى الموت صرت أحسّه يدنو ويقترب

Twitter: @ketab_n

كثعبان واثق من أنّ صيده السهل».

أوجعتني كلماتك.. خولة! أوجعتني كثيرًا، في لحظة مخبولة وأنا أقرأكِ شعرتُ أنّ يديَّ تنزّان بدم هو دمك وأنّي ملطّخ الوجه والثياب بدمك، وأنّ فمي مكتظّ بدمك. ببساطة أحسستُ أنّني سفّاح بشع، كيف خرّبت قلبًا لم يرتكب في هذه الدنيا الضيّقة من جرم سوى أنّه أحبَّني بجنون، دون أن يقحم نفسه في حسابات الربح والخسارة. نكأتُ بمذكّرتك جراحات انتحارك فيَّ، فاستحالتْ إلى قروح ينخرها الدود والقيح. أقسم بدمائك أيّتها القدّيسة البريئة أنّني أموت بك كلّ يوم مرَّات، وأنّني لا أشتهي بعدكِ إلّا موتًا شريفًا...

تبًّا للسنة البيضاء التي اقتلعتها من الجامعة من أجل استكمال الخبرة، أو بالأحرى من أجل قتلك! آه.. كيف اخترتُ الرحيل أو الهروب من حبّك بعد أنّ تأكّدتُ أنّني أدمنته، وصرتُ أتورّط فيه كلّ يوم أكثر. أيّة أنانيّةٍ استبدّت بي ودفعتني إلى هجركِ شهورًا بحالها، اخترتُ البعيد لئلّا يأسرني سحر القريب بشكل كلّي، فأنا كنت ولا أزال أنام على أشواك أسئلة مؤلمة، وفي كلّ هذا لم أكن أملك من الشجاعة ما يكفي لأواجهك بحقيقتي.. فلا أنا أتزوّجك - لأنّني لا أصلح للزواج - ولا ضميري يأبى أن أتركك معلّقة في خيوطي العنكبوتيّة الزائفة، فيمرُّ قطار زواجك بسرعة، ويخلّفك وأخلّفك أيضًا وحيدة وفارغة إلّا من حبّك الكبير، ومريضة بلسان مجتمع لا يرحم. رحلتُ أيّتها القدّيسة لكي أدرّبك على غيابي، وأفرشَ الطريق وأعبّدها لحديث النهايات، ولستُ أنفي أنّني رحلت أيضًا لكي لا أحبّك أكثر، فتقتلني هشاشتي. ففي الأخير، أنا لقيط

Twitter: @ketab_n

مصاب بعِقَد لا حصر لها، وكنت مطالبًا بتذكّر هذه الحقيقة باستمرار.

وبكيت طويلاً دون أن تأتي نوميديا لتناولني منديلها أو تمرّ بأصابعها على دمعاتي، ساعات طوال وهذه الجبال ساكنة، كأنّها لم تكن شاهدة على وعدها بوصلي كلّ صباح. هذا المكان أخرس مثلها، لِمَ لا يصيح مثلي: نوميديا.. فتهتزّ لصخبه عوالمها، هذا المكان خطيئتي وفضيحتي أسلمني لها على طبق من وجع، وها أنا أنزف شوقًا وحبًا...

حين لملمتُ أضلعي وهممتُ بالانسحاب، سقطتْ مذكّرة خولة من يدي وفرَّت منها قصاصة ورق صغيرة، كانت صدفة لعينة أن انتبهت إليها وطاردتها فيما بعد حين استدرجتها الرياح، هذه الصدفة القاتلة ومثلها تنفلت من كلّ إرادة أو اختيار ذاتيين، كأنّما مصدرها إرادة مضادّة! حين وضعتُ عليها قدمي ارتجفتُ، أمّا عندما تناولت قصاصة الورق بيديَّ فقد قفزت الدماء إلى رأسي.. رأيت فيها وجه مصطفى المشوّه نصفُه، رأيتهم كما حدث في المنام وقد صلبوني إلى شجرة.. قالوا بعد بسملة كُتبتِ بخطّ باذخ مختلف عن متن الرسالة، كأنّما هم على وعي تامّ بأنّ الدين الحقيقي مختلف تمامًا عمّا يدافعون عنه، قالوا:

«قد دنا أجلك (كلّ نفس ذائقة الموت)، وقد عشت في الأرض فسادًا وخنتَ الأمانة، فأضحى هدرُ دمك صونًا للإسلام وأعراض المسلمين، حذّرناك، ثم حذّرناك، فلا أنت انتهيت ولا ارتدعتَ؛ واليوم عقدنا أن نجاهد في سبيل الله بقتلك، (إنَّا لله وإنّا إليه راجعون)».

Twitter: @ketab_n

مادت بي الأرض قليلاً، لكنّني بقيت واقفًا على قدميَّ. أحسست بالقرف والغثيان، وتحدّثت إلى نفسي بصوت مرتفع:

ـ إن كان موتي ضروريًّا، فلماذا يؤجَّل باستمرار، افعلوها وخلّصوني! أنا أحوج من أيّ وقت مضى للخلاص... الخلاص... الخلاص.

وصرخت في وجه السماء، وأنا أركض دونما معنى:

ـ الخلاص.

فارتدّ الصدى:

ـ الخلاص.. الخلا...

Twitter: @ketab_n

(٥)

الخلاص... ألحّت عليَّ الكلمة طويلاً، كانت الجبال تردّها فيتردّد صداها داخلي، ويتناسلُ تمامًا كما تتناسل الدوائر بعد سقوط حجارة في مستنقع! الصدى لا يهدأُ ولا يتوقّف، الخلاص.. الخلاص، وضعتُ يديّ على أذنيّ.. الخلاص... الخلاص! أصيح كفى.. كفى. لكنّ الصوت لا ينفكّ يخذِلني تمامًا كما فعلت الحياة وفعل الخلاص، ما هي إلّا طلقة طائشة وينتهي الأمر...

السماء تستجمع دموعَها، السماء حزينة حدَّ الفجيعة. فمتى ستبكي من أجلي وأجلِ خولة؟ متى ستنزِف مطرها الافتتاحي لتُنزل (آيت مرغاد) من أعاليهم هناك، سأسألهم عنّي حين ينزلون.. سأسألهم عن طريق إلى الخلاص!!

في الطريق إلى الفجّ، نزفتْ جراحاتي بحدّة. أمّا الخلاص الذي كنت أرجوه فقد كان يقدّم رِجْلاً ويؤخّر أخرى. أحسّ بذلك

Twitter: @ketab_n

وأستشعر ضعفه وجبنهم.. لم أدرِ كيف انتهى بي الأمر فوق جنادل سيدي عيسى، بكيت كثيرًا وأنا أتفقَّد المذكّرة النائمة كجثّة جانبي، أمّا قصاصة الظلام فلست أدري أين أضعتها! حزني تضخّم أكثر ممّا ينبغي، وأنا مريضُ الروح، روحي تنزف وتنسحب ببطء منّي، حمَّلتها أو ربّما حمَّلَتني وإيّاها الحياة فوق ما نطيق.

شجرة التين تلوح لي حبّاتها بإغراء مبالغ فيه من شقوق هذا الكهف المقام. التين فضيحتي وهذه الشجرة لعنة! قالت لي الحكاية في ليالي إغرم الشتويّة الحزينة والمليئة بالغموض والخوف: التين تين المقام، دم الشهيد، وآكله ملعون إلى يوم يبعثون...

أمّا الآن، بعد أن يئِستُ من الدنيا بما فيها ومن فيها، فالتِّين شهوتي الفاجرة، وأنا ملعون مذ ولدتُ، فهل هناك لعنة أشدّ من هذه التي اصطادتني منذ البدايات!؟ ليس بعد كلّ هذه الخيبات التي استهدفتني شيء أسوأ. منتهى اللعنة أن تشتهيك ميتًا، والموت هو ما أشتهي الآن.

هل هناك لعنة أكبر، من أن يولد المرء حافي القلب، لا صدر يدفّئ أيّامه ولا كفّ تعيد له الغطاء إذا انزاح عن جسده في ليالي الشتاء القارسة؟ هل هناك لعنة أكبر من أن أقتاد أكثر شخصين أحببتهما، خولة ومصطفى، كطفلين يتعلّمان المشي إلى موت بارد؟

هل هناك أفظع، من أن تُنتهك طفولة طفل كنته، فقط لأنّه لقيطِ؟ هل كان عدلاً أن ترسُم صفيّة على ظهري خرائط كرهها

Twitter: @ketab_n

المكبوت، كأنّي أنا من اخترتُ منزلها أو اخترتُ أن أكون لقيطًا؟ هل كان عدلاً أن تخونني جوليا وتغتالني فقط لمجرّد استنطاق حكاية قد لا تعني للكثيرين شيئًا؟ هل كان عدلاً، أن يُهدَرَ دمي لأنّي قلتُ أشياء يجبُ أن تقالَ، أو لأنّني أعرّي هذا المجتمع المريض؟ آه.. هل هناك لعنةٌ أكبر من أن تَسْقُطَ عنّي ـ بعد عشق كبير ـ روائحُ إغرم ويغمدُ ثورُها في ظهري آخر خياناتها، بعد أن أغمدت أغانيها أوجاعها في صدري.

وأشتهي التين، أشتَهي هذه اللعنة التافهة...

كانت الطريقُ إلى شجرة التين التي تحتلُّ الزاويةَ العميقة من هذا الكهف محفوفة بمخاطرَ سرِّيّة وموتٍ محتمل، لكنّني كنت متأكّدًا أنّ هذه الحرقةَ التي تمزّقُ جوفي لن تخمد إلّا بحبّة تين ملعونة. الآن، أدركت أنّ قدري لم يجرَّني إلى إغرم إلّا من أجل استكمال اللعنة.. فتبًّا للأقدار، لهذا الجنون الذي يتأبّطني ويمضي بي إلى حيث لا أدري..

سدًى حياتي ضاعتْ، كان حريًّا بي أنّ أدركَ ذلك منذ اليوم الذي وضعت فيه قدميَّ على أبواب الهاوية، حياتي راحت سدى، وخلف وشاح الموت الرمادي فرح محتمل.. آلمني قليلاً الجرح الذي خلّفه الثور في جنبي، وآلمني كثيرًا أن تنساني إغرم كما نسيتني الحياة.

عندما كنت أوداد، الطفل الشقّي الهشّ والمحروم، كنت مسكونًا بهذا المكان أطير إليه حين يفدحني الحزن أو تخرّبني الأسئلة الثقيلة، أطيرُ إليه موجوعًا بأشواك الآخرين، وأبكي على

Twitter: @ketab_n

أحجار المقام حتى ينضبَ معين الدمع، كانت طفولتي منتهكة جدًّا وكانت شجرة التين هذه فتِيَّةً لا تبكي طفولتي، لكنّني كنت أحسّها تحزن، ولم أفكّر وأنا وعل صغير أن آكل من خصبها الدامي اللعين. لست أدري هل لأنّ قصّة هذه الشجرة وتاريخها كانا يكفّنانني أم ببساطة لأنّ ثمارها لم تكن في متناول يدي، بحكم قصر قامتي وقتها!! لكن ما أنا متأكّد منه تمامًا، أنّني كنت أخاف منها وأحسّ برهبة حين أقربها، كنت أشعر أنّ أيَّ خطوة متهوّرة في هذا المجال قد تفقدني رأسمالي الثمين وقتها: المستقبل. أمّا الآن، فأقول بعد أن وطئت بقلبي على أشواكِ المستقبل الدامية، ليتني ما كبرتُ ولا عرفتُ ما كان يخبّئه لي من أحزان قاتلة، وليتَ هذه الشجرة ظلّت بعيدة عن متناول يدي.

الآن، يخرجُ قلبي من شرنقته جريحًا ويغادرني، أراه يتسلّق أغصان الشجرة الناتئة من الجبل كضلع آدم... الجبل آدم وحوّاء، هذه الفتنة واللعنة الناتئة، أرى قلبي يبتعدُ عنّي ويخلِّفُني خربةً من الحزن والحنين.

وكانت حبّة التين قد استوت وأكملتْ نُضجها حين تفقّدتُها بأصابعي، دبَّ خوفٌ سرّيٌّ داخلي، لكنّه لم يُثنني قطّ عمّا عقدت عليه عزمي، لا قوّة الآن تقهر صليلَ الخطيئة في دمي، سحبت حبّة التين بشدّة قد تغضب (رجال البلاد) لا محالة!! هكذا انفصلتْ واستقرّت في راحة يدي. كان رأس حبّة التين ينزفُ حمرة متوهّجة غريبة لا شكّ أنّها تضمرُ شيئًا من دم الشهيد، إن لم نقل إنّها دماء الشهيد. ولكي أضع حدًّا للتردّد، أو ربّما لكي لا أفسح مجالاً أكبر للخوف داخلي، حسمتُ الأمر بسرعة إذ أخمدتُها لعنة

Twitter: @ketab_n

في فمي وفي دمي.. كانت حلاوتها فظيعة، لم أذُقْ في حياتي ألذّ ولا أطيب منها، كانت تعبق بأريج أسطوري ملتبسٍ بحكاية سيدي عيسى والعواطف التي تثيرها. أمّا وهي تتمزّق بين فكّيَ، فقد توقّفَ الزمن أو على الأقلّ تباطأ بشدّة وخبَّرني بأنّ الحياة لعبة سخيفةٌ، لم أتقنها ولم يتبقّ في العمر متّسع لأفعل ذلك، كانت حبّةُ التين هذه فرصة للانتشاء بالخطيئة.. شكرًا لنشوة الخطيئة التي أنزلتنا إلى الأرض، في الخطيئة نشوة لا يخطئها سوى مكفوفي القلوب...

تفّاحة آدم أرته سوأته، فماذا عساها تريني حبّة التين هذه؟ لا شيء. على أيّ حال، لن أصل إلى حالة من الانكسار أشدّ من هذه التي أنا عليها الآن، إذن، فلأنتشي بخيباتي وحلاوتِها، وشكرًا للخطيئة معلّمةِ البشريّة.. لكن، أين لعنتُك أيّتها الشجرة المقدّسة؟ أين؟

أنا لم أنزل إلى أسفل ولم أصعد إلى أعلى، لكنّني أحسّ بخلل طفيف في مجرى الزمن ونواميسِ الحياة، قلبي يخفقُ بقوّة والحلاوة أحسّها تغلي في دمي، أطبقتُ جفنيَّ فرأيت نوميديا متلفّعة في فستان أشدّ حلكة من حلكة الحصان، كانت كما عهدتها في قمّة بهائها. سألتها:

ـ كيف تتغيّبين عنّي كلّ هذا الوقت، بعد أن أدمنتُك؟

لم تجب، ولو بتلميح أو إيماءة. جرت بقسوة زمام الحصان، فاندفع كسيل جارف صكّ هديره مسمعي. فتحتُ عينيَّ ولم أرَ لا سيّدة الحصان ولا الحصان، كنت شريدًا بين غفوة طارئةٍ وصحو

Twitter: @ketab_n

خجول، لذلك لم أكن متأكّدًا إن كان ما رأيتُ حقيقة أو هلوسة، لكن ما أنا متأكّد منه هو الصوت الذي سمعته أوّل ما فتحت عينيَّ، لكنّه أخذ يتلاشى إلى أن طواه صمت بهيم.

وهزَّني تعب قديم...

لم يبرح جسدي منذ طفولتي الشقيّة ها هنا، لكنّما الآن توجعني الثغرةُ التي شقَّها ثور القبيلة في جنبي، أستشعر بللاً أسفل الضمادة التي اشتبكت بالجرح، لا شكّ أنّني أنزفُ، ربّما! لكن أقلَّ ممّا نزفتْ خولة حين مرَّت بالشفرة على معصمها وانطفأتْ بهدوء ملوكيّ رفيع. آه خولة! بائسة أقدارنا وأشقياء بها نحن، طفلةً كنتِ غارقةً في أحلام ورديّة، فلم أعرف كيف السبيل إلى إيقاظك، فتركتك تستيقظين لوحدك، تستيقظينَ على انتحار! أذكر ذات ليلة قولك ونحن متوحّدان في السرير:

ـ أعرف أنّ الحياة لم تكن في صفّي يومًا، على أيّ حال، أنا لا أسألها منّةً. كلّ ما أرجوهُ، أن تنصفني في حبّك، أن تمنحني مراد ومقدار رشفة من العمر، ولتأخذ بعد ذلك ما تشاء.

فهمستُ في أذنها أشجّعها على التمادي في ذلك الحلم، الذي لن تصحو منه إلّا على الموت:

ـ أنا لكِ يا مجنونتي إلى الأبد..

ـ صراحة، أخاف على حبّي من تلك اللوثة التي طالما تعقّبتني وأجهضت أفراحي في مراحلها الجنينيّة. اللوثة نفسها التي باعدت والديَّ...

وصمتتْ هنيهة، وتطلّعتْ إلى السقف، كأنّما تسترجع ذكرى

Twitter: @ketab_n

شاردة أو تستجمع القوّة اللازمة للبوح، واسترسلت:

ـ لا زلت أذكر الشقوق الحزينة التي خلّفاها داخلي أيّام طفولتي، أراهما كأنّني ما ابتعدت عنّي وأنا طفلة أراقبُهما وهما يتشاجران، فيهتزّ المنزل كلّه وتتهشّم الأواني. لم أكن ألمُّ بأسباب خلافاتهما. جلُّ ما كنت أفعله وقتها، أنّني أجلس القرفصاء في ركن ركين من المنزل وأنتحب في صمت ووجع، إلى أن يلتفتا إليَّ كما يلتفت الفقير إلى ورقة نقديّة ضائعة، فيتجاذباني وأنا بينهما كخرقة بالية، كلّ يدّعي حبّها وشرعيّة امتلاكها.

أذكرُ أنّني كفكفت دموعًا حارقة انزلقت من محجريها، وشددتُها إليَّ بقوّة، فانتحبتُ أكثر فأكثر، وعندما هدأت التفتت إليَّ قائلة:

ـ لماذا لا تحكي؟ لماذا تصرُّ على إبقاء ماضيك جانبًا، مع أنّني أحسُّ أنّ عينيك تختزنان حزنًا كبيرًا، تحدّث حبيبي.. الحديث أحيانًا كثيرة يذيب الأحزان، يعرّيها ويجعلها قابلة للمراجعة، الحكي فرصتنا الاستثنائيّة للاستمرار بأقلّ قدر من المأساويّة.

واقتبستْ عن قصد كلمات أغنية خليجيّة:

ـ «ليه ساكت، وداخلك زحمة حكي...»

لكنّني رغم محاولتها ومحاولاتها فيما بعد، لم أنبس ببنت شفة. كان وجعي أعظم من أن تُخمده الكلمات، أو على الأقلّ هكذا فكّرت وقتها. خولتي، يا جميلتي الشهيدة، يا ليتني ما خبّأت عنكِ حقيقتي... واريت عنكِ حكايتي لتسرقها منّي ببرودة

Twitter: @ketab_n

جوليا، فتبًّا لأقدارنا العمياء!

خولة، أعرفُ أنّك لم تبتعدي كثيرًا، أحيانًا أحسُّ أنّك أقرب منّي إليَّ، أشعر أنّ عوالم الموتى مجاورة للأحياء، وقد نصحو ذات يوم على حقيقة حمقاء هي أنّ خلف هذا الوشاح الرخو، الذي يصطلحون عليه الموت، حياة أخرى...

خولة، أيّتها الشجرة الباسقة كيف أسقطكِ الموت، لا بدّ أنّه بكى كثيرًا، وظلّ يشدُّ على ركبتيك كطفل شقيٍّ معتذرًا قبل أن يعود إلى لعبتِه التي يتقنها جيّدًا. عمّا قريب، إن صدقت تهديدات الظلام، سأكون ضيفك وستكونين دليلتي في عوالم الغيب، ستقتلني هذه المستحثّات التي تستيقظ من قرن لآخر باسم الله والسُّنّة، والله براء منهم.. ستجتاحني لوثتهم السامّة وستتّشح حياتي في لحظاتها الأخيرة بظلام دامس، يفضي إلى بؤرة ضوء بحجم كوّة الباب، إنّها الموت نهاية النفق.

خولة، أقسم بدمائك أنّني حزين متعب النبض ومستنزف جدًّا في إغرم، هذه المراهقة المرهقة التي تكرّر أيّامها بانتظام، أو على الأقلّ توهمنا بذلك! يأتي الغرباء ويرحلون وهي هي، تتأمّلهم ببسمة ماكرة تورّطهم في عشقها وتتخلّى عنهم، أمّا أنا، وبحكم سوابقي العشقيّة لها، فقد أعادتني لتغتالني على مهل، أو على أقلّ تقدير، لتكون مسرحًا لاغتيالي. سلّطت عليَّ حبًّا أثقل من أن يحمله قلب القريب، قلب الغريب هشّ، وإغرم كجوليا ساديّةٌ في السرّ عاشقةٌ في العلن...

خولة، ليتني منحتك حكايتي وأخمدت لهيبَ الأسئلة التي

Twitter: @ketab_n

كانت تحرقك بين فينة وأخرى، خبّأتُ سرّي عنك لتسرقه منّي كاتبة فرنسيّة، اسمها ـ وهذا جلُّ ما أعرف ـ «جوليا». سرِّي لم يعد سرًّا. سيُكتب وجعي على ورق فرنسي وبحروف فرنسيّة. هكذا نحن منذ زمن طويل، لا نُجيد الكتابة عن أنفسنا، فنخضعُ لتحديدات الآخرين، والآخرون، لا يكتبوننا كما نحن بل كما يروننا، هؤلاء هم محنتنا التي امتحنتنا بها الحياة.

وجوليا واحدة منهم، وإن كانت لا تشبههم في كلّ شيء. جوليا مبدعة، والمبدعون هكذا دائمًا نرجسيُّون وساديُّون إلى أبعد الحدود، يجتاحون باسم الفنِّ كلّ شيء، الفنّ كان دائمًا العكّاز التي يستندون عليها. إنّه شرعيّتهم الوحيدة التي تبرِّر للبعض منهم جرائم وحشيّة، ولا غرو في ذلك يا شهيدتي.. أليست جوليا من بلد الشاعرة «مدام يسارابو» التي قتلت زوجها، أليست من بلد الشاعر «فرونسوا فيون» الذي حوكم بجريمة قتل؟ أليست من بلد «لوي ألتوسِّير» الذي قتل زوجته هيلين؟!

جوليا، أرادتْ حكايتي، فعبثت بجراحاتي قديمها وحديثها، الأفظع أنّها راوغتني باسم الحبّ فقط لتستنطقني ولم تكتفِ بمرويّات بنهاشم وتقاريره. جاءت معي لتصيخ السمع إلى أوصالي وهي تتمزّق، جاءت معي مدجّجة بعتادها اللغوي والأدبي، ولأنّني كنت عصيًّا على البوح، فقد استقدمت معها إبر الموتِ لتعذّبني حدّ الاعتراف.. باختصار يا حبيبتي الغائبة، جاءت لتغتالني وتشهد انهياراتي الأخيرة؛ فأنا كما صرّح بنهاشم الوغد ميت ميت، وأن أموت بحدّ قلم، أفضل من أن ينهشني المرض أو تمرَّ على عنقي مدية ظلاميّة صدئة، هكذا جاءت معي جوليا، لا "لشيء، فقط

Twitter: @ketab_n

لتفرغني من أسراري وتوعز لطيشها الأدبي مهامّ قتلي والسير في جنازتي...

التفتُّ إلى وجه يابس كان يبحلقُ فيَّ، وأنا أحكي لخولة بصوت يكاد يكون مسموعًا، ضرب يدًا بيد وابتعد، كنتُ أسمعه يتمتم:

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله..

ارتجفتْ يدي التي كانت تشدّ على مذكّرة خولة، تطلّعتُ إلى هذا الكهف المزار كأنّما أراه للمرّة الأولى، تأمّلت الجنادل المتراكم بعضها فوق بعض، والتي ينام تحتها شهيد إغرم. تأمّلت المناديل البالية التي تنام هنا وهناك فوق الجنادل.. هناك فوقها، تعلّق نساء إغرم ورجالها خيباتهم وآمالهم. سألت نفسي: هل كان عدلاً أن يموت سيدي عيسى؟؟! لا بدّ أنّ السفاح الرومي كان ذا قلب كقلب جوليا، لا يلتفتُ لشيء سوى لأسطورته الشخصيّة ومشاريعه الإمبرياليّة!!

مغدور أنا بكِ يا جوليا...

لكنّني لن أنتقم، بإمكاني أن أغرقك أنت وبنهاشم في دوّامة قضائيّة بمكالمة هاتفيّة واحدة، لكنّني لن أفعل، لأنّني أكثر من أيّ شخصٍ على وجه البسيطة أتوق للخلاص. أحسّ بالجنون ينغلُ دمي ويأكلُ منّي، أحسُّ بالوجع يفيض عن جسدي ويطبق على الروح.. لا شكّ أنّ الحِقَن قد فعلت فعلها. إنّها تخرّبني. كلّ شيء داخلي أحسُّه يتهدّم، كانت صفيّة أرحم منكِ، على الأقلّ أوجعت جسدي أو بالضبط ظاهر جسدي، أمّا أنت وما زرعته في

Twitter: @ketab_n

دمي، فقد تغلغل كحدّ سيف داخلي.. وعلى الرّغم من كلّ هذا لن أنتقم.. نعم، لن أفعل. بطولتي الأخيرة تقتضي أن أستسلم لهذه التراجيديا والفضيلة، قمّة الفضيلة أن تمنحَ قاتلكَ غفرانًا قاتلاً. الغفران في كثير من الأحيان مرآة يرى الظالم فيها كلّ بشاعاته.. لم أسعَ يومًا للانتقام من أحد، لا الجدّة التي أدمت طفولتي، ولا صفيّة التي انتهكتها إذ أحرقت ظهري، لا الأقدار التي أحرقت خولة، ولا تجّار الظلام الذين نحروا صديقي الوحيد.. كلُّ هذا، لأنّني أدركت منذ وقت مبكر أنّني خسرت كلّ شيء، وأنّ الخسارات المتتالية التي مُنيت بها لم تكن سوى امتداد لخسارتي الأولى، خسارتي لذلك الحنان الأوّلي والضروري، خسارتي لوالديَّ.

اشتدّ ارتعاش أصابعي وامتدّ ليشمل يديَّ وذراعيَّ. تأمّلت شجرة التين التي لم يتغيّر فيها شيء بعد أن أكلتُ من خصبها اللعين، أحسست بملوحة تجتاح فمي، أحسست بالقيء ثم الغثيان.. أمّا حين انحنيت وبصقت، فقد تأكّد أنّ الملوحة التي استشعرتها كانت دماء، انتصبت واقفًا فمادت بي الأرض، كدت للحظات أن أسقط لولا أنّني ظللت متماسكًا، انحنيت قليلاً فسال أنفي دمًا، كانت بقع الدم تتناسل في أرض المقام بسرعة، وجسدي (الذي لم أشتكِ يومًا منه) يرتعشُ بحدّة، حتى جنبي الذي شقّه الثور أحسّه ينزّ دمًا، كأنّما صار يتقطّع الحبل الوحيدُ الذي يربطني بالحياة: الجسد. طرحت مذكّرة خولة أرضًا. آه، لست وليًّا صالحًا لأنزف ها هنا، ولا أتوقّع أن تتفجّر من دمائي شجرة تين أو زيتون. لست سوى مراد، أو هكذا أرادوني أن أكون،

Twitter: @ketab_n

لست سوى أوداد الوعل، أو هكذا أرادتني الحياة أن أكون.

ومضيتُ صوب النهر الصغير الذي ينحدر من عين تامجا ويمرُّ غير بعيد من هذا المقام... لكأنّما الأرض كانت كما لو أنّها تتمدّد، ويبتعد النهير أكثر فأكثر، لكنّ الحقيقة أنّ قدميَّ المجهدتين هما اللتان كانتا لا تقويان على حملي، إضافة إلى أنّني كنت مشدوهًا أمام النقط الدمويّة التي تسيل من أنفي ولا تزداد إلّا اندفاعًا وغزارة، وتتضخّم أكثر في عينيَّ، أحمر... أحمر، تذكّرت أنّني خلّفت مذكّرة خولة الحمراء في المقام.. خفتُ عليها كثيرًا، أو بالضبط خفت ألّا أراها مرّة أخرى، استدرتُ وعدت لأصحبها معي (خولة، لا يزال فيَّ جوع لصوتك إن ظلّ في العمر ما يسعف) لكن طريق العودة إليها كانت صعبة بل أقرب إلى الاستحالة، كنت أحسُّ قدميَّ ثقيلتين لا تطاوعانني، كأنّما كنت أمشي على رمال متحرّكة تبتلعُهما رويدًا رويدًا. في لحظة مخبولة برق وجه نوميديا، لكنَّ حمرةً ما أطفأته، أحمر... أحمر! وأنا أترنَّحُ ككبش مذبوح، وتداخلت أمامي صور قديمة بأخرى جديدة وباغتني عطرُ جوليا، هو نفسه عطر خولة المفضّل، أشمّه كما لو أنّ إحداهما هنا في مكان ما قريب. ونزفتُ.. نزفت طويلاً، ودون أن أبلغ مذكّرة خولة هويت كشجرة أرز قطعت من أسفلها، ارتطمت بجنادل الوادي....

وغبتُ.

Twitter: @ketab_n

(٦)

أحفظُ هذا المكان جيِّدًا... منذ الوهلة التي فتحتُ فيها عينيَّ اندفعتُ فيه بخشونة وصرت جزءًا منه، لم يتطلّب الأمر سوى هنيهات. بعض الأمكنة تحتفِظ بنا على الرّغم من أنّنا هجرناها، وفور عودتنا إليها تشعل ذاكرتنا وتسقط عنّا كلّ ما علق بنا من أوجاع الحياة. أحفظ هذا المكان مثلما أحفظ أحزاني.. مقام سيدي موسى الذي يتوسّط إغرم، لكن لماذا تشدُّني كلّ هذه الحبال إلى هذه الشجرة العملاقة؟ والعجوز التي تتوسَّط هذا المقام، هي الأخرى، أحفظها جيّدًا. كيف لا، وهي مثار استغرابِ كلّ من زار إغرم!

عاري الصدر، حافيَ القدمين كنت.. ملتصقًا بشجرةِ التين الوارفة والضخمة، ولم أكن مضطرًّا أن أنسحب من ذاتي وألج باب المقام وأراني مربوطًا بالحبال إلى الشجرة، لأتذكّر جيران طفولتي من حمقى وممسوسين كانوا يُربطون إلى شجرةً التين هذه،

Twitter: @ketab_n

أتذكَّرهم كما لو أنّني ما غادرت طفولتي في إغرم، ولا خطَّتْ أيدي الزمان في جسدي وفي روحي ندوبًا لن يمحُوها سوى الموت.

فيما مضى، كنت أقتحِم على المربوطين إلى الشجرة خلوتهم. كنت مجنونًا. أذكر أنّني كنت أيّام الطفولة أمرّ على القطع النقديّة الصفراء التي ينثرها الزوّار حول ضريح الوليّ الأب، أشتري بها الحلوى، آكل قليلاً منها، ولا أنسى أن أذيق المرأة أو الرجل المربوط إلى شجرة التين.. أمّا ما تبقّى، فأتركه على قبر الوليّ على أملِ أن ينفض عنه غبار القبر ويأكلها.

لكن، ما الذي تفعله يا مراد هنا، هل تنتظر قدوم لقيط مثلك ليستبدل النقود بالحلوى ويذيقك منها، ويبكي بقربك حين توجعه الأسئلة مثلما كنت تفعل؟! تعيسان أنا والطفل الذي كنتُه، تعيسان نحن ومنسيّان. غبتُ قليلاً لأستيقظَ وأجدني منسيًّا ها هنا ومربوطًا إلى شجرة مثقلة بتاريخ من الجنون. لست أدري كيف جئتُ إلى هنا، ولا من جاء بي.. وتذكّرت مذكّرة خولة وحزنتُ، أيُعقل أنُها ضاعت؟ وحاولت مرارًا التملّص من هذه الحبال، لكن دون جدوى...

أنا لست مجنونًا ولا ممسوسًا لأُربطَ هنا. نعم، لست كذلك فاخلوا سبيلي، اتركوني يا من حملتمُوني من مقام الابن إلى مقام أبيه، أنا لقيط لا أفقه شيئًا في ذلك الحبّ الغامض والمكابر، الذي يربط الابن بأبيه، ولا أعرف إن كانت تضحية الأب بابنه تضحية فعليّة أم مجرّد «مانيفيستًا» سياسيّة؟! التاريخ في بلدي كثيرًا ما تكتبه العواطف. فاتركوني، لأنّي حزين، حزينٌ كسماءِ هذا اليوم. وصرخت:

Twitter: @ketab_n

ـ اتركـــونـــي. . .

فكسرت الصمت الموحش، الذي كانت تغرق فيه القرية بعد أن غادرها أناسها وبهائمهم إلى الحقول. كان صوتي مدوّيًا أشبه ما يكون بطلقة ناريّة في غابة معزولة، وما هي إلّا دقائقُ معدودة حتى سمعتُ خشخشة تدنو. . دُفع باب المقام، فاستفزّني صريره (من العادة أنّ باب المقام لا يُغلق، بل يظلُّ مفتوحًا في وجه الغرباء والمجانين والمخذولين. . صباح مساء. أصختُ السمع إلى وقع أقدام تخترق الممرّ الضيّق الذي يفضي إلى البهو الكبير، حيث الشجرة الكبيرة التي شُددتُ بالحبال إليها. . دنا الصوت أكثر فأكثر، وإذا بوجه عابس يابس قد جفَّ منه الدم يطالعني. كان ذا أنف حادّ يجعله أشبه ما يكون بنقّار الخشب، لا سيّما مع تلك العينين الغائرتين واللحية الموزّعة بغير انتظام على وجهه، كلّ هذه الصفات إضافة إلى الجلباب الفضفاض الذي يواري جسده النحيل وقامته المعقوفة، وتلك البصمة السوداء على جبهته الضيّقة. . كلّ هذا يجعلني أجزم أنّه فقيه القرية، أغلبُ فقهاء المغرب متشابهون إلى حدٍّ يبعث الاستياء، كأنّهم مرّوا بالقالب نفسه. قال بعربيّة فيها الكثير من الرطانة:

ـ السلام عليكم ورحمة الله. .

فأجبت تحيّته بصوت مجهد:

ـ وعليكم. . .

ـ على سلامتك أسي مراد. كدت أجزم أنّك لن تستيقظ من حالة الصرع التي انتابتك البارحة.

Twitter: @ketab_n

وصكّت أذنيَّ كلمة «البارحة». لم أسمع الكلمة وحسبْ. بل رأيتها أشبه ما يكون بسلسلة أبوابٍ تنغلقُ دفعة واحدة بقوَّة وانفعال. قلت:

ـ ماذا؟ أتقصد أنّني غبتُ من الوعي منذ يوم أمس، وأنّني..

وتلعثمتُ قليلاً.. تزاحمتْ الكلمات في فمي، كما لو أنّها تريد أن تنسحب كلّها دفعة واحدة. أردفتُ:

ـ أتقصد أنّني قضيت الليل كلّه مربوطًا إلى هذه الشجرة؟

فندتْ شفتاه عن ابتسامة ماكرة جعلت دماء أوردتي تفورُ، فصرختُ فيه بكلّ ما أبقت فيَّ حوادث الدهر من عنفوان:

ـ أتعتقد أنّك طبيب لتفعل بي ما فعلت؟

ـ ولكن أسي مراد أنت ممسوس، أنت مسكون بجنِّيّة الوادي، وقد قضيت الليل طوله محاولاً إخراجها من جسدك..

ـ كفى ترّهات.. أرجوك! وفُكَّ وثاقي والآن.

ـ لا يمكن سيّدي على الأقلّ هذا اليوم، سيضيع كلّ شيء إن أنا فككت وثاقك، أنت مريض بها وأنا هنا لأخلِّصك منها، ولن تفهم قيمة ما أفعل إلّا فيما بعد، وستشكرني..

لم أكن أنتبه للكثير من كلامه، كنت أراقب الزغبَ المنثور على وجهه وهو يعلو وينزل، وأتأمّل خدّيه المقعرين اللذين يفضحان فكّيه الحيوانيّين... حاولتُ جاهدًا ضبط أعصابي، لا أريد لجسدي أن يخذلني مرَّة أخرى ويستسلم لكتلة الخراء الآدمي النحيل هذا.. انتبهت إليه حين قال:

Twitter: @ketab_n

ـ لقد عشقَتْك جنِّيّة الوادي «سيّدة الحصان»، وأرادت أن تمتلكك للأبد.. بالمناسبة أخبرني: هل تتقن الحديث باللغة الأمازيغيّة؟

باغتني سؤاله، فأجبت مراوغًا:

ـ لا!

فانطلقتْ أساريره بفرح فُجائيٍّ، وصاح كأنّه حقَّقَ نصرًا أو فتحًا مبينًا:

ـ الله أكبر.. الله أكبر! لقد حدّثْتنا البارحة بالأمازيغيّة، كانت تتحدَّث من خلالك وأسمت نفسها «سيّدة الحصان». قلْ لي أكنت تراها في الوادي؟!

ـ بل قلْ لي أنت أين قميصي؟ وأين المذكّرة الحمراء التي كانت معي؟ ودعني من شطحات خيالك التي تفرغ بها جيوب الفقراء الأُمّيين.

ـ أرجوك، لا تسبّ.. أنا لن آخذ من جيبك درهمًا واحدًا، أمّا عن أغراضك، فقد أخذتها الشقراء التي تكون معك، وقد وَعَدتْ أن تزورك هذا الصباح.

وصفعنِي خبر رجوعها، هكذا عادت جوليا لتكمل ما بدأته عليّ كطريقة القاتل المحترف. عادت لتسحب سيفها الصدئ الذي نسيته متعمّدة بين أوردتي، وترقُب انهياراتي الأخيرة بعدستها الروائيّة.. وتتفرَّغَ بعد ذلك للكتابة، فالرواية أحيانًا تستدعي القليل من الدماء، جثّة ممدّدة فوق بياض الورق قد تمنحُ المبنى رونقًا مضاعفًا، وتحقنُ المعنى بجرعات مركّزة من التشويق.. وكنت

Twitter: @ketab_n

غائبًا عن الفقيه تمامًا، لم أنتبه له إلّا عندما جعل يضرب يدًا بيد ويتمتم منسحبًا من المقام مردِّدًا:

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله..

وكانت حركاته إضافة إلى الطريقة التي حوقَلَ بها كفيلة بأن تستفزَّ ذاكرتي المتوقّدة، وتجعلُني أتذكَّرُ أنّه هو من كان يتأمّلني، وأنا أناجي خولة في مقام الابن. نعم، إنّه هو بوجهه اليابس كالحطب، آخر وجه أراه قبل أن يُغمى عليَّ وأوَّل وجه أراه بعد استفاقتي، لكنّه لم يكن يلبس جلبابًا هناك، لماذا؟ ولماذا يأتيني خبر مَقدِم جوليا على لسانه هو، ولماذا كانت رائحة عطرها آخر رائحة أشمّها قبل أن يغمى عليَّ؟! ربّما يكون في الأمر مؤامرة ما.. كلّ شيء متوقّع.

حين أُغلقَ باب المقام، خلوتُ إلى طفولتي... رأيتني ألعب هنا وأتّكئ هناك على الحائط حين يخزُّني الحزنُ أو تقسو عليَّ الوحدة، وفي كثير من الأحيان كنت أستمع إلى المربوطين إلى هذه الشجرة وهم يقولون كلّ شيء دفعة واحدة. والآن، ها أنذا مثلهم مربوط إلى الشجرة نفسها التي استقبلت أجيالاً من المجانين والمخذولين!!

كم أنا الآن في حاجة إلى سيجارة ورشفةٍ من زجاجة خمر... لا.. لا، بل أحتاج الآن أكثر إلى الأكل، أنا جائع. نعم أنا كذلك. في النهاية جوع البطن قاس، وإن جعتُ صرت في حاجة إلى شدق خبز.أسدُّ به رمقي، وإذا أردت أن أحقّق ذلك لا بدّ أن أعمل، الأمر الذي سيجعلني عرضةً للاستغلال الذي لا بدّ

Twitter: @ketab_n

أن يمارسه مالكُ وسائل الإنتاج.. إنّني بروليتاري في حاجة إلى ثورة من أجل التحرُّر من ربقة الملّاك.... أوّاه، أنا أهذي! إنّها أنشودة الرفاق، لكنّني لست في الساحة الجامعيّة. أنا الآن مربوط إلى شجرة تينٍ وارفة تظلِّلُ مقام سيدي موسى قلب إغرم، وأنا هنا والآن، لأنّني كما زعم الفقيه مسكونٌ بسيّدة الحصان التي تعشقُني وتريدني لها.. أنا أيضًا أحبُّها وأريدها لي..

نوميديا.. أين أنتِ؟

لماذا لا تظهرين لتثْبتي لنقَّار الخشب بؤس ما يزعم؟ خذيني إليكِ وإن كنتِ فعلاً بين جدران صدري ـ وصدق زعمُه ـ فظلِّي هناك وزوريني كلّ ليلة مرّة، دعيني أصلِّي على خصرك وأغفو كطفل على ركبتيك وأكفكفُ بثوبِك أدمعي كلّما أجهشتُ بالبكاء، ظلّي في القلبِ لا تبرحيه.. لا شيء في هذه الحياة؛ هذه المزبلة البشريّة الكبرى، يستحقّ أن تقع عليه عيناك الخرافيّتان! نوميديا.. لكِ في القلب تاريخ وجغرافيا، فنامي هادئة، أنا أحبّك حدَّ الجنون، أنا لك فأينَ أنتِ الآن؟ حدِّثيني بصمتك بإيماءاتك، فدونَكِ العالم أشبه بغابة محروقة، ودونك يتدحرج القلب نحو هاوية سحيقة.

نـو..... مـي..... ديـا!

لا طيف منك يزورني، ولا أنا أبرأ بتعاويذ نقَّار الخشب من حبِّك الذي اندفعَ بقوّة تيّارٍ جارف، ولم يتركْ لي ولو فرصة ضئيلة لاستجمع أنفاسي، أو أتأمّل أوراقي وهي تتطاير في السماء. حسمتُ الأمر مبكرًا بضربة عاطفيّة قاضية، ورحلتِ بعد أن

Twitter: @ketab_n

أدمنتك، لكنّكِ لم تتركي لي ولو منديلك ذكرى. . . جئتِ عاصفة ورحلت صامتة.

الدنيا فعلاً يا خولة: «إلى بغات تجي كاتجي بسبيبة ولا بغات تمشي كاتقطع السلاسل»، وها هي نوميديا تسحبُ زمام حصانها، فتتقطَّعُ السلاسل. . هكذا رحلت سيّدة الحصان، فسامحْنِي يا قلبي المرقع، أتعبتُك وأنا على يقين تامّ أن لا طاقة لنا أنا وأنتَ على حبٍّ ثقيلٍ وقاسٍ كنوميديا.

وأنا مشدودٌ إلى شجرة التينِ الكبيرة في هذا الصبح الحزين، والسماء ملبّدةٌ بغيوم تستفزُّ مدامعها، مرَّ بي شريط حياتي من صفره إلى هذه اللحظة، وضحكت في خلدي ساخرًا من حياة لم تهزمني، رغم أنّها خرّبتْ فيَّ كلّ شيء. في البداية، كان أوداد وكانت صباحات إغرم ومساءاتها تكرّر نفسها، لا. . البداية كانت حين انقطع حبل سرّي في مكان ما وسالتْ دماء وأوجاع. في البدءِ كان المخاض. تقول الحكاية التي عدَّلَتْها إغرم إنّ الله قبل أن يخلق آدم، أو بالضبط عندما كان بصددِ ذلك، أمر كبير ملائكته أن يأتيه بحفنة من تراب الأرض، هذا القليل من التراب، هو الذي سيشكّل جسد آدم. . وتتوقّف الحكاية. كلّ شيء يتوقّف ريثما يشعل امحند سيجارته التي كان يعدّها بيديه وهو يحكي، يعدّل جلسته، يبتسم لصغاره الذين اندسُّوا تحت سلهامه، ويسترسل قائلاً:

ـ ثم استلّ الله حوّاء من ضلع آدم لتُؤنسه في جنّته، لكنّ سعادتهما بذلك الحبّ والنعيم الأبديين لم تدمْ طويلاً ـ على الأقلّ كما اشتهاها الربّ ـ لا سيّما بعد الرهان الذي دخلَه إبليس،

Twitter: @ketab_n

والذي كان يقتضي إغواءَهما وكانتْ شجرة التفّاح محور هذا الرهان، وإذا كان الله قد أصدر أمرًا حاسمًا بتجنُّبِ تلك الشجرة، فإنّ هدف إبليس هو جعلهما يأكلان منها. وقد أتقن التخطيط لذلك، فكانت البداية أن وسوس في خلد حوّاء أنّ آدم مفتتنٌ بامرأة تفوقها جمالاً، وكدليل على ذلك أحضر مرآة وقال لها بأنّه سيُريها صورة غريمتها. وبالفعل تطلّعت إلى المرآة وظنّت أنّ وجهها الذي كانت ترى انعكاسه في المرآة هو وجه غريمتها، فاستشاطت غضبًا وألحّت على إبليس أن يدلَّها على طريقة تزيحُ به هذه المرأة الوهم، فأكّد لها أن ذلك رهين بأكلهما معًا من شجرة التفّاح المحظورة، وبهذا ترك لحوّاء إكمال اللعبة على طريقتها هي، التي جعلت من أكل آدم لتفّاح تلك الشجرة برهانًا على حبّه لها. . . وقد نجحت في ذلك.

ثم تطلّعَ امحند إلى أبنائه الذين أسقطهم النوم تباعًا، وخفتُ أن يدفعُه الأمر إلى التوقّف عن السرد، إلّا أنّه أخمد يده في جيبه وأخرج تبغه وقصاصة ورق، وانشغل بتحضير سيجارة أخرى مسترسلاً في الحكي. كنت أحسّه يفعل ذلك بمنطق الحاجة إلى الكلام، أو ربّما ريثما يشفي غليله من تبغه أكثر منه استجابة لحضوري الباهت في المشهد.

ـ وحسمتْ حوّاء الأمر بسرعة، وهما واقفان أمام الشجرة اللعنة، وأكلت التفّاحة لتستقرَّ بسرعةٍ في بطنها. هذه التفّاحة التي ستنفجر كلّ شهر دمًا!! أمّا آدم وبحكم التردُّدِ الذي كان يقتات من أعصابه، فقد أكلها، لكن خوفه جعلها تستقرّ في حنجرته لا تنزل، وهذا الأمر الذي يفسّر ضخامة حنجرة الرجل والدّورة الشهريّة

Twitter: @ketab_n

للمرأة. وقد يقول قائل: كيف يبتلع الإنسان تفّاحة كاملة؟ والحقيقة أنّ الله خلقهما ضخام البنية. المهمّ أنّ الله وبعد تجرّؤ آدم وحواءَ على أكل المحظور قرَّرَ نفيهُما من فردوسه، ولم يخرجا من الجنّة سوى بحذاءين، وقد قذف الله بهما كلٌّ في ناحية من الأرض، فأصبحا مطالبين بالبحث عن بعضهما بعضًا..

يتوقّف امحند عن الحكي، يضع سيجارته في فمه ويبحث عن علبة الكبريت، يستلُّها من بين أصابع ابنه النائم، ثم يواصل وهو يتطلّع إلى السقف وينفث دخانه:

ـ كانت حوّاء تخلعُ عن رجليها الحذاء السماوي الأنيق، وتذرع الأرض ليل نهار بحثًا عن آدم، بينما كان الأخير يُبقي الحذاء ويبحث نهارًا وينام ليلاً. حين التقيا كان لا يفصل بينهما سوى نهر كبير تجشَّم آدم مشقّةَ عبوره، الأمر الذي جعل جلَّ الرجال فيما بعد معنيين بالإقبال على النساء وطلب أيديهنّ للزواج! أمّا عندما سألها إن كانت قد بحثَتْ عنه أم لا، فقد أجابت بالنفي، وقدَّمتْ له حذاءها الذي كان لا يزال محافظًا على بهائه دليلاً على أنّها لم تبرح مكانها.

لكن، أَمِنْ هنا تبتدئ الحكاية؟ لستُ أدري. كلّ ما في الأمر أنّ أوداد وجد نفسه مسيَّجًا بإغرم وحكاياتها التي لا تنتهي، شبَّ كالوعول وحين سحبته يد للمدرسة، تلقَّفَ هديّةَ السماء ومضى، تدحرَجَ من منفاه الأوّل إلى منافٍ أخرى يجرُّ أوجاعه، ويأملُ أن يفضي المستقبل إلى ما من شأنه أن يطفئ حرائق الماضي، تشرَّدَ أوداد، تكوَّرَ وتدحرجَ ككرة ثلجيّة. كان يكبرُ على غفلة منه.. ولأنّه كبُر قبل الأوان، كان لزامًا أن يشيخَ قبل الأوان كذلك.

Twitter: @ketab_n

انتهى إلى الثراء ورغد العيش، لكنَّ الطفل المجروح لم يبرح دواخله. كان دائمًا يبكي ويبكيه.. تورّطَ بشكل أو بآخر في اغتيال من أبغضوه ومن أحبُّوه على حدّ سواء؛ كان على رأس جرائمه أن دفع حبيبته إلى الانتحار، لكنّه في كلّ ذلك، وفي ذلك الطريق الشائك، كان يموت بشكل تدريجي، وكان الموت دائمًا يضرب له موعدًا ويتخلّف عنه.

كرة الثلج أضحتْ عظيمة جدًّا في الصيف الأخير... عظيمة تتدحرجُ دون أن يوقفها أحدٌ، وكانت إغرم حائطًا متماسكًا لا يزيده تقدُّم الزمن إلّا قوّة.. أمر طبيعي إذن أن تصطدم كرة الثلج بالحائط وأن تتفتّتْ!

السماء ملبّدةٌ بغيوم ثقيلة ومكفهرّة، كانتْ أشبه ما يكون بسهوب قاحلة، والرياح كانت تنزلق باردة من صدري العاري إلى جرح الغربة الذي خطَّه ثور القبيلة في جنبي. عيناي تدوران في محجريهما بطريقة غريبة وأنا أصيخ السمع إلى زقزقة العصافير. هل بدأتُ أصدّق أنّني جننتُ؟ تابعت الأصوات حتى تلاشت وحاولت طويلاً التملُّص من الحبال، لكنّني لم أفلح. أمّا السماء فلا زالت تفتعل هدوءًا مزيّفًا. هي قطرة البداية لا غير، ويندفعُ المطر أهوج، وينزلُ عن صهوة الجبل آيت مرغاد.

خطى تدنو وتقلق هدوء المقام، يدفع الباب فيصِرُّ، كأنّني رأيتُ هذه الأشياء وسمعتُ هذه الأصوات في زمن غابر، وأنا في مثل هذه الوضعيّة. تدنو الخطى، فأركّز عينيّ على الزقاق الصغير الذي سيفضي بالزائرين إلى حيث أتواجد، واستبدّ بي قلق مخرّب، كدت أصرخ لولا أنّني رأيت وجهيهما الحائرين، وضحكت بمرارة

Twitter: @ketab_n

في سرّي على الصدف الخائنة التي جمعت بين شاعرة وكاتبة، لا يربطهما سوى أمرين: أنا والأدب. إنّهما نضال وجوليا.

جسدي شتات أمامهما، هما اللتان كانتا تتأمّلانه بذهول، قفزت جوليا إلى شفتيَّ بسرعة والتصقت بي، لا أدري لماذا عاودتني حلاوة حبَّة التين في تلك اللحظة المجنونة، تطلّعت إلى نضال التي كانت تبحلقُ في جوليا بنظرات شزراء غيورة.. وهي تعانق بجسدها الفتنة هذا الرجل المشدود إلى شجرة التين الكبيرة، والذي لا يقوى على أن يبادلها العناق. داهمتني غربة القتيل وهو يستسلم لعناقات قاتلته وقُبَلها الملتهبة، وتسرّبت إلى أنفي بسرعة رائحة العطر، وأيقظتْ فيَّ اللحظات التي سبقتْ إغماءتي. لست أدري لماذا أحسست أنّها نفسها رائحة الدسيسة!

وعانقَتْني طويلاً.. آه، كيف يعانق القاتل جسدًا لا يقوى على عناقه؟ كيف تعانق جسدًا وشجرة تجهل تاريخها، تطلّعتْ بعد ذلك العناق البارد، والذي كان من طرف واحد، إلى عينيَّ فغصْصتُ بالخيبة. كانت جوليا هي نفسها التي أعرف، لكن بسمتها الهشّة عجزتْ عن إخفاء الحزن الثاوي خلف عينيها، وما هي إلّا ثوان قليلة حتى شقَّت دمعة طريقها في الوجه الجميل واستقرّتْ قربَ شفتيها، كانت تعتذر. تأمّلتُ وجهها. يبدو أنّها بكتْ كثيرًا، أزرقُ عينيها يلتهب، كأنّما خلف زجاج عينيها تنفجرُ ذكريات وتستحيل أخرى إلى رماد. تطلّعتُ إل نضال الواقفة بثباتٍ كوتد قربنا، كانت عيناها كسماء إغرم هذا اليوم أو أقرب إلى زجاج حافلة في يوم ممطر، غائم وكئيب. حين عادت جوليا إلى تقبيلي، تسرّبتْ إلى فمي ملوحة دمعها والتبستْ بحلاوة التين، فهدَّني عياءٌ غامض

Twitter: @ketab_n

وشعرتُ بقوايَ تخورُ دفعة واحدة. قالت بفرنسيّة متعبة:

ـ حبيبي.. لو تدري كم اشتقت إليك!

كان صوتها يقول بأنّ جرحها ينزُّ في صمت، ويسيل دمًا متخثّرًا لزجًا، وأنّ كلمة «اشتقت» لا تفعل شيئًا سوى أنّها تنكأ هذا الجرح. قلت بصوت مختنق:

ـ أرجوكما.. فكَّا وثاقي.

فتركتْ نضال ما في يدها، وقفزتْ خلف الشجرة تفكُّ الحبال. كنت أحسُّها ترتخي شيئًا فشيئًا وتسقطُ، وكان جسدي يرتعش، كنت محمومًا. حين هويتُ بتعب إلى الأرض، احتكّ جسدي باللحاءِ الخشن لشجرة التين، فشعرتُ بوخز عنيف في الندوب التي تفنَّنتْ صفيّة في خطّها على ظهري، وبوخز أعنفَ في الجرح الذي شقَّهُ ثور القبيلة في جنبي..

خذلتنا الحياة، أنا وأنت، يا جسدي المريض..

ولدت بروح تحتضرُ وجسد يشتعل كنيزك. كان هذا الأخير سببًا كفيلاً يدفعني إلى مقاومة سيل الهزائم، وطالما كان في الروح أشياء كثيرة تنزع نحو الموت والفناء، وكان فيه أشياء جميلة تنزع للحياة.. والآن، وأنا أرى جسدي يهوي بطلقة حبر أسكنتها جوليا في دمائه، لا يسعني إلّا أن أقول لها هنيئًا لنا بكلّ الخيبات. انحنتْ جوليا وتأمّلتني بعينيها القاسيتين وأنا مغلوبٌ على أمري.. كانت تلتقطُ بعدستها الإبداعيّة أدقَّ التفاصيل لتصهرَها فيما بعد على ورق هادئ.

هنيئًا لكِ أيّتها الشقراء البهيّة، لقد نجحتِ في استدراج بطَلكِ

Twitter: @ketab_n

إلى نهاية مأساويّة، بذريعة استنطاقهِ لا غير. لكنَّك في الأخير، لن تكتبيه بقدر ما ستكتبين بشاعاتكِ.. ستكتبين هزيمتك على هزائِمه. هذا كلّ ما في الأمر.

Twitter: @ketab_n

(٧)

بالكادِ استطعتُ الوقوفَ على قدميَّ، بعد أن أجهزتُ على ما جاءتْ به نضال من أكل. تدحرجتُ إلى ضريح سيدي موسى، تطلعتُ إليهما وهما تحرسانني بأعينِهما وصمت مقرفٌ يباعدُ بيننا. أمّا حين دخلتُ إلى غرفةِ الوليّ الصالح، فقد تدفَّقت في الروح طفولتي كزيت محروق، بالكاد أقوى على المشي، بالكاد أستطيع التنفُّس.. هي نظرة لا غير من نوميديا. ويتوقّف هذا الانسكاب اللانهائي للتعب. في اللحظة التي جلست فيها على طرف القبر وجعلت أتابع بهوس الخطوط السوداء التي خلّفتها الشموع على حيطان هذه الغرفة، تناهى إلى مسمعي نشيج جوليا كأنّه حزن تأخَّر عن موعده. اقتحمتْ عليَّ نضال خُلوَتي بقبر الوليّ، ربّما لتتركَ لجوليا فرصة البكاء دون رقابة، كنت أحسّ بالخيبة تكتظُّ بها، لم تتكلّم مذ دخلتْ إلّا بكلمات قصيرة ومرتبكة، تأمَّلت وجهي طويلاً دون أن تكسرَ الصمت بيننا.. لا شكّ أنّني شاحب الوجه وأنّني

Twitter: @ketab_n

في حالة مزرية، وإلّا لما اغرورقتْ عيناها وهي تقترب وتضع يدها على جبيني قائلة:

ـ مراد، أنت متعب وفي حاجة إلى الطبيب..

(طبيب؟! أيّة سخرية غير مقصودةٍ هذه؟ أنا في حاجة إلى الموت أكثر من أيّ وقت مضى.. أنا في حاجة إلى الحسم) اقتربت أكثر، حين لم أقوَ على إجابتها ولا على التركيز أكثر في عينيها، أحنيتُ رأسي وجعلتُ أتأمّل هذا الحصير الأصفر الذي هرم هو الآخر، لكنّها مدَّت أصابعها الممتلئة إلى ذقني ورفعت بلطف رأسي، وأردفتْ:

ـ لنرحل إلى أقرب مدينة وأقرب طبيب. لا يمكن أن أراك تتدحرج هكذا نحو هوّة المرض دون أن أحرّك ساكنًا..

ووضعتْ يدها على كتفي وأنا أصيخ السمع إلى وسوسات وهي تناجي مسجّلتها، تذكَّرتُ الشرائط المستنسخة التي خلّفتْها في غرفتي. صحيح أن المفتاح معي، لكن لستُ أدري إن كان هناك مفتاحٌ ثان عند حميد أم لا. لا يهمّ.. ما كان كان وبعد خيبتي الكبرى في جوليا، كم أتمنّى لو أنّني لم أتطفّل على دفترها الخاصّ، ولا انتبهتُ إلى رقم بنهاشم. على الأقلّ ما كنت لأفتح نوافذ حياتي على حزن إضافي ثقيل! قلت لنضال بعد أن تنهّدتْ:

ـ أأنتِ أيضًا تظنّين أنّني مريض؟

فانزلتْ أصابعها وانحنت، وأخذت يديَّ بيديها. أحسستُ في تلك اللحظة أنّ خلفَ كلّ ما يحصلُ لي حسابات بالغة الدقّة، تأمّلتُ عينيها وقلت متضايقًا:

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، إن شئتِ، أنا مريض..

وأخذتْ وجهي المحموم بكلتا يديها ودنتْ منه بوجهها، وتطلّعتْ إلى الباب قبل أن توقع على شفتيَّ قبلَةً سريعة، قائلة:

ـ ستُشفى.. أنت أقوى من المرض.

قلت، وقد بدأتْ همسات جوليا تزعجني:

ـ نضال، أريد شعرًا، هلّا أسمعتِني آخر ما كتبتِ؟

اضطربت ملامحها قليلاً وزمَّتْ شفتيها كأنّها تتلذَّذُ بالقبلة، وأطرقتْ تفكِّرُ تاركةً للصمت ولوشوشات جوليا فرصة للتسلّل إلى أعماقي المتعبة.. قالتْ، بعد حالة الشرود التي امتصّتها، والتعب الذي انعكس على ملامحها الغائمة:

ـ هوانا طواه المغيبْ

في بلادٍ لم تعرف الحبّ، لا من بعيدٍ

ولا من قريبْ

قدري أن أعيش ككلِّ النساءْ

أن أعيش ازدواجيَّة من لهيبْ

في يدي خاتمٌ زوجيٌّ

وفي القلبِ ذكرى حبيبْ

وكانت كلماتُها تنصهر فيَّ كآبةً. نضال تلخّص محنتها شعرًا، تعبِّر عن التناقض الصارخ والبشع الذي ترزحُ تحت وطأته الكثير من النساء، بين رجل يجدن أنفسهنّ مرغماتٍ على العيش معه

Twitter: @ketab_n

وآخر يعشِّشُ في القلب، وينتفض كلّ ليلة في أجساد أزواجهنّ كلّما أغمضن أعينهنّ وأمعنَّ في الذكرى... وما كادتْ تنهي قصيدتها، ودون أن تترك لي مجالاً للتعليق، قالت بصوت متهدِّج:

ـ مراد، سأرحل.

ـ متى؟

ـ اليوم، أقصد بعد الزوال.. لا شكّ أنّ زوجي منزعجٌ من غيابي الطويل وغير المبرّر!

ـ هذا أفضل، لأنّي أعتقد أنّ وجودك معي يهدّد حياتك.

ورمقتني بنظرات متوجِّسة، دون أن تنبسَ ببنت شفة، وأردفتُ موضحًا:

ـ الظلام يتعقَّبُنِي، وقد هدَّدَ بقتلي وأهدر دمي.

تأمَّلتني بوجومٍ واستغراب قائلة:

ـ لا شكّ أنّك تمازحني.

ـ البتّة، تلقَّيتُ رسائلَ منهم كلُّها تهديدٌ ووعيدٌ، لا شكّ أنّهم لم ينسوا زمن الرفاق، كما أنّ كتاباتي إن كنتِ متابعة لها تسير في خطّ إيديولوجي مناقض لهم تمامًا، وأحداث ١٦ مايو ليست بالبعيدة. هناك حيث قُتل مصطفى في حفلة شواء اللحم البشري، كنت على موعد معه ومع موتي. كنت أنا من حدّد المكان والزمان، لكنّني ألغيت الموعد في آخر لحظة وفاءً لها، من بعد ما استدرجتُ صديقي إلى موت محقّق..

Twitter: @ketab_n

قاطعتْني متأسّفةً، وقالت بفضول:

ـ وفاء لها؟ من هي؟

ـ وجعٌ لا يُمحى وحكاية حزينة دعك منها.. المهمّ أنّ حياتي الآن في كفّ العفاريت الجدد.

ـ ومن مصطفى؟

ـ وجع آخر لا يُمحى. مناضل سبعينيّ أشعل في دربي أعواد ثقاب الفكر الحرّ، وأطفأه الظلام..

وباغتَني ماضيَّ فجأة حين أقبلت المرأة التي كبرتُ في بيتها، وهي تتحسَّسُ طريقها صوب قبر الوليّ. أومأتُ لنضال بحركةٍ منّي ألّا تنبسَ بكلمة، فتنتبَهِ الضريرةُ إلى وجودنا. خطوات مجهدة وظهر مقوَّسٌ وجسدٌ ضامر ومنكمشٌ هذا كلّ ما تبقّى منها. كانت تتحسّس الجدار باليد التي تبقّتْ لها. أمّا الأخرى فكانت مبتورةً. ارتمتْ مكدودةً فوق حصير الدوم الممدّد على جنبات القبر منذ زمن غابر، كانت تلهجُ بكلمات أمازيغيَّة غير مفهومة، ضاق بي مزار الوليّ وضاقت بي الدنيا فسحبتُ نضال من يدها وانصرفنا.

واجهنا وجه قاتلتي مكفهرًا شاحبًا. كانت مستسلمةً لهذياناتها ولمسجّلتها. لكنّها كبست على زرّ الإيقاف فور أن رأتنا، وهرولت إليَّ بفرحٍ عارم يسبقُها، عانقتني بقوّة وأخذتْ رأسي بيدِيها، وتأمّلتْنِي كأنّما كانت تكتشفُني للوهلة الأولى، حَزَّ في قلبي أن تُكمل لعبتَها في مثل هذه الظروف العصيبة، حتى إنّني فكّرتُ وهي تقفزُ إلى حُضني أن أواجهها بصفعة قويّة توقظ في رأسها ضوضاء لا تنتهي، لكنّني عدلت عن الفكرة وقرّرتُ أن أكون أشرف منها،

Twitter: @ketab_n

فما كان كان ومديتُها المسمومة قد جرتْ في أوردتي.. ومضينا ثلاثتُنا إلى الفندق.

انتابني إحساس بالقرفِ والغثيان حين لمحتُ قرب الفندق رجلاً يتسربلُ في بياض زائف وبلحية كثّة مسبلة، كان يتطلّع إليَّ بملامح ناقمة، أو على الأرجح هكذا كنت أراها. كنتُ أعزل، وكان بإمكانه ـ إن كان من جماعتهم ـ أن يسحب رشّاشًا من تحت جلبابه الفضفاضِ ويفرغَ عشر رصاصاتٍ في صدري ويفرَّ بعدها إلى الجبل..

لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، فقط لأنّ الموت لا يأتي بالطريقة التي نتوقّعها. مضت نضال إلى غُرفتها لتوضِّبَ أغراض الرحيل، وقفزت جوليا إلى سيّارة الجيب خاصّتها وعادت محمّلةً بالهدايا وبأشياء أخرى، فكما صرَّحتْ الليلة ليلتها الأخيرة في إغرم وفي المغرب، لستُ أدري لماذا قالت (إنّها ليلتنا الأخيرة). كلُّ ما فهمتُ من كلماتها أنّها ستعدُّ حفلة وداع. عندما اقتربتُ من الفندق استدارت إليَّ قائلة:

ـ تلك المذكّرة الحمراء وقميصُكِ في سيّارتي، لم أجد متّسعًا من الوقت لأصعد إلى الغرفة، فتركتُهما في السيّارة..

استوقفتُها وأخذتُ ما في يدها من أكياس، والتمستُ منها أن تعود إلى السيّارة لاستقدام أغراضي، ووجدتُ في ذلك فرصة لأخفي الشرائط المستنسخة..

وجدتُ صعوبةً في إخماد المفتاح في كوّة القفل، كانت يدي ترتجف فعلاً، أحسست لحظتها أنّ جسدي يتآكل من الداخل شيئًا

Twitter: @ketab_n

فشيئًا. لملمت الشرائط ووضعتها أسفل حقيبتي، وما كدتُ أغلق الحقيبة حتى ناولتْني المذكّرة، فأخمدتها هي الأخرى في الحقيبة..

خلعْتُ عنّي القميص حين داهمتْني رغبة ملحّة في الاستحمام، بينما كانت جوليا تبحلقُ في الضمّادة المتّسخة قائلة:

ـ علمت من نضال ما حلّ بك.

كنت أكابد الأمرّين من أجل امتصاص غيظي وأنا أواجه قاتلتي، وكانت قوّتي على امتصاص هذا الغضب، أو على الأقلّ تحمّله، مصدر لذّة خفيّة. حين خلعتُ الضمّادة وجدتها مدمّاةً عن آخرها. طويتُها بانفعال، بينما قالت جوليا:

ـ استحمّ أوّلاً، وبعدها سأضع لك ضمّادة أخرى.

في ما مضى، كنت ربّما لا زلت إلى حدود أيّام قليلة أحسُّ أنّ موعدي مع الموت لا يزال بعيدًا، لكن هذا الإحساس بدأ يتقهقرُ ويتخلّى عنّي، بدأتُ أستسيغ الموت كحقيقة ممكنة الوقوع في أيّ وقت وحين.

تحت الدوش والمياه تهوي بإغداق، عاتبني جسدي طويلاً. آه، أرهقتْنا أنا وأنت الحياة! تمنّيت تحت الدوش لو أنّ السماء تمنحني فرصة أخرى لأعيش كالآخرين دون عاهات روحيّة مستديمة، تمنّيتُ لو أنّني آخذ حياتي بأصابعي وأقذفها تمامًا مثلما يقذفُ طفل سنَّهُ الحليبيّة إلى السماء، وأتمنّى كما يفعل الطفل الصغير حين يطلب من ربّه أن يستبدلَه سنّه بخير منها، أن يستبدلني حياة الزبل هذه بخير منها..

ماء دافئ هادئ يهوي على رأسي يسدل شعري عُلى عينيَّ،

Twitter: @ketab_n

والذكريات تنسابُ بمرونة وبرود. امحند ـ كما تقول الرواية التي حرصوا على تذكيري بها ـ وجدني في ذلك السهب القاحل الذي تشقُّه طريق هامشيَّةٌ لم تكن يومًا طريقه، وأخذني كهمٍّ إضافيٍّ إلى عائلته، وقطَّر في فمي حليب بقرة لا شكّ أنّ ثور القبيلة من خصَّبها، إن لم نقل إنّه والدها أيضًا!! وقذفوا بي بعدها إلى الحقول أدبُّ كنملة وترقص روحي كغزال، وأبكي بحرارة حين تناوشُني حقيقتي، كنت نشاز العائلة والقبيلة معًا... وتستمرّ الحكاية.

حين تلفّعتُ الفوطة لم أضع الضمّادة، استقبلتني جوليا بكأس برتقال، وكان حريًّا بي ألّا أطيل التساؤل عن محتويات هذا العصير، لأنّ طرقي المريضة كلّها لا تؤدّي في النهاية إلّا إلى موت واحد، انصرفت بعد ذلك للحلاقة، فالليلة ليلتنا الأخيرة والأناقة مطلب أساسي في ليلة وداعِ القاتل لقتيله.

جوليا تعدُّ ليل غرفتنا بهدوء قاتل محترف، أمّا أنا، وبعد أن أجهزتُ على تلك اللحية، التي انتفضتْ في لحظة سهوٍ وإهمال على وجهي، بقيتُ للحظات أتأمّل وجهي في المرآة. كان شاحبًا بعض الشيء. قرأتُ فيه عذاباتي كلَّها وانسحبت.

سمعت طرْقًا خفيفًا على الباب. لكنّه كان ثقيلاً بين جدران جمجمتي، وسيجارتي الأولى تفضح عياء الروح إذ ترتجف بين أصابعي. الروح إذ تتعب تشرع في تخريب جسدها، لا لشيء فقط لتنبّه صاحبها إلى أنّه على شفير الهاوية. فتحت الباب، وإذا هي نضال تقف إلى جانب حقيبتها:

Twitter: @ketab_n

ـ إذن، أزمعتِ الرحيل يا رفيقة! وقرّرتِ أن تخلّفي وراءك مراد كومة من أحزان.

وكنت مأخوذًا بالسيجارة التي تركتها معلّقة بين شفتيَّ. كانت ترقص ككبش مذبوح، قالت ومسحةٌ من الحزن تكبِّل ملامحها:

ـ متعبة أنا بهذا الرحيل، متعبةٌ أكثر ممّا تتصوّر.. الرحيل يُزفُّ دائمًا ليطوي أيّامًا سنجد فيما بعد أنّها كلّ ما نملك، وأنّها كانت الأروع.. الرحيل اغتيال متقطِّع.

وسقطَ رماد السيجارة، قلت:

ـ سأرتدي ملابسي وأوصلك إلى السيّارة، هلّا انتظرتني قليلاً!

ـ أنتظركَ عمرًا كاملاً إن شئت.

في تلك الأثناء، كانت جوليا منهمكة في تنظيف الغرفة، قبّلتها على شفتيها بعنف مفاجئ، وسحبت من الرفّ قميصًا أسود، وأعدت السيجارة إلى شفتيَّ قائلاً:

ـ سأنزل يا صغيرتي إلى إغرم، أنتناول الغداء سويًّا؟

ـ لا.. شكرًا. أفضّل أن أبقى، لديَّ الكثير لأفعله.

ـ إذن، سأتناول الغداء بمفردي، وأعود.

ـ حسنًا..

وسقط رماد السيجارة مرَّة أخرى، لكن هذه المرَّة على السجّاد الممدّد قرب السرير. انحنيت لأنظِّف المكان، لكنّ الوخز

Twitter: @ketab_n

القاسي الذي استشعرته في موضع الجرح حال دون ذلك، فغادرت الغرفة بالكاد يحملني جسدي العليل، صرت أخاف عليَّ من جسدي الذي شرع ينطفئ من حين لآخر. أخاف أن يتخلّى عنّي دون سابق إشعار، لا أخاف من الموت لكن أتمنّى ألّا يغافلني. حين عدتُ إلى نضال، وجدتها تكفكفُ بمنديلها عبرات طالما أضمرتْها. كان يدثّرها شجن عميق، حين سألتها:

ـ ولِمَ البكاء جميلتي؟

كانت سيجارتي قد فرَّت من بين أصابعي المرتجفة، دهستُها بقدميَّ، وانزلقنا معًا إلى خارج الفندق. حين وضعنا الحقيبة في السيّارة بعد أن أزحنا عنها الغطاء، غالبتُ إحساسًا مبهمًا بالفقدان والتشظّي. وأمام تمادي نضال في البكاء، لم أجد أمامي سوى سحب سيجارة واتّخاذ الولّاعة ذريعة لأفرَّ من انتحابها، الذي كان يخترقني ببرود ويتناسل داخلي أوجاعًا. وجدتُ حميد يغالب النوم بصعوبة، انتصبَ واقفًا حين رآني، وبادرني قائلاً ما يقوله المغاربة عادة عند عودة أحدهم من المستشفى، أو نجاته من موت أخطأ حساباته:

ـ على اسلامتك آسي مراد.

ـ الله يسلّمك، هل لي بولّاعة؟

ونطَّ بخفّة وعاد بها، حين أشعلتُ السيجارة ونفرَ دخانها مبتعدًا، قال لي بعد مقدّمة مملّة:

ـ بعد إذنك أستاذ، أريد أن أسألك على ألّا تحسب سؤالي ضربًا من الفضول، هل أنت أمازيغي؟ أقصد هل تتحدّث الأمازيغيّة بطلاقة؟

Twitter: @ketab_n

وأخذت نَفَسًا آخر عميقًا من سيجارتي، خطر لي أن أكاشفه بالحقيقة، لكنّ رغبة ما مبهمة داخلي ألحّت عليَّ أن أشحذ رواية الفقيه وجنّيّة الجبل، فأجبت:

ـ إطلاقًا.

فبدت على ملامحه علامات الاستغراب، وقال وقد شرعتُ في الانسحاب إيذانًا منّي أنّ نقاشنا انتهى:

ـ البارحة...

وقاطعته بحدَّة، لكي أتخلّص من وجع جديد ضقت به ذرعًا:

ـ أعرف، أعرف...

وأنا أقترب من نضال، كان صوته لا يزال يتناهى إلى أذنيَّ. كان يردِّد عبارة واحدة، جرتْ العادة أن يقاوِم بها المغاربة والأمازيغ بوجه خاصّ خوفهم من الجنّ أو الظلام أو أيّ شيء يعجزون عن تفسيره:

ـ التسليم... التسليم!

هزّت رأسها، حين دنوت منها.. كانت حزينة جدًّا وكنت أتدفَّأ بحزنها وشوقها المعلن، قلت:

ـ كانت رسائلك الشعريّة التي طاردِتني بها رائعة وعميقة.

ـ شكرًا، لكنّ الظاهر أنّني سأكتب دائمًا رسائل دون ردّ.

ـ عليك بالانتظار..

ـ انتظار ردّ؟

Twitter: @ketab_n

لم أجب. أدركتُ أنّ الكلمات لن تتحمَّل كلَّ هذه الهشاشة التي تدبُّ في روحينا معًا، كنّا نبكي معًا، نبكي بكاء معكوسًا تسيل دموعه في دواخلنا. رفيق ورفيقة انزاحا قليلاً أو كثيرًا عن الساحة والنضال. كانت السيجارة تفضحُ ارتجاف يدي، تركتُها بين شفتيَّ ومددت ذراعيَّ إلى نضال التي لم تتردّد قطُّ، بل ارتمت بين ذراعيَّ وشدَّتْ على جسدي بقوّة، كأنّما كانت تسعى إلى الالتحام بي، أحسست أنّني أنطفئ في عناقها رويدًا رويدًا. أخذتُ نفسًا أخيرًا من السيجارة وقذفت بالعقب بعيدًا، وجسد نضال لا يزال يحاصرني. في لحظة خاطفة، افتُضَّ اشتباكنا. استلَّتْ من ضعفها ما أبقت لها الحياة من قوَّة حين استلّتْ من شفتيَّ قبلة سريعة واندفنت في سيّارتها بسرعة، ودون عبارة وداع مضتْ وخلَّفتني أنا والغبار ذاهليْن. «كأنّكِ كنتِ معي» هكذا يقول الغريب في سرِّه للغريبةِ، بعد أن وحّدتهما كي تفرّقهما الصدفة.

ودون أن أنسى بأنّني نزفت طويلاً وأنّني بحاجة لما أسدُّ به جوعي، تناولت الغداء واستسلمت لغروب إغرم. بعد ذلك، كانت القرية متجرّدة تستسلم لسريرها الليليّ الحالك، وكانت نوميديا تطبق على تفكيري بقبضة من فولاذ. أوّاه، ليت طيفها يبرق ويختفي. هي نظرة لا غير، تخمد ما تناسل في أضلعي من شوق، وكنت حزينًا كما لم أكن يومًا... حزن قاس يعبق بسعادة سرِّيّة موجعة تطبق على القلب كلّما فكّرتُ في نوميديا.

نوميديا، أيّة أرض انشقّت وابتلعتك؟

أيّ قدرٍ أعمى أهدانيك أيّاما بل سويعات، وأخذك منّي عنوة بعدما أدمنتك. كأنّ الحياة أرادت أن تذيقني بكِ قليلاً من السعادة

Twitter: @ketab_n

لأفهم جيّدًا مدى جسامة خساراتي..

لم تكن الحياة عادلة معي. كنت سأغفر لها كلّ الكدمات القدريّة التي تسبّبت لي بها، لو أنّها أعطتني نوميديا، لكنّها وضعتها في طريقي فقط لتفضح هشاشتي، لتعرِّيني بعدما أسقطتْ كلّ من حولي وقتلتني بهم تدريجيًّا. جاء دوري لأسقطَ أنا الآخر، كما يسقط وعلٌ هرم، أعرف أنّ سقوطي ـ مهما كانت الجهة التي تبنَّتْهُ ـ لن يحدث ضجّة ما، عاش اللقيط مات اللقيط! لن أُزعجَ هذا أو أستجدي دموع ذاك. لن تتأثّر إغرم ولا الحياة بغيابي. وأبعد الظنّ أنّني لن أتجاوز خبرًا يطرحه أحد معارفي على جلسائه ثم ينصرفون إلى شأن آخر، وفي أحسن الأحوال ستكافئني القناة الرسميّة بثوانٍ قليلة تعرض خلالها صورتي وبعض كتبي، مع كلمات سخيفة يلهجُ بها مقدِّم النشرة، كأنْ يقول على سبيل المثال: «انتقل إلى عفو ربّه الكاتب المغربيّ فلان بن فرتلان».. وانتهى.

الذين يرهبون الموت عادة لا يخافون الموت، بقدر ما يرهبون ما وراءه، أمّا أنا، وقد مارستْ عليَّ الحياة شتّى أنواع التنكيل والعذاب، لم يعد يهمّني سؤال «ماذا وراء الموت؟» لأنّني ببساطة لا أتوقّع أنّ هناك أقسى من هذا الجحيم الذي أذاقتنِي إيّاه الحياة.

الشمس في الأفق بقعة دم تسيل ببطء شديد، كأنّها لا تنوي الغياب، أو ربّما لا تنوي أن تُشرق مرّة أخرى، ولأنّ جسدي وأوجاعه تجرّني نحو انهيار شامل، فقد اخترتُ للعودة أقصر الطرق، مثقلَ الخطوات أمشي لئلّا أنكسر، أبحلق في كلّ شيء

Twitter: @ketab_n

وأرصد كلّ الحركات من حولي، لعلّي أرى نوميديا، هي نظرة لا غير تودّعني بها، لكن...

دون جدوى!

Twitter: @ketab_n

(٨)

جوليا رتّبتْ ليل غرفتنا بعنايةٍ وحرصِ قاتلٍ يُصرُّ على أن تكون جريمته كاملة. وجرح الضحيّة ينزُّ في صمت، إذ يتأمّل أوراق ورود بمختلف الألوان، تملأ أرضيّة الغرفة وتنام على السرير.. كلّ شيء في مكانه الخاصّ، على الطاولة شمعدان كبير ذو قرونٍ وغُليّة كبيرة يضفي على الغرفة سحرًا خاصًا، إضافة إلى الشموع الصغيرة التي تستلقي على صحون صغيرة، لا أدري كيف ألصقتها جوليا برؤوس السرير الأربعة، فكانت ترسم حدوده بشكل خرافيّ، وإضافة إلى الشمعدان الذي ينتصب وسط الطاولة، هناك زجاجتا نبيذ باهظتا الثمن تحاصرانه، وإضافة إلى النظام المتناهي الدقّة والسحر الخاصّ الذي حرصت عليه جوليا، كانت الغرفة تعبقُ بروائح البخور التي لا أدري من أين حصلتْ عليه، لكنّها كانت تسرح بي في وديان الذاكرة العميقة وتزرع فيَّ خوفًا مبهمًا. كان صوت لارا فابيان ينطلق من مكان ما، فيربكُ إدارتي لجسدي:

Twitter: @ketab_n

ـ Je suis malade.

كان صوتها قاسيًا جدًّا، ربّما لأنّني أيضًا مريض. لذلك كانت تجدُ كلماتُها صدًى عميقًا داخلي، أمّا جوليا التي التمعتْ عيناها الليلة بوميض حادّ واتّشح وجهها بحزن طفيف، فقد كانت تذهب وتجيء بين طاولة العشاء والمطبخ في فستان أسود لا يبعث أمامي إلّا أطياف نوميديا. أمّا أنا، الذي كنت سيِّدَ ليلها، فكنت أجلس على الأريكة المقابلة للطاولة وأباغتها بنظراتي كلّما انحنتْ لتضع طبقًا على الطاولة. كانت في أوج زينتها، وكان الكحل الذي يلفُّ عينيها الجميلتين يضفي عليهما لمسة شرقيّة رائعة وإن كانت زائفة.

جسدُ جوليا شهوتي هذه الليلة، لكن كلّ شيء في جسدي يناقض هذا الاشتهاء. رأسي يؤلمني ويدي ترتجفُ والحمّى شرعتْ في قضم جسدي، ولارا تورِّطني أكثر في هذا المرض إذ يُشرعُ صوتها العذب في الروح أوجاعًا وينكأ أخرى. في ليلتنا الأخيرة، كان حزني قد تقيّح ورائحة العفن تملأ جوفي رغم سحائب البخور التي تتحرّك في الغرفة، جسدي يتداعى وأنا أعزل أراقب انهياره كمتفرِّج على مسرحيّة يبكي شفقة على أحد أبطالها دون أن يملك شرعيّةَ تغيير شيء في حبكتها..

لم أتألَّم كثيرًا حين أقبلتْ جوليا تحملُ في يدها حقنة أخيرة. لم أُبْدِ أيَّ اعتراض، لا يقوى الميت على شيء أمام غسّاله، وروحي تعبت، روحي في حاجة للخلاص، وقد يكون في حقنتها خلاصي. اغرورقتْ عيناها وهي تتأمّلني، وأنا أطوي ببلاهة مفتعلةٍ يد القميص وأكشف عن ساعدي بطواعية. كنت أعرف أنّ موقفًا مثل هذا يمكن أن يحفر داخلها خنادق أسف وندم عميقة.

Twitter: @ketab_n

عيناها الزرقاوان الجميلتان تلمعان على ضوء الشموع بوميض خاصّ وأنا أناديها سرًّا، تعالي واقتليني. لن أثور ولن أنتفض، فقلبي مدمّى وأحوج ما يكون للخلاص.

ولم تبكِ، كما توقّعت، لكنّها كادت تفعل. في كلّ خطوة تدنوها منّي، كانت آلاف الأفكار والذكريات تكرُّ وتفرُّ وتتزاحم في رأسي، دون أن تترك لي فرصة تأمُّل وجه قاتلتِي، هي حقنة أخيرة إذن. لست أدري أيّ تركيبة طبِّيّة تنام داخلها، ولا أريد أن أعرف. أقصى ما أتمنّاه أن تمهلني ـ إن هي قرّرت حسم أمري ـ دقائق، لأشكرها.

جوليا تقاوم ارتباكها بكلمات أشدّ ارتباكًا، كانت تصل إلى أذنيَّ متقطِّعة وكان نصفُها يضيع في الطريق إليَّ، تحدَّثتْ عن مزايا الحقنة وفعاليّتها ضدّ الحمّى والتعب... آه جوليا أنتِ في غنى عن حجّة تتذرّعين بها لقتلي فقط. افعليها وخلّصيني، فلتفعلي لتكتمل الرواية، روايتك التي أدَرتِ تفاصيلها بيديك وكنتِ بطلتها وإلٰهتها الخفيّة..

جوليا تنحني، فينفرج فخذها الشهيّ عن فتحة الفستان الأسود، فتغلي شهوتي داخلي، مرَّتْ بالقطن على ساعدي.. كنت أتفرّس في ملامحها وأراقب كيف يتحوّل الإنسان بين لحظة وأخرى إلى قاتل. كنت أراني وأنا أذبحُ خولة بهجرها. اشتدّتْ تفاصيل وجهها حين أغرقت الحِقنة في ساعدي، لكنَّ أساريرها سرعان ما انطلقت وهي تسحب بساديّة الحقنة من لحمي.. بحميميّة مددتُ يدي إلى الفخذ العاري، فاضطربت ملامحها، فخذ ناعم أملس كجلد الدلافين، لكنّها سرعان ما احتوت يدي بيدها قائلة:

Twitter: @ketab_n

ـ إنّها الواحدة بعد منتصف الليل، الليل لا يزال ملكنا والأكل والنبيذ ـ لئلّا تنسى ـ لا يزالان فوق الطاولة. .

ـ حسنًا، لنأكل أوّلاً. .

وانتصبت واقفة كزرافة، قذفت بالحقنة في سلّة النفايات. غسلت يدها وأقبلتْ. . كانت جوليا هذه الليلة، ولسرٍّ أجهلُه، أجمل من أيّ وقت مضى. جلست أمامي مباشرة وهي في أوج زينتها، ولارا تغنّي:

ـ Je T'AIME.

جوليا، أخذت السكّين بيدٍ والشوكة باليد الأخرى، وكانت تضعُ من حين لآخر قطعة لحم في صحني وتصبّ لي النبيذ. أمّا أنا، فكنت لسببٍ ما آكلّ على طريقتها المتأنّقة بعد أن اختفتْ رعشة أصابعي ودبَّ في جسدي قليل من النشاط. حين كانت الأغنية تأفل، احتقن وجه قاتلتي، أو هكذا رأيته على ضوء الشموع، لكنّي تأكّدتُ من ذلك عندما وضعت الشوكة والسكّين على الطاولة بنرفزة واضحة. كانت الشموع الراقصة تغازل ذهب شعرها الجميل. أمّا عيناها فقد اكتظّتا بالحزن والدموع. فكّرت أن أسألها عن أخيها ـ إن كان لها أخ أصلاً ـ أَأُفْرجَ عنه تنظيم القاعدة أم أنّه لا يزال رهينة في قبضتهم؟ لكنّني عدلت عن السؤال في اللحظة الأخيرة، وفضّلت أن أطيل تأمّلي في أزرق عينيها وهو يكتظُّ دمعًا. قالت:

ـ مراد، لا بدّ أن أخبرك بأشياء كثيرة. . .

ـ حقائق؟

Twitter: @ketab_n

ـ نعم.

ـ تعنيني؟

ـ نعم.

ـ إذن، لا حاجة لي بها، الليلة ليلتُنا ويجب أن نترك كلّ كلام جدّيّ جانبًا.

كنت هادئًا كما لم أكن يومًا، أتلذَّذُ لرؤيتها والحزن يفيض بعينيها، قالت:

ـ يجب أن أخبرك...

لكنّني قاطعتها ببرود ولامبالاة، وأنا أفرقع أصابعي بتوتّر مفتعل:

ـ جوليا... قلت الليلة يجب أن نترك أحزاننا جانبًا، وأن نعيشها كما لو أنّها آخر ليلة في حياتنا معًا. أتحبّينني؟

باغتها سؤالي وارتجَّ في اللحظة ذاتها باب الشرفة إثر ريح قويّة.. أمّا الشموع، فلم تعد ترقص، صارت تبكي بحرارة وعربدةٍ وتنحني بتذرّع من حين لآخر. حدّجتُ جوليا بنظرة أقرب إلى الغضب، وقلت:

ـ أتحبّينني كما قلتِ وكرّرتِ؟

وأزحتُ عينيَّ عن الشمعدان وركّزت في عينيْ جوليا. كانت تبكي. آه.. تبكي وهي تسامر عشيقها وقتيلها. امتلأت الغرفة على روعتها بالحزن، كلّ شيء يبكي إلّايَ. الشموع تبكي والورود على الأرض وفوق السرير تبكي، والسقف يبكي، والنبيذ في الكؤوس

Twitter: @ketab_n

دموع، وأوراق الحزن الذابلة تنهمر علينا، وانكسر الصمت بيننا، إذ قالت:

ـ لقد قتلوه يا مراد...

رفعت حاجبيَّ مستغربًا، وحرّكتُ رأسي مستفهمًا، فاسترسلت:

ـ أخي.. لقد فَتَك به الهمجيّون الجدد!

أخذت سيجارة، حرّكتها بأصابعي وأنا أتسلّى بلحظات انخذال جوليا وضعفها، أشعلتُ السيجارة من الشمعدان. كان دخانها غريبًا وكذلك مذاقها. في الوقت الذي كنت منشغلاً بتحليل مذاق السيجارة، كانت أوتار جوليا تتمزّق، أو على الأقلّ هكذا يبدو الأمر.. تنهّدتْ بعمق واستجمعتْ أنفاسها كأنّها تنفضُ عنها حزنها، أو تحاول.. استرسلتْ:

ـ ترمّلتُ بعده يا حبيبي.

ولم أذهب بعيدًا في فهمي لكلمة «ترمّلت»، كأن أفترض مثلاً أنّ القتيل يمكن أن يكون زوجها لا أخاها... لا يهمّ! نعم، أردفتْ:

ـ كلّ ما يهمُّني هنا والآن هو أنت.. صدّقني، ربّما لم أكن صادقة معك بما يكفي، أعترف بذلك، لكن أتمنّى أن تصدّق حقيقة واحدة هي أنّني أحببتكَ، وأنّني أحبُّكَ كما لم أحبّ رجلاً آخر في حياتي.. كنت أوّل الأمر إغراء لا يقاوم، صرت تحدّيًا، واستحلتَ بعد ذلك إلى محنة لن أُشفى منها إلّا بالموت.. حاولت أن أكتشفك أيّها الإفريقي المجنون، الشهيّ المشتهى، لكنّني لم

Twitter: @ketab_n

أكتشف في نهاية المطاف سوى ركن خفيّ من جنوني..

وكانت الغرفة تبكي، والموسيقى والشموع كذلك، وكنت أنا ودخان سيجارتي نحلّق في سماء سوداء نتبدّد في ثناياها شيئًا فشيئًا، دون أن نرسو على برّ آمن. في النهايةِ، لا نأخذ حقائبنا مهما كانت صغيرة وحتى ملابسنا، نمضي نحو فوهة المجهول حفاة عراة.. الليلة ليلة وداعنا، لست أدري أيّ واقع ينتظرني بعدها، لكنّني أعتقدُ أنّه لن يكون أسوأ ممّا عاشه أوداد، «ليس بالإمكان أسوأ ممّا كان»، أهرقت النبيذ في كأسينا معًا وصحت بها:

ـ نخب الغائبتين، خولة ونوميديا، نخب زواج المتعة بين الشرق والغرب!

ـ نخب ليلتنا الأخيرة، نخب روايتنا يا حبيبي..

بالطبع، لم أسألها ما الرواية؟ ببساطة لأنّها لم تسألني عن الغائبتين. كلٌّ منّا يسرِّب في نخبه بعض أوجاعه ويتجاهل، أو بالأحرى يغضّ الطرف عن نخب الآخر، عن وجعه. قالت:

ـ أنا أشيّع أخي على طريقة «غريب» ألبير كامو، أليس كذلك؟

ـ نعم، لحدود اللحظة ليس كذلك.

حين اشتعلتْ الخمرة في رأسي قليلاً، أخمدت عقب السيجارة في المنفضة قائلاً:

ـ أتعرفين كيف ماتَ أوداد؟

Twitter: @ketab_n

وتطلّعتْ إليَّ باستغراب واستفسرتْ:

ـ وهل مات فعلاً؟

أجبتُ باقتضاب:

ـ مات، نعم. . مات حزنًا وحبًّا.

لم تقل شيئًا. ظلّتْ تحاصرني بأزرق عينيها، واسترسلتُ:

ـ هناك من يموت حبًّا وحزنًا يا صغيرتي. أمر طبيعي. المهمّ أنّه هلكَ. في النهايات، هناك أشخاص محظوظون بالفطرة وآخرون تعيسو الحظّ. إنّها قسمة ضيزى! أعلم، لكنّها حتميّة كذلك. كان انتصارًا لأوداد أن ظفرَ بحياة كتلك التي عاشها، فالمقطوعون مثله من شجرة عرعار لا يستحيلون إلّا إلى لصوصٍ أو قطّاعِ طرقٍ أو شحّاذينَ. . أوداد يا صغيرتي، بقدر ما هذّبه العلم عذّبه كذلك. المعرفة لم تكن بالنسبة له إيجابيّة كلّيًّا، لقد أضاءت بعض فصول حياته الأشدّ بشاعة. كان يكاشفني في عزّ تعبه بمثلٍ مغربيّ لا يفهمه إلّا هو. . يقول: «ما في الهمّ غير اللي كايفهم».

وكنت أراقب كلماتي وهي تَفترِعُ هشاشتها. . كان الجوّ بيننا مشحونًا بتوتّر وقلق باديين، لا تخفّف من وطأتهما إيديث بياف، إذ تنتحب ويسيل صوتها، وكذلك دموعها من ثقوب المسجّلة:

ـ ne me quittes pas.

في الطريق إلى قمّة الحزن، سبقتني جوليا الليلة بخطوة واحدة. لذلك انزلقتْ من عينيها دمعة وجرَّت معها الكحل، وكان الشمع والشمعدان وكلّ ما في الغرفة يبكي. . أمّا أنا، فقد

Twitter: @ketab_n

أشعرتني دموعها التي أحسست أنّها لأوّل مرَّة حقيقيّة، قلتُ أشعرتني براحة داخليّة وغازلتني نسائم فرح عابر. أهرقتُ ما تبقّى من الكأس في فمي دفعة واحدة، وكنتُ أسيلُ ذكرياتٍ. قلتُ في سرّي وأنا أتفرّسُ في الخريطة السوداء التي ارتسمتُ على وجهها جرّاء الكحل، لا بدّ أن أتمرَّدَ على سلطة روايتها، وإن لم أقوَ على ذلك لا بدّ أن أدميَ معي كاتبتها. أشعلتُ سيجارة أخرى من الشمعدان في حين انسحبت جوليا لتغسل وجهها.

آه.. كم ضعنا أنا وأنتَ يا أوداد، يا أنايَ الثاني ويا وجهي الخفيّ، كم تحمّلتني وتحمّلتُ أحلامي حين كنّا أنا وأنت صبيَّين في صبيّ واحد. كنت أحلمُ بالبعيد وكنتَ تحلم بصدر حنون يأوي طفولتَك الشقيّة، وكبرنا كلٌّ على حدة، وأفلست أحلامي وعادت سفني من البعيد منكّسة الأعلام! الآن وأنا عرضةٌ للموت بعد أن اخترقني قلم جوليا أكثر ممّا اخترقتْني حُقَنُهَا، تأكّدتُ أنّني لن أكون غيركَ مهما حاولتَ، تمامًا كما كنّا متأكّدينِ أنا وأنتَ أنّنا لن نكونَ كغيرنا. كان يعوزُنا الكثير.. ولعلَّ ثلاثَ أرباع هذا الكثير هو غياب الحبيب والحليب الأوّلان..

حين عركتُ السيجارة التي اكتفيت بنصفها في المنفضة، زمجَرَتْ الرياح خارجًا كذئبٍ مسعور، وعادت جوليا تسأل:

ـ قل لي مراد، وبصراحة، هل سبق وأحسست أنّ حياتك مهدّدة؟

أجبتُ باقتضاب:

ـ دائمًا.

Twitter: @ketab_n

ـ ومن يتهدّدك يا عزيزي؟

ـ أشياء كثيرة.. من بينها قَتَلة أخيك.

وفغرت فاها وهي تبحلق فيَّ غير مصدّقة:

ـ أتقصد القاعدة؟

ـ لا.. أقصد الظلام أينما كان. كلّ فكر يضيقُ عن نفسه ولا يجد سوى العنف مخرجًا لمآزقه الكثيرة.

ـ هل هدَّدُوك؟

ـ كثيرًا.. في آخر مرَّة قالوا إنّ الأمر مسألة وقت لا غير.

وتساءلت في سرّي، بعد كلّ خيانات جوليا، ألا يمكن أن تكون وراء الرسائل التي كانت تصلني منهم، ألا يمكن أن تكون وراء التخريب الذي طال غرفتي ولا يكون الأمر أكثر من وسيلة أخرى لإضعافي؟!! لكنّني استبعدتُ أمام دموعها الفكرة، وأنا لا أعرف إن كانت تلك الدموع حزنًا عليَّ أم عليها، بعد أن ظهر لها منافس جديد غيرها يطلبُ رأسي.. قلت لها، وأنا أغبّ جرعات مركّزة من التعريض:

ـ كلّ هذا لا يهمُّ.. أن أموت بمدينةِ عدوٌّ أعرفه أمر طبيعي! أشدُّ ما أخافه أن أموت على يد من أحبُّهم، وربّما بطلقة طائشة منهم، مثلما حدث للكاتب الأميركي «ويليم بوروز» الذي كان يلعبُ مع زوجته لعبة موت حقيقيّة، ربّما من فرط حبّه كان يضع قدحًا على رأسها ويصوِّب مسدّسه نحوه، وكان دائمًا يصيب القدح. لكنّه، وربّما لعثرة قدريّة عنيفة، أخطأه يومًا وأصابها في مقتل.

Twitter: @ketab_n

وتوقّفت عن الكلام حين تدفّقتْ أحزاني كنهرٍ غاضبٍ داخلي. كنت أفرُّ من عينيها لئلّا تخذلني دمعة ملّتْ مقامها. شابكتُ أصابعي حول رقبتي واتّكأتُ على الأريكة بكامل جسدي وتطلّعتُ إلى الأعلى. أحسستُ بوجعٍ داخليٍّ قويّ كأنّي ابتلعت شفرة كتلك التي ابتلعت خولة، كأنّها تجهز على أعضائي الداخليّة ولا تترك في طريقها شيئًا سليمًا.. أقسم أنّ ثمّة روائيًا خلف جوليا يصيخ السمع إلى حبال قلبي وهي تتقطّع حبلاً حبلاً، أقسم أنّ هناك دسائس قدريّة خبيثة تُحاك ضدّي في الخفاء.

قفزتْ جوليا من مكانها وارتمتْ كطفلة على صدري، والتصقتْ بي. كانت تغمرني بجسدها وسحرها وغنجها، فتلهبُ جراحاتي، همستُ في أذنها:

ـ لا بدّ أن نرقص.

فقفزتْ من مكانها ودلفتْ إلى المسجّلة، وقلّبتْ طويلاً الأقراصَ المدمَّجةَ بحثًا عن أغانٍ تذيب الصقيع الذي يغلّف قلبينا معًا. قلت في سرِّي، هي ليلتُنا الأخيرة معًا ولا بدّ للقتيل وقاتله أن يتركا حبَّهما أو حقدهما المتبادل جانبًا، ويُفسحا حيِّزًا ولو بسيطًا لسلام موقّت ولحماقات أخيرة..

باب الشرفة يئنُّ إذ تهاجمه الرياح، لا شكّ أنّ الرُّحَّلَ في أعالي الجبال يوضِّبُون أغراضهم ويرسمون خططًا للعودة.. لست أدري لماذا سرح في وجداني حنين موجع لنوميديا، وأنا أفكِّر في رحيل آيت مرغاد إلى البعيد. خفت أن تكون غجريّة مثلهم، رغم أنّها اختفت، إلّا أنَّ قلبي يحتفظ بأمل عودتها. آه، من حبٍّ هذه

Twitter: @ketab_n

الأمازيغيّة، اندفعَ كلّه داخلي بعد أن أهملتُ تلقيح قلبي ضدّ أيّ عشق طارئ.

استدارت جوليا بعدما انتقت الموسيقى، فوجدتني خلفها تمامًا. فجفلتْ أوّل الأمر، لكن سرعان ما اندفنَتْ بين ذراعيَّ. كانت الموسيقى هادئة وكنّا أهدأ ـ أو على الأقلّ ظاهر حالنا كان كذلك ـ وضعت رأسها على صدري وجعلنا نرقص، كنّا نتمايل ذات اليمين وذات الشمال في تناغم مع إيقاعات الموسيقى، ونصيخُ السمع لدقّات قلبين متعَبين. لا أعرفُ عن جوليا الشيء الكثير بعدما اكتشفت ما اكتشفت، لكنّني متأكّدٌ أنّها متعبة بي وأنّها الآن أكثر هشاشة من وريقة تين يابسة!

ورقصنا طويلاً على أنغام حزينة وأخرى مفرحة، ولعبنا بطيش وجنون، وأغرقنا قلبينا معًا في الخمر وشرّبتها من فمي وشربت من فيها ودخنّا سيجارة واحدة معًا وراقبنا نيران آيت مرغاد والريح تذروها وتجرّ ليل إغرم، فلا ينفكّ يجثم على صدرها، وعدنا بعد ذلك للرقص والجنون، وكنّا في كلّ ذلك نسقط ملابسنا شيئًا فشيئًا.. ندنو ونبتعد من السرير بعد أن ذهبت الخمر بعقلينا، وأربكت إدارتنا لجسدينا. كان جسدها استثنائيًّا في كلّ شيء هذه الليلة، شهيًّا أكثر من أيّ وقت ولّى...

وأنا أحملها بين ذراعيَّ عاريةً وأدور بها كدُمية، ونحن غارقان في موجة ضحك هستيريّة، استوقفتني، فوضعتها فوق السرير كأنّي أُعيد بطّة إلى حوضها. رمقتني بعينينِ امتزج فيهما الخوف والتوجُّس بأشياء أخرى غامضة، قالت:

Twitter: @ketab_n

ـ حبيبي، أيمكن أن تسامحني على أشياء لن أقولها لك؟

وكانت أصوات الرياح تصطخبُ خلف باب الشرفة، وتترامى إلى أذنيَّ أشبه ما يكون بمواء قطط في حالة عراك! أجبتها، وأنا أمرُّ بأصابعي على حلمتيها الطائشتين:

ـ أنا متأكّد تمامًا أنّك لم تذنبي في حقّي، وإن كنتِ تقصدين أخطاءكِ الصغرى، فأنا أغفرها لك جميعها..

فقاطعتني قائلة:

ـ وإن... أنا في حاجة إلى غفران كلّي.

وكان السخط ممزوجًا بالألم يرشحان داخلي شيئًا فشيئًا على سطح قلبي ويغلّفانه.. جوليا تنزلق نحو الحقيقة بخطًى حذرة، وتحاول أن تبتزَّ منّي ولو مجرّد كلمات غفران بسيطة، تفرُّ إليها حين يتضخّم إحساسها بالذنب. قلت وأنا أحسّ أنّ كلماتي قد تعذّبها بشكل أو بآخر:

ـ إذن، أنا وكّلتُ غفراني لضميركِ. إن هو سامحك فاعلمي أنّني كذلك.

أيُّ شرٍّ اقترفتُه في حقّكِ أيّتها الشقراء البهيّة لكي تنتقمي منّي هكذا؟ أم أنّ الله خلقني فقط ليختبر بي أقصى درجات الانكسار، التي يمكن أن يصل إليها الإنسان ـ هذا المخلوق الهشّ المحتفى به دائمًا؟

وكنت أتربّص بجسدها الأنيق كقرصان مغربيّ يغازل شواطئ الشمال ويبحث عن طريدة. كانت يداي تحلّقان على امتداد

Twitter: @ketab_n

جسدها وتفتحانِ في كلّ ثانية أرضًا جديدة، ولغتي كانت مثل روحي قد انكسرتْ إلى شظايا لا يمكنُ أن ترمَّمَ مهما حاولت، قالت جوليا شأنها شأن الأخريات:

ـ مراد.. أتعرف، أتدري؟.. لقد أدمنتك، لقد أدمنت جسدك، والآن وأنا على عتباتِ الرحيل، أكاد أجزم أنّني سأتعذّب بسببك كثيرًا، وأنّني بعدك لن أجد أيَّ رجل يفهم جسدي ويسوسُه كما تفعل أنت!

لم أردَّ، كنت مأخوذًا بسلسلة براكين تضربُ أعماقي المتعبة، وبحالة من التباس العواطف وخلل في الحواسّ. كنت أحسُّ أنّني غريب عن محيطي وعنّي إلى درجة أنّ ما أعرفُه، أو بالأحرى ما كنتُ أعرفه عنهما، لا يعدو أن يكون مجرّد حلم وأستيقظ منه. الليل يوجعني، والشموع بعد أن تقلّصت لا تذكّرني سوى بحياة وحياتي التي استنزفتها بالبكاء والحنين إلى قدر آخر.

جوليا ممدّدةٌ فوق السرير، جسدها القمحيّ لا يذكّرني سوى بِمُمَثِّلات الأفلام الفاضحة، بجمالهنّ وأناقتهنّ الباذخة وهنّ ممدّدات فوق الأسرّة، كنَّ ـ ولا زلن ـ بطلاتِ أحلام مجتمعات العالم الثالث قاطبة مع الاكتساح الفظيع والشامل لثقافة الصورة. جوليا الآن جسد تمنَّيتُه فيما مضى. إنّها ولأوّل مرَّة تُشعل فتيلَ ذكرياتٍ حرجة، كنت أظنّ أنّها خبتْ وانطفأتْ في زحمةِ الذكرياتِ البشعة. والشموع... نعم الشموع وحوار جسدينا، أنا وجوليا، يذكّرني بـ (حياة) القدّيسة ـ العاهرة التي علّمتْني كيف أروِّض جسد المرأة مقابل أن أصغي إلى قلبها، وهو يتمزّقُ ويتبدَّدُ في العتمة رويدًا رويدًا إلى أن تبدّدت معه كخيط دخان

Twitter: @ketab_n

وخلّفتني في شوقٍ اضطراريّ إليها.

في الليلة الأخيرة، كان جسدها شهيًّا ـ أو هكذا صوّره لي النبيذ والحزن ـ إلى درجةِ أنّ مجرّد تأمّله يحقّق شهوةً من نوع ما. عندما انتبهَتْ إلى أنّ موجة من الصمت ابتلعتنا معًا أخذتْ يدي واحتضنتُها بشهوانيَّة. كان العالم يتمايل كأنَّ الثورَ قد ملَّ هذه الأشكال السخيفة التي تنام تارة فوق قرنه الأيمن وتارة فوق قرنه الأيسر. علتْ شهقاتُها وزفراتُها حين انحدرتْ أصابعي لتكتشف تخوم الوجع اللذيذ في جسدها وتوجّعها، وقرأت الغبطة في أساريرها وأنا أدنو من شفتيها المتوقّدتين، لكنّ الذكريات عكَّرتْ صفو اللحظة، إذ انبلجت، ولا أدري لماذا، صورة الحسين وهو يرمي ثيابي خارج منزله بعد هلاكِ صفيّة زوجته.، وابتلعنا السرير.. حين تمدّدت فوقها شعرت كما لو أنّني ممدّد فوق صفيح ملتهب يلسع. حاصرتها أكثر، فتسارعت أنفاسها وأغرقتْ أصابعها في شعري وسحبتني إليها وغِبْنَا في قبلة عميقة.

وأنا أقبّلها، عاودتني حلاوة حبّة التين ـ اللعنة، كنت أستشعرها كما لو أنّها دم يملأ فمي، وكانت الحلاوة تحتدُّ كلّما التحمت شفاهنا أكثر، كنت فعلاً أتخيّل فمي داميًا أشبه ما يكون بأفواه مصّاصي الدماء، وخفت وأنا أمرُّ بشفتيَّ على سفوح نهد نوميديا أن تتدفّق من فمي دماء الشهيد، فأخرَّ مغشيًّا عليَّ، وانثالت عليَّ هواجس وخيالات بائسة، وفي كلّ هذا كنت أحارب جسد نوميديا المستحيل من خلال جسد جوليا الزائف...

في المواجهة الأخيرة لجسدين، الأوّل لسليلة طروادة وحفيدة إمبرياليّ ما، والثاني لإفريقي ضالٍّ لم يعثر له على موّطئ قدم في

Twitter: @ketab_n

حياة (مع وقف التنفيذ)، معلّقة في انتظار الموت. في هذه المواجهة الأخيرة، كانت جوليا تحتمي بتاريخها الذي يشعّ في شقرة شعرها وإمبرياليّتها المتوارية خلف وشاح العاطفة والمفضوحة في عينيّ المستعمِر والمستعمَر على حدٍّ سواء.. في حين لم أكن أحتمي بشيء. كنت عاريًا أمامها أحتفي برعونة جسدي وغليان دمي. أعلمُ أنّني مهما تعرّيتُ أمامها، فلن أكون سوى مراد الذي تريدني هي أن أكونه...

تعاظمتْ حلاوة اللعنة في فمي إلى حدّ أشعرني بالدوار، دوار البحرِ، وكان يسمع لارتطام جسدينا اصطخاب بحري. في أوج اللذّة انتبهت إلى جسدي بذهولٍ. كان في قمّة غليانه متورّم العضلات.. في تلك اللحظة بالضبط، أحسستُ أنّ جسدي يحاول أن يفرغ نفسه من أيّ طاقةٍ كامنة في انتظار الرحيل الكبير، في الوقت نفسه كان وجه نوميديا وتأوّهاتها الأقرب إلى التوجّع يعكسان عذابات نفسيّة وجسديّة حادّة.

في لحظة عصيبة، أحسستُ أنّني لن أرتوي مطلقًا، وأنّ نهمي الجنسي لا يزيد إلّا تضخّمًا في الوقت الذي انطفأت جوليا وتلاشتْ، وأمستْ أشبه بوسادة مهترئة؛ وظلّت نوميديا تقاوم نهمي بنهمٍ مضاعف وجمالُها يطاردني ويعصف بي...

وكان ارتعاش جسد جوليا إشعارًا صادمًا بأفول شهوتها، صادمًا لأنّ عطشي إلى الجسد لم يزدْ إلّا احتدامًا، تأمّلتُ ـ وأنا أعصف جدرانها اللحميّة ـ وجهها الذي كان يتصبّبُ عرقًا، كان متشنّجًا يلهجُ بآلاف التعابير الغامضة.. شعرت أنّ الاستمرار في الزحف فوق جمرها الذي صار يستحيل إلى رماد، قد يؤذيها.

Twitter: @ketab_n

قلتُ ـ ربّما لأوّل مرّة ـ بشكل ساديّ: عليَّ أن أواصل اجتياحي الجنسي، وإن كان هناك من ثمن يحب أن تدفعه، فليكن جسديًّا!

وكنت لأوّل مرّة أمارس الجنس بلذّة يجانسها حزن عميق..

لأوّل مرّة، أودي جسدي إلى ما لست أعرف من جنون..

لأوّل مرّة، يتقاسمني جسدان على سرير واحد، جسدان مستبدّان ساديّان..

لأوّل مرّة، أحسّ أنّ قلبي غريبٌ عنّي ينبضُ بصخبٍ احتجاجًا على حروب غير محسوبة ورّطته فيها..

لأوّل مرّة، تنأى جوليا عن جسدها وتقتصد عليه كأنّها ستعيش أبدًا..

لأوّل مرّة، أستنزف جسدي كأنّي سأموت غدًا..

ولم أفاجأ، وأنا أجرف جوليا إلى غياهب شهوتي، أن أراها دامعة.. لكنَّ الفجيعة انفجرتْ في جوفي لحظتها وأخرستني. أخذتها وأنا منغرس في جسدها في عناق حزين، وبكت بحرارة وتعب. بكت فاقتنصتني أوهام وأطياف بشعة. وفي قلب انكساري ووجهي يغرقُ في مخمل شعرها، تهيَّأَ لي أنّني أعانق خولة، كدت أبكي وأنا أهمس: سامحيني... سامحيني، أمّا حين، فككت طباق عينيَّ والتفتُّ بذهول إلى شقرة شعرها وهي تلمع على ضوء الشموع، فقد جعلت أفضّ اشتباكنا وأنأى أكثر فأكثر عنها عاريًا إلّا من أحزاني..

وتذكَّرتُ خولةَ التي قالتْ لي ذات فجر إنَّ الفجرَ لا يذكّرها

Twitter: @ketab_n

سوى بمرثيّة ڤيكتور هيجو لابنته «غدًا فجرًا».

واستبدَّ بي شعورٌ فظيعٌ بالقرفِ والغثيانِ، وأنا أغالبُ حلاوة حبَّة التين في فمي وعقدةَ الذنب التي استيقظتْ في دمي. خولة، ضميري لم يصفح لي تورُّطي الفاضحَ في قتلك، فهل يعني الأمر أنّك لم تصفحي أيضًا؟

وكنت أبحث في عينيْ جوليا عن جواب، لكنّهما كانتا تخفيان وراء بريقهما الصارخ أجوبة لأسئلة أخرى لم تطرحْ.. خولة أين أنت؟ هل من الضروري أن أقتفي خطى هيجو لأجدكِ؟ لأظفر منك بكلمة من اثنتين «نعم» أم «لا».. كلاهما يعنيان الخلاص.

وأنا أضع ثيابًا على جسدي، افترسني دوارٌ صاعق، شعرتُ أنّ أشياء كثيرة داخلي تتمزّق وأنّ الأمر ليس سوى بداية لانهيار شامل، احتدّت لذّة التين في فمي وتثاقلتْ دقّات قلبي وصارت أشبه بخطوات عجوز. لمّا انتهيتُ إلى المرآة، فاجأني سعال حادّ، بصقت دمًا أو بصقت حمرة حبّة التين.. لست أدري سوى أنّ أوردتي الداخليّة تتمزّق وأنّ سيدي عيسى ربّما ينزف من خلالي...

Twitter: @ketab_n

(٩)

وأنا أواجه بكائيّات جوليا على استكراه، استبدّ بي إحساسٌ بأنّني مخدوع حدَّ الفجيعة! كنتُ أتمايل كشجرة صفصافٍ تواجه العاصفة. شعرتُ أنَّ مسام جلدي، وأنّني أمام هذا الانهيار الفجائي قابلٌ للانفجار في أيّة لحظة. هكذا تنتهي ليلتنا الأخيرة بأكبر قدر من الخسارة والبكاء.

وأنا أبتعدُ عنها، عن جوليا، عن الروح الشرسةِ والجسدِ الميِّت وأتراجع نحو الباب.. لَمْ أكن أرى سوى خولة وهي تضع الشفرة على معصمها المزخرف بأوردة صغيرة خضراء، وتُسلم نفسها إلى نزيف قاسٍ.. أتراجعُ صوب الباب بعد أن انكسرتْ داخلي أشياء صميميّة، تمتمتْ جوليا بصوت متهدِّج:

- إلى أين؟

لم أكن أملك جوابًا محدّدًا، والأدهى أنّني لم أكن أقوى على الكلام. كنت أنزف بحدّة وأهوي شيئًا فشيئًا، وكان رأسي يضجّ بآلاف

Twitter: @ketab_n

الشخوص والأماكن والأشياء التي تطفو على سطح الذاكرة، وتضمحلُّ بسرعة دون أن تترك لي فرصة استيقافها والغوص في هوامشها. تناهى إلى أذنيَّ حادًّا كمواء قطّة:

ـ إلى أين يا مراد؟

وكان الليل قد انكسر قليلاً خارج الفندق، والنهار الجديد يزحف رماديًّا حزينًا! أمّا تعبي المستبدّ، فقد كان يجرّني نحو الأسفل تمامًا، نحو سقوط مفاجئ. قلت وقصيدة ڤيكتور هيجو تجثمُ فوق الذاكرة، هي وعاشقتها، قلت لجوليا والدمعُ يرقص بين محجريَّ ويقتنص ذروة الضعف ليتحرّر:

ـ سأمضي باحثًا عن خولة.

«وسحبَ مراد الوعل الباب بعد خروجه بقوَّة.. أخمد يده في جيبه وهو يغالب عبرات اكتظّتْ بها عيناه. كانت يده ترتجف وهو يقلب المفاتيح بحثًا عن مفتاح الغرفة.. قرّرَ أن يغلق باب الغرفة بالمفتاح لئلّا تتبعه جوليا إلى حيث يمضي من جنون. أدار المفتاح في كوّة القفل دورتين وسالت من عينيه دمعتان، وشدّ بقوّة على الباب في الوقت الذي كانت جوليا تخبطُ الباب نفسه بقوّة وإلحاح.. حين تعبتْ، حطّت رأسها على الباب تمامًا، كما فعل هو في الجهة الأخرى. لم يكن الباب الخشبيّ وحده ما يفصل عناقهما الأخير، كانت هناك خطايا، هواجس، خيانات، وأشياء أخرى.. بكى كثيرًا، بكى كما لم يبكِ يومًا، بينما كانت معذّبته تحرّك قبضة الباب حتى كادت تقتلعها، فاض قلبه واستحال إلى بحار وأنهارَ لا شواطئ لها، وانكمشتْ الحياة في عينيه وتقلّصت حتى أصبحت أضيق من عين إبرة.

وهو ينزل سلالم الفندق، أحسَّ أنّه ربّما لن تتأتّى له فرصة

Twitter: @ketab_n

صعودها مرّة أخرى. داهمه شعور مبهم بغرابة الأشياء من حوله، كأنّه يكتشفها للوهلة الأولى أو يراها لآخر مرَّة. كان هذا المنطق المغاير يفرض نفسه عليه بإلحاحٍ، لا يملك أمامه إلّا الاستسلام للفوضى والعبث، بعدما تشبّثت به الخيبة مثلما يتشبّثُ طفل صغير بثوب أمّه. من صفر حياته إلى اليوم، لم تترك طلقات الموت في روحه وجسده مكانًا إلّا وأصابته فيه، لكنّه ظلّ ـ إلى حدود الأيّام القليلة الماضية ـ شامخًا متماسكًا لا يأمل إلّا في الاستمرار بأقلّ قدر من الخسارة..

لكنّما الآن...

فقط الآن، تأكّد بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّه لن يشفى من جراحاته. في ليلتهما الأخيرة تأكّد أنّ جراحه استحالت إلى أورام سرطانيّة، لا هي تقتله وتريحه ولا هي تدعُه وشأنه، تنهشه باستمرار وتؤجّل ضربتها القاضية دائمًا.. الآن صار مطالبًا ببطولة زائفة بعد ممارسته للفنّ الصعب ـ كما أسماه نيتشه ـ فنّ الرحيل عن الدنيا في الوقت المناسب وردّد:

«Demain dès l'aube a l'heure où blanchit la compagne
Je partirai. Vois tu? je sais que tu m'attends.
J'irai par la forêt, j'irai par la montagne,
Je ne demeure pas loin de toi plus longtemps».

ـ لم أعد أقوى على المكوث بعيدًا عنك وقتًا أطول يا خولة،

ـ لكنّ الطريق إليها صعبة ومحفوفة بالخطر والموت..

ـ وإن يكن.. تعوّدت عليهما.

جوّ مكهرب خارج الغرفة لا ينذر إلّا بالشؤم.. ماء سوداء تزمجر وزخّات مطر تبعثُ في روحه الطفولةَ طازجة لم تفسدها يد الزمان،

Twitter: @ketab_n

ولم تسعفه يداه المرتجفتان على سدّ أزرارَ القميص، فظلَّ صدره عاريًا في مواجهة الحزن والمطر..

في الوقت الذي خطى مراد الوعل خطواته الأولى خارج الفندق، باغتته أوجاع جديدة وأخرى خالها انطفأت في سديم الحياة، ما أسعدك يا سيزيف ـ قال في سرّه ـ على الأقلّ لصخرتك حجم ووزن مميّزان، كنت تعرف جميع أبعادها، ولربّما ألفتَ ثقلها وتعبها، أمّا أنا فصخرتي لامرئيّة وتتضخّم كلّما تدحرجتُ نحو الهاوية..

الذكرياتُ تكبر وتتناسل بسرعة، إذ يستفزُّها مطر إغرم الأوّل، وتتسرَّبُ روائح الأرض الظمأى إلى خياشيمه، فيكبرُ فيه أوداد إلى درجة تحجبُ عنه نداءاتِ جوليا المتكرّرة من الشرفة، وهو في كلّ هذا يصيخ السمع إلى أوصاله وهي تتمزّق بشكل نهائي وحاسم. كان جنونًا منه أن يلتفت إلى نداءاتها المتتاليةِ وتوسّلاتها إليه بالرجوع، وكان جنونًا منها أن تنسحب إلى الشرفة عارية مثلما خلَّفها فوق السرير. التفت إلى طريق لم تكن يومًا طريقه، واثقًا من أنّ الموت والحياة ما هما إلّا وجهان لحزنٍ واحد. وهرولَ هربًا من صوتها، وكانت صيحتها الأخيرة:

ـ JE T'AIME

هي آخر ما تناهى إلى أذنيه، أيُّ حبّ هذا؟!! لا شكّ أنّه حبٌّ على طريقة «ديك الجنّ» الذي من فرط حبّه أحرق حبيبته، ومن رمادها صنع قدحًا ظلَّ يشرب فيه الخمر ويعانقه كلَّما اشتدّ به الحزن والحنين.. جوليا، بطريقة أو بأخرى، مثل ديك الجنّ، لكنّها تريد أن تجعل من رماده رواية تكتبها لوحدها، وربّما تقرأها لوحدها!! أهذا هو الحبّ؟ سأل. ثم أجاب: تبًّا له إذن، وتبًّا لكِ أنتِ التي لم تعشقي

Twitter: @ketab_n

يومًا سوى نفسك! أمّا أنا، فلا أعدو أن أكون بالنسبة لكِ أكثر من مشروع رواية ناجحة تحاورين بها الشرق وتتحرّشين به، وربّما تختبرين مدى آدميّته.

انتابه قلق صاخب، وهو يلتفت إلى الطبيعة وتقلُّبها بعين طفولته، وصدره عار أمام طيش المطر الذي لا يزيد إلّا حدّة... وأصوات الرعود تزمجر بعجرفةٍ وغبطة اليوم الأوّل، والمطر، حين يحلُّ بإغرم بعد صيف طويل، لا يكون كباقي أمطار السنة. وحين يهلُّ، فليست الأرض وحدها من تتأثّر به، بل أهل إغرم وحتى حيواناتُها كذلك.. ينتاب الجميع ذلك الشوقُ الممزوج بلذّةٍ وحزنٍ مبهمين، لذلك يكونون أقلّ سخطًا وإن كانوا أقربَ إلى العزلة والانطواء... أوداد لم يكن مثلهم، كان يجهشُ بالبكاء ويلسعه الحنين إلى ما ليس يعرف كلّما أقبل المطر الأوّل، ورأى آيت مرغاد يتدحرجُون صوب بلاد أخرى أبعد... تحت هذا المطر الدافئ، وفي مواجهة ذكرياته كاملة ودفعة واحدة من اليوم الذي امتلكَ فيه وعيًا، بأنّه ليس أفضل حالاً من حطب التدفئة، وأنّه مقطوع من شجرة، إلى اليوم الذي اكتشف فيه أنّ جوليا تدسُّ في دمه ما يستثير جنونه ويعجِّل موتَه...

خولة، في طريق البحث عنكِ، كان أوداد الوعل الصغير الذي نسيتِه ها هنا يكبر فجأة داخلي، يلتحم بي دون أن يمهلني فرصة ترتيب فوضاي الداخليّة، باغتتني براءته وشقاؤُه الأزليّين.. إذا فسدتْ طفولة الإنسان، فلن تكون حياته بعد ذلك سوى امتداد أكثر مأساويّة لفساد البداية..

في الطريق إليكِ يا خولة.. التجأت إلى شجرة صفصاف عالية تتعرّى من أوراقها، وتستسلم للرياح في حزنٍ، أقلّ ما يُقال عنه إنّه بارد، ولم أكن أفضل حالاً منها، أنا الذي كنت أعتقد أيّام صباي أنّ

Twitter: @ketab_n

للشجر مثل البشر إحساسًا بالحزن والخيبة وضيق الأفق...

قديمًا، كنت أملك من الأمل ما يكفي ليثنيني عن هذا الجنون.. قديمًا، كنت مؤمنًا حقيقيًا بالمستقبل، قلتُ كلَّما كانت البدايات دامية قلَّت احتمالات النهايات المأساويّة. قلتُ، لا يمكن للسماء أن تعاقبني صغيرًا وكبيرًا... قلت كلامًا كثيرًا كهذا، وأنا وَغل صغير يقف على حافّة الانتحار، قامرتُ بالخلاص إيمانًا بالمستقبل.. جرَّبتُه فيما بعد وخبرته عن كثب.. ربّما حقّقت أشياء ماديّة زائفة، ولكنّني أدميتُ في الطريق إلى هنا أحبّائي وأعدائي على حدّ سواء.

سأستقبلُ موتي ها هنا بشجاعة خذلتني أيّام أوداد، مخطئ من يظنّ أنّنا نموت حين تُزهق أرواحنا! لا. نحن نموت بالحياة وفي الحياة لكن بشكل تدريجي ومتقطّع. تقتلنا عذاباتنا وأحزاننا شيئًا فشيئًا، ويأتي الموت بمعناه الشائع ليتوّج كلّ هذا بضربة قاضية، ومهما كانت قاسية فإنّها لن تقتلنا أكثر ممّا قتلتنا حياتنا الحزينة.

شهيق وزفير متواصلان وقلب يرقص على إيقاعات إفريقيّة مجنونة، والمطر والضباب الكثيف لا يزيدان الطريق إلى القمّة إلّا وحشة.. ضباب يشعرني بمرارة كأنّني تائه في صحراء مترامية الأطراف.. فجأة ـ نعم كان الأمر مفاجئًا وصادمًا ـ باغتتني نوميديا وحصانها، لكن سرعان ما ابتلعهما الضباب، استوقفتني الدهشةُ، فركْتُ عينيَّ غير مصدّق ما رأيت، وصرختُ: نوميديا... فارتدَّ إليَّ الصوت هشًّا مجروحًا! الصدى ليس مرآة الصوت وحسب بل مرآة الروح كذلك!! وصرختُ باسمها مرّة أخرى، فارتدّ الصدى وأردفه صهيل الحصان قويًّا وصاخبًا، كأنّه يصهل داخلي. هرولت صوب الصوت، بحلقت في الضباب طويلاً، لكن دون جدوى.

Twitter: @ketab_n

نوميديا... آه نوميديا.. أيُّ سماءٍ، أيُّ قدر كفيفين أرسلاك الآن إليّ؟ أيّ وجع قذف بك في طريقي؟ خذيني إليك أيّتها البهيّة القاسية الجمال، أو دعيني أواجه مصيري بشجاعة. وصرخت: نـومــيـديـا! فلم تجبني غير الرعود وصهيل الحصان.

أحببتُك أيّتها الخرساء الجميلة حتى احترقتُ، وأحسنتِ أنت استغلال هشاشتي العاطفيّة.. هذا كلّ ما في الأمر. لكنّي تورّطتُ في هذا الحبّ الجارف إلى درجة تجعلني الآن أشدّ تمسّكًا بالخلاص، الذي أنشده على عتبات الهاويّة، أدركتُ الآن أن لا حاجة لي بحبٍّ أكبر من واقعي وحقيقتي..

نوميديا.. هبيني نظرة ولو أخيرة لأحفظ أدقّ تفاصيل وجهك.. هبيني شيئًا من جلال صمتك لأواجه موتي بخشوع، دعي وجهك يكون آخر وجه أراه، علَّه ينسيني خطايا الوجه الذي قبله..

ضباب كثيف جدًّا، وأنا لم أعد أعلم إن كنت لا أزال وفيًّا لطريق طفولتي أم أنَّ نوميديا جرَّت خطايَ إلى طريق آخر. لا زلت أقاوم تعب الركض وأستهلكُ ما أبقت منّي الليلة الأخيرة من جسد. سقطتُ على وجهي في إحدى شعاب الجبل وأنا مأخوذٌ بسيِّدة الحصان، ووجدت صعوبة في لملمةِ جسدي الذي تشظّى كثيرًا. وانفجر دويُّ الرعود الغاضبة واندلع المطر بتوحُّشٍ وحرارة، بالكاد استطعت الوقوف. وحزنت كثيرًا وأنا أجهشُ باسمها.. نوميديا! واصلت المسير غير مبالٍ بأوصالي التي كانت تقطع آخر الأسباب التي تربطها بالحياة، نوميديا أأنتِ جنّيّة الوادي كما زعم الفقيه! هل أصدقاء طفولتي الذين رُبطتُ مثلهم إلى شجرة التين العجوز قد أصيبوا بكِ مثلما أصبتُ؟ كم أتمنّى أن يكون الأمر غير ذلك... كم أشتهيكِ لحمًا ودمًا وحبًّا!!

Twitter: @ketab_n

نوميديا.. ألم تلتقي في فجاج الجبلِ الخلفيّة بجميلة اسمها خولة؟ سأبحث عنها، سأفعل ذلك.. لقد أسرفتُ في البحث عنها في عالم الأحياء، وآن الأوان لأعثر عليها في عوالم الأموات. نعم، ما دام الحياة أو الموت هما كلّ اختياراتنا. نوميديا، تعالي فقد فاض بي الكلام وآن لصمتك أن يصغي لحكاية حزينة، عنوانها العريض «خولة». تـعالـي!

وانفجر هزيم الرعد صاخبًا مدوّيًا.. تأمّلت السماءَ المشحونة بالأسى والغضب، وأنا أقتفي آثار أوداد وخطواتِه بعد أن مزَّقته الخيبة ككسرة خبز، ولم يجدْ أمامه سوى هذه الطريق الطويلة. يتَّبعُ وجعه الذي قاده ـ مثلما يفعل بي الآن ـ إلى مشارف الهاوية السحيقة. المطرُ يهطل بقوّة وإصرار كلّما تقدّمتُ خطوة أخرى نحو الأعلى، هضاب فوقها هضاب ومنحدرات حادّة قصيرة تستتبع مرتفعات، أجدُ مشقّة كبيرة في صعودها. كانت الطريق نحو القمَّةِ محفوفة باحتمال موت فعليّ، لكنّني كنت منشغلاً عنها بهذه الرائحة، رائحة الأرض وهي تتسرّب إلى أنفي، ومأخوذًا كنت بالمطر الذي يغسل جسدي من كلّ زلّاته وأخطائه.

كنت أبتعدُ أو كانتْ إغرم تبتعد، لا فرق. إني أراها غارقة في نومها وهدوئها، لا شيءَ يوجع الهناء الذي طالما تفيَّأتْ بظلّه مذ أرادها أهلوها ألّا تكون شيئًا آخر غير إغرم، وأن تحفظَ نسلها من الغرباء أمثالي.. «الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها...» وتمنَّيتُ والوجع يفطرُ قلبي لو أنّ إغرم تتكلّم، لو تفصح عن جملة واحدة ولتصمتْ بعدها للأبد، تمنّيتُ لو أنّها تخبرني عن نوميديا شيئًا، عن هذه المليكة الأمازيغيّة الهاربة من كتب تاريخٍ لم يُكتبْ لها أن تُكتب!! تمنّيتُ أن تقول لي أينَ هي هذه الجميلة التي انسابت دفعة واحدة في القلب ولم

Twitter: @ketab_n

تترك لي خيارًا آخر سوى أن أحبّها وأن أُجنّ بسببها.

وانفجرت الرعود مرّة أخرى بقوّة مجلجلة، كان صوتُها قاسيًا عَصَف بقلبي الهشّ، فجعلتُ أركض وأصرخ ملء جوفي:

ـ نو...ميـ.......د.....يـــا

فيعود إليّ الصوت واهنًا، نوميديا.. أيّها الوجع الذي كسر الروح والقلب معًا، كيف ابتلتني الحياة بكِ فلم أدرك أنّك وهم، وأدمنتك كأنّك ستعيشين لي دائمًا؟ أفلست إذ أفرغتُ أمامك ما في جيوب القلب من حبّ، وتركتني بعدها فارغًا إلّا من خيباتي وأشواقي المعلنة! نوميديا.. كنتِ أملاً زائفًا تمسّكتُ به علَّهُ يقيني الخيبات المتواصلة، لكنّك تخلّيتِ دون أن تستأذني عنّي لأعشقَ بعدك الانتظار وأرشف علقمه على مضض دون أن أظفر منك بنظرة!

المطر سيّد هذا الصباح الغريب! كلّ الأشياء من حولي تتبدَّلُ، أتطلّع إليها كما لو أنّني أكتشفها للوهلة الأولى أو أودّعها.. حين أدركتُ إحدى شجيرات العرعار المتناثرة هنا وهناك بغير انتظام، فاجأتُ سرب حمام برّي فانسحبَ كلّه منها دفعة واحدة ورفرفَ دونما معنى وفي كلّ الجهات، استوقفتني الدهشة للحظات، لكنّني عدتُ إلى الجرْي نحو القمّة.. كان المطر قد بلَّلَنِي تمامًا، ومع كلّ خطوة كان شعري الأسيب الطويل يعلو لتتّضح لي الطريق ثم يسبلُ على عينيَّ. في الطريق الشاقّة إلى القمّة، امتلأتُ بالطفولة والحنين إلى كلّ شيء، لكنّما الآن كلُّ شيء ينهارُ ويتلاشى كدخان سيجارة. منذ حوالى الثلاثة عقود شقّ هذه الطريق ـ التي لا يشقُّها عادة سوى آيت مرغاد ـ أوداد، أو أنا الطفل، بعد أن هزمته الحياة مثلما هزمتني، وبلَّلَهُ المطر مثلما بلّلني، لكنّه كان أقلَّ تعبًا منّي وأكثر إيمانًا بالمستقبل، أمّا الآن، فقد

Twitter: @ketab_n

شاخ أوداد الوعل داخلي، هرِمْنَا معًا، أو كلٌّ على حدةٍ، المهمّ أنّنا لم نبتعد عن القدر المسطّر لنا سلفًا: الهزيمة.

المطر، هذا السيّد الضيف، يخبطُ جسدي بإلحاح كأنّه يستوقّفني لكي لا أصل إلى حدود السماء التي لا تُمسّ، وكنت كلّما تطابقت خطايَ مع خطى الوعل الصغيرِ الذي مرَّ ذات يوم من هنا، اخترقتني الذكريات محرقة، وأتت على كلّ أعضائي اليابسة.. خطاي التي تذرع الآن هذه المرتفعات لم تتعبْ، لكنّني تعبتُ. عندما بدأَ الضباب ينقشعُ، أو على الأقلّ ينحسر وينسحبُ إلى الأعلى، بدا الجبلُ أشبه ما يكون بعروس ترفع بكلتا يديها ثوب زفافها الأبيض، وبدت إغرم ومنازلها الطينيَّةُ المسيَّجةُ بالحقول جنَّة سقطت سهوًا من السماء، لحظتها، أدركتُ أنّني لم أكن يومًا من هناك، وإنّني - وإن كبرتُ فيها - لم أكن جزءًا منها، كنت دخيلاً أو هكذا أرادتني. أحيانًا لا نسكن المكان إلّا بالقدر الذي يختاره هو، لا نسكنه إلّا ذا تقبّلنا وتبنّانا، وإغرم لا تقبل غير أهلها ولا تتّسع إلّا لهم. حتى الرجل الذي بَنى الفندق وجعل النهر فاصلاً بينه وبينها، كان على ثقةٍ أنّ إغرم لا تقبل الغرباء وسرعان ما تلفظهم، كان متأكّدًا أنّ لها حدودًا يصعب اجتيازها دون خسائر.

المطر نكأ جراحاتي وأدماني، وتغلغل برده القاسي إلى أعماق عظامي، لكنّني واصلتُ المسير. اخترقتُ الضباب الذي يسربل الأعالي مرَّة أخرى، فنهشتني وحدة قاتلة وعضَّنِي ألم حادّ في رأسي أثقل خطواتي. ترنّحتُ ذات اليمين وذات الشمال إلى أن سقطتُ مكدودًا على ركبتيَّ. كلّ ما كنت أرجوه لحظتها ألّا يعاودني الرعاف فأسقط مغشيًّا عليَّ... لي طريق ولي هدف وخولة في انتظاري، لملمت جسدي ومضيت، صهل الحصان، أحسستُ بوقع حوافره قريبة جدًّا،

Twitter: @ketab_n

بحلقتُ طويلاً في الضباب، تغلغلتُ كوجع في أمواجه الشاسعة اللامتناهية. انتبهت إلى العزلة الحادّة التي أقبع داخلها، التفتُّ إلى أنّني وحيد كقبر منسيّ، فاغرورقتْ عيناي بدمع ساخن انساب بعفويّة، وأزاح في طريقه البرودة التي كانت تغلّف ملامحي..

في البداية، كان هناك مغفّلان أرعنان أنجبانني خطأً، نعم. ربّما هذه الرواية الأكثر ترجيحًا وفي النهايةِ ـ نهاية دورهما المشترك الجبان ـ أسلماني إلى البداية، بداية حكايتي. في البداية، كنتُ قطعة خشب صغيرة مقطوعة من شجرة وملفوفة في بياض، كنت غارقًا غرق يوسف في جبّ الآفاق المجهولة. وما بين ألمي لهذا الوجع الأوّلي وبين انتظاري لسيّارة تمدّ لي حبل النجاة، كنت أصيخ السمع لضوضاء حياتي التي كانت تتقدّم نحوي بثقة. لو أنّني متُّ يومها جوعًا أو عطشًا قبل أن تدركني يدا امحند الخشنتين لاستحلتُ ـ كما يقولون ـ إلى ملاك صغير، لكنّ الأقدارَ بعتْمَتِها المستبدّة كانت تسطِّرُ لي خلسة مشاريع حياة متناقضة وبائسة..

بغتة... وكما يحدث لغريق تصعدُ جثّته ببطء إلى سطح بحر هادئ، رأيت في سديم الضباب أطياف أشخاص ودوابّ تبدو حينًا ويطمسها الضباب حينًا آخر. توقّفت، كفكفتُ دمعاتي التي امتزجت بالمطر. فكّرتُ، ربّما هم رُسل الظلام، وها أنذا اقتربت من جحرهم أو معسكرات تخريبهم، توعّدوني وها قد جئتهم وسهّلتُ عليهم المهمّة، حيث يستطيعون طمس كلّ الأدلّة التي قد تورّطهم. ها أنا عاري الصدر أمامكم وإن كان ضروريًّا أن يَقُدَّ ساطور أو مديّة لحمي، فليقدُّه من قبل، لأنّني أريد ميتة شجاعة تليق بصبري على حياتي الفاشلة منذ بدايتها..

عندما اقتربوا أكثر، دون أن يفصحَ الضباب عن ملامحهم، فكّرت

Twitter: @ketab_n

ووضعت تصوّرات بائسة لموتي المحتمل. ما هي إلّا رصاصة في الرأس أو طعنة في العنقِ تمامًا في الشريان الأكحل، حتى تنفجرَ الدماء صاخبة وأنتهي. لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث. سرعان ما تبدّدت جميع مخاوفي وأيقنتُ أنَّ شطحات الخيال تصوّر للإنسان ما يريده أو ما يرهبه، لا ما هو حقيقي. لم يكن ذلك الموكب القادم من علٍ موكب الظلام، بل قافلة الرّحَّل العائدة إلى صحرائها. تفحّصتُ طويلاً وجوههم عندما كان الظلام يلفظهم واحدًا واحدًا، هم نفسهم الغجر الذين يضيئون ليل الجبل، تحلَّقُوا حولي، تأمَّلت أكثر وجوه الرجال الخشنة اليابسة، وبحثت كثيرًا عن عينيْ نوميديا في عيون نسائهم اللواتي كنّ يتلفّعن في أثواب كثيرة الألوان، وغبتُ وأنا أتتبّع بدقّة تفاصيل أوشامهنَّ أو أصيخ السمع إلى أجراس حِليِّهنّ حين يتحرّكن! سألت بالأمازيغيّة والكلمات ترتجف في فمي من البرد والكآبة:

ـ ألم تلتقوا في طريقكم بفتاة حسناءَ تمتطِي صهوة حصان أسود؟

لكن، لم يجبني أحدٌ. استجديتُ عيونهم أن تفصح عن كلمة، لكنّها كانت فارغة إلّا من براءَةٍ مُلْغِزَةٍ. شعرت أنّني فعلاً بدأت أفقد صوابي، راقبتُهم طويلاً وهم ينفضُّون من حولي ويتخلّى عنّي الواحد تلو الآخر ملتحقين بالقافلة.. هكذا مرُّوا بي دون أن يتركوا لي أملاً ولو كاذبًا. حين ابتلعُهم الضباب بصفة نهائيّة، وقتها فقط صهل الحصان من مكان قريب جدًّا.. جُنَّ جنوني وأنا أصيح ملء السماء:

- نــو.......مــــي......ديــا

وكان صوتي يعود إليَّ هذه المرَّة أشبه ما يكون بقهقهاتٍ هازئة، والألم يهتصرني ويمشي في أضلعي كنصل حادّ، لم أكن أملك أمامه

Twitter: @ketab_n

سوى ذبالة من الصبر ومواصلة هذه الرحلة إلى منتهاها... إلى منتهايَ.

في الطريق إلى القمّة، التي لا تفضي إلّا إلى هاويّة سحيقةٍ، سقطتُّ مرارًا ورأيتُ أوداد يمرُّ أمامي ويسبقُنِي، رأيت تعبهُ وأوجاعَه يتضخّمان فيَّ الآن، أنا الذي لم أكن سوى امتدادٍ أكثر تراجيديّة له. في طريقي إلى الموت، رأيت شريط حياتي يمرّ أمام ناظريّ، ولا يترك لي ولو فرصة أخذ أنفاسي.. رأيتني أتحوّلُ من قطعة خشب ملفوفة في بياض إلى وعل ذي قرون عالية متشابكة، جرَّتْهُ يد باردة إلى المدينة بعد أن غيَّرت اسمه قليلاً، فتحوَّل من أوداد إلى مراد، وبعد أن أحرقه كلّ شيء استحال إلى جمرة حزن دائمة الاحتراق.

وكما يحدثُ لذاكرة المخذولين، كانت ذاكرتي تسرع في عرض بعض الذكريات إلى أن تصل إلى أشياء أكبر منها، فتتوقّف وتغوص فيها وتستجلب أبسط التفاصيل وأتفهَهَا أحيانًا... هكذا فعلتُ عندما استوقفتها خولة، راقبت انبلاجها الحزين من خروم الذاكرة. تتبّعتُ تفاصيلَ بسمتِهَا الرقيقة وأدقَّ حيثيّات خزرتها حين يستبدّ بها الشجو. تذكّرت استسلامها البريء للحبّ وبهاء طلَّتها وضوضاءها الجميل حين يوحّدنا السرير، هذا وحده كان كفيلاً بأن يفجِّرَ الأسى داخلي ويقف غصّة في جوفي ويشعرني بانقباض داخليّ مريرٍ، لم تكن نوبة البكاء التي عاودتني سوى نتيجة له.

عندما اقتربت كثيرًا من الهاوية، انتبهتُ إلى النقط الدمويّة التي كنت أخلِّفُهَا ورائي. آه.. هو رعاف آخر، رعاف أخير، نزفٌ يشقّ طريقه نحو الأسفل ويجرّني معه. نزعت القميص ووضعته على أنفي وبقيت عاريًا بوجه البرد والمطر والذكريات..

Twitter: @ketab_n

وأخيرًا..

بلغت القمّة التي ما بعدها سوى هاوية سحيقة، ووقفت مأخوذًا بقلعة الرومي من فوق. كانت، هذه القلعة التي لا يدري أحد كيف ألصقت بالجبل. يبدو منظرها بشعًا من فوق، على الرّغم من أن منظرها من تحت جميلٌ إلى درجة تستثِيرُ الرهبة والخوف في قلب رائيها. ترى فيما تختلف جوليا عن بانيها، الذي كان يصيدُ الآدميين ببندقيّته من حصنه الحصين هذا.. لا لشيء، فقط ليثري مرويّاتهم الكبرى عن الشرق، جوليا أيضًا ـ وإن اختلفتْ الأساليب انسجامًا مع روح العصر ـ صادتني باسم استكناه الشرق، لست أدري عدد طرائدها قبلي.. كلّ هذا لتثري حكايتهم الكبرى عن الشرق.

طرحت القميص جانبًا وتركتُ لدَمِي حرِّيّةَ أن يفرَّ منّي ويسيلُ دون انقطاع. ما كان كان ولم يعدْ أمامي سوى حسم معركتي مع الموت قبل أن يحسم النزيف معركته معي. تذكَّرتُ نزيف خولة وأوجاعها بسببي، وفي قمّة العياء الذي تفشّى بين أوصالي، تأكّدت أنّ جسدي سيخذِلني عند باب الهاوية، وأنّني سأميلُ شيئًا فشيئًا إلى الأمام وأقطعُ المسافة بين القمّة والسفح في أجزاء من الثانية! شعرتُ ربّما لأوّل مرَّة أنّني أبتعدُ عن ضوضاء حياتي، وأستسلمُ للنزيفِ بهدوء وشجاعة..

ولأنّ الحواسَّ، ربّما عندما تشرع في الانهيار، تبدأ في إصدارِ ضجيجِها الخاصّ ـ لست أدري إن كان ما سمعته بغتة صوتًا حقيقيًّا أم تهيّأ لي فقط! كان صوتًا أنثويًّا رقيقًا لا يذكّرني سوى بخولة، يناديني: مراد، أو أوداد، لكنّني لم ألتفت حتى

Twitter: @ketab_n

عندما داهمني ذلك الدفء السحري في ظهري، وألهب الندوب التي خطّتها صفيّة، كنت مفتونًا بأشعّة الشمس وهي تتمدّد بلامبالاة وتجرِف، أو بالأحرى أراها تجرف في طريقها إليَّ كلَّ شيء، كانت هي الأخرى أملاً زائفًا، لكنّه لذيذ. تطلّعتُ إلى الأسفل، إلى الهاوية، وأنا أتّبع صوتها القاسي الرقّة. كانت تناديني فيتردّدُ الصدى داخلي. تمايلتُ دون أن أفقد توازني، كان دمي لا يزال يتدفّق بغزارة من أنفي وتستوقفه قليلاً شفتاي، يتسرّب إلى فمي فيوقظ داخلي حلاوة حبّة التين. وأنا أقف في القمّة ونصف قدميَّ في الفراغ، كنت أتأمّل قطرات الدم وهي تهوي وتختفي بسرعة.. كانت تُضعفني بشكل أسرع.

تلاشت أحزاني شيئًا فشيئًا وأنا مستسلم لنداءات خولة. كنت أحسُّ بارتخاء لذيذ أجمل من ذلك الذي ينتابني عادة عندما أكون بحاجة ملحّة للنوم، تطلّعت إلى الأعلى. كان قوس قزح يرقص فرحًا وتتبّعتُ بغبطة وغْلاً في الجهة المقابلة للجبل، كان يصعد الجبل بسرعة ومهارة متقنين، كما لو كان خائفًا من شيء أو هاربًا. تعانقتْ ألوان قوس قزح في عينيَّ، كان كلّ شيء يتآكل فيَّ ويتبدّد.

وفي تلك اللحظة بالضبط، التي أطبقتُ جفنيَّ متأكّدًا أنّني لن أفتحهما إلّا ميتًا... في تلك اللحظة بالضبط، التي كنت فيها أقرب للموت منه للحياة سمعت ـ أو تهيّأ لي أنّي سمعت ـ طلقة ناريّة لم أعرف، إن كانت قد استقرّت في جسدي أم في جسد الوعل.. جلُّ ما كنت أعرفه لحظتها، أنّني لن أستيقظ من غفوتي إلّا وجسدي ممدّد فوق جنادل الوادي.

Twitter: @ketab_n

مع مسوّدات رواية «مراد الوعل» لجوليا (ك)

«مراد كان رجلاً معدًّا للموت سلفًا، أو على الأقلّ هكذا فكّرتُ أوَّل ما قرأتُ ملفَّه. . كان ضبابًا كثيفًا ومظلّلاً، لا تجد اللغة مدخلاً لافتضاضه أو فهمه، لكنّه كان رجلاً حقيقيًّا، كلُّ ذنبه أنّه اختار الحياة. لكن ما نفعها الحياة إذا كانت أسباب الموت قد اختارته! كان مراد ـ أو أوداد ـ أشبه بقرص أسبرين فوَّار في كوب ماء، تحامته الحياة وأكلتْ منه (وأكلتُ منه أيضًا) وكان هو في كلِّ هذا يضمحلُّ ويتلاشى إلى أن اختفى فجأة.

ـ هل كان عدلاً أن ينتهي بهذا الشكل السريع؟

سألتُ طبيبه النفسي الحقير، فأجاب:

ـ وهل ماتَ فعلاً؟

كان كلُّ همِّه أن يضع اللحد على قبر مراد، ويتخلَّص من ملفِّه، أو على الأقلّ ليبرأَ من هواجس أيِّ متابعة قانونيّة محتملة، أجبتُ:

ـ مراد لم يمتْ ولن. . . ذلك الوعل لا يموتُ، يضع دائمًا

Twitter: @ketab_n

حوافره على شفير الهاوية، لكنّه يقاوم إغراءاتها بنزق، لنقل ولو مجازًا إنّ مراد تبخَّر، اكتظّ به الموت فانفجر واستحال إلى كلمات وجمل لن يقوى أيٌّ كان على تأليفها دون خيانته..».

«ولا أنفي كذلك أنّني تورّطتُ في أشياء أخرى بغرض التضخيم من مخاوفه وإضعافه، وتحسيسه كذلك بالخطر الدائم الذي قد يداهمه في أيّة لحظة. فبعد أن قرأتُ في ملفّ طبيبه النفسي أنّ صديقه الوحيد قد قضى نحبه في تفجير إرهابي، ووجدتُ أنّه كان يساريًّا سابقًا، وأنَّ كتاباته فيما بعد كانت تتحرّشُ بالإسلام السياسي علاوة عن أنّه تلقّى بأشكال غير مباشرة تهديدات إرهابيّة، لا تصلُ حدَّ القتل، فقد آثرتُ أن أحرّض عليه شبح الإرهاب، لعلَّ الأمر يكشف لي عن جوانب غير معروفة في شخصيّته، وربّما تمنحني مخاوفه الخيط الرفيع الذي أنفذُ منه إلى أشياء أخرى. الآن أعترف يا حبيبي بالآتي: أنا التي رسمتُ حروف التهديد على صخور الوادي بالطلاء الأحمر، وأنا من قذفتُ ببرقيّة التهديد من الشرفة إلى باب الفندق بعد أن وضعتُ عليها اسمك، فأوصلها إليك حميد، وأنا كذلك من وضعتُ في مذكِّرة حبيبتك قصاصة ورق تحوي تهديدًا، وأنا من استأجرتُ مجرمًا وطلبتُ منه ـ بعد أن أعطيته مفاتيح غرفتنا ـ أن يتحيَّن فرصة غيابك عن الفندق ويقلبها رأسًا على عقب ويشنق أحد كتبك بمسمار فوق دورة المياه ويخطَّ على المرآة بخطّ أحمر تهديدًا آخر. أنا التي من فرْط ما أحببتك اشتهيتكَ بين قدميَّ ضعيفًا، وأنت الذي من فرْط ما جرّحتْك الحياة لم تترك لي مكانًا لأجرحك فيه، فكنتُ أخطُّ جرحًا على جراح أكبر منه، ولم تكن تلتفتُ لي.. لقد جئتَ بي إلى إغرم لا إرضاءً لنفسك بل إرضاء لي، ولا لأؤنسك في منفاكَ الأوّل بل لآنس بك، لم تكن تدري وأنت تغدقُ عليَّ من فيضكَ أنّني أذبحك من حيثُ لا تدري،

Twitter: @ketab_n

ولم أكن أدري وأنا أسندُك على أسنَّة شائكة، أنّني أُذبحُ بك من حيثُ لا أدري..»

«كان من المفترض أن يهرب أو يثور، أو على أقلِّ تقدير أن يُطلع السلطات على تلك التهديدات التي تلقّاها منهم، لكنَّ مراد ظلّ خلف سياج الصمت، وإن كنتُ أقرأ في عينيه خوفًا غير معلن، لكنَّ تلك الرسائل التي تكبّدتُ الأمرّين من أجل الحصول عليها لم تغيِّر فيه شيئًا، كأنّما كان يتوقّعها، كأنّما كان يعتقد أنَ الأمر سيصل بهم حدَّ إهدار دمه، لذلك كان يستقبل الرسالة تلو الأخرى ببرود كأنَ الأمر لا يتعلَّق بجريمة قتل عن سبق التهديد والترصُّد، ظلّ متماسكًا لا يصرِّح ببنت شفة فيما يتعلَّق بالموضوع، ربّما من كثرة ما تمنّى الموت لم يعد يبالي بأيِّ ثوب سيأتيه به. فيه من الشجاعة واليأس ما يكفي ليواجه أعداءَه بصدر عار، ما دام يرى فيهم خلاصًا له. هزمني، لأنّه دون أن يدري إذْ قزَّم دوري في الحكاية وحرمني من لذّة تقمّص دور شهريار كاملاً».

«مارستُ معك كلَّ الخيانات الممكنة، وكان الأمر على جنونه مؤشّرًا هامًّا على أنَّ الكتابة أفقدتني صوابي. هكذا خنتك أيّها الوعل وخنتُ بك، لستُ أدري أيّهما أشدُّ وطأة أن أخون زوجي مع حبيبي أم أخون حبيبي مع زوجي؟!! عندما تتداخل حياتنا بمشاريع الكتابة عادة ما نصاب بعمى الوفاء، بل وتلتبس الأمور أكثر ممّا ينبغي وتشتدُّ أزماتنا الداخليّة دون أن يلوح في الأفق خيط أمل ولو كان زائفًا».

في تلك الليلة، التي لا أزال أذكر أدقّ تفاصيلها وأستعيدها المرّة تلو الأخرى، كنتُ أفيق على أشواك الانتظار، انتظار انهيار مراد. لكنّه خلافًا لما كان متوقّعًا لم يسقط بل انتفض جسده ولم ينصدع. حين اكتشفتُ فيما بعد أنّه اكتشف الحقيقة تأكّدتُ أنَّه هزم موته في تلك

Twitter: @ketab_n

الليلة برغبته العارمة في استنزاف الحياة، وأنّه بادر موته بانتحار نفسي استباقي».

«في الليلة الأخيرة، كنتُ أحتفي بجريمتي على طريقتي الخاصّة. بعد أن أعددتُ مراد على نار هادئة، قلتُ: ما هي إلّا ضربة أخيرة ويبوح.. ما هي إلّا حقنة وتنصهر عوالمه الباطنيّة ويتبدّد ويتلاشى في سديم من الهلوسات، التي ستجعل أسراره العميقة تتدفّق، لكنّ شيئًا من ذلك لم يكن. كان الأمر مخالفًا لمنطق الطبّ النفسي، فتأكّدتُ ليلتها أنّني انهزمتُ، وأنّني كأيٍّ مقامر مفلس قد فقدتُ كلَّ شيء، أضعتُ مراد إلى الأبد وفشلتُ في رهاني الروائي الكبير، وأنّني لا أملك الآن سوى إعادة كتابة هزيمتي على يد رجل شرقي..

أحببتُ مراد ولذلك قتلته... لا، لم يكن الأمر بهذا الشكل! كان أعقد بكثير..

من هو مراد؟ وماذا يعني بالنسبة لي؟

في البداية، وكلّ البدايات عادة تكون عن حسن نيّة، كاتبة شابّة كنتها، ولكنّني قبلها كنتُ طفلة، وكجميع أطفال أوروبا كانت تشحذ ذهني تلك الحكايات الكثيرة التي تصرُّ على كون الغرب سرَّة الكون، وأنّه لا يوجد خارجها سوى وحوش بشريّة تعيش على الأكل والظلم والجنس. جئتُ إلى هذه البلاد بمنطق أنّني سأجد القليل ممّا زرعته فيَّ تلك المرويّات.. ظننتُ مثلاً أنّني سأجد شهريار يفترش الحرير والنساء، ولا يستيقظ إلّا على جثّة إحداهنّ، لكنّني وجدته مخلوعًا عن عرشه ومخذولاً.. خلعتكَ عن عرشك إحداهنَّ حين أنجتك ورمتكَ وخذلتك بعدها الحياة يا مراد، يا شهرياري. أمّا عنّي، فقد تقمّصتُ دور شهرزاد مقلوبًا. فبدل أن أحكي شرعتُ في استنطاق حكايتك،

Twitter: @ketab_n

وبدل أن أكون أنا المهدّدة بالقتل دائمًا كنت أنت المهدِّد.. لكنّك يا حبيبي لم تتنازل عن فحولة شهريار، مثلما لم أتنازل عن أدبيَّة شهرزاد.. كلّ منّا كان يتحرّش بهذه الحكاية الباذخة على وجه يناقضها.

في الوجع الأوّل بعد الألف أو على الأقلّ بعده بقليل، سأكتبك بعيدًا عن شهرزاد، لن أقول عنك أشياء كثيرة. سأترك للقرّاء فراغات جمَّة لكي لا يفهموا عنك أكثر من كونك شبحًا أو ظلًّا. أحبّك في كلِّ الفجوات الكبيرة التي سأزرعها في الحكاية، وكي يبقى لحياتك وغيابك معنى، لا بدّ أن تستحيل من رجل حقيقي إلى كلمات، ومن كلمات إلى فراغات فجّة!

لكن كيف ذلك؟

لا حرف فيك يطاوعني. كلُّ كلّمة، كلُّ عبارة أحسّها أصغر منك بكثير، أشعر أنّها لا تستحقّك، وكلَّما هممتُ بكتابتك، أحسستُ أنّني أكتبُ عن رجل آخر، فأمزِّق الورقة وأنصرف إلى شأن آخر. أحبّك، وها أنت تنتصر عليَّ مرَّة أخرى بعد سنوات، تنتصر بلا مبالاة وبلا غرور تمامًا كما تفعل حين تحقّق فتحًا جسديًّا على السرير. تواضُعك وصمتك الذي يضمرُ ضجَّة ليس بمقدور أيٍّ كان تحمّلها هزماني...».

«الحبّ كلمة عادة ما تطرح إشكالات على قدر كبير من التعقيد، حين نكون بصدد تحديدها أو وصفها. الحبّ حالة ملتبسة جدًّا، ما الذي يجذبنا نحو شخص بعينه؟ أيُّ قوّة عنيفة تدفعنا ببلاهة بريئة صوبه؟ عادة ـ وكان الأمر قبل أن ألتقي مراد طبعًا ـ كنتُ أعتقد جازمة أنَّ ما يوحِّد شخصين ويسمّونه الحبَّ لا يعدو أن يكون مجرّد

Twitter: @ketab_n

كذبة متّفق عليها تتحوّل مع زمن من الألفة إلى وهم جميل يستلذه العاشقان، فتصير الأشياء بينهما بحكم هذا الأمر مجرّد افتعال احتفاليّ يصطنعه اعتياد كلّ طرف على حضور الطرف الآخر. أمّا ما كان بيني وبين مراد، فلم يكن في هذا من شيء، ولم أعشقه بحكم الألفة بل بحكم الغرابة.. لذلك يحقُّ لي بعد أن جرت سنوات بينا، وبعد أن عرفتُ بعده الكثير من الرجال، قلتُ. يحقُّ لي أن أتوِّجه حبًّا حقيقيًّا، لكنّه غير كامل وإلّا كان أسطورة، كان حبًّا من طرفي وحسب ولم يكن الأمر يضيرني في شيء، لأنّ الحبّ ـ كما صرّحتْ حبيبته في مذكّرتها ـ مسألة شخصيّة وليستْ بالضرورة تشاركيّة ولعلَّ الأمر بالنسبة لي كان على قدر كبير من الإثارة والغرابة أيضًا. الغريب أنّني لم أعشقه بمنطق الشفقة رغم أنّ أسبابها كلّها كانت مجتمعة فيه، لم أشفق على حاله قطُّ ـ ولعلَّ خوفه من ذلك هو الذي دفعه إلى التشرنق على نفسه.. حياته بالقدر الذي كانت فيه حزينة، كانتْ عظيمة وعبئًا ثقيلاً على الدنيا، عشقته لأنّني مذ عرفته أحسستُ أنّه رجل فارٌّ من بين دفّتيْ كتاب، كانت تصرّفاته وطباعه وانفعالاته وكأنّها تحاكي عبارات رواية ما، كلُّ ما فيه كان يحرِّض على اقتراف جريمة كتابة، لذلك كنتُ معه دائمة الدهشة، مع كلّ حركة، كلّ خزرة، كلّ رعشة سيجارة تحتضر بين أصابعه كانت الكلمات تنزل عليَّ دافئة. وكانت تكتبُ داخلي فصول روايةٍ بحالها بمجرّد التأمّل في عينيه الصافيتين والمتعبتين.

أأقول أُحبّك يا مراد؟ نعم، ولا زلت. فالحبّ مسألة شخصيّة، لا فرق فيها بين وجودك أو عدمه..

أأقول أحبّك يا ملاكي الشارد؟ بعد ماذا؟ بعد أن عبّرتُ لك عن هذا الحبّ بطريقة ساديّة، أم بعد أن اقتدتك إلى أشدّ مسالك الحياة وحشة.. وأضعتك؟!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تكتب جوليا، العشيقة الفرنسيّة، حكاية مراد، المغربيّ، اللقيط والملعون من قِبل أهل القرية التي وجدوه فيها فنُبِذَ وأُسِيء إليه بالإهانة والضرب، فلجأ مراد إلى العشق كمحاولة للانتقام من القدر: عشقِ خولة التي تحمل منه، عشقِ «نضال» زميلته في الدراسة والعمل النضاليّ، عشقِ جوليا المُسْتَعْمِرَة، وعشقِه الأَخيرِ لنوميديا، الأمازيغيّة الخرساء...

رواية ثريّة بالحكايات التي تنفتح على واقع تاريخيّ وسياسيّ — دينيّ في المغرب.

طارق بكاري، كاتب مغربيّ وأستاذ أدب عربي.

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف رغم الجندي

ISBN: 978-9953-89-481-2